(٣٥ درس)

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الكهف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

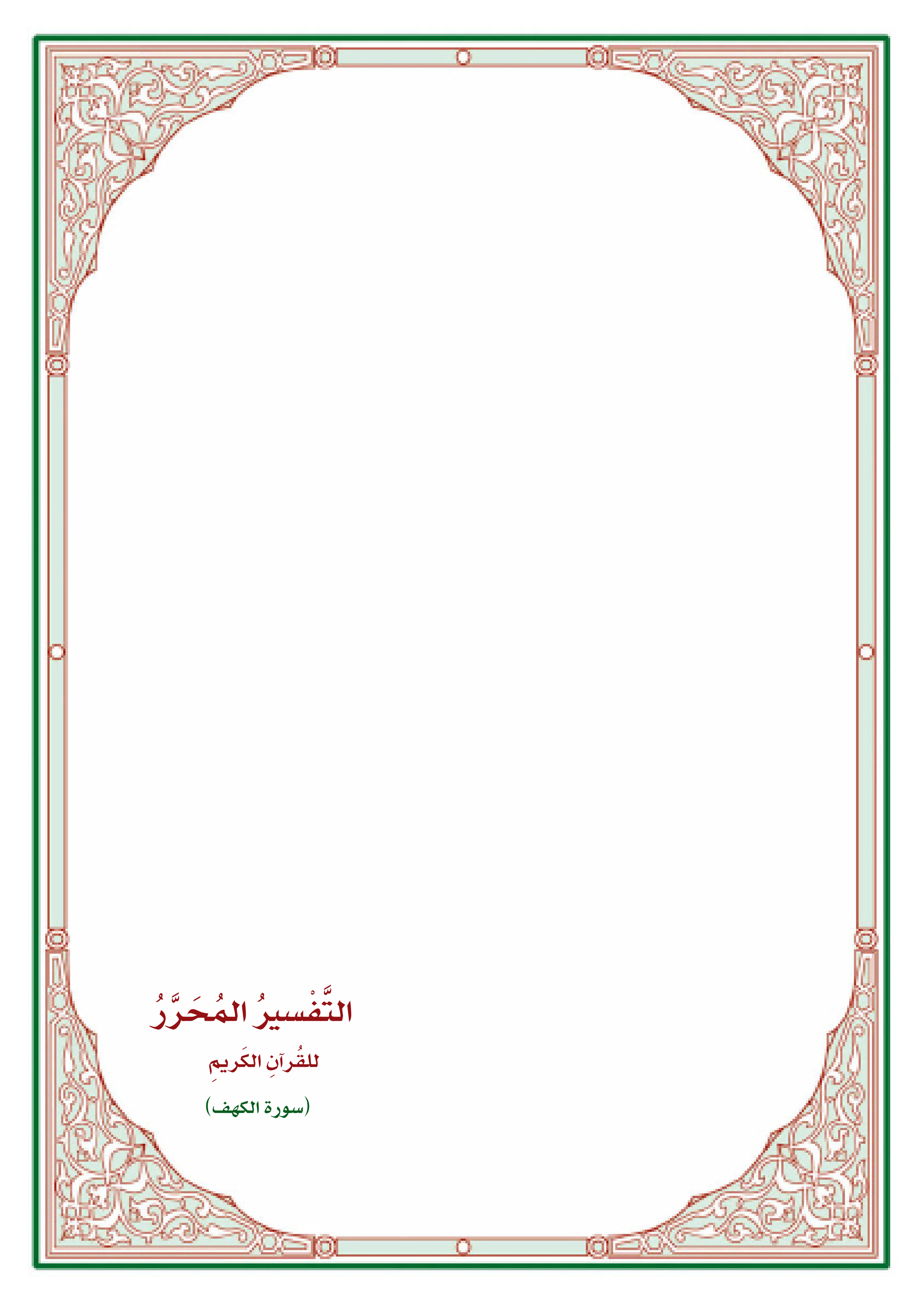
الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس عشر

الدرر السنية
www.dorar.net





التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الكهف)



ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر: المجلد الخامس عشر: سورة الكهف/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٣٩هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٦٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الكهف – تفسير　　أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦　　١٤٣٩/٨٧٨٠

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٨٧٨٠

ردمك: ٣-٦٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ -بريدإلكتروني nashr@dorar.net



التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الكهف)

إعدادُ

القِسمِ العِلمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

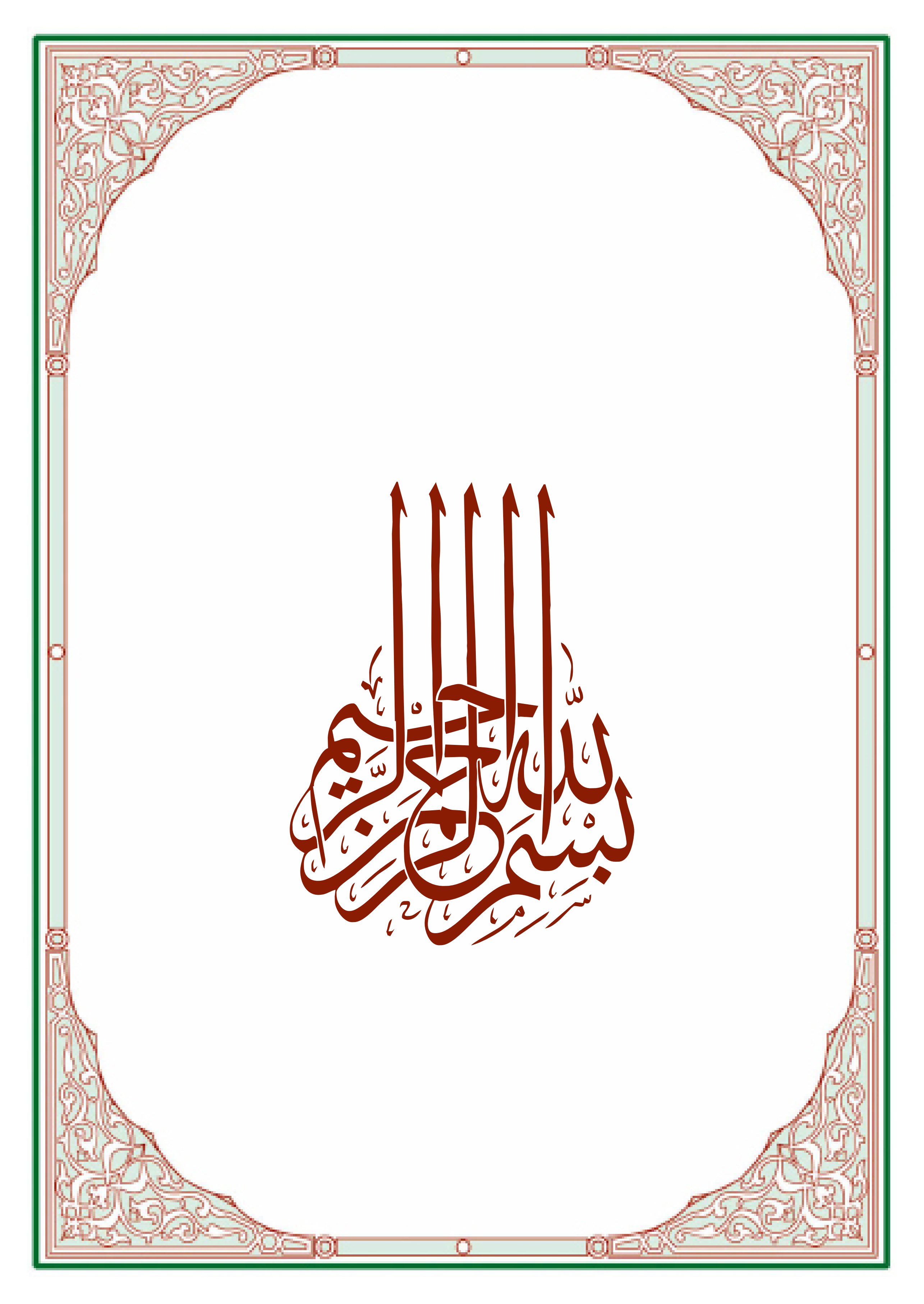
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الخامس عشر




بسم الله الرحمن الرحيم



تَفْسِيرُ
سُورَةِ الكَهفِ







سورةُ الكَهفِ

أسماءُ السُّورةِ:

وردَ لهذه السورةِ اسمانِ:

١- سورةُ الكَهفِ[١]:

فعن النَّوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((ذَكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...))، وفيه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فمَن أدْرَكه منكم، فلْيَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهفِ))[٢].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ[٣] سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ))[٤].

٢- سورةُ أصحابِ الكَهفِ:

فعن النَّوَّاسِ بن سِمْعانَ رضي الله عنه، قال: ((ذكَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...))، وفيه قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فمَن رآه

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الكهفِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ بتَفصيلِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

(٣) قال ابنُ القيم: (واختُلِفَ فيه، فقال بعضُ الرواة: «مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ»، وقال بعضُهم: «مِن آخرِها»، وكلاهما في الصحيح، لكنَّ الترجيحَ لِمن قال: «من أوَّلِ سورة الكهفِ»؛ لأنَّ في «صحيح مسلم» من حديث النوَّاسِ بنِ سِمعانَ في قصَّةِ الدجَّالِ: «فإذا رأيتُموه، فاقرَؤوا عليه فواتِحَ سورةِ الكهفِ»، ولم يُختَلَفْ في ذلك، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن روى العشرَ مِن أوَّلِ السورة حَفِظَ الحديثَ، ومن روى من آخِرِها لم يحفَظْه). ((جلاء الأفهام)) (١/ ٣٢٤)، ويُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (٢/ ١٢٤)، و (٦/ ٣١٤).

(٤) أخرجه مسلم (٨٠٩).

منكم، فليَقرأْ فواتِحَ سُورةِ أصحابِ الكَهفِ))[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- أنَّ قِراءةَ سُورةِ الكَهفِ سَبَبٌ لِنُزولِ السَّكينةِ:

فعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنهما: ((قرأ رجلٌ الكَهفَ وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فجعَلَت تَنفِرُ، فسَلَّمَ، فإذا ضبابةٌ أو سَحابةٌ غَشِيَته، فذكَرَه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: اقرأْ فلانُ؛ فإنَّها السكينةُ نَزَلت للقُرآنِ، أو تنزَّلَت للقُرآنِ))[٢].

٢- حِفظُ عَشرِ آياتٍ مِن سورةِ الكهفِ عِصمةٌ مِن الدجَّالِ:

فعن النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((ذَكَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...))، وفيه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فمَن أدْرَكه منكم، فليَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكَهفِ))[٣].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ))[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٤٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٧٨٣).
قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ غريبٌ). وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٢٤٠).
والحديث أصله في مسلم (٢٩٣٧) دون لفظة «أصحاب».

(٢) رواه البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) تقدَّم تخريجه.
وسببُ قراءةِ عشرِ آياتٍ مِن أوَّل سورةِ الكهفِ على الدجَّالِ، وكونِها عصمةً منه، فيه أوجهٌ:
منها: ما في قصةِ أصحابِ الكهفِ مِن العَجَبِ والآياتِ، فمَن عَلِمَها لا يَستغرِبُ أمرَ الدَّجالِ، ولا يُفتَنُ به.
ومنها: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: ٢] يُهوِّن بأسَ الدجالِ، وقولَه:

٣- أنها من السُّورِ العَتيقةِ، ومن قديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ:

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: (سورةُ بني إسرائيل والكهف، ومريم وطه والأنبياء: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[(١)]، وهُنَّ مِن تِلادي[(٢)])[(٣)].

٤- أنَّها كُلَّها مُحكَمةٌ:

وقد نُقل الإجماعُ على أنَّه ليس فيها مَنسوخٌ[(٤)].

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢- ٣] يُهَوِّنُ الصبرَ على فتنِ الدجالِ بما يُظهِرُ مِن نعيمِه وعذابِه، وقولَه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] وقولَه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] يذمُّ فيهما مَن يدَّعي لله ولدًا، ولا مثلَ له، فكيف يدَّعي الإلهيةَ مَن هو مثلٌ للخلقِ. فقد تضمَّنت الآياتُ ما يصرفُ فتنةَ الدجَّالِ، إلى قولِه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ...﴾ [الكهف: ١٠] فهؤلاء قومٌ ابتُلوا فصَبَروا وسألوا صلاحَ أمورِهم فأُصْلِحت، وهذا تعليمٌ لكلِّ مَدعوٍّ إلى الشِّركِ.
ومنها: أنَّه قد يكونُ هذا من خصائصِ اللهِ لمن حَفِظ ذلك.

يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ١٧٧)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٦٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩٣).

(١) العِتاق الأُوَل: أي: السُّوَر التي أُنزِلت أوَّلًا بمكةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

(٢) تِلادي: أي: مِن أوَّل ما أخذْتُه وتعلَّمْتُه بمكةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لابن سلامة المقري (ص: ١١٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٤)، لكنْ خالف السُّدِّي وقال: إنَّ فيها آيةً واحدةً منسوخةً، وهي قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾ [الكهف: ٢٩]، قال: نسخَها قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. ونَسَبه ابنُ حزمٍ إلى قتادةَ أيضًا.

قال أبو الحسنِ السخاوي: (والذي قاله باطلٌ، والمرادُ التهديدُ لا التخييرُ، ولو فُرِضَ ما قاله لم يكُنْ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] مُعارِضًا له). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (ص: ٤٣٠).

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الكَهفِ مَكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[1].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السورة:

تصحيحُ العقيدةِ، وتصحيحُ مَنهجِ الفِكرِ والنَّظَرِ، وتصحيحُ القِيَمِ بميزانِ العقيدةِ.

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- ذِكْرُ حَمدِ الله تعالى على إنزالِه الكتابَ على عَبدِه، ووصفُ هذا الكتابِ بأنَّه قيِّمٌ لا عوجَ فيه، جاء للتبشيرِ والإنذارِ.

٢- بيانُ أنَّ ما على ظهرِ الأرضِ هو زينةٌ لها، جعَله الله اختبارًا وابتلاءً.

٣- ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ.

٤- ذِكرُ فِتنةِ المالِ بذِكرِ خَبَرِ قِصَّةِ صاحِبِ الجنَّتَينِ.

---

(١) ممن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٩٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٤٠).

قال ابنُ الجوزي: (وهذا إجماعُ المفسِّرينَ مِن غيرِ خلافٍ نعلمُه، إلَّا أنَّه قد رُوي عن ابنِ عباسٍ وقتادةَ أنَّ فيها آيةً مدنيةً وهي قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ...﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٣).

وقيل: مِن أوَّلِها إلى قولِه تعالى: ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ مدنيٌّ. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ إلى آخرِ السُّورَةِ [١٠٧- ١١٠] مدنيٌّ، وباقي السورةِ مكيٌّ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦١).

٥- ضَربُ المَثَلِ للحياةِ الدُّنيا بما يدُلُّ على فَنائِها وذَهابِ زُخرُفِها.

٦- ذِكرُ شَيءٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ.

٧- بيانُ عَداوةِ إبليسَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِه، وفِسقِه عن أمرِ رَبِّه.

٨- بيانُ سُنَّةِ اللهِ في إهلاكِ الظَّالمينَ، ورحمةِ اللهِ وإمهالِه للمُذنبينَ إلى أجَلٍ مَعلومٍ.

٩- قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ مع العبدِ الصَّالحِ.

١٠- قِصَّةُ ذي القَرنَينِ.

١١- إبطالُ الشِّركِ ووعيدُ أهلِه، وبيانُ ما أعدَّ الله للمؤمنينَ.

١٢- التَّمثيلُ لِسَعةِ عِلمِ الله تعالى، وبيانُ أنَّ القرآنَ وَحيٌ مِن الله تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم.



الآيات (١-٦)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِوَجَا﴾: أي: زَيغًا وتَحريفًا، وأصْلُ (عوج): يدلُّ على المَيلِ في الشَّيءِ[1].

﴿قَيِّمًا﴾: أي: مُستَقيمًا، أو مُقَوِّمًا لأمورِ مَعاشِهم ومَعادِهم، وأصلُ (قوم): يَدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[2].

﴿كَبُرَتْ﴾: أي: عَظُمَت، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[3].

﴿بَٰخِعٌ﴾: أي: قاتِلٌ ومُهلِكٌ، وأصلُ (بخع): يَدلُّ على الجَهدِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧١).

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾: أي: مِن بَعدِ تَوَلِّيهم وإعراضِهم عنك، يقال: جئتُ على أثرِ فلانٍ، كأنَّ المرادَ أثرُ سلوكِه الطريقَ، ثم استعمل بمعنى (بَعْدَ)، فيُقال: مات فلانٌ على أثرِ فلانٍ، أي: بعدَه، وأصلُه من الأثَرِ: الذي هو العَلامةُ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ * قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ...﴾

قولُه: ﴿قَيِّمٗا﴾: في نصبِه أوجهٌ، أحدُها: أنَّه حالٌ مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾ اعتراضٌ بينهما. الثاني: أنَّه حالٌ مِن الهاءِ في ﴿لَّهُۥ﴾. الثالث: أنَّه منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، تقديرُه: (جعَلَه أو: أنزله قيِّمًا)، وجملتُه مستأنفةٌ. الرابع: أنَّه حالٌ ثانيةٌ، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾ حالٌ أيضًا، والتقديرُ: أنزَله غيرَ جاعلٍ له عوجًا، قيمًا[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾

قوله: ﴿كَلِمَةٗ﴾: تمييزٌ منصوبٌ، والفاعلُ مُضمَرٌ، أي: كبُرَت مقالتُهم[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتحًا هذه السورةَ بالثناءِ على نفسِه: الحَمدُ لله الذي أنزل على عَبدِه ورَسولِه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُرآنَ، ولم يَجعَلْ فيه زيغًا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٦٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٤٠).

أو ميلًا عن الحَقِّ، أنزله مُستَقيمًا، قائِمًا على مَصالِحِ العِبادِ، مُهيمِنًا على سائِرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مُصَدِّقًا لها، وشاهِدًا بصِحَّتِها؛ لِيُنذِرَ به الكافِرينَ عذابًا شديدًا مِن عِندِه، ويُبَشِّرَ المُؤمِنينَ الذين يَعمَلونَ الأعمالَ الصَّالِحاتِ بأنَّ لهم ثوابًا جَزيلًا، وهو الجَنَّةُ، مقيمينَ في هذا الثوابِ لا يُفارِقونَه أبدًا، ويُنذِرَ به كذلك الكافِرينَ الذين قالوا: اتَّخذَ اللهُ وَلَدًا، ما لهؤلاء المُشرِكينَ شَيءٌ مِن العِلمِ على ما يَدَّعونَه لله مِن اتِّخاذِ الوَلَدِ، كما لم يكُنْ لآبائِهم الجاهِلينَ.

ثمَّ ذمَّهم الله تعالى ذمًّا شديدًا على قولِهم هذا، فقال: عَظُمَت هذه المَقالةُ الشَّنيعةُ كلمةً تَخرُجُ مِن أفواهِهم، ما يَقولُونَ إلَّا قَولًا كاذِبًا.

ثم قال تعالى مسليًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن حزنٍ بسببِ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الحقِّ: فلعَلَّك -يا محمَّدُ- قاتِلٌ نَفسَك غمًّا وحُزنًا على تولِّي هؤلاء وإعراضِهم عنك، إنْ لم يُصَدِّقوا بهذا القُرآنِ ويَعمَلوا به!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: الحَمدُ لله الذي أنزَلَ على عَبدِه مُحَمَّدٍ القُرآنَ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩).

قال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ محبةً وتعظيمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧).

وقال السعدي: (﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناءُ عليه بصفاتِه، التي هي كلُّها صفاتُ كمالٍ، وبنعمِه الظاهرةِ والباطنةِ، الدينيةِ والدنيويةِ، وأجلُّ نِعَمِه على الإطلاقِ إنزالُه الكتابَ العظيمَ على عبدِه ورسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢).

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

أي: أنزَلَه على عَبدِه والحالُ أنَّه لم يَجعَلْ فيه أيَّ نَوعٍ مِن المَيلِ والزَّيغِ عن الحَقِّ، والتَّناقُضِ والاختِلافِ، والخللِ في ألفاظِه ومَعانيه؛ فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾.

﴿قَيِّمًا﴾.

أي: أنزله مُستَقيمًا(٢)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٢).

قال ابنُ عُثَيمين: (يجِبُ الوقوفُ على قَولِه: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾؛ لأنَّك لو وَصَلْتَ لصار في الكلامِ تناقُضٌ؛ إذ يُوهِمُ أنَّ المعنى لم يكُنْ له عِوَجٌ قَيِّمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩). ويُنظر: ((المكتفى في الوقف والابتدا)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٢٤)، ((إيضاح الوقف والابتداء)) لأبي بكر الأنباري (٢/ ٧٥٦).

(٢) ممَّن اختار مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ ﴿قَيِّمًا﴾ تعني مُستَقيمًا: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وابنُ كثير، والشنقيطي -ونَسَبه للجمهورِ-، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠-١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩).

قائِمًا على مَصالِحِ العِبادِ في دِينهم ودُنياهم[1]، مُهيمِنًا على سائِرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مُصَدِّقًا لها، وشاهِدًا بصِحَّتِها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ على عَبْدِه الكِتابَ المَوصوفَ بهذه الصِّفاتِ المَذكورةِ؛ أردَفَه ببَيانِ ما لأجْلِه أنزَلَه[3].

ومِمن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠).

(١) ومِمَّن اختار أنَّ المرادَ: قائمًا على هَدْيِ الأُمَّةِ، ومصالحِ العبادِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة: الرازي، وأبو السعود، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٢-٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٨).

وذكَر الشنقيطي أنَّ هذا الوجهَ يستلْزِمُه الوجهُ الآتي، وهو أنَّه قَيِّمٌ على ما قبلَه مِن الكتبِ السَّماوِيَّةِ، أي: مهيمِنٌ عليها. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٢).

ومِمن جمَع بينَ المعاني المذكورة: البقاعي، فقال: (﴿قَيِّمًا﴾ تصريحًا باللازمِ؛ تأكيدًا له، ومفيدًا أنَّه مهيمنٌ على ما قبلَه مِن الكتبِ، مقيمٌ لغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤).

قال الرسعني: (قال أكثرُ العلماءِ باللغةِ والتفسيرِ: في هذه الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ، التقديرُ: أنزَل على عبدِه الكتابَ قيمًا، ولم يجعلْ له عوجًا). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٣).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: ليس في الكلامِ تقديمٌ ولا تأخيرٌ، ومنهم: الرازي، والسمين الحلبي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٣).

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾.

أي: أنزَلَ اللهُ القُرآنَ على نَبيِّه مُحَمَّدٍ؛ لِيُنذِرَ(١) الكافِرينَ عَذابًا شَديدًا في الدُّنيا والآخِرةِ، يأتيهم مِن عِندِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾.

أي: وأنزَلَ اللهُ القرآنَ على نَبيِّه؛ لِيُبَشِّرَ(٣) المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه وبِكُلِّ ما يَجِبُ عليهم الإيمانُ به، وقد صَدَّقوا إيمانَهم بقِيامِهم بالأعمالِ الصَّالِحةِ؛ يُبَشِّرُهم بأنَّ لهم ثَوابًا عَظيمًا جَميلًا، وهو الجنةُ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

---

(١) قال ابنُ عُثَيمين: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ عائِدًا على ﴿عَبۡدِهِ﴾، ويَحتمِلُ أن يكونَ عائِدًا على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وكلاهما صحيحٌ؛ فالكتابُ نزَل على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأجْلِ أن يُنذِرَ به، والكِتابُ نفسُه مُنذِرٌ، يُنذِرُ النَّاسَ...، والإنذارُ: هو الإخبارُ بما يُخَوِّفُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠).

(٣) قال ابنُ عثيمين: (التبشيرُ: الإخبارُ بما يسرُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩- ١٠].

﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم باقُونَ في الأجرِ الحَسَنِ الذي أعَدَّه اللهُ لهم، بلا زَوالٍ ولا انقِطاعٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الغالبُ على الإنسانِ المخالَفةَ للأوامِرِ؛ لِما جُبِلَ عليه من النقائِصِ- كان الإنذارُ أهمَّ، فأعاده لذلك، ولأنَّ المقامَ له؛ تبكيتًا لليهودِ المضِلِّين لهؤلاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢).

وقال السعدي: (... فهذا الأجرُ الحَسَنُ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ لا يزولُ عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمُهم في كُلِّ وقتٍ مُتزايدٌ، وفي ذكرِ التبشيرِ ما يقتضي ذِكرَ الأعمال الموجِبة للمُبَشَّر به، وهو أنَّ هذا القرآنَ قد اشتمل على كلِّ عملٍ صالحٍ موصِلٍ لِما تستبشرُ به النفوسُ، وتفرَحُ به الأرواحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠).

العرَبِ ولِمن قال بمقالتِهم[١].

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾.

أي: ويُنذِرَ الكافِرينَ -الذينَ قالوا: اتَّخذ اللهُ لِنفسِه ولَدًا- عَذابَه الشَّديدَ في العاجِلِ والآجِلِ[٢].

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ﴾.

أي: ما للقائِلينَ بذلك أيُّ شَيءٍ مِن العِلمِ بأنَّ اللَّهَ اتَّخذَ لنَفسِه ولَدًا، ولا لآبائِهم الجاهِلينَ مِن قَبلِهم الذين قالوا بمِثلِ قَولِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ * فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

أي: عَظُمَت كَلِمتُهم هذه كَلِمةً تخرُجُ مِن أفواهِهم، بقَولِهم: اتَّخذَ اللهُ وَلَدًا،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣).
قال ابن جرير: (فلِجَهْلِهم باللهِ وعَظَمتِه قالوا ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٧).

فما أشنَعَها مِن مَقالةٍ، وما أفظَعَ اجتِراءَهم على التلَفُّظِ بها[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١].

﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

أي: ما يَقولُ القائِلونَ بنِسبةِ الوَلَدِ إلى اللهِ إلّا كَذِبًا على اللهِ تعالى؛ فهو قَولٌ مُنافٍ للصِّدقِ، مُخالِفٌ للواقِعِ، لا حَقيقةَ له بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ[(٢)].

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾.

أي: فلعلَّك[(٣)] -يا مُحَمَّدُ- قاتِلٌ نَفسَك ومُهلِكُها؛ لشِدَّةِ الحزنِ بعدَ تَولِّيهم وإعراضِهم عنك، إن لم يُؤمِنوا بهذا القُرآنِ الذي أنزلتُه عليكَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٥).

(٣) (لعل) للترجِّي في المحبوبِ، وللإشفاقِ في المحذورِ. قيل: وُضِعَت هنا موضِعَ النَّهي، فالمعنى: لا تبخَعْ نَفسَك. وقيل: وُضِعَت موضِعَ الاستفهامِ، وتقديرُه: هل أنت باخِعٌ نفسَك؟ وقيل: هي تقريرٌ وتوقيفٌ بمعنى الإنكارِ عليه، أي: لا تكُنْ كذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٩، ١٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣، ٧٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٦).

ممن اختار أنَّ معنى الأسفِ: الحزنُ الشديدُ: الزمخشري، والرازي، والرسعني، والشنقيطي،

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٨٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خبرٌ مِن الله تعالى أنَّه حمِد نفسَه، وفي ضمنِه إرشادُ العبادِ ليحمَدوه على إرسالِ الرسولِ إليهم،

وابنُ عاشور. ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٥).

قال ابنُ عطية: (و«الأسفُ» في هذا الموضعِ: الحزنُ، لأنَّه على مَن لا يملكُه، ولا هو تحتَ يدِ الآسفِ، ولو كان الأسفُ مِن مقتدرٍ على مَن هو في قبضتِه وملكِه لكان غضبًا، كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضَبونا، وإذا تأملت هذا في كلامِ العربِ اطَّرد، وذكَره منذرُ بنُ سعيدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٦).

وقيل: ﴿أَسَفًا﴾: أي: غضبًا وحزنًا. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢).

وقال الواحدي: (والقولانِ متقاربان؛ لأنَّ الغضبَ مِن الحزنِ؛ والحزنَ مِن الغضبِ، فإذا جاءك ما تكرهُ ممَّن هو دونَك غضِبت، وإذا جاءك ممَّن هو فوقَك حزِنت، يسمَّى أحدُهما: حزنًا، والآخرُ: غضبًا، وأصلُهما أن يصيبَك ما تكرهُ). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٦). وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧).

وإنزالِ الكتابِ عليهم(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا﴾ ذكَرَ نَفيَ العَيبِ أوَّلًا، فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ثمَّ إثباتَ الكَمالِ ثانيًا، فقال: ﴿قَيِّمًا﴾، فـ«التَّخليةُ قَبلَ التَّحليةِ»، يعني: قبل أن تُحَلِّيَ الشَّيءَ أخْلِ المَكانَ عَمَّا يُنافي التحَلِّيَ، ثُمَّ حَلِّه(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُفيدُ أنَّه لا بدَّ مع الإيمانِ مِن العَمَلِ الصَّالحِ، فلا يكفي الإيمانُ وَحْدَه، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالِحٍ؛ ولهذا قيلَ لبَعضِ السَّلَفِ: (أليس مِفتاحُ الجنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟ يعني: فمَن أتى به فُتِحَ له، قال: بلى، ولكِنْ هل يَفتحُ المِفتاحُ بلا أسنانٍ؟!)(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ذِكْرُ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ استِحقاقَ ذلك الأجرِ بحُصولِ هَذينِ الأمرَينِ(٤).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ قَولُه في هذه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بَيَّنَت المرادَ به آياتٌ أُخَرُ، فدَلَّت على أنَّ العَمَلَ لا يكونُ صالِحًا إلَّا بثلاثةِ أُمورٍ:

الأوَّلُ: أن يكونَ مُطابِقًا لِما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكُلُّ عَمَلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠).

والأثرُ علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) عن وهبِ بنِ منبِّهٍ في (كتاب الجنائز)، (الباب الأول قبل حديث رقم (١٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٠).

مُخالِفٍ لِما جاء به صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، فليس بصالحٍ، بل هو باطِلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثَّاني: أن يكونَ العامِلُ مُخلِصًا في عملِه لله فيما بينَه وبينَ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى * فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١١- ١٥]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثَّالِثُ: أن يكونَ العملُ مَبنيًّا على أساسِ الإيمانِ والعَقيدةِ الصَّحيحةِ؛ لأنَّ العملَ كالسَّقفِ، والعَقيدةَ كالأساسِ؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧]، فجعل الإيمانَ قَيدًا في ذلك[1].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ في هذه الآيةِ ونَحوِها عِبرةٌ؛ فإنَّ المأمورَ بدُعاءِ الخَلقِ إلى اللهِ عليه التَّبليغُ والسَّعيُ بكُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إلى الهِدايةِ، وسَدِّ طُرُقِ الضَّلالِ والغَوايةِ، بغايةِ ما يُمكِنُه، مع التوكُّلِ على اللهِ في ذلك، فإنِ اهتَدَوا فبها ونِعْمَتْ، وإلَّا فلا يَحزَنْ ولا يأسَفْ؛ فإنَّ ذلك مُضعِفٌ للنَّفسِ، هادِمٌ للقُوَى، ليس فيه فائِدةٌ، بل يَمضِي على فِعْلِه الذي كُلِّفَ به وتَوَجَّه إليه، وما عدا ذلك فهو خارِجٌ عن قُدرتِه، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ اللهُ له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٦).

[القصص: ٥٦]، وموسى عليه السَّلامُ يقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥] الآية، فمَن عداهم مِن بابِ أَولى وأَحرى؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1] [الغاشية: ٢١- ٢٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لَمَّا كان المُرادُ وَصفَ جُملةِ الكِتابِ بالإعجازِ مِن غيرِ نَظَرٍ إلى التَّفريقِ والتَّدريجِ، عَبَّرَ بالإنزالِ دونَ التَّنزيلِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ رَتَّبَ استِحقاقَ الحَمدِ على إنزالِه؛ تَنبيهًا على أنَّه أعظَمُ نَعْمائِه؛ وذلك لأنَّه الهادي إلى ما فيه كَمالُ العِبادِ، والدَّاعي إلى ما به يَنتَظِمُ صَلاحُ المَعاشِ والمَعادِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خَصَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالذِّكرِ؛ لأنَّ إنزالَ القُرآنِ عليه كان نِعمةً عليه على الخُصوصِ، وعلى سائِرِ النَّاسِ على العُمومِ[4].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ في وَصْفِه بالحُسنِ دَلالةٌ على أنَّه لا مُكَدِّرَ فيه ولا مُنَغِّصَ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ إذ لو وُجِدَ فيه شَيءٌ مِن ذلك لم يكُنْ حُسنُه تامًّا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢-٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٦٩).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجَلَّ ثوابَ الأعمالِ أجرًا؛ لأنَّها في مُقابلةِ العَمَلِ، وهذا مِن عَدْلِه جَلَّ وعَلا؛ أن يُسَمِّيَ الثَّوابَ الذي يُثيبُ به الطَّائِعَ أجرًا؛ حتى يَطمَئِنَّ الإنسانُ لِضَمانِ هذا الثَّوابِ؛ لأنَّه مَعروفٌ أنَّ الأجيرَ إذا قام بعَمَلِه فإنَّه يَستَحِقُّ الأجرَ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: ٢]، والمعطوفُ يغايِرُ المَعطوفَ عليه؛ فالأوَّلُ عامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن استَحَقَّ العذابَ، والثَّاني خاصٌّ بمن أثبَتَ للهِ ولَدًا، وعادةُ القرآنِ جاريةٌ بأنَّه إذا ذَكَرَ قَضيَّةً كُلِّيَّةً عَطَفَ عليها بعضَ جُزئيَّاتِها؛ تَنبيهًا على كَونِه أعظَمَ جُزئيَّاتِ ذلك الكُلِّيِّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فكذا هاهنا العَطفُ يَدُلُّ على أنَّ أقبَحَ أنواعِ الكُفرِ والمَعصيةِ إثباتُ الوَلَدِ لله تعالى(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ يظهَرُ فيه كيف أبطل اللهُ تعالى قولَهم بالتَّدريجِ والانتقالِ مِن شَيءٍ إلى أبطَلَ منه؛ فأخبر أولًا أنَّه ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ والقَولُ على اللهِ بلا عِلمٍ: لا شَكَّ في مَنعِه وبُطلانِه، ثم أخبر ثانيًا أنَّه قولٌ قَبيحٌ شَنيعٌ، فقال: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، ثمَّ ذكر ثالثًا مرتبَتَه مِن القُبحِ، وهو الكَذِبُ المنافي للصِّدقِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٠).

٨- حيث وُجِدَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ -بل وفي كلامِ العَرَبِ نَظمِه ونَثْرِه- لَفظُ (كَلِمة)؛ فإنَّما يُرادُ به المفيدُ الذي تُسَمِّيه النُّحاةُ جُملةً تامَّةً، كقَولِه تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا * مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٤-٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وقَولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((أصدَقُ كَلِمةٍ قالها شاعِرٌ كَلِمةُ لَبيدٍ:

ألا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ))[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ فيه أنَّ كُلَّ خبرٍ لا يطابِقُ المخبَرَ عنه فهو كَذِبٌ، سواءٌ عَلِمَ القائِلُ بكَونِه مطابِقًا أو لم يعلَمْ؛ فإنَّه تعالى وصف قولَهم بإثباتِ الوَلَدِ لله بكونِه كَذِبًا، مع أنَّ الكثيرَ منهم يقولُ ذلك، ولا يعلم كونَه باطِلًا[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ جُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تُفيدُ استحقاقَه أكمَلَ الحمدِ، فأخبَرَ أنَّ مُستحِقَّ الحمدِ هو اللهُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٠١).
والحديث أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٥-٤٢٦).

لا غيرُه، فأجْرَى على اسمِ الجَلالةِ الوصفَ بالموصولِ؛ تَنويهًا بمضمونِ الصِّلةِ، وإيذانًا بعِظَمِ شأنِ التَّنزيلِ الجليلِ، ولِمَا يُفيدُه الموصولُ من تَعليلِ الخبرِ[١].

- وموقعُ الافتتاحِ بهذا التَّحميدِ كموقعِ الخُطبةِ؛ يُفتتَحُ بها الكلامُ في الغَرَضِ المُهمِّ، وافْتُتِحتْ بالتَّحميدِ على إنزالِ الكتابِ؛ للتَّنويهِ بالقُرآنِ. وأُدْمِجَ فيه إنذارُ المُعانِدين الَّذين نسَبوا للهِ ولدًا، وبِشارةُ المُؤمنين، وتَسليةُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عن أقوالِهم، حين تريَّثَ الوحيُ لِما اقْتضَتْه سُنَّةُ اللهِ مع أوليائِه؛ من إظهارِ عتَبِه على الغَفلةِ عن مُراعاةِ الآدابِ الكاملةِ[٢].

- وآثَرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿عَبۡدِهِ﴾، ولم يَجِئِ التَّركيبُ: (أنزَلَ عليك)؛ لِمَا في ﴿عَبۡدِهِ﴾ من الإضافةِ المُقتضيةِ تَشريفَه[٣]، وأيضًا في التَّعبيرِ عن الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالعبْدِ مُضافًا إلى ضَميرِ الجَلالةِ: تَنبيهٌ على بُلوغِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أعلى مَعارجِ العِبادةِ، وتَشريفٌ له أيَّ تَشريفٍ، وإشعارٌ بأنَّ شأنَ الرَّسولِ أنْ يكونَ عبدًا للمُرسِلِ، لا كما زعَمَتِ النَّصارى في حَقِّ عيسى عليه السَّلامُ[٤]، وكذلك في ذِكْرِه بوصْفِ العُبوديَّةِ للهِ: تَقريبٌ لمَنزلتِه، وتَنويهٌ به بما في إنزالِ الكتابِ عليه من رِفعةِ قدْرِه[٥].

- وتأخيرُ المفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عن الجارِّ والمجرورِ -﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٧).

﴿- مع أنَّ حَقَّه التَّقديمُ عليه؛ ليتَّصِلَ به قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ مُعترِضةٌ بين ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبينَ الحالِ منه وهو ﴿قَيِّمًا﴾، ويجوزُ كونُ الجملةِ حالًا والوَاوِ حاليَّةً، والمقصودُ من هذه الجُملةِ المُعترِضةِ أو الحاليَّةِ: إبطالُ ما يَرْميه به المُشرِكون من قولِهم: (افتراهُ، وأساطيرُ الأوَّلينَ، وقولُ كاهنٍ)؛ لأنَّ تلك الأُمورَ لا تخْلو من عِوَجٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢] [النساء: ٨٢].

- وفي قولِه: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ عُدِّيَ الجَعْلُ باللَّامِ دونَ (في)؛ لأنَّ العِوَجَ المعنويَّ يُناسِبُه حرْفُ الاختصاصِ (اللَّامُ) دون حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ من علائقِ الأجسامِ، وأمَّا معنى الاختصاصِ فهو أعَمُّ[٣].

- ونكَّرَ ﴿عِوَجَا﴾ ليعُمَّ جميعَ أنواعِه؛ لأنَّها نكرةٌ في سِياقِ النَّفيِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾

- قولُه: ﴿قَيِّمًا﴾ على القولِ بأنَّه قيِّمٌ بالمصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ للعِبادِ؛ فيكونُ وصْفًا له بالتَّكميلِ بعدَ وصْفِه بالكمالِ. وعلى القولِ بأنَّ معنى ﴿قَيِّمًا﴾ على ما قبْلَه من الكتُبِ السَّماويَّةِ، شاهِدًا بصِحَّتِها، ومُهيمنًا عليها، أو مُتناهيًا في الاستقامةِ؛ فيكونُ قولُه: ﴿قَيِّمًا﴾ تأكيدًا لِما دَلَّ عليه نفْيُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٥).

العِوَجِ، مع إفادةِ كونِ ذلك من صِفاتِه الذَّاتيَّةِ اللَّازمةِ له، حسْبَما تُنْبِئُ عنه صِيغَةُ ﴿قَيِّمًا﴾؛ فنفْيُ العِوَجِ معناهُ إثباتُ الاستقامةِ، وإنَّما جنَحَ إلى التَّكريرِ لفائدةٍ مُنقطعةِ النَّظيرِ، وهي التَّأكيدُ والبَيانُ؛ فرُبَّ مُستقيم مَشهودٍ له بالاستقامةِ، مُجمَعٍ على استقامتِه، ومع ذلك فإنَّ الفاحِصَ المُدقِّقَ قد يجِدُ له أدنى عِوَجٍ؛ فلمَّا أثبَتَ له الاستقامةَ أزال شُبْهةَ بقاءِ ذلك الأدنى الَّذي يدِقُّ على النَّظرةِ السَّطحيَّةِ الأُولى[1].

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه تَقديمُ الإنذارِ على التَّبشيرِ؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بزجْرِ الكُفَّارِ عمَّا هم عليه، مع مُراعاةِ تَقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ[2]، فالمقصودُ مِن إرسالِ الرُّسُلِ إنذارُ المُذنبِينَ وبِشارةُ المُطيعينَ، ولَمَّا كان دَفْعُ الضَّررِ أهَمَّ عند ذَوي العُقولِ مِن إيصالِ النَّفعِ، لا جرَمَ قَدَّمَ الإنذارَ على التَّبشيرِ في اللَّفظِ[3].

- وقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ إيماءٌ بالتَّهديدِ للمُشركين بما سيَلْقونه من القتْلِ والأسْرِ بأيدي المُسلِمين، وذلك بأسٌ مِن لدُنْه تعالى؛ لأنَّه بتَقديرِه وبأمْرِه عِبادَه أنْ يفْعَلوه[4].

- وفي قولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ الاقتصارُ على أحدِ مفعوليْ (أنذر)

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٩).

وهو المُنْذَرُ؛ وذلك لأنَّه جُعِلَ المُنذَرُ به هو الغرَضَ المسبوقَ إليه؛ فوجَبَ الاقتصارُ عليه، ولدلالةِ السِّياقِ عليه؛ لظُهورِ أنَّه يُنذِرُ الَّذين لم يُؤْمِنوا بهذا الكتابِ ولا بالمُنزَلِ عليه، ولدلالةِ مُقابِلِه عليه في قولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ صرَّحَ بالمُنذَرِ في قولِه حين كرَّرَ الإنذارَ، فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ فحُذِفَ المُنْذَرُ أوَّلًا؛ لدلالةِ الثَّاني عليه، وحُذِفَ المُنذَرُ به؛ لدلالةِ الأوَّلِ عليه، وهذا من بَديعِ الحذْفِ وجَليلِ الفصاحةِ، ولمَّا لم يُكرِّرِ البِشارةَ أتى بالمُبشَّرِ والمُبشَّرِ به. وقيل: المفعولُ الأوَّلُ لـ (يُنْذِر) مَحذوفٌ لقَصْدِ التَّعميمِ، أو تَنزيلًا للفعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المقصودَ المُنذَرُ به، وهو البأسُ الشَّديدُ؛ تَهويلًا له، ولتَهديدِ المُشرِكين المُنكِرين إنزالَ القُرآنِ من اللهِ[1].

- في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آثَرَ صِيغَةَ الاستقبالِ في الصِّلةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ للإشعارِ بتجدُّدِ الأعمالِ الصَّالحةِ واستمرارِها، وإجراءُ الموصولِ على مَوصوفِه المذكورِ؛ لِمَا أنَّ مدارَ قَبولِ الأعمالِ هو الإيمانُ[2]، وذِكْرُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ استحقاقَ ذلك الأجْرِ بحُصولِ ذينك الأمرينِ[3].

- ولمَّا كنَّى عن الجنَّةِ بقولِه: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، قال: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾، أي: مُقيمينَ فيه، فجعَلَه ظرفًا لإقامتِهم، ولَمَّا كان المُكْثُ لا يَقْتضي التَّأبيدَ، قال:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٨-٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٠).

﴿أَبَدًا﴾[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ تعليلٌ آخرُ لإنزالِ الكتابِ على عبْدِه، جُعِلَ تاليًا لقولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ باعتبارِ أنَّ المُرادَ هنا إنذارٌ مَخصوصٌ مُقابِلٌ لِمَا بَشَّرَ به المُؤمِنين، وهذا إنذارٌ بجَزاءِ خالدين فيه، وهو عذابُ الآخرةِ؛ فإنْ جرَيْتَ على تَخصيصِ البأسِ في قولِه: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ بعذابِ الدُّنيا، كان هذا الإنذارُ مُغايرًا لِما قبْلَه، وإنْ جرَيْتَ على شُمولِ البأْسِ للعذابَينِ، كانت إعادةُ فعْلِ (يُنذِر) تأكيدًا، فكان عطْفُه باعتبارِ أنَّ لمفعولِه صِفَةً زائدةً على معنى مفعولِ فعْلِ (يُنذِر) السَّابقِ، يُعْرَفُ بها الفريقُ المُنْذَرون بكِلا الإنذارَينِ، وهو يُومِئُ إلى المُنْذَرينَ المحذوفِ في قولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، ويُغْني عن ذِكْرِه، وهذه العِلَّةُ أثارَتها مُناسبةُ ذِكْرِ التَّبشيرِ قبْلَها، وقد حُذِفَ هنا المُنذَرُ به؛ اعتمادًا على مُقابِلِه المُبشَّرِ به[٢].

- قولُه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خَصَّهم بالذِّكرِ -أي: ويُنذِرَ من بين سائرِ الكفَرةِ هؤلاء المُتفوِّهينَ بمثْلِ هذه العظيمةِ خاصَّةً-، وكرَّرَ الإنذارَ مُتعلِّقًا بفرقةٍ خاصَّةٍ ممَّن عَمَّه الإنذارُ السَّابقُ من مُستحقِّي البأسِ الشَّديدِ؛ للإيذانِ بكَمالِ فَظاعةِ حالِهم لغايةِ شَناعةِ كُفْرِهم وضَلالِهم[٣].

- والتَّعبيرُ عن هؤلاءِ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ لأنَّهم قد عُرِفوا بهذه المقالةِ بين أقوامِهم وبين المُسلِمين؛ تَشنيعًا عليهم بهذه المقالةِ، وإيماءً إلى أنَّهم استحقُّوا ما أُنْذِروا به لأجْلِها ولغيرِها؛ فمضمونُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٠-٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٢).

الصِّلةِ من مُوجباتِ ما أُنْذِروا به؛ لأنَّ العِللَ تتعدَّدُ[١]؛ فترْكُ إجراءِ الموصولِ على الموصوفِ كما فعَلَ في قولِه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإيذانِ بكِفايةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ في الكُفْرِ على أقبَحِ الوُجوهِ[٢].

- وإيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾ في الصِّلةِ؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ صُدورِ تلك الكلمةِ القبيحةِ عنهم فيما سبَقَ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

- قولُه: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ (مِن) لتَوكيدِ النَّفيِ[٤]، وفائدةُ ذِكْرِ هذه الحالِ أنَّها أشنَعُ في كُفْرِهم، وهي أنْ يقولوا كذِبًا ليس لهم فيه شُبهةٌ؛ فأُطْلِقَ العِلْمُ على سبَبِ العلْمِ، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾[٥] [المؤمنون: ١١٧].

- وعُطِفَ ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ لِقَطعِ حُجَّتِهم؛ لأنَّهم كانوا يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فإذا لم يكُنْ لآبائِهم حُجَّةٌ على ما يقولون، فليسوا جَديرين بأنْ يُقلِّدوهم[٦].

- وجُملةُ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ استئنافٌ بالتَّشاؤُمِ بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٧).

القولِ الشَّنيعِ. وفِعْلُ ﴿كَبُرَتْ﴾ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ مِن كُبْرِ هذه الكلمةِ في الشَّناعةِ بقَرينةِ المقامِ، ودَلَّ على قصْدِ التَّعجيبِ منها انتصابُ ﴿كَلِمَةً﴾ على التَّمييزِ؛ إذ لا يَحتمِلُ التَّمييزُ هنا معنًى غيرَ أنَّه تَمييزُ نِسبةِ التَّعجُّبِ، ووجْهُ فصْلِ الجُملةِ: أنَّها مُخالِفةٌ للَّتي قبْلَها بالإنشائيَّةِ المُخالِفةِ للخبريَّةِ[١].

- وجُملةُ ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صِفةٌ لـ ﴿كَلِمَةً﴾، مقصودٌ بها استعظامُ جُرأتِهم على النُّطقِ بها ووَقاحتِهم في قولِها[٢]، والتَّعبيرُ بالفعْلِ المُضارعِ ﴿تَخْرُجُ﴾؛ لاستحضارِ صُورةِ خُروجِها من أفواهِهم؛ تَخييلًا لفَظاعتِها. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مِثلَ ذلك الكلامِ ليس له مَصدرٌ غيرُ الأفواهِ؛ لأنَّه لاستحالتِه تتلقَّاهُ وتنطِقُ به أفواهُهم، وتسمَعُه أسماعُهم، ولا تتعقَّلُه عُقولُهم؛ لأنَّ المُحالَ لا يَعتقِدُه العقْلُ ولكنَّه يتلقَّاهُ المُقلِّدُ دونَ تأمُّلٍ[٣]، فصوَّر فَظاعةَ اجترائِهم على النُّطقِ بها بقولِه تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: لم يَكفِهم خُطورُها في نُفوسِهم، وتَردُّدُها في صُدورِهم، حتى تَلفَّظوا بها، وكان تلفُّظُهم بها على وجهِ التكريرِ- بما أشارَ إليه التعبيرُ بالمضارعِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ مُؤكِّدةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ لأنَّ الشَّيءَ الَّذي تنطِقُ به الألسُنُ، ولا تحقُّقَ له في الخارجِ ونفْسِ الأمرِ، هو الكذِبُ، أي: تخرُجُ من أفواهِهم خُروجَ الكذِبِ، فما قولُهم ذلك إلَّا كذِبٌ، أي: ليستْ له صِفةٌ إلَّا صِفةُ الكذبِ. هذا إذا جُعِلَ القولُ المأخوذُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩).

من ﴿يَقُولُونَ﴾ خُصوصَ قولِهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]، وعلى حمْلِ ﴿يَقُولُونَ﴾ على العُمومِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا يَصدُرُ منهم قولٌ إلَّا الكذبُ؛ فيكونُ قصْرًا إضافيًّا[١]، أي: ما يقولونَه في القُرآنِ والإسلامِ، أو: ما يقولونَه من مُعتقداتِهم المُخالفةِ لِما جاء به الإسلامُ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ تَذييلًا[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ باعتبارِهم مُكذِّبينَ كافرينَ؛ بقَرينةِ مُقابَلةِ المُؤمنين بهم في قولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ قولِه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، و(لعلَّ) هنا مُستعملةٌ في تَحذيرِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الاغتمامِ والحُزْنِ على عدَمِ إيمانِ مَن لم يُؤْمِنوا من قومِه، وذلك في معنى التَّسليةِ لقِلَّةِ الاكتراثِ بهم، وكأنَّ هذا الكلامَ سِيقَ إلى الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ في آخرِ أوقاتِ رَجائِه في إيمانِهم؛ إيماءً إلى أنَّهم غيرُ صائرينَ إلى الإيمانِ، وتهيئةً لنفْسِه أنْ تتحمَّلَ ما سيَلقاه من عِنادِهم؛ رأفةً مِن ربِّه به؛ ولذلك قال: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ بصِيغَةِ الفعْلِ المُضارِعِ المُقتضيةِ الحُصولَ في المُستقبلِ، أي: إنِ استمَرَّ عدَمُ إيمانِهم[٣].

---

(١) القصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردده؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٣-٢٥٥).

- وفي قولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ بليغٌ مَصونٌ عن الابتذالِ؛ حيث شبَّهَه تعالى وإيَّاهم حين تولَّوا عنه ولم يُؤْمِنوا به، وأصَرُّوا على المُكابَرةِ والعِنادِ واللَّجاجِ بالسَّفسطةِ الباطلةِ، ثمَّ ما تداخَلَه من جرَّاءِ ذلك؛ من أسَفٍ على تولِّيهم، وإشفاقٍ عليهم لسُوءِ الأمْرِ الَّذي تؤولُ إليه أُمورُهم؛ شَبَّه ذلك سُبحانَه برجُلٍ فارَقَه أحِبَّتُه وأعِزَّتُه، فهو يتساقَطُ حَسراتٍ على آثارِهم، ويبخَعُ نفْسَه وجْدًا عليهم، وتلهُّفًا على فراقِهم، وأتى بهذه الصُّورةِ الفريدةِ صِيانةً لتَشبيهِه من الابتذالِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى أراد أنْ يُسلِّيَ نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنْ يُخفِّفَ عنه ما ألَمَّ به مِن هَمٍّ وألَمٍ، فعرَضَ الموقِفَ بصِيغَةِ التَّرجِّي ﴿فَلَعَلَّكَ﴾، وإنْ كان المُرادُ به النَّهيَ، أي: لا تبخَعْ نفْسَك ولا تُهْلِكْها من أجْلِ غَمِّك على عدَمِ إيمانِهم[1].

- قولُه: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ إشارةٌ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه لحُضورِه في الأذهانِ كأنَّه حاضرٌ في مَقامِ نُزولِ الآيةِ؛ فأُشِيرَ إليه بذلك الاعتبارِ، وأتَى باسمِ الإشارةِ (هذا) لزِيادةِ تَمييزِه؛ تَقويةً لحُضورِه في الأذهانِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٩)، و(١٥/ ٢٥٣ - ٢٥٥).

الآيتان (٧-٨)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَعِيدًا﴾: أي: ترابًا، والصعيدُ: الأملسُ المستوي، ويُطلقُ أيضًا على وجهِ الأرضِ، وأصلُ (صعد): يدلُّ على ارتفاعٍ ومشقةٍ[(١)].

﴿جُرُزًا﴾: أي: جَرداءَ لا نباتَ فيها، وأصلُ (جرز): يدلُّ على قَطعٍ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله سبحانه وتعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم ومُثَبِّتًا له: إنَّا جَعَلْنا ما على وَجهِ الأرضِ مِن الحيواناتِ والنباتِ والجمادِ زينةً لها؛ لنختبرَ العبادَ: أيُّهم أخلصُ عملًا وأصوبُه. وإنَّا لجاعِلونَ ما على الأرضِ مِن تلك الزِّينةِ عند انقِضاءِ الدُّنيا تُرابًا مستويًا لا نباتَ فيه، فهلَّا عَمِلوا للباقي ولم يغتَرُّوا بالفاني الزَّائلِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١)، ((باهر البرهان)) للنيسابوري (٢/ ٨٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ارتباطُ هذه الآيةِ بما قبْلَها هو على سَبيلِ التَّسليةِ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ أنَّه خلَقَ ما على الأرضِ من الزِّينةِ للابتلاءِ والاختبارِ؛ أيُّ النَّاسِ أحسَنُ عملًا، فليسوا على نَمَطٍ واحدٍ في الاستقامةِ واتِّباعِ الرُّسلِ، بل لا بُدَّ أنْ يكونَ فيهم مَن هو أحسَنُ عمَلًا، ومَن هو أسوَأُ عملًا، فلا تغتَمَّ وتحزَنْ على مَن فُضِّلْتَ عليه بأنَّه يكونُ أسوَأَ عملًا، ومع كونِهم يكْفُرون بي لا أقطَعُ عنهم موادَّ هذه النِّعمِ الَّتي خلقْتُها[1].

وأيضًا فهي تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ على إعراضِ المُشرِكينَ بأنَّ اللهَ أمهَلَهم وأعطاهم زِينةَ الدُّنيا؛ لعَلَّهم يَشكُرونَه، وأنَّهم بَطِروا النِّعمةَ، فإنَّ اللهَ يَسلُبُ عنهم النِّعمةَ فتَصيرُ بلادُهم قاحِلةً، ولهذا اتِّصالٌ بِقَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾[2] [الكهف: ٢].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾.

أي: إنَّا جَعَلْنا ما على وَجهِ الأرضِ من الحيواناتِ والنباتِ والجمادِ زِينةً لها[3]، فجعَلَ اللهُ تعالى الدنيا مُستطابةً في ذَوقِها، مُستَحسَنةً في مَنظَرِها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٦).

(٣) قال الواحدي: (قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ بما عليها مِن الماءِ والنباتِ والأشجارِ، والمعادنِ مِن الذهبِ والفضةِ وأنواعِ الجواهرِ، ويدخلُ في هذا كلِّه ما على الأرضِ مِن ذي الرُّوحِ والجمادِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٣٦).

وقال ابنُ عثيمين: (سَواءٌ أكانت هذه الزينةُ فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ وأوجَده، أم مما صنَعه الآدميُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٨).

وقيَّد بعضُ المفسِّرينَ قولَه تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بما يصلُحُ أن يكونَ زينةً لها، ومنهم: الزمخشري، وابنُ جزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن

وزُخرُفِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أخوَفُ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ اللهُ لكم مِن زَهرةِ الدُّنيا، قالوا: وما زَهرةُ الدُّنيا يا رسولَ اللهِ؟ قال: بَرَكاتُ الأرضِ))[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ[٣]، وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيف تَعمَلونَ؛

جزي)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠).

وممن اختار العمومَ: القرطبيُّ، فقال: (والزِّينةُ كلُّ ما على وجهِ الأرضِ، فهو عمومٌ؛ لأنَّه دالٌّ على بارِئِه... والقولُ بالعمومِ أولَى، وأنَّ كلَّ ما على الأرضِ فِيه زِينَةٌ مِنْ جِهَةِ خَلْقِه وصُنْعِه وإحْكامِه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٨).

(٢) رواه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) واللفظ له.

(٣) حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العربَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخضْرَواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[١].

وعن حَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ))[٢].

ثمَّ بيَّن الله تعالى الحكمةَ في خلقِ الأرضِ وزينتِها[٣]، فقال:

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: جعَلْنا ما على الأرضِ زِينةً لها؛ لِنَختَبِرَ النَّاسَ: أيُّهم أصلَحُ عَمَلًا -أي: أخلَصُه لله، وأصوَبُه مِن جِهةِ مُوافَقتِه للشَّرعِ[٤]- وأزهدُ في زينةِ الدُّنيا[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٤١)، ومسلم (١٠٣٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

ويُنظر أيضًا: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٩).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالابتلاءِ: أنَّه سبحانَه يعامِلُهم معاملةً لو كانت تلك المعاملةُ مِنْ غيرِه لكانت مِنْ قبيلِ الابتلاءِ والامتحانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (وكان أبي رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: أحسَنُ العَمَلِ: أخْذٌ بحَقٍّ، وإنفاقٌ في حَقٍّ، مع الإيمانِ، وأداءِ الفَرائضِ، واجتِنابِ المحارِمِ، والإكثارِ مِن المندوبِ إليه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٧).

وقال القرطبي: (قلتُ: هذا قَولٌ حَسَنٌ وجيزٌ في ألفاظِه، بليغٌ في معناه، وقد جمعه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في لفظٍ واحدٍ، وهو قَولُه لسفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفيِّ لَمَّا قال: يا رسولَ الله، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بعدك- في رواية: غيرَك- قال: «قُل آمنْتُ باللهِ ثمَّ استقِمْ». أخرجه مسلم [(٣٨)]). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٥).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾.

أي: وإنَّا لِمُصَيِّرونَ ما على وَجهِ الأرضِ مِن زِينتِها تُرابًا مُستويًا خاليًا، يابسًا لا نباتَ فيه، ولا ماءَ ولا بِناءَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].
وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٠).
قال ابنُ الجوزي: (قال المفَسِّرون: وهذا يكونُ يومَ القيامة؛ يجعَلُ اللهُ الأرضَ مُستويةً لا نباتَ فيها ولا ماءَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٥).

صَفۡصَفٗا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- العملُ اليسيرُ الموافِقُ لمرضاةِ الرَّبِّ وسُنَّةِ رسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أحَبُّ إلى اللَّهِ تعالَى مِنَ العملِ الكثيرِ إذا خَلا عن ذلك أو عن بعضِه؛ ولهذا قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [هود: ٧]، فهو سبحانَه وتعالى إنَّما خلَقَ السمواتِ والأرضَ والموتَ والحياةَ، وزيَّن الأرضَ بما عليها؛ ليبلوَ عبادَه أيُّهم أحسنُ عملًا، لا أكثرُ عملًا[١]، فالعِبرةُ بالأحسَنِ لا بالأكثَرِ[٢].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا ﴾ ثمَّ بَيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿ لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾، فإذا عَرَف العبدُ أنَّه خُلِق لأجلِ أن يُختبَرَ في إحسانِ العملِ كان حريصًا على الحالةِ التي ينجحُ بها في هذا الاختبارِ؛ لأنَّ اختبارَ ربِّ العالمينَ يومَ القيامةِ مَنْ لم ينجَحْ فيه جُرَّ إلى النَّارِ، فعدمُ النجاحِ فيه مهلكةٌ[٣]، ففي ذلك الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والترقِّي دائمًا في مراتبِ الكمالِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّزهيدِ

---

(١) يُنظر: ((المنار المنيف)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٠).

في الدُّنيا والرَّغبةِ عنها، وتَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا تَضمَّنَته أيدي المُتْرَفينَ من زينتِها؛ إذ مآلُ ذلك كلِّه إلى الفَناءِ[١]، وفيه أكبَرُ واعظٍ للنَّاسِ، وأعظَمُ زاجِرٍ عن اتِّباعِ الهَوى، وإيثارِ الفاني على الباقي[٢]؛ وذلك لأنَّ هذه الأرضَ ستعودُ صَعيدًا جُرُزًا قد ذَهَبَت لذَّاتُها، وانقَطَعت أنهارُها، واندرَسَت آثارُها، وزال نَعيمُها، هذه حقيقةُ الدُّنيا قد جَلَّاها اللهُ لنا كأنَّها رأيُ عَينٍ، وحَذَّرَنا مِن الاغترارِ بها، ورَغَّبَنا في دارٍ يَدومُ نَعيمُها، ويَسعَدُ مُقيمُها؛ كلُّ ذلك رَحمةً بنا، فاغتَرَّ بزُخرُفِ الدُّنيا وزينتِها مَن نظَرَ إلى ظاهِرِ الدُّنيا دَونَ باطِنِها، فصَحِبوا الدُّنيا صُحبةَ البهائِم، وتمَتَّعوا بها تمتُّعَ السَّوائِم، لا يَنظُرون في حَقِّ رَبِّهم، ولا يَهتَمُّونَ لِمَعرفتِه، بل هَمُّهم تَناوُلُ الشَّهواتِ مِن أيِّ وَجهٍ حصَلَت، وعلى أيِّ حالةٍ اتَّفَقت، فهؤلاء إذا حضَرَ أحَدَهم الموتُ، قَلِقَ لِخَرابِ ذاتِه، وفَواتِ لَذَّاتِه، لا لِما قَدَّمَت يداه مِن التَّفريطِ والسَّيِّئات. وأمَّا مَن نظَرَ إلى باطِنِ الدُّنيا، وعَلِمَ المقصودَ منها ومنه؛ فإنَّه يتناوَلُ منها ما يَستَعينُ به على ما خُلِقَ له، وانتهَزَ الفُرصةَ في عُمُرِه الشَّريفِ، فجعَلَ الدُّنيا مَنزِلَ عُبور لا مَحَلَّ حُبُور، وشُقَّةَ سَفَرٍ لا مَنزِلَ إقامةٍ، فبَذَل جُهدَه في معرفةِ رَبِّه، وتنفيذِ أوامِرِه، وإحسانِ العَمَلِ؛ فهذا بأحسَنِ المنازِلِ عند الله، وهو حَقيقٌ منه بكُلِّ كَرامةٍ ونَعيم، وسُرورٍ وتَكريم، فنَظَرَ إلى باطِنِ الدُّنيا حينَ نَظَرَ المغتَرُّ إلى ظاهِرِها، وعَمِلَ لآخِرَتِه حينَ عَمِلَ البَطَّالُ لدُنياه، فشَتَّانَ ما بين الفَريقَينِ، وما أبعَدَ الفَرقَ بين الطَّائِفَتينِ[٣]!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- اللهُ سبحانه قد عَلِمَ قبل أن يوجِدَ عبادَه أحوالَهم، وما هم عامِلون، وما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٠).

هم إليه صائِرون، ثمَّ أخرجهم إلى هذه الدارِ؛ لِيَظهَرَ مَعلومُه الذي عَلِمَه فيهم كما عَلِمَه، وابتلاهم مِن الأمرِ والنَّهيِ والخيرِ والشرِّ بما أظهر مَعلومه، فاستحقُّوا المدحَ والذمَّ والثوابَ والعقابَ بما قام بهم مِن الأفعالِ والصِّفاتِ المُطابِقة للعِلمِ السَّابقِ، ولم يكونوا يستَحِقُّون ذلك وهي في عِلْمِه قبل أن يَعمَلوها؛ فأرسل رسُلَه وأنزل كتُبَه وشرَعَ شرائِعَه؛ إعذارًا إليهم، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لئلَّا يقولوا: كيف تُعاقِبُنا على عِلْمِك فينا، وهذا لا يدخل تحت كَسبِنا وقُدرتِنا؟! فلما ظهر عِلمُه فيهم بأفعالِهم حصَلَ العِقابُ على معلومِه الذي أظهره الابتلاءُ والاختبارُ، وكما ابتلاهم بأمرِه ونهيِه ابتلاهم بما زيَّنَ لهم من الدُّنيا وبما ركَّبَ فيهم من الشَّهواتِ، فذلك ابتلاءٌ بشَرعِه وأمرِه، وهذا ابتلاءٌ بقَضائِه وقَدَرِه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] [هود: ٧].

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال الفضيلُ بنُ عياضٍ: (أخلصُه وأصوبُه). والخالصُ: أن يكونَ لله، والصوابُ: أن يكونَ على السنةِ، وهما أصلانِ عظيمانِ: أحدُهما: أن لا نعبدَ إلا الله، والثاني: أن لا نعبدَه إلا بما شرَع، لا نعبدُه بعبادةٍ مبتدَعةٍ، وهذان الأصلانِ هما تحقيقُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣).

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾ استئنافٌ، وتَعليلٌ لِما في (لعلَّ) مِن معنى الإشفاقِ[(١)]؛ فمَوقعُ (إنَّ) في صَدْرِ هذه الجُملةِ موقعُ التَّعليلِ للتَّسليةِ الَّتي تضمَّنَها قولُه قبْلُ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾[(٢)].

- وأُوثِرَ الاستدلالُ بحالِ الأرضِ الَّتي عليها النَّاسُ؛ لأنَّها أقرَبُ إلى حِسِّهم وتَعقُّلِهم[(٣)].

- قولُه: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه إيرادُ صِيغَةِ التَّفضيلِ ﴿أَحْسَنُ﴾، مع أنَّ الابتلاءَ شامِلٌ للفريقينِ باعتبارِ أعمالِهم المُنقسمةِ إلى الحَسنِ والقبيحِ أيضًا، لا إلى الحَسنِ والأحسنِ فقطْ؛ للإشعارِ بأنَّ الغايةَ الأصليَّةَ للجَعلِ المذكورِ إنَّما هو ظُهورُ كَمالِ إحسانِ المُحسنينَ[(٤)].

- وقد جاء نظْمُ هذا الكلامِ على أُسلوبِ الإعجازِ في جمْعِ معانٍ كثيرةٍ يصلُحُ اللَّفظُ لها مِن مُختلَفِ الأغراضِ المقصودةِ؛ فإنَّ الإخبارَ عن خلْقِ ما على الأرضِ زينةً، يجمَعُ الامتنانَ على النَّاسِ، والتَّذكيرَ ببَديعِ صُنْعِ اللهِ؛ إذ وضَعَ هذا العالَمَ على أتقَنِ مثالٍ مُلائمٍ لِما تحِبُّه النُّفوسُ من الزَّينةِ والزُّخرفِ، والامتنانُ بمثْلِ هذا كثيرٌ. ولا تكونُ الأشياءُ زِينةً إلَّا وهي مبثوثةٌ فيها الحياةُ الَّتي بها نَماؤُها وازدهارُها. وهذه الزِّينةُ مُستمِرَّةٌ على وجْهِ الأرضِ منذُ رآها الإنسانُ، واستمرارُها باستمرارِ أنواعِها، وإنْ كان الزَّوالُ يعرِضُ لأشخاصِها، فتَخلُفُها أشخاصٌ أُخرى مِن نَوعِها، فيتضمَّنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥).

هذا امتنانًا ببَثِّ الحياةِ في الموجوداتِ الأرضيَّةِ. ومن لوازمِ هذه الزِّينةِ: أنَّها تُوقِظُ العُقولَ إلى النَّظرِ في وُجودِ مُنْشِئِها، وتسبُرُ غوْرَ النُّفوسِ في مقدارِ الشُّكرِ لخالِقِها وجاعِلِها لهم، فمِن مُوفٍ بحَقِّ الشُّكرِ، ومُقصِّرٍ فيه، وجاحِدٍ كافرٍ بنعمةِ هذا المُنعِمِ، ناسِبٍ إيَّاها إلى غيرِ مُوجدِها. ومن لوازمِها أيضًا: أنَّها تُثيرُ الشَّهواتِ لاقتطافِها وتناوُلِها، فتُسْتثارُ مِن ذلك مُختلَفُ الكيفيَّاتِ في تناوُلِها، وتعارُضُ الشَّهواتِ في الاستيثارِ بها، ممَّا يُفْضي إلى تغالُبِ النَّاسِ بعضِهم بعضًا، واعتداءِ بعضِهم على بعضٍ، وذلك الَّذي أوجَدَ حاجتَهم إلى الشَّرائعِ؛ لتَضبُطَ لهم أحوالَ مُعاملاتِهم؛ ولذلك علَّلَ جَعْلَ ما على الأرضِ زِينةً بقولِه: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أفوتُ في حُسْنِ العمَلِ من عمَلِ القلْبِ الرَّاجعِ إلى الإيمانِ والكُفْرِ، وعمَلِ الجسَدِ المُتبدِّي في الامتثالِ للحقِّ والحَيدةِ عنه. فمجموعُ النَّاسِ مُتفاوتونَ في حُسنِ العملِ، ومِن دَرجاتِ التَّفاوُتِ في هذا الحُسنِ تُعلَمُ بطريقِ الفحوى درجةُ انعدامِ الحُسنِ من أصْلِه، وهي حالةُ الكُفْرِ وسُوءِ العمَلِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ هذه الجُملةُ لتكميلِ ما في السَّابقةِ من التَّعليلِ[2].

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، أو لإدراجِ المُكلَّفينَ فيه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥).

الآيات (٩-١٢)

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْكَهْفِ﴾: أي: الغارِ الواسعِ في الجبلِ[١].

﴿وَالرَّقِيمِ﴾: أي: الكِتابِ، وهو فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ، والأصلُ فيه المرقومُ، وسُمِّيَ رَقيمًا؛ لأنَّ أسماءَ أصحابِ الكَهفِ كانت مَرقومةً -أي: مَكتوبةً- فيه. وقيل: الرقيمُ اسمُ الجبلِ الذي فيه الكهفُ، أو: اسمُ الوادي. وأصلُ (رقم): يدُلُّ على خَطٍّ وكِتابةٍ[٢].

﴿الْفِتْيَةُ﴾: أي: الشبابُ، جمعُ فتًى، وأصلُ (فتى) هنا: يدُلُّ على طَراوةٍ وجِدَّةٍ[٣].

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشَدُ، والرُّشْدُ: نقيضُ الضلالِ، وهو الاهتداءُ والدَّيمومةُ عليه، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استقامةِ الطَّريقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٨)، ((المفردات))

﴿ٱلْحِزْبَيْنِ﴾: أي: الطائفتينِ، أو: الفريقينِ، والحزبُ: الجماعةُ مِنَ النَّاسِ الَّذينَ تَوافَقوا على شيءٍ واحدٍ، وأصلُ (حزب): تجمُّعُ الشَّيءِ[1].

﴿أَمَدًا﴾: أي: زَمانًا وغايةً[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾

﴿أَيُّ﴾ اسمُ استفهامٍ مبتدأٌ، وهو معلِّقٌ لفعلِ (نَعلَم) عن العمَلِ، و﴿أَحْصَىٰ﴾ الخبَرُ، والجملةُ سدَّت مسدَّ مفعولي (نعلَم). و﴿أَحْصَىٰ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ فِعلًا ماضيًا، وفاعِلُه ضميرُ ﴿أَيُّ﴾، و﴿أَمَدًا﴾ مفعولٌ به، و﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾: متعلِّقٌ بأحصى، أو نعتٌ لـ﴿أَمَدًا﴾ قُدِّمَ عليه فصار حالًا. ويحتَمِلُ أن يكونَ ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسمَ تفضيلٍ مصوغًا من الرُّباعي قياسًا، على قَولِ سيبويه والزجَّاج، وعلى خلافِ القياسِ عندَ غيرهما. و﴿أَمَدًا﴾ تمييزٌ لاسمِ التَّفضيلِ تمييزُ نسبةٍ محوَّلٌ عن المفعولِ، وأصلُه أحصى أمدَ الزَّمانِ الذي لَبِثوا فيه. وقيل: محولٌ عن الفاعِلِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا قصةَ أصحابِ الكهفِ: أظننتَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أصحابَ

للراغب (ص: ٣٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٥/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧).

الكَهفِ والكتابِ كانوا مِن آياتِنا العَجيبةِ؟! فإنَّ في آياتِنا ما هو أعجَبُ مِن ذلك! اذكُرْ حينَ لجأ أولئك الشُّبَّانُ إلى الكَهفِ؛ خَشيةً مِن فِتنةِ قَومِهم الكُفَّارِ لهم، فقالوا: ربَّنا أعطِنا مِن عِندِك رحمةً تُثبِّتُنا بها، ويَسِّرْ لنا أسبابًا توصِلُنا إلى ما تُحِبُّ، فألقَينا عليهم نَوْمًا ثَقيلًا عَميقًا سِنينَ كَثيرةً، ثمَّ أيقَظْناهم مِن نَومِهم؛ لنعلَمَ علمَ ظهورٍ ومشاهدةٍ: أيُّ الطَّائِفتَينِ المُتَنازِعَتَينِ في مُدَّةِ لُبثِهم أضبَطُ وأتقَنُ في الإحصاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾.

أي: أظَنَنْتَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أصحابَ الكَهفِ والكِتابِ[1] كانوا مِن آياتِنا

---

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرقيمِ: الكتابُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبير، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٩).

قال ابنُ عاشور: (الرَّقيمُ: كتابٌ كان معَ أصحابِ الكهفِ في كهفِهم. قيل: كَتَبوا فيه ما كانوا يدينونَ به من التوحيدِ، وقيل: هو كتابُ دينِهم؛ دينٍ كان قبلَ عيسى عليه السلامُ. وقيل: هو دينُ عيسَى. وقيل: كَتَبوا فيه الباعِثَ الذي بعَثَهم على الالتجاءِ إلى الكهفِ فِرارًا مِن كُفرِ قَومِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٠).

وقال الشنقيطي: (أظهَرُ الأقوالِ عندي بحسَبِ اللغةِ العربيَّةِ وبَعضِ آياتِ القرآنِ: أنَّ الرقيمَ معناه: المرقومُ، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» من: رقَمْتُ الكتابَ: إذا كتبْتَه، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] سواءٌ قُلنا: إنَّ الرقيمَ كتابٌ كان عندهم فيه شَرعُهم الذي تمسَّكوا به، أو لوحٌ مِن ذهَبٍ كُتِبَت فيه أسماؤُهم وأنسابُهم وقِصَّتُهم وسبَبُ خُروجِهم، أو صخرةٌ نُقِشَت فيها أسماؤهم. والعلمُ عند الله تعالى. والظاهِرُ أنَّ أصحابَ الكَهفِ والرَّقيم: طائفةٌ واحِدةٌ أضيفَت إلى شيئينِ أحَدُهما معطوفٌ على الآخرِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٦).

العَجيبةِ؟ بل في آياتِنا ما هو أعجَبُ مِن ذلك[1].

وقيل: الرقيمُ: اسمُ الجبلِ الَّذي فيه كهفُهم، وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، وعطيةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦).

وقيل: الرقيمُ: اسمُ الوادي الذي فيه الكهفُ، وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وعطيةُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦).

وقال كعبٌ: هو اسمُ القريةِ التي خرَجوا منها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢١).

وقال السعدي: (وليس المرادُ بهذا النَّفيِ أن تكونَ قِصَّةُ أصحابِ الكَهفِ مِن العجائِبِ، بل هي من آياتِ اللهِ العَجيبةِ، وإنَّما المرادُ أنَّ جِنسَها كثيرٌ جِدًّا؛ فالوقوفُ معها وَحدَها في مقامِ العَجَبِ والاستغرابِ: نَقصٌ في العِلمِ والعَقلِ، بل وظيفةُ المؤمِنِ التفَكُّرُ بجميعِ آيات الله، التي دعا اللهُ العبادَ إلى التفكيرِ فيها؛ فإنَّها مِفتاحُ الإيمانِ، وطريقُ العلمِ والإيقانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

وقال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ في معنى الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللهَ يقولُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ وإن استعظَمَها الناسُ وعَجِبوا منها، فليست شيئًا عجَبًا بالنسبةِ إلى قُدرتِنا وعظيمِ صُنعِنا؛ فإنَّ خَلْقَنا للسَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلَنا ما على الأرضِ زينةً لها، وجعْلَنا إيَّاها بعدَ ذلك صعيدًا جُرُزًا: أعظَمُ وأعجَبُ مِمَّا فعَلْنا بأصحابِ الكهفِ، ومن كَونِنا أنَمْناهم هذا الزمَنَ الطويلَ ثمَّ بعَثْناهم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٥).

وقال ابن كثير: (قال العَوفي عن ابنِ عباسٍ: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يقولُ: الذي آتيتُك مِن العِلمِ والسُّنَّة والكتابِ: أفضَلُ مِن شأنِ أصحابِ الكَهفِ والرَّقيمِ. وقال محمدُ بنُ إسحاقَ: ما أظهَرتُ مِن حُجَجي على العبادِ أعجَبُ مِن شأنِ أصحابِ الكَهفِ والرَّقيمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٨).

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا صَغَّر اللهُ تعالى أمْرَهم بالنِّسبةِ إلى جَليلِ آياتِه، وعَظيمِ بيِّناتِه، وغَريبِ مَصنوعاتِه؛ لَخَّصَ قِصَّتَهم التي عَدُّوها عَجَبًا، وتَركوا الاستِبصارَ على وحدانيَّةِ الواحِدِ القَهَّارِ، بما هو العجَبُ العَجيبُ، والنَّبأُ الغَريبُ، فقال تعالى[1]:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

أي: واذكُرْ حينَ لجأ أولئك الشَّبابُ إلى كَهفِ جَبَلٍ؛ خَوفًا مِن أن يَفتِنَهم قَومُهم الكُفَّارُ عن دِينِهم[2].

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

أي: فبادَرَ أولئك الشَّبابُ حين أَوَوا إلى الكَهفِ إلى الدُّعاءِ، فقالوا: ربَّنا أعطِنا مِن عِندِك رحمةً عَظيمةً تَرحَمُنا بها[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الظَّرفَ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ محذوفٍ تَقديرُه: (اذكر): الواحدي، والرازي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ (إذ) ظَرفٌ مُضافٌ إلى الجُملةِ بَعدَه، متعَلِّقٌ بـ﴿كَانُوا۟﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

أي: وأعِدَّ لنا أسبابًا وأحوالًا تكونُ عاقِبَتُها حُصولَ ما خَوَّلْتَنا مِن الثَّباتِ على الحَقِّ، والنَّجاةِ من المُشرِكينَ، وحُصُولَ العِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ به، فيكونُ أمرُ دِينِنا ودُنيانا صالِحًا مُوافِقًا للصَّوابِ(١).

قيل: الرحمةُ: هي المغفرةُ والرزقُ والأمنُ مِن الأعداءِ. وممن اختار هذا القولَ: الزمخشري، والرسعني، والشوكاني، والقاسمي، واقتَصر الواحدي والقرطبي على تفسيرِها بالمغفرةِ والرزقِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٨).

ونسَب ابنُ عطيةَ تفسيرَ الرحمةِ بالرزقِ إلى المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٩).

قال ابنُ عاشور: (سألوا رحمةً خاصَّةً وافرةً في حينِ تَوَقُّعِ ضِدِّها، وقصدوا الأمنَ على إيمانِهم مِنَ الفتنةِ، ولئلَّا يُلاقوا في اغترابِهم مشقَّةً وألمًا، وأن لا يُهينَهم أعداءُ الدِّينِ فيصيروا فتنةً للقومِ الكافرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٢، ٢٣).

قال الشنقيطي: (و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ فيها وجهان: أحدُهما أنها هنا للتجريدِ، وعليه فالمعنى: اجعَلْ لنا أمْرَنا رشدًا كُلَّه، كما تقول: لقيتُ مِن زيدٍ أسدًا، ومن عمرٍو بحرًا.

والثاني: أنَّها للتبعيض، وعليه فالمعنى: واجعَلْ لنا بعضَ أمْرِنا -وهو البعضُ الذي نحن فيه من مُفارقةِ الكُفَّارِ- رشَدًا، حتى نكونَ بسَبَبِه راشدين مُهتَدين). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٧).

وقال ابن عاشور: (الأمرُ هنا: الشأنُ والحالُ الذي يكونون فيه، وهو مجموعُ الإيمانِ والاعتصامِ إلى محَلِّ العُزلةِ عن أهلِ الشِّركِ. وقد أعدَّ الله لهم مِن الأحوالِ ما به رُشدُهم؛ فمِن ذلك صَرفُ أعدائِهم عن تتبُّعِهم، وأنْ ألهَمَهم موضِعَ الكهفِ، وأنْ كان وضعُه على جهةٍ صالحةٍ ببقاءِ أجسامِهم سليمةً، وأنْ أنامَهم نومًا طويلًا ليمضيَ عليهم الزمَنُ الذي تتغَيَّرُ فيه أحوالُ المدينةِ، وحصَل رُشدُهم إذ ثَبَتوا على الدِّينِ الحَقِّ، وشاهدوه منصورًا مُتَّبَعًا، وجعَلَهم آيةً للنَّاسِ على صِدقِ الدِّينِ، وعلى قُدرةِ الله، وعلى البَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٧).

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾.

أي: فألقَيْنا عليهم نَوْمًا ثَقيلًا عَميقًا لِسِنينَ ذواتِ عَدَدٍ كثيرٍ[(١)].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أيقَظْناهم مِن نَوْمِهم -بعدَ مُضِيِّ تلك السِّنينَ الكَثيرةِ- لنعلمَ علمًا يَظهرُ في الوجودِ[(٢)]: أيُّ الفَريقَينِ المُختَلِفَينِ في مِقدارِ نَومِهم في الكَهفِ[(٣)]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٢) قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقولُه: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ ونحوُ ذلك؛ فهذا هو العِلمُ الذي يتعَلَّقُ بالمَعلومِ بعدَ وُجودِه، وهو العِلمُ الذي يترتَّبُ عليه المدحُ والذَّمُّ، والثَّوابُ والعِقابُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩٦).

وقال الشِّنقيطي: (معنى ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: نعلمَ ذلك عِلمًا يُظهِرُ الحقيقةَ للنَّاسِ، فلا يُنافي أنَّه كان عالِمًا به قبلَ ذلك دونَ خَلْقِه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٤).

(٣) قيل: هما فَريقانِ مِن أصحابِ الكَهفِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٠٨).

ويحتملُ أنَّ الحِزبَينِ مِن أهلِ زمانِهم، فاختلفوا فيهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩-٢٠).

قال ابن عاشور: (فالوجهُ: أنَّ المرادَ بالحزبيْنِ حِزبانِ مِنَ النَّاسِ؛ أهلِ بَلَدِهم اخْتَلَفَتْ أقوالُهم في مُدَّةِ لُبْثِهم بعدَ أنْ علموا انبعاثَهم مِنْ نومَتِهم، أحدُ الفريقينِ مصيبٌ والآخَرُ مخطِئٌ، واللَّهُ يعلمُ المصيبَ منهم والمخْطِئَ، فهما فريقانِ في جانِبَيْ صوابٍ وخطأٍ كما دلَّ عليه قولُه: ﴿أَحْصَىٰ ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٩).

وجمع ابنُ عثيمين بين القَولينِ فقال: (تنازعوا أمْرَهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وقال

أضبَطُ وأتقَنُ في حِسابِ تلك المُدَّةِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ فيه لفتٌ للعقولِ عن الاشتغالِ بعجائبِ القصصِ إلى أنَّ الأَوْلَى الاتِّعاظُ بما فيها مِن العبرِ والأسبابِ وآثارِها؛ ولذلك ابْتُدِئَ ذكرُ أحوالِهم بقولِه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فأعْلَم النَّاسَ بثباتِ إيمانِهم باللَّهِ ورَجائِهم فيه، وبقولِه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ...﴾ الآياتِ [الكهف: ١٣]، الدَّالِّ على أنَّهم أبْطَلوا الشِّرْكَ، وسَفَّهوا أهلَه؛ تعريضًا بأنَّ حقَّ السَّامِعينَ أنْ يَقْتَدوا بهُداهم[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هذه الآيةُ صَريحةٌ في الفِرارِ بالدِّينِ، وهِجرةِ الأهلِ والبَنينَ، والقَراباتِ والأصدقاءِ، والأوطانِ والأموالِ؛ خَوفَ الفِتنةِ وما يَلقاه

آخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، ثمَّ الناسُ مِن بعدِهم اختلفوا كم لَبِثوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٥).

وقيل: المرادُ بالحزبينِ: أصحابُ الكهفِ، والحزبُ الثاني هم أهلُ المدينةِ الذين بُعِث الفتيةُ على عهدِهم. وهذا الذي استَظْهَره القرطبي، ونسَب القولَ به إلى جمهورِ المفسِّرينَ، واختاره ابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٦، ١٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

قال السعدي: (وفي العِلمِ بمِقدارِ لُبثِهم ضَبطٌ للحِسابِ، ومعرفةٌ لكَمالِ قُدرةِ الله تعالى وحِكمتِه ورَحمتِه، فلو استمَرُّوا على نَومِهم، لم يحصُلِ الاطِّلاعُ على شَيءٍ مِن ذلك من قِصَّتِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٩).

الإنسانُ مِن المِحنةِ، وقد خرج النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فارًّا بدِينِه وكذلك أصحابُه، وجلس في الغارِ -وقد نَصَّ اللهُ تعالى على ذلك في سورةِ «التَّوبة»- وهَجَروا أوطانَهم، وتَرَكوا أرْضَهم ودِيارَهم، وأهالِيَهم وأولادَهم، وقَراباتِهم وإخوانَهم؛ رجاءَ السَّلامةِ بالدِّينِ، والنَّجاةِ مِن فِتنةِ الكافرينَ[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ جَمَعوا بين السَّعيِ والفرارِ مِن الفِتنةِ إلى محَلٍّ يُمكِنُ الاستِخفاءُ فيه، وبين تَضَرُّعِهم وسُؤالِهم لله تَيسيرَ أُمورِهم، وعَدَمِ اتِّكالِهم على أنُفسِهم وعلى الخَلقِ؛ فلذلك استجابَ اللهُ دُعاءَهم، وقَيَّضَ لهم ما لم يَكُنْ في حِسابِهم[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ الشُّبَّانُ أقبَلُ للحَقِّ وأهدى للسَّبيلِ مِن الشُّيوخِ[3]؛ ولهذا كان أكثرُ المستجيبينَ لِلَّه ولرَسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ شَبابًا، وأَمَّا المشايخُ مِنْ قُرَيْشٍ فعامَّتُهم بَقُوا علَى دِينِهم، ولم يُسْلِمْ منهم إلَّا القليلُ. وهكذا أخبرَ تعالَى عن أصحابِ الكهفِ أنَّهم كانوا فتيةً شبابًا[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ خَصَّصَ سُبحانَه وتعالى الآذانَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها الجارِحةُ التي منها عُظْمُ فَسادِ النَّومِ، وقَلَّما يَنقَطِعُ نَومُ نائمٍ إلَّا مِن جِهةِ أُذُنِه، ولا يَستَحكِمُ نَومٌ إلَّا مع تعَطُّلِ السَّمعِ، ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠).

ذِكرِ الأُذُنِ في النَّومِ قَولُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ذلك رجُلٌ بال الشَّيطانُ في أُذُنِه))[١]، أشار عليه السَّلامُ إلى رجُلٍ طَويلِ النَّومِ لا يَقومُ باللَّيلِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ في النَّومِ المَذكورِ حِفظٌ لقُلوبِهم من الاضطرابِ والخَوفِ، وحِفظٌ لهم مِن قَومِهم، ولِيَكونَ آيةً بيِّنةً[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ فيه دَليلٌ على صِحَّةِ القَولِ بالكَراماتِ[٤]؛ فإنَّ بقاءَهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ بلا آفةٍ: مِنْ أعظمِ الخوارقِ[٥].

٥- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ سَمَّى سُبحانَه وتعالى الاستِيقاظَ مِن النَّومِ بَعثًا؛ لأنَّ النَّومَ وَفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾[الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[الزمر: ٤٢]؛ فالنَّومُ وَفاةٌ[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ المقصودُ من هذه القِصَّةِ إثباتُ البعثِ بعدَ الموتِ؛ فكان في ذِكْرِ لفظِ (البَعثِ) تَنبيهٌ على أنَّ في هذه الإفاقةِ دليلًا على

(١) أخرجه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٣٠).
(٥) يُنظر: ((لوامع الأنوار البهية)) للسفاريني (٢/ ٣٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٣-٢٤).

إمكانِ البَعثِ وكيفيَّتِه[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ (أمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ من غرَضٍ إلى غرضٍ[(٢)]، ولمَّا كان هذا من المقاصِدِ الَّتي أُنزِلَتِ السُّورةُ لبَيانِها، لم يكُنْ هذا الانتقالُ اقتضابًا، بلْ هو كالانتقالِ من الدِّيباجةِ والمُقدِّمةِ إلى المقصودِ، على أنَّ مُناسبةَ الانتقالِ إليه تتَّصِلُ بقولِه تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]؛ إذ كان ممَّا صرَفَ المُشرِكين عن الإيمانِ إحالتُهم الإحياءَ بعدَ الموتِ، فكان ذِكْرُ أهْلِ الكهفِ وبعْثِهم بعدَ خُمودِهم سِنينَ طويلةً مِثالًا لإمكانِ البعْثِ[(٣)].

- والاستفهامُ المُقدَّرُ بعدَ (أمْ) تعجبيٌّ، والتَّقديرُ: أحسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ كانوا عجَبًا من بينِ آياتِنا، أي: أعجَبَ من بقيَّةِ آياتِنا؛ فإنَّ إماتةَ الأحياءِ بعدَ حياتِهم أعظَمُ من عجَبِ إنامةِ أهْلِ الكهفِ؛ لأنَّ في إنامتِهم إبقاءً للحياةِ في أجسامِهم، وليس في إماتةِ الأحياءِ إبقاءٌ لشَيءٍ من الحياةِ فيهم على كثرتِهم وانتشارِهم. وهذا تَعريضٌ بغَفلةِ الَّذين طَلبوا من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ بَيانَ قِصَّةِ أهْلِ الكهفِ لاستعلامِ ما فيها من العجَبِ، بأنَّهم سَألوا عن عجيبٍ، وكفَروا بما هو أعجَبُ، وهو انقراضُ العالَمِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٥٩).

- ومعنى ﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ التَّبعيضُ، أي: ليست قِصَّةُ أهْلِ الكهْفِ مُنفردةً بالعجَبِ من بينِ الآياتِ الأُخرى. أو تُجعَلُ للظَّرفيَّةِ، أي: كانوا عجبًا في آياتِنا، أي: وبقيَّةُ الآياتِ ليست عجَبًا، وهذا نِداءٌ على سُوءِ نظَرِهم؛ إذ يُعلِّقون اهتمامَهم بأشياءَ نادرةٍ، وبين يدَيْهم من الأشياءِ ما هو أجدَرُ بالاهتمامِ[1].

- قولُه: ﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أخبَرَ عن أصحابِ الكهفِ بالعجَبِ، وإنَّما العجَبُ حالُهم في قومِهم، فثَمَّ مُضافٌ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه الكلامُ، وأيضًا أخبَرَ عن حالِهم بالمصدَرِ ﴿عَجَبًا﴾؛ مُبالغةً، والمُرادُ (عَجيب)[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

- قولُه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ (إذ) ظرفٌ مُضافٌ إلى الجُملةِ بعدَه، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿كَانُواْ﴾ [الكهف: ٩]، فتكونُ هذه الجُملةُ مُتَّصلةً بالَّتي قبلها. أو مُتعلِّقٌ بفعْلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: (اذْكُر)؛ فتكونُ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا للجُملةِ الَّتي قبْلها، والمقصودُ على كِلا الأمرينِ: إجمالُ قِصَّتِهم ابتداءً؛ تَنبيهًا على أنَّ قِصَّتَهم ليست أعجَبَ آياتِ اللهِ، مع التَّنبيهِ على أنَّ ما أكرَمَهم اللهُ به من العِنايةِ إنَّما كان تأييدًا لهم لأجْلِ إيمانِهم؛ فلذلك عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[3].

- قولُه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ فالفتيةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٦٥).

هم أصحابُ الكهْفِ المَذكورونَ في الآيةِ الَّتي قبْلُ، ومُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (إذ أوَوا)؛ فعُدِلَ عن ذلك لِما يدُلُّ عليه لفظُ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ من كونِهم أترابًا مُتقاربي السِّنِّ، وذِكْرُهم بهذا الوصفِ؛ للإيماءِ إلى ما فيه من اكتمالِ خُلقِ الرُّجوليَّةِ المُعبَّرِ عنه بالفُتوَّةِ الجامعِ لمعنى سَدادِ الرَّأيِ، وثَباتِ الجأْشِ، والدِّفاعِ عن الحقِّ؛ ولذلك عُدِلَ عن الإضمارِ فلم يُقَلْ: (إذ أوَوا إلى الكهفِ)[1]. وقيل: إنَّما أُبرِزَ الضميرُ لبيانِ أنَّهم شُبَّانٌ ليسوا بكَثيري العَددِ؛ فليستْ لهم أسنانٌ استفادوا بها من التَّجارِبِ والتعلُّمِ ما اهتَدَوا إليه من الدِّين والدُّنيا، ولا كثرةٌ حُفِظوا بها ممَّن يُؤذيهم أيقاظًا ورُقودًا[2].

- قولُه: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ دلَّتِ الفاءُ في جُملةِ ﴿فَقَالُوا۟﴾ على أنَّهم لمَّا أوَوا إلى الكهف، بادروا بالابتهالِ إلى اللهِ، ودَعوا اللهَ أنْ يُؤتِيَهم رحمةً من لَدُنْه، وذلك جامعٌ لخيرِ الدُّنيا والآخرةِ، أي: أنْ يمُنَّ عليهم برحمةٍ عظيمةٍ تُناسِبُ عِنايتَه باتِّباعِ الدِّينِ الَّذي أمَرَ به؛ فزيادةُ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ للتَّعلُّقِ بفعْلِ الإيتاءِ تُشيرُ إلى ذلك؛ لأنَّ في (مِن) معنى الابتداءِ، وفي (لَدُن) معنى العِنديَّةِ والانتسابِ إليه؛ فذلك أبلَغُ ممَّا لو قالوا: (آتِنا رحمةً)، ثمَّ سألوا اللهَ أنْ يُقدِّرَ لهم أحوالًا تكونُ عاقِبتُها حُصولَ ما خوَّلَهم من الثَّباتِ على الدِّينِ الحقِّ، والنَّجاةَ من مُناوأةِ المُشرِكين؛ فعُبِّرَ عن ذلك التَّقديرِ بالتَّهيئةِ الَّتي هي إعدادُ أسبابِ حُصولِ الشَّيءِ[3].

- وفي قولِه: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ تقديمُ المُجرورَين -﴿لَنَا﴾ و﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾- على المفعولِ الصَّريحِ ﴿رَشَدًا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٦).

لإظهارِ الاعتناءِ بهما، وإبرازِ الرَّغبةِ في المُؤخَّرِ بتقديمِ أحوالِه؛ فإنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ عمَّا هو من أحوالِه المُرغِّبةِ فيه، كما يُورِثُ شوقَ السَّامعِ إلى وُرودِه، يُنْبِئُ عن كَمالِ رَغبةِ المُتكلِّمِ فيه، واعتنائِه بحُصولِه لا مَحالةَ، وكذا الكلامُ في تَقديمِ قولِه تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ على تقديرِ تعلُّقِه بـ ﴿ءَاتِنَا﴾. وتَقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾؛ للإيذانِ من أوَّلِ الأمْرِ بكونِ المَسؤولِ مرغوبًا فيه لدَيْهم[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ تَفريعُ هذه الجُملةِ بالفاءِ إمَّا على جُملةِ دُعائِهم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً...﴾؛ فيُؤذِنُ بأنَّ مَضمونَها استجابةُ دَعوتِهم، فجعَلَ اللهُ إنامتَهم كرامةً لهم، بأنْ سلَّمَهم من التَّعذيبِ بأيدي أعدائِهم، وأيَّدَ بذلك أنَّهم على الحقِّ، وأرى النَّاسَ ذلك بعدَ زمَنٍ طويلٍ. وإمَّا على جُملةِ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ ...﴾؛ فيُؤذِنُ بأنَّ اللهَ عجَّلَ لهم حُصولَ ما قَصَدوه ممَّا لم يكُنْ في حُسبانِهم[2].

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿فَضَرَبْنَا﴾ لظُهورِه، أي: ضرَبْنا على آذانِهم غِشاوةً أو حائلًا عن السَّمعِ، كما يُقال: بنى على امرأتِه، تَقديرُه: بنى بيتًا[3].

- قولُه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الضَّربُ على الآذانِ كِنايةٌ عن الإنامةِ؛ لأنَّ النَّومَ الثَّقيلَ يَستلزِمُ عدمَ السَّمعِ؛ لأنَّ السَّمعَ السَّليمَ لا يَحجُبُه إلَّا النَّومُ، بخِلافِ البَصرِ الصَّحيحِ، فقد يُحْجَبُ بتَغميضِ الأجفانِ، وهذه الكِنايةُ من

---

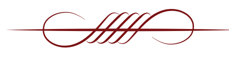
(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٤).

خَصائصِ القُرآنِ لم تكُنْ معروفةً قبْلَ هذه الآيةِ، وهي من الإعجازِ[١]. وعُبِّرَ بالضَّربِ؛ ليدُلَّ على قُوَّةِ المُباشَرةِ واللُّصوقِ واللُّزومِ[٢].

- قولُه: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ فيه وصْفُ السِّنينَ بـ﴿عَدَدًا﴾، وهو للتَّكثيرِ؛ لأنَّه لا يُحْتاجُ أنْ يُعَدَّ إلَّا ما كثُرَ لا ما قَلَّ، وهو الأنسبُ بإظهارِ كَمالِ القُدرةِ. وقيل: للتَّقليلِ، وهو الأليقُ بمَقامِ إنكارِ كونِ القِصَّةِ عجَبًا من بين سائرِ الآياتِ العجيبةِ؛ فإنَّ مُدَّةَ لُبْثِهم كبعضِ يومٍ عنده عَزَّ وجَلَّ[٣]. وقد أُجْمِلَ العددُ هنا تَبعًا لإجمالِ القصَّةِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٦٨).

الآيات (١٣-١٥)

﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾: أي: ثبَّتْنا قلوبَهم، وألْهَمناهم الصَّبرَ، وأصلُ (ربط): يدُلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ[(١)].

﴿شَطَطًا﴾: أي: قولًا جائِرًا بعيدًا عن الحَقِّ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على البُعدِ[(٢)].

﴿بِسُلۡطَٰنِۭ﴾: أي: بحُجَّةٍ، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن أجمَلَ الله تعالى الكلامَ عن أصحابِ الكهفِ أخَذ يُفصِّلُ قصتَهم، فقال تعالى: نحن نَقُصُّ عليك -يا مُحَمَّدُ- خبَرَ أصحابِ الكَهفِ بالصِّدقِ، إنَّ أصحابَ الكَهفِ شَبابٌ آمنوا باللهِ، وزِدْناهم ثَباتًا وهُدًى، وثبَّتْنا قُلوبَهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٥)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ١٠٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).



بالإيمانِ، حين قاموا فقالوا: رَبُّنا هو رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ، لن نَعبُدَ غَيرَه مِن الآلهةِ، لو عَبَدْنا غيرَه لكُنَّا قد قُلْنا قَولًا جائِرًا بعيدًا عن الصَّوابِ والحَقِّ، هؤلاء قَومُنا اتَّخذوا آلِهةً غَيرَ اللهِ تعالى، فهلَّا يأتونَ بدَليلٍ واضِحٍ على صِحَّةِ عبادتِهم لها، فلا أحَدَ أشَدُّ ظُلْمًا ممَّن اختَلَقَ على اللهِ الكَذِبَ، فادعى شريكًا له في الألوهيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾.

أي: نحن -يا مُحَمَّدُ- لا غَيرُنا نَروي لك خبَرَ أصحابِ الكَهفِ بالصِّدقِ المُطابِقِ للواقِعِ، واليَقينِ الذي لا شَكَّ فيه[1].

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾.

أي: إنَّ أصحابَ الكَهفِ شَبابٌ آمَنُوا باللهِ حقًّا[2]، فوحَّدُوه ولم يُشرِكُوا به شَيئًا[3].

﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٦).

(٢) قال ابن كثير: (ذُكِرَ أنَّهم كانوا على دينِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام، والله أعلم. والظَّاهِرُ أنَّهم كانوا قبل مِلَّةِ النصرانيَّة بالكليَّةِ؛ فإنَّهم لو كانوا على دينِ النصرانيَّة لما اعتنى أحبارُ اليهود بحِفظِ خَبرِهم وأمْرِهم؛ لِمُباينتِهم لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

أي: وبسَبَبِ أصلِ اهتدائِهم مِن قَبلُ إلى الإيمانِ، زِدْناهم إيمانًا، وعِلمًا بالحقِّ، وعملًا صالحًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾.

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: وشَدَدْنا على قُلوبِهم، وثَبَّتْناها بالإيمانِ والصَّبرِ، فاشتَدَّ عَزمُهم، وقَوِيَ صَبْرُهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾.

أي: رَبَطْنا على قُلوبِهم حِينَ(٣) قاموا لله، فقالوا مُعلِنينَ الحَقَّ(٤): رَبُّنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٢٦).

(٣) قال ابنُ عاشور: (﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ ظَرفٌ للرَّبطِ، أي: كان الرَّبطُ في وَقتِ قيامِهم، أي: كان ذلك الخاطِرُ الذي قاموا به مُقارِنًا لِرَبطِ الله على قُلوبِهم، أي: لولا ذلك لَمَا أقدَموا على مِثلِ ذلك العَمَلِ وذلك القَولِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٢).

(٤) قيل: قاموا بين يَدَي مَلِكِهم. وممَّن قال بهذا: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩).

الذي خلَقَنا ويَملِكُنا ويَرزُقُنا ويُدَبِّرُ أمورَنا، هو الرَّبُّ المتفَرِّدُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ ومِلْكِها وتَدبيرِها، لن نَعبُدَ[1] غَيرَه أبدًا؛ فهو الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شريكَ له[2].

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

أي: لو دَعَوْنا غيرَ اللهِ لَكُنَّا قد أفرَطْنا وغَلَوْنا في قَولِ الكَذِبِ، والتحَدُّثِ بالباطِلِ والبهتانِ[3].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَحَّد هؤلاء الفِتيةُ اللهَ تعالى، ورَفَضوا ما دُونَه مِن الآلهةِ، وذكَروا ما مَنَّ

وقيل: قاموا في قَومِهم. وممن قال بذلك: ابنُ عثيمين، وذكره ابنُ عاشورٍ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ يحتَمِلُ مَعنَيينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ هذا وَصفَ مُقامِهم بينَ يَدَيِ المَلِك الكافِرِ؛ فإنَّه مقامٌ يَحتاجُ إلى الرَّبطِ على القَلبِ؛ حيث صَلُبوا عليه، وخالفوا دينَه، ورَفَضوا في ذاتِ اللهِ هَيبَتَه، والمعنى الثاني: أن يُعَبَّرَ بالقيامِ عن انبعاثِهم بالعَزمِ إلى الهُروبِ إلى الله، ومُنابَذةِ النَّاسِ، كما تقولُ: قام فلانٌ إلى أمرِ كذا: إذا اعتَزَم عليه بغايةِ الجِدِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠١).

(١) قال ابنُ عثيمين: (﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ لن نَدعُوَ -دُعاءَ مسألةٍ ولا دُعاءَ عِبادةٍ- إلَهًا سِواه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير القشيري)) (٢/ ٣٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٦، ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٥، ٢١٦).

اللهُ به عليهم مِن الإيمانِ والهُدى؛ التَفَتوا إلى ما كان عليه قَومُهم مِن اتِّخاذِ الآلِهةِ مِن دونِ اللهِ، وأخَذُوا في ذَمِّهم وسُوءِ فِعلِهم، وأنَّهم لا حُجَّةَ لهم في عبادةِ غيرِ الله، ثمَّ عَظَّموا جُرْمَ مَن افترَى على اللهِ كَذِبًا[1].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾.

أي: قال الفِتيةُ المُؤمِنونَ[2]: هؤلاءِ أهلُ عَصْرِنا وبَلَدِنا اتَّخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها[3].

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖ﴾.

أي: فهلَّا يأتي قَومُنا بحُجَّةٍ واضِحةٍ تدُلُّ على صَوابِ عِبادةِ تلك الآلهةِ التي يَتَّخِذونَها[4]؟!

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّه تَسَبَّبَ عن عَجزِهم عن دَليلٍ أنَّهم أظلَمُ الظَّالِمينَ؛ لافتِعالِهم الكَذِبَ عن مَلِكِ المُلوكِ ومالِكِ المُلكِ؛ فلذلك قالوا[5]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا﴾ مَقالةٌ تَصلُحُ أن تكونَ مِمَّا قالوا في مقامِهم بين يَدَي المَلِك، وتصلُحُ أن تكونَ مِن قَولِ بَعضِهم لبعضٍ عند قيامِهم للأمرِ الذي عَزَموا عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٢٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

أي: فلا أحدَ أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَقَ الكَذِبَ على اللهِ، فادَّعى أنَّ له شَريكًا يُعبَدُ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ مَن آمَنَ برَبِّه وأطاعَه، زاده رَبُّه هُدًى؛ لأنَّ الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِن الهُدى والإيمانِ(٢)، وإنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها، ومَن عمِل بما يعلمُ أورَثه الله تعالى علمَ ما لم يعلَمْ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ مَن كان في طاعةِ رَبِّه جَلَّ وعَلا، أنَّه تعالى يُقَوِّي قَلْبَه، ويُثَبِّتُه على تحَمُّلِ الشَّدائِدِ، والصَّبرِ الجَميلِ(٤).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أنَّ المؤمنَ أحوجُ شيءٍ إلى أن يربِطَ الله على قلبِه، ولولا ذلك الربطُ افتتنوا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ هؤلاء افتَرَوا على اللهِ كَذِبًا، وذلك أنَّهم أشركوا معه غيرَه في الإلهيَّةِ؛ فقد كَذَبوا عليه في ذلك؛ إذ أثبتوا له صِفةً مُخالِفةً للواقِعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٤٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٤٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ هذا مِن جُموعِ القِلَّةِ، ويدُلُّ على أنَّهم كانوا دونَ العَشرةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ وأمثالِها غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ -كالبُخاريِّ وغَيرِه- على زيادةِ الإيمانِ وتَفاضُلِه، وأنَّه يزيدُ ويَنقُصُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على ذلك(٢).

٣- قال اللهُ تعالى عن أهلِ الكَهفِ: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ قاموا فذَكَروا اللهَ على هِدايَتِه، وشَكَروا لِمَا أَولاهم مِن نِعْمَتِه، ثُمَّ هامُوا على وُجوهِهم مُنقَطِعينَ إلى رَبِّهم، خائِفينَ مِن قَومِهم، وهذه سُنَّةُ اللهِ في الرُّسُلِ والأنبياءِ والفُضَلاءِ الأولياءِ(٣).

٤- قال اللهُ تعالى عن أهلِ الكَهفِ: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾، فاستَدَلُّوا بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولهذا قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾(٤).

عبد الوهاب).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

٥- قال تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أي: لو دَعَوْنا وعَبَدْنا مِن دونِه إلهًا واللهِ لقد قُلْنا إذًا شَطَطًا، واستلزامُ العبادةِ القَولَ؛ لِمَا أنَّها لا تَعرَى عن الاعترافِ بألوهيَّةِ المعبودِ، والتضَرُّعِ إليه، وفي هذا القَولِ دَلالةٌ على أنَّ الفِتيةَ دُعُوا لعبادةِ الأصنامِ، ولِيمُوا على تَركِها[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾

- هذا شُروعٌ في مُجمَلِ القصَّةِ والاهتمامِ بمَواضعِ العِبْرةِ منها[2]، وقُدِّمَ منها ما فيه وصْفُ ثَباتِهم على الإيمانِ، ومُنابذتِهم قومَهم الكَفَرةَ، ودُخولِهم الكهْفَ. ولمَّا اقْتَضى قولُه قبْلُ: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ﴾ أنَّ في نبَأِ أهْلِ الكهْفِ تَخرُّصاتٍ ورجْمًا بالغيبِ؛ أثارَ ذلك في النَّفسِ تطلُّعًا إلى معرفةِ الصِّدقِ في أمْرِهم، من أصْلِ وُجودِ القصَّةِ إلى تَفاصيلِها، من مُخبِرٍ لا يُشَكُّ في صِدْقِ خبَرِه؛ فكانت جُملةُ ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ استئنافًا بيانيًّا لجُملةِ ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾[3].

- قولُه: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَّحۡنُ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿نَقُصُّ﴾ يُفيدُ الاختصاصَ، أي: نحن لا غيرُنا يقُصُّ قصَصَهم بالحقِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٠-٢٧١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧١).

- والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: القَصصُ المُصاحِبُ للصِّدقِ لا للتَّخرُّصاتِ(١).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟﴾ مُبيِّنةٌ للقصصِ والنَّبأِ. وافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ، لا لردِّ الإنكارِ(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ استئنافٌ تَحقيقيٌّ مَبْنيٌّ على تَقديرِ السُّؤالِ من قِبَلِ المُخاطَبِ(٣).

- قولُه: ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ، حيث لم يقُلْ: (آمَنوا بِنا)؛ للإشعارِ بعِلِّيَّةِ وصْفِ الرُّبوبيَّةِ لإيمانِهم، ولمُراعاةِ ما صدَرَ عنهم من المقالةِ حسَبَما سيُحْكَى عنهم(٤)، أو للإشعارِ بتلك الرُّتبةِ؛ وهي أنَّهم مَرْبوبون له مَمْلوكون(٥).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ﴾ الْتِفاتٌ من الغَيبةِ إلى ما عليه سَبْكُ النَّظمِ سِباقًا وسِياقًا من التَّكلُّمِ، ولم يأْتِ التَّركيبُ: (وزادهم)؛ لِما في لفظةِ (نا) من العَظمةِ والجَلالِ(٦).

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾

- قولُه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لمَّا كان الفزَعُ وخوفُ النَّفسِ يُشْبِهُ بالتَّناسُبِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

الانحلالَ، حسُنَ في شِدَّةِ النَّفسِ وقُوَّةِ التَّصميمِ أنْ تُشْبِهَ الرَّبطَ[١].

- قولُهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ عَرَّفوا اللهَ تعالى بطريقِ الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ إمَّا لأنَّهم عُرِفوا من قبْلُ بأنَّهم عَبَدوا اللهَ المُنزَّهَ عن خَصائصِ المُحدَثاتِ، وإمَّا لأنَّ اللهَ لم يكُنْ مَعروفًا باسمِ علَمٍ عندَ أولئك المُشرِكين؛ فلم يكُنْ طَريقٌ لتَعريفِهم الإلهَ الحقَّ إلَّا طريقَ الإضافةِ، هذا إنْ كان القولُ مَسوقًا إلى قومِهم المُشرِكين؛ قَصَدوا به موعظةَ قومِهم بدونِ مُواجهةِ خِطابِهم؛ استِنزالًا لطائرِهم على طَريقةِ التَّعريضِ من بابِ (إيَّاكِ أعْني فاسْمَعي يا جارةُ)، واستقصاءً لتَبليغِ الحقِّ إليهم، أو قَصَدوا به إعلانَ إيمانِهم بين قومِهم، وإظهارَ عدَمِ الاكتراثِ بتَهديدِ الملِكِ وقومِه. وإنْ كان هذا القولُ قد جرى بينهم في خاصَّتِهم تَمهيدًا لقولِهم: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ...﴾، وتضمَّن التعريفُ بالإضافةِ تَشريفًا لأنفُسِهم[٢]، وضَمَّنوا دَعواهم ما يُحقِّقُ فَحواها، ويَقْضي بمُقتضاها؛ فإنَّ رُبوبيَّتَه عَزَّ وجَلَّ للسمواتِ والأرضِ تَقْتضي رُبوبيَّتَه لِما فيهما[٣]، وفيه تأكيدُ هذا التَّوحيدِ بالبَراءةِ من إلهٍ غيرِه بلفْظِ النَّفيِ (لن) المُستغرِقِ تأبيدَ الزَّمانِ على قولٍ[٤].

- قولُهم: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ فيه ذِكْرُ الدُّعاءِ دُونَ العِبادةِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يشمَلُ الأقوالَ كلَّها من إجراءِ وصْفِ الإلهيَّةِ على غيرِ اللهِ، ومن نِداءِ غيرِ اللهِ عندَ السُّؤالِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

- وفي قولِه: ﴿إِلَٰهًا﴾ العُدولُ عن أنْ يُقالَ: (ربًّا)؛ للتَّنصيصِ على رَدِّ المُخالِفين؛ حيث كانوا يُسمُّون أصنامَهم آلهةً، وللإشعارِ بأنَّ مَدارَ العِبادةِ وصْفُ الأُلوهيَّةِ، وللإيذانِ بأنَّ رُبوبيَّتَه تعالى بطريقِ الألوهيَّةِ[١].

- وجُملةُ: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما أفاده توكيدُ النَّفيِ بـ (لن)[٢]. واللَّامُ في ﴿لَقَدْ﴾ لامُ توكيدٍ[٣].

- قولُه: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شطَطٍ، أي: تجاوُزًا عن الحَدِّ. أو: قولًا شَططًا، فجعَلَه هو عينَ الشَّططِ، على أنَّه وُصِفَ بالمصدرِ مُبالغةً، ثمَّ اقتُصِرَ على الوصْفِ؛ مُبالغةً على مُبالغةٍ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

- قولُه: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضَتْه جُملةُ ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾؛ إذ يَثورُ في نفْسِ السَّامعِ أنْ يَتساءلَ عمَّن يقولُ هذا الشَّططَ؟ إنْ كان في السَّامعينَ مَن لا يعلَمُ ذلك، أو بتَنزيلِ غيرِ السَّائلِ منزلةَ السَّائلِ[٥].

- والإشارةُ إلى قومِهم بـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ لقَصدِ تَمييزِهم بما سيُخْبَرُ به عنهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

وفي هذه الإشارةِ تَعريضٌ بالتَّعجُّبِ مِن حالِهم، وتَفضيحُ صُنْعِهم، واحتقارٌ لهم، وهو من لَوازمِ قصْدِ التَّمييزِ[(١)]. وجُملةُ: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ خبَرٌ عن اسمِ الإشارةِ، وهو خبَرٌ مُستعملٌ في الإنكارِ عليهم دونَ الإخبارِ؛ إذ اتِّخاذُهم آلهةً من دُونِ اللهِ معلومٌ بين المُتخاطبينَ، فليس الإخبارُ به بمُفيدٍ فائدةَ الخبَرِ[(٢)].

- في قولِه: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ تَحضيضٌ صَحِبَه الإنكارُ؛ إذ يستحيلُ وُقوعُ سُلطانٍ بيِّنٍ على ثُبوتِ الإلهيَّةِ للأصنامِ الَّتي اتَّخَذوها آلهةً، بقَرينةِ أنَّهم أنْكَروه عليهم؛ فلا يُمكِنُ فيه التَّحضيضُ الصِّرفُ؛ فانصرَفَ التَّحضيضُ إلى التَّبكيتِ والتَّغليطِ، وكان حضُّهم على ذلك على سَبيلِ التَّعجيزِ لهم، أي: اتَّخَذوا آلهةً من دُونِ اللهِ لا بُرهانَ على إلهيَّتِهم؛ فكانت هذه الجُملةُ مُؤكِّدةً للجُملةِ الَّتي قبْلَها باعتبارِ أنَّها مُستعملةٌ في الإنكارِ؛ لأنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ يُقوِّي الإنكارَ عليهم[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٥).

الآيات (١٦-١٨)

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾: أي: فارَقْتُموهم، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ[١].

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾: أي: فصِيروا إليه، واجْعَلوه مَأْواكم، والمأْوَى: المَكانُ الَّذي يُرْجَعُ إليه ليلًا أو نهارًا، يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْلُه: التَّجمُّعُ[٢].

﴿يَنشُرۡ﴾: أي: يبسُطْ ويُوسِّعْ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه[٣].

﴿مِّرۡفَقٗا﴾: أي: ما تَرتَفِقون به، أي: تَنْتَفعون به، والمِرفَقُ والمَرفِقُ: ما يُرتفقُ به، والارتفاقُ: الانتفاعُ، وأصلُ (رفق): يدُلُّ على مُوافَقةٍ ومُقارَبةٍ بلا عُنفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)،

﴿تَّزَٰوَرُ﴾: أي: تَميلُ، وأصلُ (زور): يدلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ[(١)].

﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾: أي: تُجاوِزُهم وتَدَعُهم، أي: لا تَطلُعُ في كَهفِهم، يُقالُ: قرضْتُ موضعَ كذا؛ إذا قطعتَه فجاوزتَه، وأصلُ (قرض): يدلُّ على القَطعِ[(٢)].

﴿فَجۡوَةٖ﴾: أي: مُتَّسَعٍ، وأصلُ (فجو): يدُلُّ على اتِّساعٍ في شَيءٍ[(٣)].

﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾: أي: فِناءِ الكَهفِ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٤)].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانه ما تناجَى به أولئك الفتيةُ فيما بينَهم، وما قرَّروه بعدَ اعتزالِ قومِهم، فيذكرُ أنَّ بعضَ الفتيةِ قال لِبَعضٍ: ولِكَونِكم فارَقتُم قَومَكم، وتَرَكتُم ما يَعبُدونَ مِن الآلهةِ سوى اللهِ، فالجَؤوا إلى الكَهفِ لتَعبُدوا رَبَّكم وَحدَه، يَبْسُطْ

((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

لكم ربُّكم مِن رَحمتِه، ويُسَهِّلْ لكم مِن أمْرِكم ما تَنتَفِعونَ به في حياتِكم من أسبابِ العَيشِ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ أحوالِ هؤلاء الفتيةِ بعدَ استقرارِهم في الكهفِ، وإلقاءِ النومِ عليهم، فيذكر مِن مظاهِرِ حِفظِه لهم أنَّك ترى الشَّمسَ إذا أشرَقَت تَميلُ عن الكهفِ إلى جِهةِ اليمينِ؛ لئلَّا تُصيبَهم أشعَّتُها، وإذا غَرَبت تترُكُهم وتتجاوَزُهم إلى جهةِ اليَسارِ، وهم في مكانٍ مُتَّسِعٍ مِن الكَهفِ، ذلك الذي فعَلْناه بهؤلاء الفِتيةِ مِن دلائِلِ قُدرةِ اللهِ، وعَظيمِ لُطفِه بعبادِه.

ثمَّ ختَم الله تعالى هذه الآيةَ، فقال: مَن يُوَفِّقْه اللهُ للاهتداءِ إلى الحَقِّ، فهو الموفَّقُ حقًّا، ومَنْ لم يوفِّقْه لذلك فلن تجِدَ له مُعِينًا يُرشِدُه إلى الحَقِّ.

ثم يحكي الله تعالى مشهدًا عجيبًا لأصحابِ الكهفِ، فيقولُ تعالى: وتظُنُّ أهلَ الكَهفِ -لو قُدِّر لك النَّظَرُ إليهم- أيقاظًا، وهم في الواقِعِ نِيامٌ، ونُقَلِّبُهم حالَ نَومِهم؛ مَرَّةً للجَنبِ الأيمَنِ، ومَرَّةً للجَنبِ الأيسَرِ، وكَلبُهم الذي صاحَبَهم مادٌّ ذراعَيه بِفِناءِ الكَهفِ، لو أشرفتَ عليهم وعايَنْتَهم لفرَرْتَ منهم هارِبًا، ولمُلِئَت نفسُك منهم فزَعًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا استدَلَّ الفِتيةُ على مُعتَقَدِهم، وعَلِموا سَفَهَ مَن خالَفَهم، وهم قَومٌ لا قُدرةَ لهم ولا طاقةَ بمقاوَمَتِهم؛ لِكَثرتِهم وقِلَّتِهم- تسَبَّبَ عن ذلك هِجرَتُهم؛

لِيَسلَمَ لهم دينُهم، فقال تعالى شارِحًا لِما بَقِيَ مِن أمرِهم[(١)]:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾.

أي: قال بعضُ الفِتيةِ لِبَعضٍ[(٢)]: ولأجلِ[(٣)] أنَّكم انفرَدْتُم وتباعَدْتُم عن مُخالطةِ قَومِكم الكافرينَ، وتَرَكتُم ما يَعبُدونَ مِن الآلهةِ سوى اللهِ؛ فاتَّخِذوا الكَهفَ[(٤)] مأوًى لكم؛ لِتَختَفوا فيه مِن قَومِكم، وتَعبُدوا اللهَ وَحدَه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣).

(٢) قال ابن عاشور: (يتعيَّنُ أن يكونَ هذا من كلامِ بَعضِهم لبعضٍ، على سبيلِ النُّصحِ والمشورةِ الصَّائبةِ، وليس يلزَمُ في حكايةِ أقوالِ القائلينَ أن تكون المحكيَّاتُ كُلُّها صادِرةً في وقتٍ واحدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٦).

وقيل: هو كلامٌ معترضٌ؛ إخبارٌ مِن الله تعالى عن الفتيةِ أنَّهم لم يعبدوا غيرَ الله تعالى. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٥٧).

(٣) قال الشنقيطي: («إذْ» في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ للتَّعليلِ، على التَّحقيقِ، كما قالَه ابنُ هشامٍ، وعليه فالمعنَى: ولأجلِ اعتزالِكم قومَكم الكفَّارَ وما يعبدونَه مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاتَّخِذوا الكهفَ مأوًى ومكانَ اعتصامٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢١٧).

(٤) قال ابنُ عاشور: (التعريفُ في ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ يجوزُ أن يكونَ تَعريفَ العَهدِ، بأن كان الكَهفُ مَعهودًا عندهم يتعَبَّدون فيه مِن قَبلُ، ويجوزُ أن يكونَ تَعريفَ الحقيقةِ، مثل: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣]، أي: فأْوُوا إلى كهفٍ مِن الكهوفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨١، ١٨٢)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ، بناءً على أنَّهم كانوا يعبدون اللهَ والأصنامَ. وقيل: هو استثناءٌ منقَطِعٌ، بناءً على القَولِ بأنَّهم كانوا لا يعبدون إلَّا الأصنامَ، ولا يعرفون اللهَ ولا يعبدونَه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: فإنِ اعتزَلْتُم قومَكم وما يَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ، وصِرتُم إلى الكَهفِ؛ يَبسُطْ لكم ربُّكم مِن رَحمتِه، فيَحفَظْ لكم دينَكم، ويُنجِكم مِن قومِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾.

أي: ويُسَهِّلْ لكم ربُّكم مِن أمْرِكم الذي أنتم فيه ما تَنتَفِعونَ به في أمرِ مَعيشَتِكم، فيأتِكم باليُسرِ والرِّفقِ واللُّطفِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى قَولَ بَعضِهم لبَعضٍ: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن

عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧، ٢١٨).

رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: ١٦]؛ بيَّن سبحانَه حالَهم بعد أن أَوَوا إلى الكَهفِ، مُشيرًا إلى تحقيقِ رَجائِهم في ربِّهم، وهو ما هيَّأ لهم في أمرِهم مِن مِرفَقٍ، وأنَّ ذلك جزاؤُهم على اهتدائِهم، وهو من لُطفِ اللهِ بهم[١].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾.

أي: وترى[٢] الشَّمسَ إذا أشرَقَتْ تَميلُ عن الكَهفِ[٣] الذي أوَى إليه الفِتيةُ، إلى جِهةِ يمينِه؛ لئلَّا تصيبَهم أشعَّتُها[٤].

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(٢) المخاطَبُ قيل: هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٤).

وقيل: المخاطَبُ غيرُ مُعَيَّنٍ. وممن قال بذلك: الرازي، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

قال الشنقيطي: (المعنى: أنَّك لو رأيتَهم لرأيتَهم كذلك، لا أنَّ المُخاطَبَ رآهم بالفِعلِ، كما يدُلُّ لهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾، والخِطابُ بمِثلِ هذا مشهورٌ في لغةِ العَرَبِ التي نزل بها هذا القرآنُ العظيمُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٢٠).

(٣) قال ابنُ كثير: (أخبَرَ الله تعالى بذلك، وأراد منا فَهْمَه وتدَبُّرَه، ولم يخبِرْنا بمكانِ هذا الكهفِ في أيِّ البلادِ مِن الأرضِ؛ إذ لا فائدةَ لنا فيه ولا قَصْدَ شرعيٌّ. وقد تكَلَّف بعضُ المفسِّرين فذكروا فيه أقوالًا... والله أعلم بأيِّ بلادِ الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحةٌ دينيَّةٌ لأرشَدَنا اللهُ ورسولُه إليه... فأعلَمَنا تعالى بصِفتِه، ولم يُعلِمْنا بمكانِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٨، ٢٢٠).

قال ابنُ جرير: (لأنَّها لو طلَعَت عليهم قُبالَهم لأحرَقَتْهم وثيابَهم، أو أشحَبَتْهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٧).

أي: وترَى الشَّمسَ إذا غَرَبَت تَعدِلُ عن الفتيةِ وتَترُكُهم[١] جِهةَ شِمالِ الكَهفِ، فلا يُصيبُهم شُعاعُها[٢].

---

(١) ممن قال بأن ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ بمعنى: تتركُهم فلا تصيبُهم: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (قيل: المعنى تتركُهم. وقيل: تصيبُ منهم، وهو الأقربُ؛ أنَّها تصيبُ منهم، وفائدةُ هذه الإصابةِ أن تمنَعَ أجسامَهم من التغيُّر؛ لأنَّ الشَّمسَ كما يقول الناس: إنها صِحَّةٌ وفائدةٌ للأجسامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨، ٢٧٩).

قال الرازي: (للمفسِّرين هاهنا قولان؛ القولُ الأول: أنَّ بابَ ذلك الكَهفِ كان مفتوحًا إلى جانبِ الشِّمالِ، فإذا طلعت الشمسُ كانت على يمينِ الكَهفِ، وإذا غربت كانت على شمالِه، فضوءُ الشمس ما كان يصِلُ إلى داخِلِ الكهف، وكان الهواءُ الطيِّبُ والنَّسيمُ الموافِقُ يَصِلُ. والمقصودُ أن الله تعالى صان أصحابَ الكَهفِ من أن يقع عليهم ضوءُ الشَّمسِ وإلا لفَسَدت أجسامُهم، فهي مصونةٌ عن العُفونةِ والفسادِ. والقَولُ الثاني: أنَّه ليس المرادُ ذلك، وإنما المرادُ أنَّ الشَّمسَ إذا طلعت منع اللهُ ضوءَ الشَّمسِ مِن الوقوع، وكذا القَولُ حالَ غُروبِها، وكان ذلك فِعلًا خارِقًا للعادة وكرامةً عظيمةً خَصَّ اللهُ بها أصحابَ الكَهفِ، وهذا قَولُ الزجَّاج، واحتجَّ على صِحَّتِه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: ولو كان الأمرُ كما ذكره أصحابُ القَولِ الأول لكان ذلك أمرًا معتادًا مألوفًا، فلم يكن ذلك من آياتِ الله، وأمَّا إذا حمَلْنا الآيةَ على هذا الوجهِ الثاني كان ذلك كرامةً عَجيبةً، فكانت من آياتِ الله). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٣).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: ابنُ قتيبةَ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤- ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣١).

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: والفتيةُ في مكانٍ متَّسِعٍ داخِلَ الكَهفِ[١].

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فعلُنا الذي فعَلْنا بهؤلاء الفِتيةِ؛ من تيسيرِ الكهفِ لحفظِهم فيه، وميلِ الشمسِ عنهم عندَ طلوعِها، وتركِها لهم عندَ غروبِها- مِن عجائبِ صُنعِ اللهِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرَتِه وسُلطانِه، ولُطفِه بعِبادِه[٢].

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انفِرادُهم بالهُدَى عن أهلِ ذلك القَرنِ كُلِّهم عَجَبًا؛ وصَلَ به ما إذا تؤُمِّلَ زال عجَبُه، فقال تعالى[٣]:

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾.

أي: مَن يُرشِدْه اللهُ ويوفِّقْه للاهتداءِ إلى الحَقِّ، فهو المهتدي حقًّا، مِثل

وممن اختار القول الثاني: الزجاجُ، واستظهره ابنُ جزي، وأيَّده الشوكاني، ورجَّحه الشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٧٣-٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٨-٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨).

هؤلاء الفِتيةِ الذين هداهم اللهُ مِن بَينِ قَومِهم[١].

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ، فلن تجِدَ له -يا مُحَمَّدُ- خليلًا ومُعِينًا يتولَّى إرشادَه إلى الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾.

أي: وتَظُنُّ[٣] هؤلاء الفِتيةَ -لو رأيتَهم- أيقاظًا، والحالُ أنَّهم نائِمونَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٤).

(٣) قيل: الخِطابُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠).

ومِمن قال بذلك من السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٥٢).

وقيل: الخطابُ لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تظنُّهم أيُّها المُخاطَبُ، أو أيُّها الرَّائي. وممن قال بذلك: السعدي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٤).

﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

أي: ونقلِّبُهم على جُنوبِهم؛ مرَّةً للجَنبِ الأيمَنِ، ومرَّةً للأيسَرِ[١].

قال ابن عطية: (قال أهلُ التفسيرِ: كانت أعينُهم مفتوحةً وهم نائمونَ؛ فلذلك كان الرَّائي يحسَبُهم أيقاظًا.

ويحتَمِل أن يحسَبَ الرَّائي ذلك؛ لشِدَّةِ الحِفظِ الذي كان عليهم، وقِلَّةِ التَّغيُّر، وذلك أنَّ الغالِبَ على النوَّامِ أن يكون لهم استرخاءٌ وهَيئاتٌ تقتضي النَّومَ، ورُبَّ نائمٍ على أحوالٍ لم يتغيَّرْ عن حالةِ اليقظةِ، فيَحسَبُه الرائي يقظانَ، وإن كان مسدودَ العينين، ولو صَحَّ فَتحُ أعيُنِهم بسندٍ يقطَعُ العُذرَ، كان أبيَنَ في أن يُحسَبَ عليهم التيقُّظُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ذَكَر بعضُ أهلِ العلمِ أنَّهم لَمَّا ضَرَب اللَّهُ على آذانِهم بالنَّومِ، لم تَنْطَبِقْ أعينُهم؛ لئلَّا يُسْرِعَ إليها البِلَى، فإذا بَقِيَتْ ظاهرةً للهواءِ كانَ أبقَى لها؛ ولهذا قالَ تعالَى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٣).

وقال الزجاج: (وقيل: لكثرةِ تقلُّبِهم يُظَنُّ أنَّهم غيرُ نيامٍ، ويدلُّ عليه ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

قال الشنقيطي: (وكلامُ المفسِّرينَ هنا في عددِ تَقَلُّبِهم مِنْ كثرةٍ وقِلَّةٍ لا دليلَ عليه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٢٤).

وقال ابن عاشور: (المعنى: أنَّ الله أجرى عليهم حالَ الأحياءِ الأيقاظِ، فجعَلَهم تتغَيَّرُ أوضاعُهم من أيمانِهم إلى شمائِلِهم والعكس؛ وذلك لحكمةٍ لعَلَّ لها أثرًا في بقاءِ أجسامِهم بحالةِ سَلامةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: الحكمةُ مِن تقليبِهم: أنَّهم لو لم يُقَلَّبوا لأكَلَتْهم الأرضُ. وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباس، وسعيدُ بنُ جبير، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٣٧٣).

وقيل: قلَّبَهم؛ لينالَ رَوحُ النسيمِ جميعَ أبدانِهم، ولا يتأثر ما يلي الأرضَ منها بطولِ المكثِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩).

وقيل: الحكمةُ من تقليبِهم: مِن أجلِ توازنِ الدمِ في الجسدِ، حتَّى لا يكونَ في جانبٍ واحدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾.

أي: وكَلبُ[١] هؤلاء الفِتيةِ جالسٌ على بَطنِه مادٌّ يَدَيه عندَ مَدخَلِ الكَهفِ بفِنائِه؛ لحِراستِهم[٢].

﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾.

أي: لو أشرَفْتَ[٣] على أصحابِ الكَهفِ فرأيتَهم وهم رُقودٌ، لفَرَرْتَ منهم هارِبًا[٤].

---

(١) قال ابنُ كثير: (اختلفوا في لونِه على أقوالٍ لا حاصِلَ لها، ولا طائِلَ تحتها، ولا دليلَ عليها، ولا حاجةَ إليها، بل هي مما يُنهَى عنه؛ فإنَّ مُستنَدَها رجمٌ بالغَيبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

قال ابنُ كثير: (رَبَضَ كلبُهم على البابِ كما جرَتْ به عادةُ الكلابِ. قال ابنُ جُريجٍ: يحرُسُ عليهم البابَ. وهذا مِنْ سجيَّتِه وطبيعتِه، حيثُ يَربِضُ ببابِهم كأنَّه يحرُسُهم، وكان جلوسُه خارجَ البابِ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تدخلُ بيتًا فيه كلبٌ،كما ورَد في الصحيحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤).

(٣) قال ابنُ عاشور: (الخطابُ لغيرِ معيَّنٍ، أي: لو اطلعتَ عليهم أيُّها السامعُ حينَ كانوا في تلك الحالةِ قبلَ أن يبعثَهم الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨١).

قال ابن كثير: (أي: أنَّه تعالى ألقى عليهم المهابةَ، بحيث لا يقَعُ نظَرُ أحدٍ عليهم إلَّا هابهم؛ لِما أُلبِسوا مِن المهابةِ والذُّعرِ؛ لئلَّا يدنوَ منهم أحدٌ، ولا تمَسَّهم يدُ لامسٍ، حتى يبلُغَ الكِتابُ أجَلَه، وتنقَضِيَ رِقدتُهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم؛ لِما له في ذلك من الحُجَّةِ والحِكمةِ البالغةِ، والرَّحمةِ الواسعةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٦).

﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾.

أي: ولامتلأَتْ نفسُك خَوفًا وفَزَعًا منهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ اعتزالَ المؤمِنِ قَومَه الكُفَّارَ ومَعبوديهم، مِن أسبابِ لُطفِ اللهِ به ورَحمتِه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ المشروعُ عند وُقوعِ الفِتَنِ في النَّاسِ، أن يَفِرَّ العَبدُ منهم خَوفًا على دينِه، كما جاء في الحديثِ: ((يُوشِكُ أن يكونَ خَيرَ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ[٣] ومواقِعَ القَطْرِ[٤]؛ يَفِرُّ بدِينِه مِن الفِتَنِ))[٥]، ففي هذه الحالِ تُشرَعُ العُزلةُ عن النَّاسِ، ولا تُشرَعُ فيما عداها؛

وقال القرطبي: (قيل: الفِرارُ منهم لطولِ شُعورِهم وأظفارِهم، وذكره المهدويُّ والنحَّاس والزجَّاج والقُشيري. وهذا بعيدٌ؛ لأنَّهم لَمَّا استيقَظوا قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ ودَلَّ هذا على أنَّ شُعورَهم وأظفارَهم كانت بحالِها، إلَّا أن يُقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظُروا إلى أظفارِهم وشعورِهم. قال ابن عطية: «والصحيحُ في أمرِهم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَفِظ لهم الحالةَ التي ناموا عليها؛ لتكونَ لهم ولغيرِهم فيهم آية، فلم يَبْلُ لهم ثوبٌ ولم تُغيَّرْ صِفةٌ، ولم يُنكِرِ النَّاهِضُ إلى المدينةِ إلَّا معالمَ الأرضِ والبناءِ، ولو كانت في نفسِه حالةٌ يُنكِرُها لكانت عليه أهَمَّ»). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٧).

(٣) شَعَفَ الجبالِ: أي: رُؤوسَها وأطرافَها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٣٩).

(٤) مَواقِعَ القَطرِ: أي: بُطونَ الأوديةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٦٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لِما يَفوتُ بها مِن تَركِ الجَماعاتِ والجُمَعِ[١]، فاللهُ تعالى مدَح في هذه الآيةِ مَن فَرَّ بدِينِه خَشيةَ الفِتنةِ عليه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾، وفيما تقدَّمَ أخبرَ أنَّهم دَعَوه بقولِهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠] فجَمَعوا بين التَّبرِّي مِن حَولِهم وقُوَّتِهم، والالتجاءِ إلى اللهِ في صلاحِ أمْرِهم ودُعائِه بذلك، وبين الثِّقةِ باللهِ أنَّه سيَفعَلُ ذلك[٣].

٤- يجِبُ على الإنسانِ أن يعتمِدَ على الله سبحانه وتعالى في أدَبِ أولادِه وهدايتِهم؛ فإنَّ الله تعالى هو الهادي سُبحانَه وبحمدِه؛ قال تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ وعلى هذا فالذي يحَدِّدُ نسلَه خوفًا مِن عدمِ القدرةِ على تأديبِهم، هو أيضًا مسيءُ الظَّنِّ بربِّه تبارك وتعالى، وإلَّا فالله سبحانه وتعالى بيدِه الأمورُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ فيه تَنبيهٌ إلى عدمِ سؤالِ الهِدايةِ إلَّا مِنَ اللهِ، وعدمِ الجزعِ أو السخطِ عندَ رؤيةِ مَن هو ضالٌّ؛ فالله تعالى جَعَلَ النَّاسَ على قِسمَين: مهتدٍ وضالٌّ، فلا بدَّ مِن الإيمانِ بالقدرِ، والرضَا به على كُلِّ حالٍ، وألا نَسخَطَ الإضلالَ الواقِعَ مِن اللهِ، أما المقدورُ ففيه تَفصيلٌ[٥]، ولكنْ يجبُ علينا مع ذلك أنْ نسعى في هدايةِ الخَلقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤١-١٤٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٦).

(٥) فإذا كان المقدورُ طاعاتٍ فيَجِبُ الرِّضا بها، وإذا كان المقدورُ معاصيَ فلا يجوزُ الرِّضا بها

وأنْ نُرشِدَ هؤلاء الضالِّينَ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ شَمِلَت كَلْبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابَهم مِن النَّومِ على تلك الحالِ، وهذه فائدةُ صُحبةِ الأخيارِ؛ فإنَّه صار لهذا الكلبِ ذِكرٌ وخبَرٌ وشأنٌ[٢]، فذِكْرُ هذا الكَلبِ على طولِ الآبادِ بجَميلِ هذا الرُّقادِ: مِن بركةِ صُحبةِ الأمجادِ[٣]، فمن أحبَّ أهل الخير نال مِن بركتِهم؛ فهذا الكَلبُ أحَبَّ أهلَ فَضلٍ وصَحِبَهم، فذكَرَه الله في مُحكَمِ تنزيلِه[٤]. وإذا كان بعضُ الكلابِ قد نال هذه الدَّرجةَ العليا بصُحبته ومخالطتِه الصُّلَحاءَ والأولياءَ حتى أخبَرَ الله تعالى بذلك في كتابِه جلَّ وعلا، فما ظَنُّك بالمُؤمِنين الموحِّدين المُخالطين المحِبِّين للأولياءِ والصالحين؟! بل في هذا تسليةٌ وأُنسٌ للمؤمنينَ المقصِّرينَ عن دَرَجاتِ الكمالِ، المحِبِّينَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِه[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيه اعتزالُ أهلِ الشِّركِ، واعتزالُ مَعْبوديهم[٦].

من حيثُ هي مقدورٌ، أمَّا من حيثُ كونُها قَدرَ الله، فيَجِبُ الرِّضا بتقديرِ اللهِ بكلِّ حالٍ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١٠/ ٦٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩-٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧١).

(٦) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٤٤)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فيه شدةُ صلابتِهم في دينِهم؛ حيثُ عزَموا على تركِ ما كانوا فيه مِن النعمةِ العظيمةِ، واستبدلوا بها كهفًا في رأسِ جبلٍ[١].

٣- حسنُ ظنِّ أصحابِ الكهفِ باللهِ ومعرفتُهم ثمرةَ الطاعةِ، ولو كان مباديها ذهابَ الدنيا، حيث قالوا: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[٢].

٤- قولُه: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: يمينَ الكهْفِ وشِمالَه؛ فيدُلُّ على أنَّ فَمَ الكهْفِ كان مفتوحًا إلى الشِّمالِ الشَّرقيِّ؛ فالشَّمسُ إذا طلعَتْ تطلُعُ على جانبِ الكهْفِ ولا تخترِقُه أشعَّتُها، وإذا غربَتْ كانت أشعَّتُها أبعدَ عن فَمِ الكهْفِ منها حينَ طُلوعِها، وهذا وضْعٌ عجيبٌ يسَّرَه اللهُ لهم بحكمتِه؛ ليكونَ داخلُ الكهْفِ بحالةِ اعتدالٍ، فلا يَنتابُ البِلى أجسادَهم، وذلك من آياتِ قُدرةِ اللهِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: مِن الكَهفِ، أي: مكانٍ مُتَّسِعٍ؛ وذلك لِيَطرُقَهم الهواءُ والنَّسيمُ، ويزولَ عنهم الوَخمُ والتأذِّي بالمكانِ الضَّيِّقِ، خصوصًا مع طولِ المُكثِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ بيانُ فَسادِ مذهَبِ القَدَريَّةِ الذين يَزعُمونَ أنَّ العبدَ لا يَفتَقِرُ في حصولِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

هذا الاهتداءِ إلى اللهِ، بل كلُّ عبدٍ عندهم فمَعَه ما يحصُلُ به الطَّاعةُ والمعصيةُ، لا فرْقَ عندهم بين المؤمِنِ والكافِرِ! ولم يَخُصَّ اللهُ المؤمِنَ عندهم بهُدًى حصلَ به الاهتداءُ[1]!

٧- دلَّ قولُ الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ على أنَّ كلَّ مَن هداه اللهُ اهتدى، ولو هدى الكافرَ -كما هدَى المُؤمِنَ- لاهتدَى[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ هذا مِن حِفظِ اللهِ تعالى لأبدانِهم؛ لأنَّ الأرضَ مِن طبيعتِها أكلُ الأجسامِ المتَّصِلةِ بها، فكان مِن قَدَرِ الله أنْ قَلَّبَهم على جُنوبِهم يَمينًا وشِمالًا بقَدْرِ ما لا تُفسِدُ الأرضُ أجسامَهم -هذا على أحدِ الأقوالِ في الحكمةِ مِن تقليبِهم-، واللهُ تعالى قادِرٌ على حِفْظِهم مِنَ الأرضِ مِن غَيرِ تَقليبٍ، ولكنَّه تعالى حَكيمٌ، أراد أن تَجريَ سُنَّتُه في الكَونِ، ويَربِطَ الأسبابَ بمُسَبَّباتِها[3].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ في قَولِه: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ فِعْلَ النائمِ لا يُنسَبُ إليه، ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ أضاف تقلُّبَهم إليه، فلو أنَّ النَّائِمَ قال في نَومِه: (امرأتي طالِقٌ) أو: (في ذِمَّتي لفلانٍ ألفُ ريالٍ) لم يَثبُتْ؛ لأنَّه لا قَصْدَ له ولا إرادةَ له، لا في القَولِ ولا في الفِعلِ[4].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ دليلٌ على جوازِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

اتِّخاذِ الكَلبِ لحراسةِ الآدميِّين، أمَّا حراسةُ الماشيةِ، وحراسةُ الحرثِ فقد جاءَت به السنةُ[١]. وإذا جاز اتخاذُ الكلبِ لحراسةِ الماشيةِ والحرثِ، أو للصيدِ الذي هو كمالٌ؛ فاتِّخاذُه لحراسةِ البيتِ مِن بابِ أولَى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ ...﴾ يحتملُ أنْ يكونوا قال بعضُهم لبعضٍ ذلك بعدَ اليأسِ من رُجوعِ قومِهم عن فِتْنتِهم في مَقامٍ آخرَ. ويحتملُ أنْ يكونَ ذلك في نفْسِ المقامِ الَّذي خاطبوا فيه قومَهم، بأنْ غيَّروا الخِطابَ من مُواجهةِ قومِهم إلى مُواجهةِ بعضِهم بعضًا، وهو ضرْبٌ من الالتفاتِ؛ فعلى الوجْهِ الأوَّلِ يكونُ فِعْلُ ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الفِعلِ، مثْلُ ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، وعلى الوجْهِ الثَّاني يكونُ الاعتزالُ قد حصَلَ فيما بين مَقامِ خِطابِهم قومَهم وبين مُخاطَبةِ بعضِهم بعضًا؛ وعلى الاحتمالينِ فقدِ اقتُصِرَ في حكايةِ أقوالِهم على المقصَدِ الأهمِّ منها في الدَّلالةِ على ثَباتِهم، دُونَ ما سِوى ذلك ممَّا لا أثَرَ له في الغرَضِ، وإنَّما هو مُجرَّدُ قَصصٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على جُملةِ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (١٥٧٤) مِن حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما. وما أخرجه البخاري (٣٣٢٤)، ومسلم (١٥٧٥) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٦).

باعتبارِ إفادتِها معنى: اعتزلْتُم دِينَهم اعتزالًا اعتقاديًّا؛ فيُقدَّرُ بعدَها جُملةٌ نحوُ: اعْتَزِلوهم اعتزالَ مُفارقةٍ، فأْوُوا إلى الكهفِ، أو يُقدَّرُ: وإذِ اعتزَلْتُم دِينَهم يُعذِّبونكم، فأْوُوا إلى الكهفِ[١].

- قولُه: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ فيه تَقديمُ ﴿لَكُمۡ﴾ في الموضعينِ؛ للإيذانِ من أوَّلِ الأمْرِ بكَونِ المُؤخَّرِ من مَنافعِهم، والتَّشويقِ إلى وُرودِه[٢].

- و﴿يَنشُرۡ﴾ مجزومٌ في جوابِ الأمْرِ، وهو مَبْنيٌّ على الثِّقةِ بالرَّجاءِ والدُّعاءِ، وساقُوه مَساقَ الحاصلِ؛ لشِدَّةِ ثِقَتِهم بلُطْفِ ربِّهم بالمُؤمِنين[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ...﴾ بيانٌ لحالِهم بعدَما أوَوا إلى الكهفِ، وقد أوجَزَ مِن الخبَرِ أنَّهم لمَّا قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾: أنَّهم أوَوا إليه، والتَّقديرُ: فأخَذوا بنَصيحتِه، فأوَوا إلى الكهْفِ، ودَلَّ عليه قولُه في صَدْرِ القصَّةِ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾؛ فردَّ عجُزَ الكلامِ على صَدْرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

- والإتيانُ بفعْلِ المُضارَعةِ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك كلَّ يومٍ[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكورِ من قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾؛ للتَّعظيمِ، والجُملةُ مُعترِضةٌ في خِلالِ القصَّةِ؛ للتَّنويهِ بأصحابِها[2].

- قولُه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضاهُ اسمُ الإشارةِ من تَعظيمِ أمْرِ الآيةِ وأصحابِها[3]، والمُرادُ بقولِه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إمَّا الثَّناءُ عليهم، أو التَّنبيهُ على أنَّ أمثالَ هذه الآياتِ كثيرةٌ، ولكنَّ المُنتفِعَ بها مَن وفَّقه اللهُ للتَّأمُّلِ فيها، والاستبصارِ بها[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾

- قولُه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ عطْفٌ على بقيَّةِ القصَّةِ، وما بينهما اعتراضٌ، وهذا انتقالٌ إلى ما في حالِهم من العِبْرةِ لمَن لو رآهم مِن النَّاسِ، مُدمجٌ فيه بَيانُ كَرامتِهم، وعظيمِ قُدرةِ اللهِ في شأنِهم، وهو تعجُّبٌ من حالِهم لمَن لو رآهُ من النَّاسِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٠).

- وصِيغَ فِعْلُ (تَحْسَبُهُمْ) مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك يتكرَّرُ مُدَّةً طويلةً[١].

- والإتيانُ بالمُضارعِ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ بحسَبِ الزَّمنِ المَحكيِّ، ولا يلزَمُ أنْ يكونوا كذلك حين نُزولِ الآيةِ[٢]، وفيه مَزيدُ اعتناءِ اللهِ بهم؛ حيث أسنَدَ التَّقليبَ إليه تعالى، وأنَّه هو الفاعلُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾ الاطِّلاعُ افتعالٌ مِن (طلَعَ)، وصِيغَ الافتعالُ؛ للمُبالَغةِ في الارتقاءِ، وضُمِّنَ معنى الإشرافِ، فعُدِّيَ بـ (على)[٤].

- وتأخَّرَ قولُه: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ عن ذِكْرِ التَّوليةِ ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ منهما في التَّرتُّبِ على الاطِّلاعِ؛ إذ لو رُوعِيَ تَرتيبُ الوُجودِ لَتَبادرَ إلى الفَهمِ ترتُّبُ المجموعِ من حيث هو هو عليه، وللإشعارِ بعدَمِ زَوالِ الرُّعبِ بالفِرارِ كما هو المُعتادُ[٥].

- وانتصَبَ ﴿رُعْبًا﴾ على تَمييزِ النِّسبةِ المُحوَّلِ عن الفاعلِ في المعنى؛ لأنَّ الرُّعبَ هو الَّذي يمْلأُ، فلمَّا بُنِيَ الفعْلُ إلى المجهولِ لقصْدِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، صار ما حَقُّه أنْ يكونَ فاعلًا تَمييزًا، وهو إسنادٌ بديعٌ حصَلَ منه التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٣).

الآيتان (١٩-٢٠)

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾: الوَرِقُ: الفِضَّةُ المَضروبةُ، وهي الدَّراهِمُ، وأصلُ (ورق): يدُلُّ على خَيرٍ ومالٍ(١).

﴿أَزْكَىٰ﴾: أي: أطْيبُ، وأحلُّ، وأطهرُ، والزَّكوُ: الزِّيادةُ في الخيرِ والنَّفعِ، وأصلُ الزكاءِ: النَّماءُ والزِّيادةُ(٢).

﴿بِرِزْقٍ﴾: أي: بطعامٍ تأكلونَه، وقوتٍ تقتاتونَه، والرِّزقُ يُطلَقُ على ما يصِلُ إلى الجوفِ ويُتغَذَّى به؛ فيُطلَقُ على الطَّعامِ والثِّمارِ وعلى ما هو أعمُّ مِن ذلك مما يُنتفَعُ به، وأصلُ (رزق): يَدُلُّ على عطاءٍ لوَقْتٍ(٣).

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أي: ولْيُدقِّقِ النَّظرَ، ولْيَحتَلْ حتى لا يطَّلِعَ عليه أحَدٌ، ويُعبَّرُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٥).

باللَّطافةِ واللُّطفِ عن الحَرَكةِ الخفيفةِ، وعن تعاطي الأُمورِ الدَّقيقةِ، وأصلُ (لطف): يدُلُّ على رِفقٍ[(١)].

﴿يَظْهَرُواْ﴾: أي: يَطَّلِعوا ويُشرِفوا على مكانِكم أو على أنفُسِكم، والظُّهورُ أصلُه: البروزُ دونَ ساترٍ، ويُطلَقُ على الظَّفَرِ بالشَّيءِ، وعلى الغَلَبةِ على الغيرِ، وهو المرادُ هنا[(٢)].

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: أي: يَقْتُلوكم بالرَّجْمِ، والرَّجْمُ: الرَّميُ بالرِّجامِ، وهي الحجارةُ، وأصلُ (رجم): الرَّميُ بالحجارةِ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

حكى الله سبحانه حالَ هؤلاء الفتيةِ بعدَ استيقاظِهم مِن هذا النومِ الطويلِ، فقال: وكما أنَمْناهم وحَفِظْناهم هذه المُدَّةَ الطَّويلةَ أيقَظْناهم مِن نَومِهم على هَيئَتِهم دونَ تغيُّرٍ؛ ليسألَ بَعضُهم بعضًا: كم مِن الوَقتِ مَكَثْنا نائمينَ هنا؟ فقال بعضُهم: مَكَثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ، ففَوَّضوا عِلْمَ ذلك إلى اللهِ لَمَّا أعياهم التحَقُّقُ، وقالوا: ربُّكم أعلَمُ بمدَّةِ نَومِكم، فأرسِلوا أحَدَكم بدراهِمِكم الفِضِّيَّةِ هذه إلى مَدينتِنا، فلْيَنظُرْ: أيُّ أهلِ المدينةِ أطيَبُ وأحَلُّ طَعامًا؟ فلْيَأتِكم بقُوتٍ منه، ولْيَترفَّقْ في دخولِه المدينةَ، وشِرائِه، وخُروجِه منها، ومجيئِه إلى الكَهفِ، ولا يُعْلِمَنَّ بكم أحدًا مِن النَّاسِ؛ إنَّ قَومَكم إنْ يَعْلموا بمكانِكم، ويَظْفَروا بكم؛

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٢).

يَرجُموكم بالحِجارةِ، فيَقتُلوكم، أو يَرجِعوكم إلى دينِهم، فتَصيروا كُفَّارًا مِثلَهم، ولن تَفوزوا بالخيرِ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ -إنْ فعلْتُم ذلك- أبدًا.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: وكما أنَمْنا هؤلاء الفِتيةَ فحَفِظناهم في الكَهفِ، كذلك أيقَظْناهم مِن نَومِهم الطَّويلِ بذاتِ الحالةِ التي كانوا عليها، دونَ أن يتغيَّرَ مِن أحوالِهم وهَيئاتِهم شَيءٌ؛ ليَسألَ بَعضُهم بعضًا عن مُدَّةِ نَومِهم، فإذا تبيَّنوا طولَ الزَّمانِ عليهم، وهم بنَفسِ هَيئتِهم التي رَقَدوا بها، ازدادوا مَعرفةً بعَظيمِ سُلطانِ اللهِ وعجائِبِ قُدرتِه، وبحُسنِ دِفاعِ اللهِ عن أوليائِه، وازدادوا بصيرةً في أمْرِهم الذي هم عليه مِن التبَرُّؤِ مِن عبادةِ الآلهةِ، وإخلاصِ العبادةِ لله وَحْدَه لا شريكَ له[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٥، ١٩٦، ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

ظاهرُ عباراتِ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ أنَّ اللامَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ للتعليل. ومنهم: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، وابنُ كثير، والشنقيطي، وصرَّح بذلك السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

قال ابن الجوزي: (أي: ليكونَ بينهم تساؤلٌ وتنازعٌ واختلافٌ في مُدَّةِ لُبثِهم، فيُفيد تساؤلُهم اعتبارَ المُعتَبِرين بحالِهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٢).

وقيل: اللامُ هنا للعاقبةِ والصَّيرورةِ. وممَّن نَصَّ على ذلك: القرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾.

أي: قال قائِلٌ مِن الفِتيةِ لأصحابِه: كم كانت مُدَّةُ نَومِكم[١]؟!

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

أي: فأجابه الآخَرونَ بما يَظُنُّونَ: لَبِثْنا في نَومِنا يومًا كاملًا أو بعضًا منه[٢].

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

أي: قالوا مُفَوِّضينَ العِلمَ لله: ربُّكم أعلَمُ منكم بمدَّةِ نَومِكم[٣].

((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٣٧).

قال ابنُ كثير: (﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كان دخولُهم إلى الكهفِ في أوَّلِ نهارٍ، واستيقاظُهم كان في آخِرِ نهارٍ؛ ولهذا استدرَكوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ...﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

قال ابنُ عاشور: (القائلونَ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ يجوز أن يكونَ جميعهم، وهو الظاهرُ. ويجوزُ أن يكونَ قَولَ بعضِهم، فأُسنِدَ إليهم؛ لأنهم رأوه صوابًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

وقال السعدي: (ولعلَّ اللهَ تعالى -بعد ذلك- أطلعَهم على مُدَّة لُبثِهم؛ لأنَّه بعَثَهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنَّهم تساءلوا، وتكلَّموا بمبلغِ ما عندهم، وصار آخِرَ أمرِهم الاشتباهُ، فلا بدَّ أن يكون قد أخبرهم يقينًا، عَلِمْنا ذلك من حكمتِه في بَعثِهم، وأنه لا يفعَلُ ذلك عبثًا، ومِن رحمتِه بمن طلب عِلمَ الحقيقة في الأمور المطلوبِ عِلمُها، وسعى لذلك ما أمكَنَه؛ فإن الله يوضِّحُ له ذلك، وبما ذُكِرَ فيما بعده مِن قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]، فلولا أنَّه حصل العِلمُ بحالهم، لم يكونوا دليلًا على ما ذُكِر).

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾.

أي: قال الفِتيةُ: فأرسلوا واحِدًا مِنَّا بهذه الدَّراهِمِ الفِضِّيةِ التي بحَوزَتِنا، إلى مَدينَتِنا التي فرَرْنا منها[1].

﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: فلْيَنظُرْ مَن ستُرسِلونَه: أيُّ أهلِ المدينةِ[2] أطيَبُ وأحَلُّ وأطهَرُ طعامًا مِن غَيرِه[3]، ....

((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

قال ابن جزي: (إن قيل: كيفَ اتَّصل بعثُ أحدِهم بتذكرِ مدةِ لبثِهم؟

فالجوابُ: أنَّهم كانوا قالوا: ربُّكم أعلمُ بما لبثْتُم، ولا سبيلَ لكم إلى العلمِ بذلك، فخُذوا فيما هو أهمُّ مِن هذا وأنفعُ لكم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦١).

(٢) قال الشوكاني: (﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أي: يَنظُر أيُّ أهلِها أطيبُ طعامًا، وأحلُّ مكسبًا، أو أرخصُ سعرًا. وقيل: يجوزُ أن يعودَ الضميرُ إلى الأطعمةِ المدلولِ عليها في المقامِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٧).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فليَنظُرْ أيُّ مكانٍ منها هو أزكَى طعامًا، أي: أزكَى طعامُه مِن طعامِ غيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٥).

(٣) قيل: معنى ﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾: أي: أَحَلُّ ذبيحة، قاله ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ.وقيل: أَحَلُّ طعامًا، قاله سعيدُ بنُ جبيرٍ. وقيل: أجودُ، قاله قتادةُ. وقيل: أكثرُ، قاله عكرمةُ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٣).

قال الشنقيطي: (في قولِه في هذه الآيةِ: ﴿أَزۡكَىٰ﴾ قولانِ للعلماءِ:

أحدهما: أنَّ المرادَ بكونِه ﴿أَزۡكَىٰ﴾: أطيبُ؛ لكونِه حلالًا ليسَ ممَّا فيه حرامٌ ولا شبهةٌ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ بكونِه أزكَى: أنَّه أكثرُ...

والقولُ الأوَّلُ هو الَّذي يدلُّ له القرآنُ؛ لأنَّ أكلَ الحلالِ والعملَ الصَّالحَ أمَرَ اللَّهُ به المؤمنينَ كما أمَرَ المرسلينَ، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ الآيةَ [المؤمنون: ٥١]،

فلْيَشترِ لكم قُوتًا منه، ولْيُحضِرْه إليكم لِتَأكلوه[(١)].

﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾.

أي: ولْيَترفَّقِ الذي ستُرسِلونَه لشِراءِ الطَّعامِ، فيتخَفَّ ويتحَيَّلْ في دخولِه المدينةَ، وشِرائِه، وخُروجِه منها، ومجيئِه إلى الكَهفِ[(٢)].

﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾.

أي: ولا يُعلِمَنَّ أحدًا من النَّاسِ بمَكانِكم الذي تختَبِئونَ فيه، فلا يقولَنَّ أو يفعَلَنَّ ما يُؤدِّي مِن غيرِ قَصدٍ منه إلى الشُّعورِ بكم[(٣)].

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَهَوا رسولَهم عن الإشعارِ بهم، عَلَّلوا ذلك، فقالوا[(٤)]:

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢]، ويكثُرُ في القرآنِ إطلاقُ مادَّةِ الزَّكاةِ على الطَّهارةِ... فاللَّائقُ بحالِ هؤلاءِ الفتيةِ الأخيارِ المتَّقين أنْ يكونَ مطلبُهم في مأكلِهم الحليةَ والطَّهارةَ، لا الكثرةَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨).

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾.

أي: وذلك لأنَّ قومَكم الكُفَّارَ إن يَعلَموا بمكانِكم في الكَهفِ ويَظفَروا بكم، يَقتُلوكم رَجمًا بالحِجارةِ إن ثَبَتُّم على ما أنتم عليه مِن الحَقِّ(١).

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾.

أي: أو يَرجِعوكم لِتَدخُلوا قهرًا في دِينِهم، فتُصبِحوا كُفَّارًا مِثلَهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨- ٨٩].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للأصفهاني (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٠).

وقيل: المعنى: يرجموكم شتمًا بالقولِ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٧).

قال الشوكاني: (﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يَرُدُّوكم إلى مِلَّتِهم الَّتي كنتُم عليها قبلَ أنْ يهدِيَكم اللَّهُ، أو المرادُ بالعودِ هنا: الصَّيْرورَةُ، على تقديرِ أنَّهم لم يَكونوا على مِلَّتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٧).

قال الزمخشري: (والعَودُ في معنى الصَّيرورةِ أكثَرُ شَيءٍ في كلامِهم؛ يقولون: ما عُدتُ أفعلُ كذا، يريدون ابتداءَ الفعلِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

أي: ولن تَفوزوا بالخَيرِ أبدًا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ إن عُدتُم في ملَّتِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ دلَّ على الحَثِّ على العِلمِ، وعلى المُباحثةِ فيه؛ لِكَونِ اللهِ بعَثَهم لأجلِ ذلك[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فيه الأدَبُ فيمن اشتَبَه عليه العِلمُ؛ أن يَرُدَّه إلى عالِمِه، وأن يَقِفَ عند حَدِّه[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ السَّعيَ في إمساكِ الزَّادِ أمرٌ مُهِمٌّ مَشروعٌ، وأنَّه لا يُبطِلُ التوكُّلَ على اللهِ تعالى؛ إذ حَقيقةُ التوكُّلِ على اللهِ تعالى: تهيئةُ الأسبابِ، واعتِقادُ أنْ لا مُسَبِّبَ للأسبابِ إلَّا اللهُ تعالى[4]، فتزوُّدُهم ما كان معهم مِن الوَرِقِ عندَ فِرارِهم دَليلٌ على أنَّ حَملَ النَّفَقةِ وما يُصلِحُ المسافِرَ، هو رأيُ المتوكِّلينَ على اللهِ دونَ المُتَّكِلينَ على الاتِّفاقاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٤٠).

قال البقاعي: (﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي: إذا عُدتُم فيها مُطمئنِّينَ بها؛ لأنَّكم وإن أُكرِهتُم ربما استدرجَكم الشيطانُ بذلك إلى الإجابةِ حَقيقةً). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٥٧).

وعلى ما في أوعيةِ القَومِ مِن النَّفَقاتِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ فيه الحَثُّ على التحَرُّزِ، والاستخفاءِ، والبُعدِ عن مواقِعِ الفِتَنِ في الدِّينِ، واستِعمالِ الكِتمانِ في ذلك على الإنسانِ وعلى إخوانِه في الدِّينِ[٢]. وفيه أيضًا دَليلٌ على أخْذِ الحَذَرِ مِن الأعداءِ بكُلِّ وسيلةٍ، إلَّا الوسائلَ المُحَرَّمةَ؛ فإنَّها مُحرَّمةٌ لا يجوزُ أنْ يقعَ الإنسانُ فيها[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ دَلَّ على ذِكرِ ما اشتملَ عليه الشَّرُّ مِن المضارِّ والمفاسِدِ الدَّاعيةِ لبُغضِه وتَرْكِه، وأنَّ هذه الطريقةَ هي طريقةُ المؤمنينَ المتقَدِّمينَ والمتأخِّرينَ؛ لِقَولِهم: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن أصحابِ الكهفِ: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ لم يعثُرْ عليهم أحَدٌ مع قُربِهم من المدينةِ جِدًّا، والدَّليلُ على قُربِهم أنَّهم لَمَّا استيقظوا أرسلوا أحَدَهم يشتري لهم طعامًا من المدينةِ، وبَقُوا في انتظارِه؛ فدَلَّ ذلك على شِدَّةِ قُربِهم منها[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أصلٌ في الوَكالةِ والنِّيابةِ[١]، وفيه دليلٌ على صحةِ الوكالةِ في البيعِ والشراءِ[٢]، والوَكالةُ عَقدُ نيابةٍ أذِنَ الله فيه للحاجةِ إليه، وقيامِ المَصلحةِ به؛ إذ يَعجِزُ كُلُّ أحدٍ عن تناوُلِ أمورِه إلَّا بمعونةٍ مِن غَيرِه، أو يترَفَّهُ فيستنيبُ من يُريحُه، حتى جاز ذلك في العباداتِ؛ لُطفًا منه سبحانَه، ورِفقًا بضَعَفةِ الخليقةِ؛ ذكَرَها الله كما تَرَون، وبيَّنَها رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كما تسمَعونَ، وهو أقوى آيةٍ في الغَرَضِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ يدُلُّ على جوازِ خَلطِ دراهِمِ الجماعةِ، والشِّراءِ بها، والأكلِ مِن الطَّعامِ الذي بينهم بالشَّرِكةِ، وإن كان فيهم مَن يأكُلُ أكثَرَ ومَن يأكُلُ أقلَّ؛ وذلك أنَّه قال: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ فأضاف الوَرِقَ إلى الجَميعِ[٤].

٤- إنْ قيل: أليس أنَّهم لو أُكرِهوا على الكفرِ حتى أظهَروا الكفرَ لم يكنْ عليهم مضرَّةٌ، فكيفَ قالوا: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾؟

وأُجيب: أنَّهم خافوا أنَّهم لو بَقُوا على الكفرِ مُظهِرينَ له، فقد يميلُ بهم ذلك إلى الكفرِ الحقيقيِّ، فكان خوفُهم بسببِ هذا الاحتمالِ[٥].

وقيل: إنَّ العُذرَ بالإكراهِ مِن خَصائِصِ هذه الأمَّةِ؛ لأنَّ قَولَه عن أصحابِ الكَهفِ: ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ ظاهِرٌ في

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).
(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٢٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٥٨).

إكراهِهم على ذلك، وعدَمِ طواعِيَتِهم، ومع هذا قال عنهم: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ ذلك الإكراهَ ليس بعُذرٍ[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ الكافُ للتَّشبيهِ، والإشارةُ بـ (ذلك) إلى المذكورِ من إنامتِهم وكيفيَّتِها، أي: كما أنَمْناهم قُرونًا بعَثْناهم[٢]، ووجْهُ الشَّبهِ: أنَّ في الإفاقةِ آيةً على عظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى مِثْلَ آيةِ الإنامةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَشبيهُ البَعثِ المذكورِ بنفْسِه؛ للمُبالغةِ في التَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡ﴾ فيه الاقتصارُ على ذِكْرِ التَّساؤُلِ بينهم؛ لاستتباعِه لسائرِ آثارِه، والتَّقديرُ: ليَسألَ بعضُهم بعضًا، فيترتَّبُ عليه ما فُصِّلِ من الحِكَمِ البالغةِ. وجعْلُه غايةً للبعثِ المُعلَّلِ فيما سبَقَ بالاختبارِ، مِن حيثُ إنَّه من أحكامِه المُترتِّبةِ عليه[٤].

- وجُملةُ ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾، وسُمِّيَت هذه المُحاورةُ تَساؤُلًا؛ لأنَّها تحاوُرٌ عن تطلُّبِ كلٍّ رأيَ الآخرِ؛ للوُصولِ إلى

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٣).

تَحقيقِ المُدَّةِ. والَّذين قالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ هم مَن عدا الَّذي قال: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾، وأسنَدَ الجوابَ إلى ضَميرِ جماعتِهم؛ إمَّا لأنَّهم تَواطؤوا عليه، وإمَّا على إرادةِ التَّوزيعِ، أي: منهم مَن قال: لَبِثْنا يومًا، ومنهم قال: لَبِثْنا بعضَ يومٍ، وعلى هذا يَجوزُ أنْ تكونَ (أو) للتَّقسيمِ في القولِ؛ بدَليلِ قولِه بعْدُ: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، أي: لمَّا اخْتلفوا رجَعوا، فعَدلوا عن القولِ بالظَّنِّ إلى تَفويضِ العلْمِ إلى اللهِ تعالى، وذلك من كَمالِ إيمانِهم[1].

- وتَفريعُ قولِهم: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ على قولِهم: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾؛ لأنَّه في معنى: فدَعوا الخوضَ في مُدَّةِ اللُّبثِ؛ فلا يعلَمُها إلَّا اللهُ، وخُذوا في شَيءٍ آخرَ ممَّا يهُمُّكم[2]، وهو قريبٌ من الأُسلوبِ الحكيمِ، وهو تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تَنبيهًا على أنَّ غيرَه أولَى بحالِه، ولولا قولُهم: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، لكانَ قولُهم: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ عيْنَ الأُسلوبِ الحكيمِ[3].

- قولُه: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾، أي: ولْيتكلَّفِ اللُّطفَ في الاستخفاءِ؛ لئلَّا يُعْرَفَ، ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ مِن أهلِ المدينةِ؛ فإنَّه يَستدْعي شُيوعَ أخبارِكم، أي: لا يفعلَنَّ ما يُؤدِّي إلى ذلك؛ فالنَّهيُ على ذلك تأكيدٌ للأمْرِ بالتَّلطُّفِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

- قولُه: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ سُمِّيَ ذلك إشعارًا منه بهم؛ لأنَّه سبَبٌ فيه؛ فالتَّقديرُ: ولا يفعلَنَّ ما يُؤدِّي من غيرِ قصْدٍ منه إلى الشُّعورِ بنا[١].

وقيل: ولا يُخبِرَنَّ بوُجودِكم أحدًا؛ فهنا مُضافٌ محذوفٌ دلَّت عليه دَلالةُ الاقتضاءِ[٢]، فيشمَلُ جميعَ أحوالِهم؛ من عدَدِهم ومكانِهم وغيرِ ذلك[٣].

- والنُّونُ في ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾ لتَوكيدِ النَّهيِ؛ تَحذيرًا من عَواقبِه المُضمَّنةِ في جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ عِلَّةٌ للأمرِ بالتَّلطُّفِ، والنَّهيِ عن إشعارِ أحدٍ بهم[٥]، وبَيانٌ لوجْهِ تَوكيدِ النَّهيِ بالنُّونِ في ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾؛ فهي واقعةٌ موقعَ العلَّةِ والبَيانِ، وكِلاهما يَقْتضي فصْلَها عمَّا قبْلَها[٦].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ تَقديمُ احتمالِ الرَّجمِ على احتمالِ الإعادةِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ من حالِهم هو الثَّباتُ على الدِّينِ المُؤدِّي إليه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).

- قولُه: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ فيه إيثارُ كلمةِ (في) على كلمةِ (إلى)؛ للدَّلالةِ على الاستقرارِ الَّذي هو أشَدُّ شَيءٍ عندهم كراهةً(١).

- قولُه: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ فيه تأكيدُ التَّحذيرِ من الإرجاعِ إلى مِلَّتِهم بأنَّها يترتَّبُ عليها انتفاءُ فَلاحِهم في المُستقبَلِ؛ لِما دلَّتْ عليه (إذن) مِن الجَزائيَّةِ. و﴿أَبَدًا﴾ ظرفٌ للمُستقبَلِ كلِّه، وهو تأكيدٌ لِما دَلَّ عليه النَّفيُ بـ (لن) من التَّأبيدِ أو ما يُقارِبُه(٢)، وفيه من التَّشديدِ في التَّحذيرِ ما لا يَخْفى(٣).

- وضَميرُ الخِطابِ في المواضعِ الأربعةِ (عَلَيْكُمْ - يَرْجُمُوكُمْ - يُعِيدُوكُمْ - وَلَنْ تُفْلِحُوا)؛ للمُبالَغةِ في حملِ المبعوثِ على الاستخفاءِ، وحَثِّ الباقينَ على الاهتمامِ بالتَّوصيةِ؛ فإنَّ تَمحيضَ النُّصحِ أدخَلُ في القَبولِ، واهتمامُ الإنسانِ بشأْنِ نفْسِه أكثَرُ وأوفَرُ(٤).



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَعْثَرْنَا﴾: أي: أظهَرْنا وأطلَعْنا، وأصلُ (عثر) هنا: يدُلُّ على الاطِّلاعِ على الشَّيءِ[(١)].

﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: ظنًّا غيرَ يقينٍ، ويُعَبَّرُ بالرَّجمِ عن الرَّميِ بالظنِّ، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على الرَّميِ بالحجارةِ، وأصلُ (غيب): يدُلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عن العيونِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٨).
قال الرازي: (يُقالُ: عَثَرْتُ على كذا أي: عَلِمته. وقالوا: إنَّ أصلَ هذا أنَّ مَن كان غافلًا عن شيءٍ فعَثَر به نَظَر إليه فعرَفه، فكانَ العثارُ سببًا لحصولِ العلمِ والتَّبيُّنِ؛ فأُطْلِق اسمُ السَّببِ على المُسَبَّبِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٥- ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)،

﴿تُمَارِ﴾ ﴿مِرَآءً﴾: المِراءُ: الجِدالُ، يُقالُ: مارَى يُماري مُماراةً ومِراءً، أي: جادَل؛ مِن: مَرَيْتُ الشاةَ؛ إذا استخرجتَ لبنَها، كأنَّ المجادلَ يستخرِجُ غضبَ خصمِه أو ما عندَه. وقيل: أصلُه يدُلُّ على صلابةٍ في شيءٍ؛ لأنَّ المراءَ كلامٌ فيه بعضُ الشِّدَّةِ[1].

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾: أي: ما أبصَرَه وأسمَعَه[2]!

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى لنا مشهدًا آخرَ مِن أحوالِ هؤلاء الفتيةِ، فيقول: وكما أنَمْناهم سِنينَ كَثيرةً وأيقَظْناهم بعدَها، أطْلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ؛ ليَعلَموا أنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ حَقٌّ، وأنَّ القيامةَ آتيةٌ لا شَكَّ في وقوعِها، إذ يتنازَعُ المطَّلِعونَ على أصحابِ الكَهفِ في أمرِ البعثِ بعدَ الموتِ؛ فمِن مُثْبِتٍ له ومِن مُنْكِرٍ، فقال الذين أعثَرَهم اللهُ على أصحابِ الكَهفِ: ابنُوا عليهم بناءً يَحجُبُهم، ربُّهم أعلَمُ بحالِهم وشَأنِهم، وقال الرُّؤساءُ أصحابُ الغَلَبةِ والنُّفوذِ: لنتَّخِذَنَّ على مكانِهم مَسجِدًا للعبادةِ.

ثم يحكي الله تعالى ما حصَل مِن خلافٍ حولَ عددِ أصحابِ الكهفِ قائلًا: سيقولُ بَعضُ الخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ: هم ثلاثةٌ رابِعُهم كَلبُهم، ويقولُ بعضُهم: هم خَمسةٌ سادِسُهم كلبُهم، وكلامُ الفريقينِ قَولٌ بالظَّنِّ مِن غيرِ عِلمٍ ولا دَليلٍ، ويقولُ بَعضُهم: هم سبعةٌ وثامِنُهم كَلبُهم.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣) و(٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦).

قُل -يا مُحمَّدُ- للخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ بلا عِلمٍ: ربِّي هو الأعلَمُ بعَدَدِهم، ما يعلَمُ عَدَدَهم إلَّا قليلٌ مِن خَلقِه؛ فلا تجادِلْ في عَدَدِهم إلَّا جِدالًا ظاهِرًا، ولا تَسألْهم عن عَدَدِهم وأحوالِهم.

وينهَى الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإخبارِ عن فعلِ شيءٍ مستقبلًا إلَّا بعدَ تقديمِ مشيئتِه سبحانَه، فيقولُ: ولا تقولَنَّ -يا محمَّدُ- لشَيءٍ تَعزِمُ على فِعلِه: إنِّي فاعِلٌ ذلك الشَّيءَ غدًا، إلَّا أن تُعَلِّقَ قَولَك بالمَشيئةِ، فتقولَ: إن شاء الله. واذكُرْ رَبَّك عند النِّسيانِ بقَولِك: إن شاء اللهُ، وقل: عسى أن يهديَني ربِّي لأقرَبِ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى الهُدى والرَّشادِ.

ثمَّ يبينُ الله تعالى المدةَ التي مكَثها الفتيةُ في الكهفِ، فيقولُ: ومكث الفِتيةُ نِيامًا في كَهفِهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ وتِسعَ سِنينَ، قُل -يا محمدُ-: اللهُ أعلَمُ بمُدَّةِ لُبثِهم في الكَهفِ، له غيبُ السَّمَواتِ والأرضِ، ما أبصَرَ اللهَ لكُلِّ مَوجودٍ، وما أسمَعَه سبحانَه لكُلِّ صَوتٍ! ليس للخَلقِ أحَدٌ غَيرُه يُدَبِّرُ شُؤونَهم، ويتولَّى أمورَهم، وليس له شَريكٌ في حُكمِه وقَضائِه بين خَلقِه سُبحانَه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها انتِقالٌ إلى جُزءِ القِصَّةِ الذي هو مَوضِعُ عِبرةِ أهلِ زَمانِهم بحالِهم، وانتفاعِهم باطمِئنانِ قُلوبِهم لوقوعِ البَعثِ يومَ القيامةِ بطريقةِ التَّقريبِ بالمُشاهَدةِ، وتأييد الدِّينِ بما ظهَرَ مِن كَرامةِ أنصارِه، فالكلامُ عَطفٌ على قَولِه:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾[1] [الكهف: ١٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: وكما أنَمْنا الفِتيةَ وبَعَثْناهم مِن نَومِهم على هَيئتِهم، أطلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ في ذلك الزَّمانِ؛ ليَعلَموا أنَّ وعدَ اللهِ بإحياءِ الموتى حقٌّ، فلا يَشكُّونَ في قُدرةِ الله على البَعثِ؛ لأنَّ حالةَ أصحابِ الكَهفِ في نَومِهم وانتباهتِهم بعدَ مُدَّةٍ طَويلةٍ كحالِ مَن يموتُ ثُمَّ يُبعَثُ[2].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ في المشارِ إليهم بهذا العلمِ قولان:

أحدهما: أنَّهم أهلُ بلدِهم حينَ اختصموا في البعثِ، فبعَث الله أهلَ الكهفِ؛ ليعلموا أنَّ وعدَ اللَّهِ بالبعثِ والجزاءِ حَقٌّ، وأنَّ القيامةَ لا شكَّ فيها، هذا قولُ الأكثرينَ. والثاني: أنَّهم أهلُ الكهفِ، بعثناهم؛ ليرَوْا بعدَ علمِهم أنَّ وعدَ الله حقٌّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٣).

قال الزجاج: (أي: لِيَعلَمَ الذين يُكَذِّبون بالبعثِ أنَّ وَعدَ الله حَقٌّ، ويزدادَ مَن يؤمِنُ به إيمانًا). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٦).

وقال ابنُ كثير: (ذكر غيرُ واحدٍ مِن السلفِ أنَّه كان قد حصَل لأهلِ ذلك الزمانِ شَكٌّ في البَعثِ وفي أمرِ القيامةِ. وقال عِكرمةُ: كان منهم طائفةٌ قد قالوا: تُبعَثُ الأرواحُ ولا تُبعَثُ الأجسادُ، فبَعَث اللهُ أهلَ الكهف؛ حُجَّةً ودَلالةً وآيةً على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٦).

وقال القاسمي: (﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: كما أنمناهم وبعَثْناهم لِما في ذلك من الحكمةِ، أطلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ حتى دخَلَها مَن بعثوه للطَّعامِ، وأخرج وَرِقَهم المتقادِمةَ العَهدِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٥).

وقال ابن عثيمين: (﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إمَّا أنَّ المعنى: بقيامِ الساعة الذي كان يُنكِرُه هؤلاء، أو لأنَّ الله تعالى ينجِّي المؤمنينَ مِن الكفار؛ لأنَّ هؤلاء السبعةَ نَجَوا من أمَّةٍ عَظيمةٍ تقاتِلُهم وتنهاهم عن التوحيدِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

أي: وأنَّ القيامةَ حَقٌّ، لا شَكَّ في مجيئِها، ووقُوعِ الثَّوابِ والعقابِ فيها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾.

أي: أعْثَرْنا على أصحابِ الكهفِ حينَ اختَلَف أهلُ ذلك الزمانِ في البعثِ بعدَ الموتِ، فمِنهم مَن يؤمنُ به، ومِنهم مَن ينكرُه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

وممَّن قال بأنَّ التنازعَ كان في أمرِ البعثِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جريرٍ، ومكي، والزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٣٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٤).

قال الزمخشري: (أي: أعثَرْناهم عليهم حين يتنازَعون بينهم أمرَ دينِهم ويختَلِفون في حقيقةِ البَعثِ، فكان بعضُهم يقول: تُبعَثُ الأرواحُ دون الأجسادِ. وبعضُهم يقول: تُبعَثُ الأجسادُ مع الأرواحِ؛ ليرتفِعَ الخلافُ، وليتبيَّنَ أنَّ الأجسادَ تُبعَثُ حيَّةً حسَّاسةً فيها أرواحُها كما كانت قبل الموتِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١). ويُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٧٨-٣٧٩).

وممن اختار أنَّ التنازعَ كان في أمرِ الفتيةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جزي، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشربيني، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير

﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾.

أي: فقال الذين أعثَرَهم اللهُ على أصحابِ الكَهفِ حين ماتُوا: ابنُوا عليهم بنيانًا يَستُرُهم[1]؛ ربُّهم أعلَمُ بهم وبِشَأنِهم وحالِهم[2].

الجلالين)) (ص: ٣٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٠).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المتنازَعَ فيه هو أمرُ أصحابِ الكهفِ: ابنُ عباسٍ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٤).

واختُلِف في المتنازَعِ عليه مِن أمرِ الفتية؛ فقيل: تنازعوا فِي قدرِ مكثِهم فِي الكهفِ. وقيل: في عددِهم. وقيل: فيما يفعلونَ بعدَ أن اطَّلعوا عليهم. وقيل: تنازعوا هل هم أمواتٌ أو أحياءٌ. وقيل: تنازعوا في البنيانِ، والمسجدِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٤).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿أَمۡرَهُمۡ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى أصحابِ الكهف، والأمرُ هنا بمعنى الشأنِ. والتنازعُ: الجِدالُ القويُّ، أي: يتنازعُ أهلُ المدينة بينهم شأنَ أهل الكهف، مثل: أكانوا نيامًا أم أمواتًا، وأيبقَون أحياءً أم يموتون، وأيبقَون في ذلك الكَهفِ أم يَرجِعون إلى سُكنى المدينة؟ وفي مدَّةِ مُكثِهم. ويجوزُ أن يكون ضميرُ ﴿أَمۡرَهُمۡ﴾ عائدًا إلى ما عاد عليه ضميرُ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، أي: شأنَهم فيما يفعلونَه بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

(١) قال الواحدي: (قوله: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾، يعني: استُروهم مِن الناسِ، قال ذلك المفسِّرونَ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٧٣).

قال الرسعني: (أرادوا سترَهم عن أعينِ الناسِ؛ حفظًا لهم، وزيادةً في الإكرام لهم، واحترامِهم بتغييبِهم عن الأبصارِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٣).

وقال ابن كثير: (سُدُّوا عليهم بابَ كهفهم، وذَروهم على حالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧).

وقال ابن عاشور: (وإنما ارتأَوا أن يَبنوا عليهم بنيانًا؛ لأنهم خَشُوا عليهم من تردُّد الزائرينَ غيرِ المتأدِّبينَ؛ فلعلَّهم أن يُؤذوا أجسادَهم وثيابَهم باللَّمسِ والتَّقليبِ، فأرادوا أن يبنُوا عليهم بناءً يُمكِنُ غَلقُ بابِه وحراستُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

أي: قال رُؤساءُ المدينةِ الذين غَلَبوا على أهلِها[1]: لَنبنيَنَّ عليهم مَسجِدًا يُعبَدُ

قال الرازي: (ثمَّ قال تعالى: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ وهذا فيه وجهان:

أحدُهما: أنَّه من كلام المتنازِعينَ، كأنهم لَمَّا تذاكروا أمْرَهم وتناقلوا الكلامَ في أسمائِهم وأحوالِهم ومُدَّةِ لُبثِهم، فلمَّا لم يهتدوا إلى حقيقةِ ذلك قالوا: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾.

الثاني: أنَّ هذا من كلامِ الله تعالى؛ ذكَرَه ردًّا للخائضينَ في حديثِهم من أولئك المتنازِعينَ).
((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٧).

(١) وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾: هم أهلُ الغلبةِ وأصحابُ الكلمةِ والنُّفوذِ مِن الولاةِ والرؤساءِ: القرطبي، وابنُ كثير، وابنُ رجب، والسعدي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤١).

قال ابنُ كثير: (حكى ابنُ جرير في القائلين ذلك قولينِ: أحدُهما: أنَّهم المسلمون منهم. والثاني: أهلُ الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهِرُ أنَّ الذين قالوا ذلك هم أصحابُ الكلمة والنُّفوذِ. ولكِنْ هل هم محمودونَ أم لا؟ فيه نظرٌ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: «لعن اللهُ اليهودَ والنَّصارى؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم وصالِحيهم مساجِدَ»). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧).

وقال ابنُ باز في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾: (إنَّ الله سبحانه وتعالى أخبَرَ عن الرُّؤساءِ وأهلِ السَّيطرةِ في ذلك الزمانِ أنَّهم قالوا هذه المقالةَ، وليس ذلك على سبيلِ الرضا والتقريرِ لهم، وإنَّما هو على سبيلِ الذمِّ والعيبِ والتنفيرِ مِن صنيعِهم، ويدُلُّ على ذلك أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلم الذي أُنزِلَت عليه هذه الآيةُ وهو أعلَمُ النَّاسِ بتأويلِها: قد نهى أمَّتَه عن اتخاذِ المساجِدِ على القبور، وحَذَّرهم من ذلك، ولعن وذَمَّ مَن فعَلَه، ولو كان ذلك جائزًا لَمَّا شَدَّد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ذلك التَّشديدَ العظيمَ، وبالغ في ذلك حتى لَعَن مَن فَعَله، وأخبر أنَّه من شرارِ الخَلقِ عند الله عزَّ وجَلَّ، وهذا فيه كفايةٌ ومَقنعٌ لطالبِ الحَقِّ، ولو فرَضْنا أنَّ اتخاذَ المساجِدِ على القبورِ جائزٌ لِمن قَبْلَنا، لم يجُزْ لنا التأسِّي بهم في ذلك؛ لأنَّ شريعتَنا ناسِخةٌ للشرائِعِ قبلَها، ورسولُنا عليه الصلاة والسلام هو خاتَمُ الرُّسُلِ).
((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ٤٣٥). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٩٣).

اللهُ فيه(١).

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾.

أي: سيقولُ بَعضُ الخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ: هم ثلاثةُ أشخاصٍ، والرَّابِعُ هو كَلبُهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤١).

قال الواحدي في قوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾: (ومعنى: ﴿عَلَيْهِم﴾ هاهنا وفي قوله: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أنَّهم يجعلون وراء ذلك، كما يقال: بني عليه جِدارًا: إذا حَوَّطه وجعله وراءَ الجِدارِ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٧٤).

قيل: بَنَوا على بابِ الكهفِ مسجِدًا للصلاةِ فيه. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

قال القرطبي: (الضميرُ في ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ يرادُ به أهلُ التوراة، ومُعاصِرو النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وذلك أنَّهم اختلفوا في عددِ أهل الكهفِ هذا الاختلافَ المنصوصَ. وقيل: المرادُ به: النصارى؛ فإنَّ قومًا منهم حَضَروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن نجران، فجرى ذِكرُ أصحابِ الكهفِ. فقالت اليعقوبيَّة: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم. وقالت النسطوريةُ: كانوا خمسةً سادِسُهم كلبُهم. وقال المسلمونَ: كانوا سبعةً ثامِنُهم كلبُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٢).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦).

وقال الشوكاني: (﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾ هؤلاءِ القائلونَ بأنَّهم ثلاثةٌ أو خمسةٌ أو سبعةٌ، هم المتنازعونَ فِي عددِهم في زمنِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مِنْ أهلِ الكتابِ

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أي: وسيقولُ بَعضُهم: هم خمسةُ أشخاصٍ، والسَّادِسُ هو كَلبُهم[1].

﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾.

أي: إنَّما يقولُ الخائِضونَ في عَددِ الفتيةِ ما يقولونَ بمُجَرَّدِ الظَّنِّ والتَّخمينِ، مِن غيرِ عِلمٍ ولا يقينٍ[2].

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أي: ويقولُ بَعضُهم: عدَدُ أصحابِ الكَهفِ سَبعةٌ، والثَّامِنُ هو كَلبُهم[3].

والمسلمينَ، وقيلَ: هم أهلُ الكتابِ خاصَّةً. ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩).

وقال ابن عثيمين: (كيف يمكِنُ أن يكون قولان لغائبٍ واحدٍ؟

هذا يُخَرَّج على وجهَينِ:

الوجه الأول: أنَّ المعنى: سيقول بعضُهم: ثلاثةٌ رابِعُهم كَلبُهم، ويقولُ البعضُ الآخَرُ: خمسةٌ سادِسُهم كَلبُهم، ويقول البعض الثالث: سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم.

والوجه الثاني: أن المعنى أنهم سيترددون؛ مرةً يقولون: ثلاثةٌ، ومرة يقولون: خمسةٌ، ومرة يقولون: سبعةٌ. وكلاهما محتَمِلٌ ولا يتنافيان، فتَجدُهم أحيانًا يقولون كذا، وأحيانًا يقولون كذا، حسَبَ ما يكونُ في أذهانِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤١-٤٢).

وممن اختار الوجهَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

قال الشوكاني: (﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: هم ثلاثةُ أشخاصٍ، وجملةُ ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، أي: حالَ كونِ كلبِهم جاعلَهم أربعةً بانضمامِه إليهم، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الكلامُ فيه كالكلامِ فيما قبله). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٤)، ((تفسير

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

أي: قل -يا مُحَمَّدُ- للخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ بلا عِلمٍ: ربِّي أعلَمُ مِن غَيرِه بعَدَدِ الفِتيةِ عِلمًا تامًّا(١).

﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾.

أي: ما يعلَمُ عَدَدَ أصحابِ الكَهفِ على الصَّوابِ إلَّا قليلٌ مِن خَلقِه(٢).

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾.

أي: فلا تُحاجِجْ -يا مُحَمَّدُ(٣)- ....

البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عن اختلافِ النَّاسِ في عِدَّةِ أصحاب الكهفِ، فحكى ثلاثةَ أقوال، فدلَّ على أنَّه لا قائل برابعٍ، ولَمَّا ضَعَّفَ القولين الأوَّلَين بقَولِه: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: قولًا بلا علمٍ، كمن يرمي إلى مكانٍ لا يَعرِفُه، فإنَّه لا يكادُ يصيبُ، وإن أصاب فبلا قَصدٍ؛ ثم حكى الثالثَ وسكت عليه أو قَرَّره بقَولِه: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾؛ فدَلَّ على صِحَّتِه، وأنَّه هو الواقِعُ في نفسِ الأمر). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٧). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٧-٣٦٨).

وقال أيضًا: (الصَّحيح عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّهم كانوا سبعةً، وهو ظاهرُ الآيةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨).

وقال الرسعني: (على هذا أكثرُ العلماءِ؛ أنَّ عِدَّةَ أصحابِ الكهفِ سبعةٌ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٣).

(٣) قيل: لا تحاجِجْ أهلَ الكتاب. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، وابنُ جزي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٥٤)،

في أصحابِ الكَهفِ[١] إلاَّ مُحاجَّةً ظاهِرةً[٢]، ولا تُجهِدْ نَفسَك فيما لا طائِلَ مِن

((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٨).

وقيل: لا تُحاجِج المشركينَ. وممن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

(١) قيل: المرادُ: لا تمارِ في عددِهم. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

وقيل: المرادُ: لا تمارِ في شأنهم. وممن قال بذلك: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: في شأنِهم، في زمانِهم، في مكانِهم، في مآلِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٣).

(٢) اختلف المفسِّرونَ في تفسيرِ المِراءِ الظاهِرِ، وذكر الواحدي بعضَ أقوالِ السلفِ، ثم قال: (فعلى ما قالوا: المراءُ الظاهرُ هو: أن يجادلَهم بما أُنزِل إليه مِن أنَّه لا يعلمُ عددَهم إلَّا القليلُ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٨٠).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المرادَ: حسبُك ما قصَصْنا عليك مِن شأنِهم، وأظهَرْنا لك مِن أمرِهم: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢١).

وقال ابن عاشور: (والمراءُ الظَّاهِرُ: هو الَّذي لا سبيلَ إلى إنكارِه، ولا يطولُ الخوضُ فيه. وذلك مثلُ قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، وقوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فإنَّ هذا مِمَّا لا سبيلَ إلى إنكارِه وإبايَتِه؛ لوُضوحِ حُجَّتِه، وما وراءَ ذلك محتاجٌ إلَى الحجَّةِ؛ فلا يَنْبَغي الاشتغالُ به لقلَّةِ جَدْواه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).

وقيل: هو أن يقولَ لهم: ليس كما تقولون، ليس كما تعلمون. قاله ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٩٨).

وقال ابنُ كثير: (قال تعالَى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أي: سَهلًا هَيِّنًا؛ فإنَّ الأمرَ في معرفةِ ذلك لا يترتَّبُ عليه كبيرُ فائدةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٣).

وقيل: إلَّا مراءً على اللِّسانِ لا يصِلُ إلى القَلبِ؛ لأنَّه إذا وصل الجِدالُ إلى القَلبِ اشتَدَّ المجادِلُ، وغَضِبَ وانتفَخَت أوداجُه وتأثَّر، في أمرٍ ليس للجِدالِ فيه كبيرُ فائدةٍ. وممن قال بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٣).

ورائِه[١].

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾.

أي: ولا تَسألْ -يا مُحمَّدُ- في أصحابِ الكَهفِ[٢] أحدًا مِن أهلِ الكِتابِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٣).

(٢) قيل: في عَدَدِهم. قاله ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢).

وقيل: في شأنِهم. قاله الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٤).

وممَّن قال بأنَّ المراد بالضميرِ في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ يعود إلى أهلِ الكِتابِ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٦).

قال ابنُ كثير: (﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: فإنَّهم لا عِلمَ لهم بذلك إلَّا ما يقولونَه مِن تلقاءِ أنفُسِهم رجمًا بالغيبِ، أي: مِن غيرِ استنادٍ إلى كلامِ مَعصوم، وقد جاءك اللهُ -يا محمَّدُ- بالحَقِّ الذي لا شَكَّ فيه ولا مِريةَ؛ فهو المقَدَّمُ الحاكِمُ على كُلِّ ما تقَدَّمَه من الكُتُبِ والأقوالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨).

قال الرسعني: (﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: ولا تستَفْتِ في أصحابِ الكَهفِ مِن أهلِ الكتابِ أحدًا؛ لأنَّ سؤالَهم إمَّا تعنُّتٌ أو استرشادٌ؛ والأوَّلُ ليس من أخلاقِك المَرْضيَّةِ، والثاني لا حاجةَ بك إليه؛ لأنَّك قد علِمْتَه بإيحائِنا إليك، وقَصَصِنا عليك). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٧).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: عمومُ النَّاسِ، سواءٌ من أهلِ الكتابِ أم مِن غيرهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٤).

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: ولا تقولَنَّ -يا محمَّدُ- لأيِّ شيءٍ تعزِمُ على فِعْلِه: إنِّي فاعلٌ ذلك الأمرَ في المُستَقبلِ[(١)].

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: إلَّا أن تقولَ مع ذلك القَولِ: إن شاء اللهُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾.

أي: إن قُلتَ -يا محمَّدُ-: سأفعَلُ شيئًا غدًا، ونَسِيتَ أن تقولَ: إن شاءَ اللهُ، فاذكُرْ رَبَّك بعد نِسيانِك بقَولِك: إن شاء اللهُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٣).
قال ابن القيم: (الذي أجمع عليه المفسِّرون: أنَّ أهلَ مكَّةَ سألوا النبيَّ عن الرُّوحِ، وعن أصحابِ الكَهفِ، وعن ذي القَرنَينِ، فقال: أُخبِرُكم غدًا. ولم يقُلْ: إن شاء الله. فتلبَّثَ الوحيُ أيَّامًا، ثم نزَلت هذه الآيةُ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٧).
وممن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ القيم، والسعدي، واستظهره الشنقيطي، ونسبه إلى الجمهورِ، وقال به ابنُ عثيمين. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٥٨)، ((تفسير

﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- داعيًا ربَّك: أرجو أن يوفِّقَني ربِّي، ويَدُلَّني إلى طريقٍ هو أقرَبُ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى الرَّشادِ، ويُثبِّتَني عليه[1].

السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وأبو العاليةِ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٦).

قال ابنُ كثير: (ويحتَمِلُ في الآيةِ وجهٌ آخرُ، وهو أن يكونَ اللهُ عزَّ وجَلَّ قد أرشدَ مَن نَسِيَ الشيءَ في كلامِه إلى ذِكر الله تعالى؛ لأنَّ النسيانَ مَنشؤُه مِن الشَّيطانِ، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذِكْرُ اللهِ تعالى يطرُدُ الشَّيطانَ، فإذا ذهب الشَّيطانُ ذهب النِّسيانُ، فذِكْرُ الله سببٌ للذِّكرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤).

قال السعدي: (ويُؤخَذُ مِن عمومِ قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الأمرُ بذكرِ الله عندَ النسيانِ، فإنَّه يزيلُه، ويُذكِّرُ العبدَ ما سها عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

وقيل: هذه الآيةُ فيمَن نسِي صلاةً فعليه أن يُصلِّيَها إذا ذكَرها، وهو مرويٌّ عن السُّديِّ والضَّحَّاكِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٨).

قيل: المرادُ: قلْ عسَى أن يُعطيَني من الآياتِ والدَّلالاتِ على النبوَّةِ ما يكونُ أقربَ في الرَّشَدِ وأدَلَّ من قصَّةِ أصحابِ الكهفِ. فالمشارُ إليه بقولِه ﴿مِنۡ هَٰذَا﴾ -على هذا القولِ- هو نَبَأُ أصحابِ الكهف. وممَّن اختار هذا المعنى: الزجاج، وابن أبي زمنين، والواحدي، والبيضاوي، وابن جزي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٨- ٢٩٩).

قال البيضاوي: (وقد هداه لأعظَمَ مِن ذلك، كقَصَصِ الأنبياءِ المتباعِدةِ عنه أيَّامُهم، والإخبارِ

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن استفتاءِ أهلِ الكتابِ في شأنِ أهلِ الكَهفِ؛ لِعَدَمِ عِلمِهم بذلك، وكان اللهُ عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، العالمَ بكُلِّ شَيءٍ؛ أخبَرَ بمُدَّةِ لُبثِهم، وأنَّ عِلمَ ذلك عنده وَحدَه؛ فإنَّه مِن غَيبِ السَّمواتِ والأرضِ، وغَيبُها مختَصٌّ به سُبحانَه، فما أخبَرَ به عنها على ألسنةِ رُسُلِه، فهو الحَقُّ اليقينُ الذي لا يُشَكُّ فيه، وما لا يُطلِعُ رُسُلَه عليه فإنَّ أحدًا من الخَلقِ لا يَعلَمُه[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا فَرَغ اللهُ تعالى مِن هذه التَّربيةِ في أثناءِ القِصَّةِ، وخَتَمَها بالتَّرجيةِ

بالغُيوبِ والحوادثِ النازلةِ في الأعصارِ المُستَقبَلةِ إلى قيامِ الساعةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (لَمَّا أبَرَّ اللهُ وَعدَ نبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الذي وعَدَه المُشركين أن يبيِّنَ لهم أمْرَ أهلِ الكَهفِ، فأوحاه إليه وأوقَفَهم عليه؛ أعقَبَ ذلك بعتابِه على التصَدِّي لمجاراتِهم في السؤالِ عَمَّا هو خارِجٌ عن غرَضِ الرِّسالةِ دون إذنٍ مِن الله، وأمَرَه أن يذكُرَ نهيَ ربِّه، ويعزِمَ على تدريبِ نَفسِه على إمساكِ الوَعدِ ببيانِ ما يُسألُ منه بيانُه دون أن يُؤذِنَه الله به؛ أمَرَه هنا أن يخبِرَ سائليه بأنَّه ما بُعِث للاشتغالِ بمثلِ ذلك، وأنَّه يرجو أنَّ اللهَ يهديه إلى ما هو أقرَبُ إلى الرُّشدِ مِن بيانِ أمثالِ هذه القِصَّةِ، وإن كانت هذه القِصَّةُ تشتَمِلُ على موعِظةٍ وهُدًى، ولكِنَّ الهدى الذي في بيانِ الشَّريعةِ أعظَمُ وأهَمُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٨-٢٩٩).

وقيل: المعنى: إذا نسيتَ شيئًا فاذكُرْ رَبَّك بأن تقولَ: عسى ربِّي أن يهديَني لشيءٍ آخرَ بدَلَ هذا المنسيِّ أقرَبَ منه رَشَدًا، وأدنى خيرًا ومنفعةً. والإشارةُ -بناءً على هذا القولِ- إلى قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وممن قال بذلك: النسفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٩٦).

وقيل: المعنى: إذا سُئِلتَ عن شيءٍ لا تعلمُه، فاسألِ اللهَ فيه، وتوجَّهْ إلى الله أن يوفِّقَك للصوابِ والرشدِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ عزَّ ذِكرُه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: قلْ: ولعلَّ اللهَ أن يهديَني فيُسَدِّدَني لأسَدَّ مِمَّا وعدتُكم وأخبَرتُكم أنَّه سيكونُ، إن هو شاء). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٧-٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

في الهدايةِ للأرشَدِ، وكان عِلمُ مُدَّةِ لُبثِهم أدَقَّ وأخفى مِن عِلمِ عَدَدِهم؛ شَرَعَ في إكمالِها مُبَيِّنًا لهذا الأخفى[1].

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وبَقِيَ الفِتيةُ في الكَهفِ نِيامًا مُدَّةَ ثَلاثِمئةِ سَنةٍ وزيادة تِسعِ سنينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

وهذه الآيةُ إخبارٌ مِن الله تعالى عن قدرِ لبثِهم في الكهفِ، وأنَّهم لبثوا فيه ثلاثَمئةِ سنةٍ وتسعَ سنينَ. ونسَبه الكرماني للجمهورِ. يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٦٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وعبدُ الله بنُ عبيدِ بنِ عميرٍ، والضحاكُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٨).

وقيل في فائدةِ قولِه: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾: أنَّها ثلاثُمِئةِ سنةٍ بحسابِ السَّنةِ الشَّمسيَّةِ، وثلاثُمِئةِ سنةٍ وتسعُ سنينَ بحسابِ السَّنةِ القمريَّةِ. وممن ذهَب إلى هذا القولِ: الماوردي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٠)، (٥/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ هذا القولَ للنقاشِ، ونسَبه الشوكاني للزجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣١).

قال ابنُ عاشور بعدَ أن ذكَر هذا القولَ: (وبهذا تظهرُ نكتةُ التَّعبيرِ عن التِّسعِ السِّنينِ بالازديادِ، وهذا مِنْ علمِ القرآنِ وإعجازِه العلميِّ الَّذي لم يَكُنْ لعمومِ العربِ علمٌ به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠١).

وضَعَّف ابنُ عثيمين هذا القولَ، ورَدَّه من وجهينِ:

الأولُ: أنَّه لا يمكِنُ أنْ نشهَدَ على اللهِ أنه أراد هذا.

الثاني: أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ والسَّنَواتِ عندَ الله بالأهِلَّةِ؛ فقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: اللهُ أعلَمُ بمُدَّةِ لُبثِ الفِتيةِ في الكَهفِ نائِمينَ، وقد أخبَرَنا بمقدارِ تلك المُدَّةِ بالحَقِّ، والصِّدقِ المطابِقِ للواقِعِ، فلا نقبَلُ قَولَ غَيرِه[1].

ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٠).

وقيل أيضًا في فائدةِ قولِه: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾: أنَّه لعلَّهم لما استكمل لهم ثلاثَمِئةِ سنةٍ، قرُب أمرُهم مِن الانتباهِ، ثمَّ اتَّفق ما أوْجَب بقاءَهم في النَّومِ بعدَ ذلك تسعَ سنينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٤٦٤).

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ إخبارٌ عن أهلِ الكتابِ أنَّهم قالوا ذلك. وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، ومطرٌ الوراقُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٨).

قال ابن تيميَّةَ: (بعضُ المفَسِّرينَ زعَموا أنَّ هذا قَولُ بَعضِ أهل الكتابِ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، وليس كذلك؛ فإنَّ اللهَ لم يذكُرْ هذا عن أهل الكتابِ، بل ذكَرَه كلامًا منه تعالى). ((الجواب الصحيح)) (٤/ ٢٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٥١).

وقيل: المعنى: اللهُ أعلَمُ بما لَبِثوا بعد أن قبَضَ أرواحَهم مِن بعدِ أن بعَثَهم مِن رَقدتِهم إلى يومِنا هذا، فلا يعلَمُ بذلك غيرُ اللهِ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣١).

قال الخازن: (يعني: إن نازعوك في مدَّةِ لُبثِهم في الكَهفِ، فقل أنت: الله أعلَمُ بما لَبِثوا، أي: هو أعلَمُ منكم، وقد أخبر بمدَّةِ لُبثِهم). ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٢).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي: إذا سُئِلْتَ عن لُبثِهم وليس عندك عِلمٌ في ذلك وتوقيفٌ مِن الله عزَّ وجلَّ، فلا تتقَدَّمْ فيه بشَيءٍ، بل قُلْ في مثلِ هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ

﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحدَه عِلمُ ما غاب وخَفِيَ في السَّمواتِ والأرضِ، ولا يخفى عليه شَيءٌ فيهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾.

أي: ما أبصَرَ اللهَ لكُلِّ مَوجودٍ، وما أسمَعَه لكُلِّ صَوتٍ، فلا يخفى عليه شَيءٌ

لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٢٦] أي: لا يعلَمُ ذلك إلا هو أو من أطلَعَه اللهُ عليه مِن خَلْقِه. وهذا الذي قُلْناه عليه غيرُ واحدٍ مِن عُلَماءِ التفسيرِ، كمجاهد، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ والخَلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥١).

قال ابنُ عثيمين: (أي: له ما غاب في السَّمواتِ والأرضِ، أو له عِلمُ غَيبِ السَّمواتِ والأرضِ، وكِلا المعنيينِ حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥١).

من ذلك[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾.

أي: ما لجَميعِ الخَلقِ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن دونِ اللهِ مِن وَليٍّ يلي أمرَهم، ويُدَبِّرُ شُؤونَهم، ومن ذلك أنَّه تولَّى شأنَ أصحابِ الكَهفِ بلُطفِه وكَرَمِه، ولم يَكِلْهم إلى أحَدٍ مِن خَلقِه[٢].

﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٢).

قال الزجاج: (أجمَعَت العلماءُ أنَّ معناه: ما أسمَعَه وأبصَرَه! أي: هو عالمٌ بقصَّةِ أصحابِ الكَهفِ وغَيرِهم). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وقال السعدي: (قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ تعجُّبٌ مِن كمالِ سَمعِه وبَصَرِه، وإحاطتِهما بالمسموعاتِ والمُبصَراتِ، بعد ما أخبَرَ بإحاطة عِلمِه بالمعلوماتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٣).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: الضميرُ في قولِه: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾ راجعٌ لأهلِ السَّمَواتِ والأرضِ المفهومينَ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٢٦]. وقيل: الضميرُ في قوله: ﴿مَا لَهُم﴾ راجعٌ لمعاصِري النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الكُفَّارِ، ذكَرَه القرطبي. وعلى كلِّ حالٍ فقد دلَّت الآياتُ المتقدِّمةُ أنَّ وِلايةَ الجَميعِ لخالِقِهم جلَّ وعلا، وأنَّ منها وِلايةَ ثوابٍ وتوفيقٍ وإعانةٍ، وولايةَ مِلْكٍ وقَهرٍ ونُفوذٍ ومَشيئةٍ. والعِلمُ عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٥٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاء والجزمِ، بتوجيهِ الخطابِ[١] بالنَّهيِ عن الإشراكِ باللهِ في حُكمِه، فلا يَحكُم بين النَّاسِ بغيرِ حُكمِ اللهِ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالياء والرَّفع، على الخبَرِ عن اللهِ تعالى أنَّه نفى عن أيِّ أحدٍ مِن خَلقِه إشراكَه في حُكمِه وقَضائِه، أي: لا يُشرِكُ اللهُ في حُكمِه أحدًا سواه؛ فهو المتفَرِّدُ وَحدَه بالحُكمِ بين العبادِ[٣].

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

أي: ولا يُشرِكُ اللهُ في قَضائِه بين خَلقِه وفي تدبيرِهم أحدًا سواه؛ فهو المتفرِّدُ وَحدَه بالحُكمِ في خَلقِه قَضاءً وقَدَرًا، وخلْقًا وتدبيرًا، وبالحُكمِ فيهم أمرًا ونهيًا، وثوابًا وعقابًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾

---

(١) قال ابنُ خالَويه: (والحُجَّةُ لِمَن قرأه بالتاءِ والجزمِ: أنَّه قصد الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووجَّهَه إلى غيره، وجَعَل «لا» للنَّهيِ؛ فجَزَم بها). ((الحجة في القراءات السبع)) (ص: ٢٢٣).
وقال أبو علي الفارسي: (قراءةُ ابنِ عامرٍ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ أنت -أيُّها الإنسانُ- في حُكمِه؛ على النهيِ عن الإشراكِ في حُكمِه). ((الحجة للقراء السبعة)) (٥/ ١٤١).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٢٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٤١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٤).

[الأنعام: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الخُلاصةُ التي تُستخلَصُ مِن قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ هي: أنَّ كُلَّ مَنِ التجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يحميه بأسبابٍ قد يُدرِكُها وقد لا يُدرِكُها، وهو مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]؛ فإنَّ مُدافعةَ اللهِ عن المؤمنينَ قد تكونُ بأسبابٍ معلومةٍ، وقد تكونُ بأسبابٍ مجهولةٍ لهم؛ فهذا يُرشِدُنا إلى أنْ نُحَقِّقَ الإيمانَ باللهِ عزَّ وجَلَّ، والقيامَ بطاعتِه[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ في هذه القِصَّةِ دليلٌ على أنَّ مَن فَرَّ بدِينِه مِن الفِتَنِ، سَلَّمه اللهُ منها، وأنَّ مَن حَرَص على العافيةِ عافاه اللهُ، ومَن أوى إلى اللهِ آواه اللهُ، وجعلَه هدايةً لغيرِه، ومن تحمَّلَ الذُّلَّ في سبيلِه وابتغاءَ مَرضاتِه، كان آخِرَ أمْرِه وعاقِبتَه العِزُّ العظيمُ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ[٢]، فالخوفُ العظيمُ مِن أهلِ الكَهفِ وقتَ إيمانِهم، ودخولِهم في الغارِ، أبدلهم اللهُ به بعدَ ذلك أمنًا وتعظيمًا مِن الخلقِ، وهذه عوائِدُ اللهِ فيمن تحمَّلَ المشاقَّ مِن أجلِه: أن يجعَلَ له العاقِبةَ الحَميدةَ[٣].

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٨٩).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أبهم تعالى على عُمومِ النَّاسِ الإعلامَ بذلك؛ لحِكمةٍ، وهي أن تتعوَّدَ الأمَّةُ بتَركِ الاشتغالِ فيما ليست منه فائدةٌ للدينِ أو للنَّاسِ(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ اشتملَ على الأدَبِ في هذا المقامِ، وتعليمِ ما ينبغي في مِثْلِ هذا؛ فإنَّه تعالى أخبَرَ عنهم بثلاثةِ أقوالٍ، ضَعَّفَ القولَينِ الأوَّلَينِ، وسَكَتَ عن الثَّالثِ، فدلَّ على صِحَّتِه؛ إذْ لو كان باطِلًا لردَّه كما ردَّهما، ثمَّ أرشدَ إلى أنَّ الاطِّلاعَ على عِدَّتِهم لا طائِلَ تحتَه، فيُقالُ في مِثلِ هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾؛ فإنَّه ما يعلمُ بذلك إلَّا قليلٌ مِن النَّاسِ ممَّن أطْلَعَه اللهُ عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تُجْهِدْ نفسَك فيما لا طائِلَ تحته، ولا تَسألْهم عن ذلك؛ فإنَّهم لا يَعلَمونَ مِن ذلك إلَّا رَجْمَ الغَيبِ، فهذا أحسنُ ما يكونُ في حكايةِ الخلافِ: أنْ تُستوعَبَ الأقوالُ في ذلك المقامِ، وأن يُنبَّهَ على الصَّحيحِ منها، ويُبطَلَ الباطِلُ، وتُذكَرَ فائِدةُ الخلافِ وثَمرتُه؛ لئلَّا يَطولَ النزاعُ والخِلافُ فيما لا فائدةَ تحتَه، فيُشتَغَلَ به عن الأهَمِّ، كذلك مَن نَصَب الخِلافَ فيما لا فائِدةَ تَحتَه، أو حكى أقوالًا متعدِّدةً لفظًا، ويَرجِعُ حاصِلُها إلى قَولٍ أو قَولينِ معنًى؛ فقد ضَيَّعَ الزمانَ وتكَثَّرَ بما ليس بصحيحٍ؛ فهو كلابِسِ ثَوبَي زُورٍ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٧).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشادٌ إلى أنَّ الأحسَنَ في مِثلِ هذا المقامِ رَدُّ العِلمِ إلى اللهِ تعالى؛ إذ لا احتياجَ إلى الخَوضِ في مِثلِ ذلك بلا عِلمٍ، لكِنْ إذا اطَّلَعْنا على أمرٍ قُلنا به، وإلَّا وقَفْنا حيث وقَفْنا[١]؛ ففيه تعليمٌ للنَّاسِ أن يردُّوا عِلمَ الأشياءِ إلى خالِقِها جلَّ وعلا وإن عَلِموا بها، كما أعلم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمدَّةِ لُبثِهم في قَولِه: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم أمَرَه مع ذلك برَدِّ العلمِ إليه جلَّ وعلا في قَولِه جلَّ وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾ فيه دليلٌ على المَنعِ مِن استِفتاءِ مَن لا يَصلُحُ للفَتوى؛ إما لِقُصورِه في الأمرِ المُستفتَى فيه، أو لِكَونِه لا يُبالي بما تكَلَّمَ به، وليس عِندَه وَرَعٌ يَحجُزُه، وإذا نُهيَ عن استفتاءِ هذا الجِنسِ، فنَهيُه هو عن الفتوى مِن بابِ أولَى وأحرَى[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فنهى أن يقولَ العبدُ في الأمورِ المُستقبَلة، ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾ مِن دونِ أن يقرِنَه بمشيئةِ الله؛ وذلك لِما فيه من المحذورِ، وهو: الكلامُ على الغَيبِ المُستقبَلِ الذي لا يَدري هل يفعَلُه أم لا، وهل يكونُ أم لا، وفيه ردُّ الفِعلِ إلى مشيئةِ العبدِ استقلالًا، وذلك محذورٌ محظورٌ؛ لأنَّ المشيئةَ كُلَّها لله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولِما في ذِكرِ مَشيئةِ الله مِن تيسيرِ الأمرِ وتَسهيلِه، وحُصولِ البركةِ فيه، والاستعانةِ مِن العبدِ لرَبِّه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٤).

٨- من تَرَكَ شيئًا مِن ذِكرِ اللهِ الواجِبِ عليه سَهوًا، فلْيعُدْ إليه إذا ذَكَر، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ فقد أمَرَه إذا نسيَ رَبَّه أن يذكُرَه بعد ذلك، فمن نسيَ الصَّلاةَ فقد نسيَ ذِكرَ رَبِّه، فإذا ذكَرَ أنَّه نَسِيَ فلْيعُدْ إلى ذكرِ الله بعدَ نِسيانِه[1]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى ذو بَصَرٍ نافذٍ لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وذو سَمعٍ ثاقبٍ لا يخفَى عليه شَيءٌ، والإيمانُ بذلك يَقتَضي للإنسانِ ألَّا يُريَ ربَّه ما يكرَهُه، ولا يُسمِعه ما يكرَهُه؛ لأنَّك إنْ عَمِلتَ أيَّ عَمَلٍ رآه، وإنْ قُلْتَ أيَّ قولٍ سَمِعَه، وهذا يُوجِبُ أن تخشى اللهَ عزَّ وجلَّ، وألَّا تفعلَ فِعلًا يَكرَهُه، ولا تقولَ قولًا يَكرَهُه اللهُ عزَّ وجلَّ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ قصةَ أصحابِ الكَهفِ هي مِن آياتِ الله؛ فإنَّ مُكثَهم نِيامًا لا يَموتونَ ثلاثَمِئةِ سَنةٍ وتسعَ سنينَ؛ آيةٌ دالَّةٌ على قُدرةِ الله ومَشيئتِه، وأنَّه يَخلُقُ ما يشاءُ، ليس كما يقولُه أهلُ الإلحادِ، وهي آيةٌ على مَعادِ الأبدانِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾، وكان الناسُ قد تنازَعوا في زَمانِهم: هل تعادُ الأرواحُ دُونَ الأبدانِ؟ وإخبارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِصَّتِهم -مِن غيرِ أنْ يُعَلِّمَه بَشَرٌ- آيةٌ على نبُوَّتِه، فكانت قِصَّتُهم آيةً على أصولِ الإيمانِ الثلاثةِ: الإيمانُ باللهِ، واليومِ الآخِرِ، والإيمانُ برَسولِه، ومع هذا فليسوا من آياتِ اللهِ بعَجَبٍ، بل مِن آياتِ اللهِ ما هو أعجَبُ مِن ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٣).

عَجَبًا ﴾[1] [الكهف: ٩].

٢- اتخاذُ القبورِ مساجدَ ليس هو مِن شريعةِ الإسلامِ، بل مِن عملِ اليهودِ، وقد لعَنهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم على ذلك، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا﴾ فجعَل اتِّخاذَ المساجِدِ على القُبورِ مِن فِعْلِ أهلِ الغَلَبةِ على الأمورِ، وذلك يُشْعِرُ بأنَّ مُستَندَه القَهْرُ والغَلَبةُ واتِّباعُ الهوى، وأنَّه ليس مِن فِعْلِ أهلِ العِلمِ والفَضلِ المُتَّبِعينَ لِمَا أنزلَ اللهُ على رُسُلِه مِن الهُدى[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا﴾ مِن فوائِدِ الآيةِ أنَّ مِن أسبابِ بناءِ المَساجِدِ على القُبورِ الغُلوَّ في أصحابِ القُبورِ؛ لأنَّ الذين غَلَبوا على أمْرِهم بَنَوا عليهم المساجِدَ؛ لأنَّهم صاروا عِندَهم مَحَلَّ الاحترامِ والإكرامِ، فغَلَوا فيهم[3].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ وصفُ الأوَّلَينِ بالرَّجمِ بالغَيبِ دُونَ الثَّالِثِ يدُلُّ على أنَّه مَرْضِيٌّ وصَحيحٌ[4].

٥- هنا نُكتةٌ في مسألةِ العَدَدِ؛ فاللهُ تعالى قال: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ ولم يقُلْ: ثمانيةٌ ثامِنُهم كلبُهم؛ لأنَّ الكلبَ مِن غيرِ الجِنسِ، وإذا كان مِن غيرِ الجِنسِ؛ فإنَّه لا يَدخُلُ في العددِ، ولكِنَّه يُجعَلُ بعدَه؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٨٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٩٧).
(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٣).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٠).

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ولم يَقُلْ: «مِن نجوى أربعةٍ إلَّا هو رابِعُهم»؛ لأنَّه خالِقٌ وهم مخلوقونَ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ دَلَّ عَلَمُ الاستقبالِ -السينُ في سيَقولونَ- على أنَّ النَّاسَ لا يزالونَ يَخوضونَ في ذلك(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا﴾ فيه تحريمُ الجِدالِ بغَيرِ عِلمٍ وبلا حُجَّةٍ ظاهرةٍ(٣).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الشَّخصَ قد يكون مَنهيًّا عن استفتائِه في شيءٍ دون آخَرَ، فيُستفتَى فيما هو أهلٌ له، بخلافِ غيرِه؛ لأنَّ الله لم ينهَ عن استفتائِهم مطلقًا، إنما نَهَى عن استفتائِهم في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ، وما أشبهَها(٤).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريةِ واضحةٌ؛ ألا ترى أنَّ الله جَلَّ جلالُه كيف أدَّب نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فأعلَمَه أنَّ فِعلَه الشيءَ -وإن كان منسوبًا إليه- فبمَشيئتِه يَفعَلُه، ونهاه أن يُطلِقَ القَولَ في فِعلِه بغيرِ استثناءِ مَشيئتِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٨٦).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه استِحبابُ تَقديمِ المَشيئةِ في كُلِّ شَيءٍ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استدَلَّ به الشَّافِعيُّ وغَيرُه على أنَّ الاستِثناءَ في الأيمانِ والطَّلاقِ والعِتقِ، مُعتبَرٌ[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلَّا قَولًا مَقرونًا بمَشيئةِ الله؛ فقَرنُ ذلك بمشيئةِ الله يَستفيدُ منه الإنسانُ فائِدَتينِ عَظيمَتينِ:

إحداهما: أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ الأمرَ له؛ حيث فوَّضَه إليه جلَّ وعلا.

والثانيةُ: إنْ لم يَفعَلْ لم يَحنَثْ[٣].

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ الفائِدةُ مِن أمْرِ اللهِ تعالى أنْ نَذكُرَه إذا نَسِينا هو ارتِفاعُ الإثمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإذا نَسِيتَ فقُلْها إذا ذكَرْتَ، لكنْ هل تنفعُك فلا تَحنَثُ، أم يرتَفِعُ عنك الإثمُ دونَ حُكْمِ اليَمينِ؟ الظَّاهرُ: الثَّاني؛ أنْ يَرتفِعَ الإثمُ، وأمَّا الحِنْثُ فإنَّه يَحنَثُ لو خالفَ؛ لأنَّ الاستثناءَ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٦).

قال الرسعني: (والفائدةُ في الاستثناءِ: الخروجُ مِن الكذبِ، والتخلُّصُ مِن حنثِ الحالفِ إذا لم يفعلِ المحلوفَ عليه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٦٨).

بالنِّسبةِ للحِنْثِ لا ينبغي إلَّا أنْ يكونَ مُتَّصِلًا[1]. وقد أجمع المُسلِمونَ على أنَّ الحالِفَ إذا استثنى في يمينه مُتَّصِلًا بها فقال: لأفعلَنَّ كذا أو لا أفعَلُه إن شاء اللهُ؛ أنَّه لا يحنَثُ إذا خالَفَ ما حلف عليه؛ لأنَّ مِن أصلِ أهلِ الإسلامِ أنَّه لا يكون شيءٌ إلَّا بمشيئةِ الله، فإذا عَلَّقَ الحالِفُ الفِعلَ أو التَّركَ بالمشيئةِ، لم يحنَثْ عند عَدَمِ المشيئةِ، ولا تجِبُ عليه الكَفَّارةُ[2].

١٤- قوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ ﴿عَسَىٰٓ﴾ مستعملةٌ في الرجاءِ تأدُّبًا[3].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ استُدِلَّ بالتَّعجُّبِ فيه على جوازِ إطلاقِ صِيغةِ التعجُّبِ في صفاتِ اللهِ، كقَولِ: ما أعظَمَ اللهَ وما أجَلَّه[4]!

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ على قراءةِ: ﴿ولَا تُشْرِكْ﴾ فالمعنى: لا يجوزُ أن يَحكُمَ حاكِمٌ إلَّا بما حكَمَ اللهُ، أو بما يدُلُّ عليه حُكمُ الله، وليس لأحدٍ أن يَحكُمَ مِن ذاتِ نَفسِه، فيكونَ شَريكًا لله في حُكمِه[5].

١٧- يُفهِمُ قَولُه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ على كِلتا قراءتَيه[6]، وكذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٠). ويُنظر أيضًا: ((طبقات الشافعية الكبرى)) للسبكي (٩/ ٢٩٣).

ونقل الزجاجُ الإجماعَ في قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ على أنَّ معناه: ما أسمَعَه وأبْصَرَه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨٠).

(٦) تقدَّم ذكرُ القراءتينِ في (القراءات ذات الأثرِ في التفسيرِ) (ص: ١٢٨).

قولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقولُه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ- أنَّ متَّبِعي أحكامِ المشَرِّعين غيرَ ما شرَعَه اللهُ؛ أنَّهم مُشرِكون بالله، وهذا المفهومُ جاء مُبيَّنًا في آياتٍ أُخَرَ، كقَولِه فيمن اتَّبَع تشريعَ الشيطانِ في إباحةِ المَيتةِ بدعوى أنَّها ذبيحةُ اللهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصَرَّح بأنَّهم مُشرِكون بطاعتِهم، وهذا الإشراكُ في الطاعةِ. واتِّباعُ التَّشريعِ المخالِفُ لِما شرعه اللهُ تعالى: هو المرادُ بعبادةِ الشَّيطانِ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وقَولِه تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقَولِه تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، أي: ما يعبدون إلَّا شيطانًا، أي: وذلك باتِّباعِ تَشريعِه، ومِن أصرَحِ الأدلَّةِ في هذا: أنَّ الله جلَّ وعلا في سورةِ (النساء) بيَّنَ أنَّ مَن يريدون أن يتحاكَموا إلى غيرِ ما شرَعَه الله يُتعَجَّبُ مِن زعمِهم أنَّهم مؤمِنون، وما ذلك إلَّا لأنَّ دعواهم الإيمانَ مع إرادةِ التَّحاكُمِ إلى الطاغوتِ بالغةٌ مِن الكَذِبِ ما يحصُلُ منه العَجَبُ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1] [النساء: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقبْلَ هذا الكلامِ جُملٌ مَحذوفةٌ؛ والتَّقديرُ: فبَعَثوا أحدَهم ونظَرَ أيُّها أزكى طعامًا وتلطَّفَ، ولم يُشْعِرْ بهم أحدًا، فأطلَعَ اللهُ أهْلَ المدينةِ على حالِهم، وقصَّةِ ذَهابِه إلى المدينةِ، وما جَرى له مع أهْلِها[١].

- ومفعولُ ﴿أَعْثَرْنَا﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه عُمومُ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، تَقديرُه: أعثَرْنا أهلَ المدينةِ عليهم[٢].

- قولُه: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ الظَّرفُ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿أَعْثَرْنَا﴾؛ قُدِّمَ عليه الغايةُ إظهارًا لكَمالِ العنايةِ بذِكْرِها، أي: أعثَرْنا عليهم حين تَنازعوا أمْرَهم. وصِيغَ ذلك بصِيغَةِ الظَّرفيَّةِ؛ للدَّلالةِ على اتِّصالِ التَّنازُعِ في أمْرِ أهْلِ الكهفِ بالعُثورِ عليهم، بحيث تَبادروا إلى الخوضِ في كَرامةٍ يَجْعلونها لهم[٣]، وهذا إدماجٌ لذِكْرِ نِزاعٍ جَرى بين الَّذين اعْتَدوا عليهم في أُمورٍ شَتَّى، جمَعَها قولُه تعالى: ﴿أَمْرَهُمْ﴾؛ فضميرُ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ و﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائدانِ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٨).

- والإتيانُ بالمُضارِعِ ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ﴾؛ لاستحضارِ حالةِ التَّنازُعِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾ معطوفٌ على ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ﴾، وإيثارُ صِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ ليس ممَّا يَستمِرُّ ويتجدَّدُ كالتَّنازُعِ[٢].

- قولُه: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ طُوِيَ هنا وصْفُ العُثورِ عليهم، وذِكْرُ عودِهم إلى الكهفِ؛ لعدَمِ تعلُّقِ الغرَضِ بذِكْرِه؛ إذ ليس موضعَ عِبْرةٍ؛ لأنَّ المصيرَ إلى مَرقدِهم، وطُرُوَّ الموتِ عليهم شأنٌ مُعتادٌ لكلِّ حَيٍّ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾

- جيء بسينِ الاستقبالِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ الأوَّل دونَ الآخَرَيْنِ: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾؛ إمَّا لأنَّه يدخلُ الآخرانِ في حكمِ (السينِ)، كما تقولُ: قد أُكرَمُ وأُنعمُ، تريدُ معنى التوقعِ في الفعلينِ جميعًا؛ فحَرفُ العَطفِ يُوجِبُ دُخولَ القَولَينِ الآخَرَينِ فيه، وإمَّا يرادُ بـ(يفعل) معنى الاستقبالِ الَّذي هو صالحٌ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩١).

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ...﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ بزيادةِ واوِ العطْفِ، بخِلافِ الَّذي قبْلَه ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ ﴿سَادِسُهُمْ﴾؛ فاختُصَّت الثَّمانيةُ بالواوِ، ولمْ ترِدِ الجُملةُ من قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صِفةً للنَّكرةِ قبْلَها كما تقدَّمَ فيما قبْلُ، وعُدِلَ إلى العطْفِ؛ ووجه ذلك قيل: إنَّ هذا الإخبارَ مُعرِّفٌ باختلافِ اليهودِ في فِتية الكَهفِ، وإنَّهم أو أكثرَهم لم يَتحقَّقوا عددَهم؛ فحَكَى سُبحانَه أقوالَهم، وأومأَ إلى تقريرِ الصَّحيحِ منها، مع أنَّ أكثرَ اليهود غيرُ عالِمينَ بذلك ولا مُرجِّحين؛ فأتى بالجُملتَينِ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ثمَّ أَتْبَع هذا الكلامَ مِن اختلافِهم بقولِه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾؛ فأفهمَ أنَّ هذا ليس مِن نَمطِ ما تَقدَّم، كأنَّه قيل: ويقولون سَبعةٌ وثامنُهم كلبُهم، وأنَّ هذا ليس داخلًا تحت ما تقدَّمَ من أنَّه رجمٌ بالغَيبِ[1].

وقيل: هذه الواوُ هي الواوُ الَّتي تدخُلُ على الجُملةِ الواقعةِ صِفَةً للنَّكرةِ، وفائدتُها توكيدُ اتِّصالِ الصِّفةِ بالموصوفِ، والدَّلالةُ على أنَّ اتِّصالها أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، وهذه الواو هي الَّتي آذنَتْ بأنَّ الَّذين قالوا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، قالوا عن ثباتِ علْمٍ وطُمأنينةِ نفْسٍ، ولم يَرْجُموا بالظَّنِّ كما غيرُهم. والدَّليلُ عليه: أنَّ اللهَ سُبحانَه أتبَعَ القولينِ الأوَّلينِ قولَه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، وأتبَعَ القولَ الثَّالثَ قولَه: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

- وقيل: إنَّ الفِرقةَ الَّتي قالتْ: كانوا ثلاثةً، كانتْ بعدَها فِرقتانِ أُخريانِ،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٧)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣١٧-٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٨).

وكذلك الثَّانيةُ الَّتي قالت: ﴿خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وأمَّا السَّبعةُ فانتهَتْ عندها العِدَّةُ، وانقطَعَتْ بها القصَّةُ، ولم تكُنْ هناك فِرقةٌ رابعةٌ تَذكُرُ قولًا رابعًا، والشَّيءُ إذا تَمَّ وانتهى، وكانت الجُملةُ فيما لم يَنْتَهِ تتَّصِلُ بالأوَّلِ اتِّصالَ الشَّيءِ منه؛ كانتِ الواوُ فيها دَليلًا على انقضائِها، والآخر في كلامٍ في حُكْمِ المَنقطعِ منها في اللَّفظِ، وإنْ كان اتِّصالُه بها في المعنى كاتِّصال الأوَّلينِ[١]. وقيل: لمَّا كانتِ السَّبعةُ أصلًا للنِّهايةِ في تركيبِ العدَدِ؛ فصارتِ السَّبعةُ أصلًا للمُبالَغةِ في العدَدِ[٢].

- وقيل: إنَّ العرَبَ تقولُ: واحدٌ، اثنانِ، ثلاثةٌ، أربعةٌ، خمسةٌ، سِتَّةٌ، سبعةٌ، وثمانيةٌ، فإذا بلغَتِ الثَّمانيةَ لم تُجْرِها مَجْرى الأخواتِ الَّتي لا يُعْطَفُ بعضُها على بعضٍ، فيُعْطَفُ الثَّامنُ على ما قبْلَه، ولم يدخُلْ واوُ العطْفِ على ما قبْلَه[٣].

- وجُملةُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لِما تُثيرُه جُملةُ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ إلى آخرِها، مِن ترقُّبِ تَعيينِ ما يُعتمَدُ عليه من أمْرِ عِدَّتِهم؛ فأُجِيبَ بأنْ يُحالَ العلْمُ بذلك على علَّامِ الغُيوبِ[٤].

- وإسنادُ اسمِ التَّفضيلِ إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ يُفيدُ أنَّ علْمَ اللهِ بعِدَّتِهم هو العلْمُ الكاملُ، وأنَّ علْمَ غيرِه مُجرَّدُ ظَنٍّ وحَدَسٍ، قد

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٦٧-٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٦٨-٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٧٠-٨٧٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٦٨-١٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٨).

ويُنظر ما قيل في واوِ الثمانيةِ في: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥١)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٤٧٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٣).

يُصادِفُ الواقعَ وقد لا يُصادِفُه[١].

- وجُملةُ: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الإخبارَ عن اللهِ بأنَّه الأعلَمُ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ أنْ يَسألوا: هل يكونُ بعضُ النَّاسِ عالمًا بعِدَّتِهم علْمًا غيرَ كاملٍ؟ فأُجِيبَ بأنَّ قليلًا من النَّاسِ يَعْلمون ذلك، ولا مَحالةَ هم مَن أطلَعَهم اللهُ على ذلك بوحيٍّ، وعلى كل حالٍ فهم لا يُوصفونَ بالأعلميَّةِ؛ لأنَّ علْمَهم مُكتسبٌ من جِهَةِ اللهِ الأعلَمِ بذلك[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ النَّهيِ على ما قبْلَه، أي: إذ قد عرَفْتَ جهْلَ أصحابِ القولينِ الأوَّلينِ، فلا تُجادِلْهم[٣]، وهذا التَّفريعُ وما عُطِفَ عليه مُعترِضٌ في أثناءِ القصَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ سَمَّى مُراجعتَه لهم مِراءً على سَبيلِ المُقابَلةِ؛ لمُماراةِ أهْلِ الكتابِ له في ذلك[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾ يعني: في عدَّتِهم، وحُذِفت العِدَّةُ؛ لدلالةِ ظاهرِ القولِ عليها[٦]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ المُرادُ من النَّهيِ عن استفتائِهم: الكِنايةُ عن جهْلِهم بأمْرِ أهْلِ الكهفِ؛ فضميرُ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ما عاد

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠٨).

إليه ضَميرُ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ ﴾، أو يكونُ كِنايةً رمزيَّةً عن حُصولِ عِلْمِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلمَ بحقيقةِ أمْرِهم، بحيث هو غَنِيٌّ عن استفتاءِ أحدٍ، وتكونُ (مِن) تَعليليَّةً[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ في الكلامِ حذفٌ يقتضيه الظاهرُ، ويحسنُه الإيجازُ، والتقديرُ: إلَّا أن تقولَ: إلَّا أن يشاءَ الله، أو: إلَّا أن تقولَ: إنْ شاءَ اللهُ[2].

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ في تعريفِ الجلالةِ بلفظِ الربِّ مضافًا إلى ضميرِ المخاطبِ دونَ اسمِ الجلالةِ العَلَمِ مِن كمالِ الملاطفةِ ما لا يخفَى[3].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾

- قولُه: ﴿ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ فيه تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ؛ فالجملةُ مستأنفةٌ، مُبيِّنةٌ لِمَا أُجمِل فيما سبَق في قولِه: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾[4].

- قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ أي: تسعَ سنينَ، فاستغنَى عن ذِكرِ السنينَ؛ لتقدُّمِ ذِكرِها[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٧١).

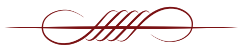
٥- قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

- قولُه: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه تقديمُ الخبر المجرور؛ لإفادة الاختصاص، أي: للهِ لا لغيره؛ ردًّا على الَّذين يزعمون علمَ خبرِ أهلِ الكهفِ ونحوِهم[١].

- قولُه: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ فيه مجيءُ ما دلَّ على التعجُّبِ مِن إدراكِه المسموعاتِ والمبصَراتِ؛ للدلالةِ على أنَّ أمرَه في الإدراكِ خارجٌ عن حدِّ ما عليه إدراكُ السامعينَ والمبصِرينَ؛ لأنَّه يدركُ ألطفَ الأشياءِ وأصغرَها، كما يدركُ أكبرَها حجمًا وأكثفَها جِرمًا، ويدركُ البواطنَ كما يدركُ الظواهرَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ تقديمُ أمرِ الإبصارِ على السمعِ؛ ولعلَّ ذلك لأنَّ الشيءَ المتحدَّثَ عنه مِن قبيلِ المبصَراتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أبلغُ في نفيِ الشريكِ مِن أن يُقالَ: مِن وليٍّ ولا شريكٍ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي: مَلجأً تَميلُ إليه، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ[(١)].

﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: الغَداةُ: أوَّلُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدُلُّ على زَمانٍ[(٢)]. والعَشِيُّ: مِنْ زوالِ الشَّمْسِ إلى الصَّباحِ، وآخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ، وقِلَّةِ وضوحِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾: أي: لا تَصرِفْ عَينيك عنهم، ولا تُجاوِزْهم إلى غَيرِهم، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على التَّجاوزِ في الشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩، ٦٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن

﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: أي: شغَلْنا قلبَه، وجعَلْناه غافلًا، والغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ مِن قلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ. وقيل: المعنى: تركناه غُفْلًا، أي: فارغًا، والغُفْلُ: الشيءُ الفارغُ، والأرضُ الغُفْلُ: التي لا علامةَ بها(١).

﴿فُرُطًا﴾: أي: سَرَفًا وتَفريطًا وضَياعًا، وهو مِنَ الإفراطِ في الشَّيءِ والتَّجاوُزِ فيه، وقيل: أصلُه مِن التفريطِ، وهو تقديمُ العَجْزِ، فمَن قدَّم العَجْزَ في أمرِه أضاعَه وأهلَكه(٢).

﴿سُرَادِقُهَا﴾: أي: فُسطاطُها وسُورُها، وكُلُّ ما أحاط بشيءٍ واشتمَلَ عليه مِن ثَوبٍ أو حائطٍ، يقالُ له: سُرادِقٌ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّب(٣).

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: ما انتهى حَرُّه مِمَّا أُذِيبَ من النُّحاس والرَّصاصِ وأشباهِ ذلك، أو عَكَرُ الزَّيتِ، وأصلُ (مهل): يدل على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ(٤).

جرير)) (١٥/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠-٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٦/ ١٧١)،

﴿مُرْتَفَقًا﴾: أي: مَنزِلًا، ومَقرًّا يُعَدُّ للارتفاقِ والانتفاعِ، أو مجلسًا، وأصلُ الارتفاقِ: الاتكاءُ على المِرْفقِ، وأصلُ (رفق): يدُلُّ على مُوافَقةٍ ومُقارَبةٍ بلا عنفٍ، ويُشتَقُّ منه كلُّ شيءٍ يَدْعو إلى راحةٍ وموافَقةٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- ما أوحاه اللهُ إليك من القُرآنِ، وبلِّغْه للناسِ، واتَّبِعْه؛ فإنَّه لا يستطيعُ أحَدٌ أن يُبدِّلَ كَلِماتِ اللهِ؛ ولن تجِدَ مِن دونِ رَبِّك مَلجأً تلجأُ إليه إن أنت لم تَتلُ القرآنَ وتتَّبِعْه وتبلِّغْه.

ثم يرشدُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أحدِ الآدابِ المهمةِ، فيقولُ: واحبِسْ نفسَك -يا مُحمَّدُ- مع أصحابِك الذين يَعبُدونَ رَبَّهم وحدَه، ويَدْعُونَه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه مُخلِصينَ في عبادتِه، ولا تَصرِفْ نَظَرَك عنهم إلى غَيرِهم مِن الكُفَّارِ مِن أهلِ الغنَى والجاهِ؛ راغبًا في مجالستِهم، ولا تُطِعْ مَن جعَلْنا قلبَه غافِلًا عن ذِكرِنا، وآثَرَ هواه، وصار أمرُه في جميعِ أعمالِه ضَياعًا وسَفَهًا وتفريطًا.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يجهرَ بكلمةِ الحقِّ، فيقولُ تعالى: وقُلْ لهؤلاء الغافلينَ: ما جئتُكم به هو الحَقُّ مِن رَبِّكم، فإنْ شِئتُم فآمِنوا، وإن شِئتُم فاكفُروا، إنا أعدَدْنا للكافرينَ نارًا شديدةً أحاط بهم سُورُها مِن كُلِّ جانبٍ، وإنْ يَستَغِثْ هؤلاء الكُفَّارُ في النَّارِ بطَلَبِ الماءِ مِن شِدَّةِ عطَشِهم، يُؤتَوا بماءٍ مُنتِنٍ أسودَ شَديدِ الحرارةِ يَشوي وجوهَهم، قَبُحَ هذا الشرابُ الذي يُؤتَونَ

((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٣، ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٥).

به، وقَبُحَت النَّارُ مَنزِلًا لهم ومُقامًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أنزَل اللهُ تعالى على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أنزَل مِن قِصَّةِ أهلِ الكهفِ؛ أمَرَه بأن يقُصَّ ويتلوَ على معاصريه ما أوحَى إليه تعالى مِن كتابِه في قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ وفي غيرِهم(١).

وأيضًا لَمَّا دلَّ اشتمالُ القُرآنِ على قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ، مِن حيث إنَّها من المُغيَّباتِ بالإضافةِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، على أنَّه وحيٌ مُعجِزٌ؛ أمَرَه أن يداوِمَ دَرسَه، ويلازِمَ أصحابَه(٢).

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ الله تعالى أنَّ له غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، فليس لمخلوقٍ إليها طريقٌ إلَّا عن الطريقِ التي يخبِرُ بها عبادَه، وكان هذا القرآنُ قد اشتملَ على كثيرٍ مِن الغيوبِ؛ أمر تعالى بالإقبالِ عليه، فقال(٣):

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾.

أي: واقرأ -يا محمَّدُ- ما أوحَى اللهُ إليك مِن القرآنِ، وأبلِغْه إلى النَّاسِ، واتَّبِعْه بتصديقِ أخبارِه والعَمَلِ بما فيه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان))

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١- ٩٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾.

أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يغيِّرَ كَلِماتِ الله[1] الشرعيةَ، فيُحَرِّفَ القرآنَ بتغييرِ أخبارِه، وتبديلِ أحكامِه، أو صرفِها عن معانيها الصَّحيحةِ[2]، ولا أن يُغيِّرَ كَلِماتِه

للشنقيطي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٥).

(١) قال ابن الجوزي: (في قولِه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ قولان:
أحدهما: لا يَقدِرُ المُفتَرون على الزيادةِ فيها والنقصانِ منها.
والثاني: لا خُلفَ لمواعيده، ولا مغيِّرَ لحُكمِه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٦٩). ويُنظر: (٢/ ٢٤).
وقال ابن جرير: (﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ يقول: لا مُغَيِّرَ لما أَوعَدَ بكلماتِه التي أنزلها عليك أهلَ معاصيه، والعاملينَ بخلافِ هذا الكتابِ الذي أوحيناه إليك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤).
وقال ابن جُزي: (يحتملُ أن يُرادَ بالكلماتِ هنا: القرآنُ، فالمعنى: لا يُبدِّلُ أحدٌ القرآنَ ولا يغيِّره، ويحتمِلُ أن يريدَ بالكلماتِ: القَضاءَ والقدَرَ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١).
قال البقاعي: (فلا عُذرَ في التقصيرِ في إبلاغِها). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٨).

الكونيةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥].

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- مِن دونِ اللهِ مَلجأً تَهرُبُ إليه، وتحتمي به مِن العذابِ، إن أنتَ لم تتلُ القُرآنَ فتَتَّبِعْه وتُبَلِّغْه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٧).
قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني: لا أحدَ يستطيعُ أن يُبدِّلَ كلماتِه، لا الكونيةَ ولا الشرعيةَ). ((المصدر السابق)).
وقال أيضًا: (أمَّا الشرعيَّةُ فلا أحدَ يستطيعُ شَرعًا أن يبَدِّلَها. والنفيُ هنا ليس نفيًا للوجودِ، ولكِنَّ النفيَ هنا للإمكانِ الشَّرعيِّ، فلا أحَدَ يستطيعُ شرعًا أن يبَدِّلَ كَلِماتِ اللهِ الشَّرعيَّةَ؛ فالواجِبُ على الجميعِ أن يستسلِموا لله، فلو قال قائِلٌ: وجَدْنا من يبَدِّلُ كلامَ الله... قلنا: هذا تبديلٌ شَرعيٌّ، والتبديلُ الشَّرعيُّ قد يقَعُ مِن البَشَرِ، فيُحَرِّفونَ الكلامَ عن مواضِعِه، ويفَسِّرونَ كلامَ الله بما لا يريدُه الله). ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير الكهف)) لابن عثيمين (ص: ٥٧).

٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

أي: واحبِسْ نفسَك -يا مُحمَّدُ- مع أصحابِك الذين يَعبُدونَ رَبَّهم أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ويَدْعونَه ويَذكُرونَه مُخلِصينَ له في ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِتَّةَ نَفَرٍ، فقال المُشرِكونَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اطرُدْ هؤلاءِ لا يَجترِئونَ علينا! قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ مِن هُذَيلٍ، وبِلالٌ، ورجلانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قولُه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فهي عامَّةٌ فيمن تناوله هذا الوصفُ، مثل الذين يُصلُّونَ الفجرَ والعصرَ في جماعةٍ؛ فإنَّهم يدعونَ رَبَّهم بالغداةِ والعَشيِّ يريدونَ وَجهَه). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٥٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).

لستُ أُسمِّيهما، فوقع في نفسِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شاء اللهُ أن يقعَ، فحدَّث نفسَه، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]))[1].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَأنْ أقعُدَ مع قَومٍ يَذكُرونَ اللهَ تعالى مِن صَلاةِ الغَداةِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، أحَبُّ إليَّ مِن أن أُعتِقَ أربعةً مِن ولَدِ إسماعيلَ، ولَأنْ أقعُدَ مع قومٍ يَذكُرونَ اللهَ مِن صلاةِ العَصرِ إلى أن تَغرُبَ الشَّمسُ، أحَبُّ إليَّ مِن أن أُعتِقَ أربعةً))[2].

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: ولا تَصرِفْ عينَيك -يا مُحمَّدُ- عن الذين يَعبُدونَ رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ؛ لرثاثةِ هيئتِهم وزِيِّهم، مُحتَقِرًا لهم، فتَتجاوزَهم إلى أهلِ الشَّرَفِ والجاهِ، والغنى والثروةِ، طامحًا إلى مُجالَستِهم بدلًا مِن أولئك[3].

(١) رواه مسلم (٢٤١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٧) واللفظ له، والطبراني في ((الدعاء)) (١٨٧٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٦١).

حسَّن إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٥٤)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٧، ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦١).

قال القرطبي: (لم يُرِدِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نهاه عن أن يفعَلَه، وليس هذا بأكثَرَ مِن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وإن كان اللهُ أعاذه مِن الشِّركِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩١).

كما قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾.

أي: ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- من جعَلْنا قلبَه غافلًا[١] عن ذِكرِنا وعبادتِنا وعن القرآنِ، وانشغل عن ذلك بالدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤].

---

(١) قال السعدي: (﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ غفَلَ عن الله فعاقَبَه بأن أغفلَه عن ذِكرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٤).

وذهب مقاتلُ بنُ سليمان والجلال المحلي إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ذِكۡرِنَا﴾: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٨٤).

وقال ابن الجوزي: (﴿عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: عن التوحيدِ والقرآنِ والإسلامِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٧٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني: عن ذِكرِه إيَّانا، أو عن الذِّكرِ الذي أنزَلْناه؛ فعلى الأولِ: يكونُ المرادُ الإنسانَ الذي يذكُرُ اللهَ بلسانِه دونَ قَلبِه، وعلى الثاني: يكونُ المرادُ الرجُلَ الذي أغفل اللهُ قَلبَه عن القرآنِ فلم يرفَعْ به رأسًا، ولم يَرَ في مخالفتِه بأسًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

أي: وآثَرَ اتِّباعَ شَهواتِ نَفسِه، فاختار الكُفرَ والشِّركَ والمعاصيَ على الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ(١).

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

أي: وكانت شُؤونُه وأعمالُه سَفَهًا وتفريطًا وضَياعًا، قد تجاوَز فيها الحَدَّ، وتقدَّم فيها على الحَقِّ، نابذًا له وراءَ ظهرِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

قيل: معنى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: تَفْريطٌ وضَياعٌ. وممن اختار هذا المعنى: ابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٢).

وقيل: مِن الإفراطِ الذي هو مجاوزةُ الحدِّ، كقولِ الكُفَّارِ المُحتَقِرينَ لفُقراءِ المؤمنين: نحن أشرافُ مُضَرَ وساداتُها، إن اتَّبعناك اتَّبَعك جميعُ الناس. وهذا مِن التكبُّرِ والإفراطِ في القولِ.

وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٣).

قال ابن جرير: (معناه: وكان أمرُ هذا الذي أغفَلْنا قلبَه عن ذِكرِنا في الرياءِ والكبرِ واحتقارِ أهل الإيمانِ سَرَفًا، قد تجاوز حدَّه، فضَيَّع بذلك الحَقَّ وهَلَك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٣).

وقال الشنقيطي بعدَ أن ذكَر كلا المعنيين: (وأظهرُ الأقوال في معنى الآية الكريمة عندي بحسَب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: أنَّ معنى قوله: ﴿فُرُطًا﴾ أي: متقَدِّمًا للحقِّ والصواب، نابذًا له وراءَ ظَهرِه... وإلى ما ذكرْنا في معنى الآية تَرجِعُ أقوالُ المفسرين كلها، كقول قتادة ومجاهد: ﴿فُرُطًا﴾ أي: ضياعًا، وكقول مقاتل بن حيان: ﴿فُرُطًا﴾ أي: سَرَفًا، وكقول الفراء: ﴿فُرُطًا﴾ أي: متروكًا، وكقول الأخفش: ﴿فُرُطًا﴾ أي: مجاوِزًا للحدِّ، إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ). ((أضواء

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بما فيه نَقضُ ما يَفتِلونَه مِن مُقتَرحاتِهم، وتعريضٌ بتأييسِهم من ذلك -كاقتراحِهم طردَ الفقراءِ حتَّى يُؤمنوا-؛ أمَرَه أن يُصارِحَهم بأنَّه لا يَعدِلُ عن الحَقِّ الذي جاءه مِن الله، وأنَّه مُبلِّغُه بدونِ هَوادةٍ، وأنَّه لا يَرغَبُ في إيمانِهم ببَعضِه دونَ بَعضٍ، ولا يتنازَلُ إلى مُشاطَرتِهم في رَغَباتِهم بشَطرِ الحَقِّ الذي جاء به، وأنَّ إيمانَهم وكُفرَهم موكولٌ إلى أنفُسِهم، لا يَحسَبونَ أنَّهم بوعدِ الإيمانِ يَستَنزِلونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن بعضِ ما أُوحيَ إليه، فالدينُ الحقُّ إنما أتَى مِن عندِ الله، فإن قبلوه عاد النفعُ إليهم، وإن لم يقبلوه عاد الضررُ إليهم، ولا تعلُّقَ لذلك بالفقرِ والغنَى، والقبحِ والحسنِ، والخمولِ والشهرةِ[1].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- مُعلِنًا[2]: هذا الذي جِئتُكم به مِن عندِ رَبِّكم هو الحَقُّ

البيان)) (٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

وذهب البقاعي إلى نحوِ قولِ الشنقيطي، فقال: (﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي: مُتجاوزًا للحَدِّ مُسرِفًا فيه، متقدمًا على الحَقِّ، فيكون الحقُّ منبوذًا به وراء الظَّهرِ مُفرَّطًا فيه بالتَّقصيرِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٧).

(٢) قيل: المرادُ: أن يقولَ للذين أغفلَ الله قلوبَهم عن ذِكرِه، واتَّبعوا أهواءَهم. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣).

بلا شَكٍّ، فلا تَطلُبوه مِن غَيرِه؛ فهو وَحدَه الذي يَهدي إليه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضِلُّ مَن يشاءُ منهم[1].

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾.

أي: فإنْ شِئتُم فآمِنوا، وإن شِئتُم فاكفُروا؛ فإن اختَرتُم الإيمانَ فلكم الجنَّةُ،

وقيل: المرادُ: أن يقولَ للنَّاسِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

قال القرطبي: (فاللهُ يؤتي الحَقَّ مَن يشاءُ وإن كان ضعيفًا، ويَحرِمُه مَن يشاءُ وإن كان قويًّا غنيًّا، ولستُ بطاردِ المؤمنينَ لِهواكم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣).

وقال الشنقيطي: (وفي إعرابِه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مبتدأٌ، والجارَّ والمجرورَ خبَرُه، أي: الحقُّ الذي جئتُكم به في هذا القرآنِ العظيمِ، المتضَمِّنُ لدين الإسلامِ: كائِنٌ مبدؤُه مِن ربِّكم جلَّ وعلا؛ فليس من وحيِ الشَّيطانِ، ولا مِن افتراءِ الكَهَنةِ، ولا مِن أساطيرِ الأوَّلينَ، ولا غير ذلك. بل هو مِن خالِقِكم جلَّ وعلا، الذي تلزَمُكم طاعتُه وتوحيدُه، ولا يأتي مِن لَدُنْه إلَّا الحَقُّ الشامِلُ للصِّدقِ في الأخبارِ، والعَدل في الأحكامِ، فلا حَقَّ إلَّا منه جلَّ وعلا.

الوجه الثاني: أنَّه خبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هذا الذي جئتُكم به الحَقُّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأولِ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثاني: الزجَّاجُ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

قال الشوكاني: (أي: قُلْ لهم: إنَّ ما أُوحِيَ إليك، وأُمِرتَ بتلاوتِه: هو الحَقُّ الكائِنُ مِن جهةِ الله، لا مِن جهةِ غَيرِه حتى يمكِنَ فيه التَّبديلُ والتغييرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٦).

وإن اختَرْتُم الكُفرَ فقد أُعِدَّت لكم النَّارُ[١].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا هدَّدَ السَّامِعينَ بما حاصِلُه: لِيَختَرْ كلُّ امرئٍ لنَفسِه ما يجِدُه غَدًا عندَ الله تعالى؛ أتبَعَ هذا التهديدَ تَفصيلًا لِمَا أَعَدَّ للفَريقينِ مِن الوَعدِ والوعيدِ[٢]، ولَمَّا كان الكلامُ مع الكُفَّارِ وفي سياقِ ما طلبوا من الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كانت البداءةُ بما أعَدَّ لهم أهَمَّ وآكَدَ[٣].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾.

أي: إنَّا أعدَدْنا وأرصَدْنا وهيَّأْنا للكافرينَ نارًا يُحيطُ بهم سُورُها مِن كُلِّ جانبٍ، فلا سبيلَ لهم إلى الخُروجِ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦).
والمرادُ مِن الأمرِ هنا: التهديدُ والتَّخويفُ والوعيدُ الشديدُ، لا التخييرُ بينَ الكفرِ والإيمانِ. وممن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦- ٢٦٨).
وممن قال بأنَّ المرادَ بسُرادقِها: سورُها: يحيى بن سلام، وابنُ أبي زَمَنين، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).
وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٦).
قال الشنقيطي: (أمَّا المرادُ بالسُّرادِقِ في الآيةِ الكريمةِ، ففيه للعُلَماءِ أقوالٌ مَرجِعُها إلى شَيءٍ

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

أي: وإنْ يَطلُبِ الكافِرونَ المعذَّبونَ في النَّارِ الماءَ؛ مِن شِدَّةِ عَطَشِهم، يُؤتَوا بماءٍ مُنتِنٍ غَليظٍ أسودَ، غاية في الحرارةِ، يشوي وُجوهَهم(١)؛ مِن شِدَّةِ حَرِّه(٢).

واحدٍ، وهو إحداقُ النَّارِ بهم من كلِّ جانبٍ، ... فمعنى الآية الكريمة: أنَّ النَّارَ مُحيطةٌ بهم من كلِّ جانبٍ، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

(١) قال البقاعي: (﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: إذا قُرِّب إلى الفَمِ، فكيف بالفَمِ والجوفِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥٤). وبنحو ذلك قال ابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٨، ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٣).

قال ابنُ جرير بعدَ أن ذكَر جملةً مِن الأقوالِ في معنَى المُهْلِ: (وهذه الأقوالُ وإن اختَلَفت بها ألفاظُ قائليها، فمتقارباتُ المعنى؛ وذلك أنَّ كُلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انتهى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَت عليه من ذلك النَّارُ حتى صار كدُردِيِّ الزيتِ، فقد انتهى أيضًا حَرُّه... فالمُهْلُ إذَن هو كُلُّ مائعٍ قد أوقِدَ عليه حتى بلغَ غايةَ حَرِّه، أو لم يكُنْ مائعًا فانماعَ بالوُقودِ عليه، وبلغ أقصى الغايةِ في شِدَّةِ الحَرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠-٢٥١).

وقال الشنقيطي: (المهلُ في اللغةِ: يطلقُ على ما أُذيبَ مِن جواهرِ الأرضِ، كذائبِ الحديدِ والنحاسِ، والرصاصِ ونحوِ ذلك. ويُطلقُ أيضًا على دُرْدِيِّ الزيتِ وهو عكرُه. والمراد بالمهلِ

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

أي: بئسَ شَرابُ الكافرينَ هذا الماءُ الذي يُؤتَونَ به، فيكونُ زيادةً في عقابِهم[1].

﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

أي: وقبُحَت جهنَّمُ مُقامًا يَستقِرُّ فيه الكافِرونَ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ فيه الأمرُ بصُحبةِ الأخيارِ، ومُجاهَدةِ النَّفسِ

في الآيةِ: ما أُذيب مِن جواهرِ الأرضِ. وقيل: دُردي الزيتِ. وقيل: هو نوعٌ مِن القطرانِ. وقيل: السمُّ. ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٦٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤-١٥٥).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر أقوالَ السلفِ في معنى المهلِ، قال: (وهذه الأقوالُ ليس شيءٌ منها ينفي الآخرَ، فإنَّ المهلَ يجمعُ هذه الأوصافَ الرَّذيلةَ كُلَّها، فهو أسودُ مُنتِنٌ غليظٌ حارٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٠).

قال الشنقيطي: (للعُلَماءِ في المرادِ بالمُرتَفَقِ في الآيةِ أقوالٌ متقارِبةٌ في المعنى؛ قيل: ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ أي: مَنزِلًا، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقيل: مقرًّا، وهو مرويٌّ عن عطاءٍ. وقيل: مَجلِسًا، وهو مرويٌّ عن العتبي. وقال مجاهِدٌ: ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ أي: مجتَمَعًا. فهو عنده مكانُ الارتفاقِ بمعنى مُرافَقةِ بعضِهم لبعضٍ في النَّارِ. وحاصِلُ معنى الأقوالِ أنَّ النَّارَ بئسَ المستقَرُّ هي، وبئس المُقامُ هي، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٦]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٧٠).

على صُحبَتِهم ومخالَطتِهم وإن كانوا فُقَراءَ؛ فإنَّ في صُحبَتِهم مِن الفوائِدِ ما لا يُحصى[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُجالسةَ الصالحينَ مأثورةٌ على مجالِسِ غَيرِهم، ومَندوبٌ إليها المُؤمِنونَ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إرشادٌ إلى حَمْلِ النَّفسِ على المَكارِه، والْتِماسِ القُرْبَةِ إلى الله، وصرْفِها عمَّا تُنازِعُ إليه مِن هواها[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في الآيةِ الكريمةِ فَضْلُ الاجتماعِ على الذِّكْرِ والدُّعاءِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فيه فَضْلُ الإخلاصِ، وأنَّ الإخلاصَ هو الذي عليه مدارُ كلِّ شيءٍ[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الآيةِ أنَّ الإنسانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٥٣٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لا ينبغي له أنْ يدَعَ أحوالَ الآخرةِ والعباداتِ إلى أحوالِ الدُّنيا(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ فيه استحبابُ الذِّكرِ والدُّعاءِ والعبادةِ طَرَفي النَّهارِ؛ لأنَّ اللهَ مَدَحهم بفِعلٍ، وكلُّ فِعلٍ مدحَ اللهُ فاعِلَه، دلَّ ذلك على أنَّ اللهَ يُحِبُّه، وإذا كان يحِبُّه فإنَّه يأمرُ به، ويُرَغِّبُ فيه(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الذي ينبغي أن يُطاعَ، ويكونَ إمامًا للنَّاسِ: مَن امتلأ قلبُه بمحَبَّةِ الله، وفاض ذلك على لِسانِه، فلَهِجَ بذِكرِ الله، واتَّبَع مراضيَ ربِّه، فقَدَّمَها على هواه، فحَفِظَ بذلك ما حَفِظَ مِن وَقتِه، وصَلَحت أحوالُه، واستقامت أفعالُه، ودعا النَّاسَ إلى ما مَنَّ الله به عليه؛ فحَقيقٌ بذلك أن يُتَّبَعَ ويُجعَلَ إمامًا(٣)، أمَّا مُتَّبِعُ الهوى فليس أهلًا أنْ يُطاعَ، ولا أنْ يكونَ إمامًا ولا مَتبوعًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نهَى عن طاعتِه كما في هذه الآيةِ، وعَزَله عنِ الإمامةِ، كما في قولِه تعالى لخليلِه إبراهيم عليه السلامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا ينالُ عهدي -بالإمامةِ- ظالِمًا، وكلُّ مَنِ اتَّبع هواه فهو ظالمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٤) [الروم: ٢٩]، فينبغي للرجُلِ أنْ يَنظرَ في شَيخِه وقُدوتِه ومَتبوعِه؛ فإنْ وجَدَه كذلك فليَبعُدْ عنه، وإنْ وجَدَه ممن غَلَب عليه ذِكْرُ اللهِ تعالى، واتِّباعُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧٥).

السُّنَّةِ، وأمْرُه غيرُ مفروطٍ عليه، بل هو حازمٌ في أمْرِه؛ فليستَمسِك بغَرْزِه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ذِكْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ هو ذِكْرُ القَلْبِ، وأمَّا ذِكْرُ اللِّسانِ مجرَّدًا عن ذِكْرِ القَلْبِ، فإنَّه ناقِصٌ؛ فلم يَقُلْ سُبحانه: (مَن أمسَكْنا لِسانَه عن ذِكرِنا)، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾؛ فالذِّكْرُ النافعُ هو ذِكْرُ القَلبِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ في هذه الآية إشارةٌ إلى أهميَّةِ حُضورِ القَلْبِ عندَ ذِكْرِ اللهِ، وأنَّ الإنسانَ الذي يَذْكُرُ اللهَ بلسانِه، لا بقَلبِه، تُنزَعُ البركةُ مِن أعمالِه وأوقاتِه، حتى يكونَ أمرُه فُرُطًا عليه؛ تجدُه يبقَى السَّاعاتِ الطويلةَ ولم يُحَصِّلْ شيئًا، ولكن لو كان أمرُه مع الله لحصَلَتْ له البركةُ في جميعِ أعمالِه[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يدُلُّ على أنَّ شَرَّ أحوالِ الإنسانِ أن يكونَ قَلبُه خاليًا عن ذِكرِ الحَقِّ، ويكونَ مملوءًا مِن الهوى الدَّاعي إلى الاشتغالِ بالخَلقِ[٤].

١٢- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ الباعثَ لهم إلى استدعاءِ الطردِ: غفلةُ قلوبِهم عن جنابِ الله تعالى شأنُه، وملاحظةِ المعقولاتِ، وانهماكُهم في المحسوساتِ، حتَّى خفِيَ عليهم أنَّ الشَّرفَ بحِلْيةِ النَّفسِ لا بزينةِ الجسَدِ[٥].

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير الألوسي))

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: مِن البشرِ، وإلَّا فاللهُ يُبدِّلُها؛ قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٍ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ...﴾ الآيةَ[1] [النحل: ١٠١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ في إضافةِ الرَّبِّ إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دَليلٌ على أنَّ ما أوحاه اللهُ إلى رَسولِه من تمامِ عِنايتِه به[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ بُني فِعلُ (أُوحي) للمفعولِ؛ لأنَّ الخِطابَ مع النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وهو على القَطعِ بأنَّ الموحِيَ إليه هو اللهُ سُبحانَه وتعالى[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ في الآيةِ إثباتُ الوَجهِ لله تعالى، وقد أجمعَ سلَفُ الأمَّةِ، وعُلَماءُ أهلِ السُّنَّةِ على ثُبوتِ الوَجهِ لله تعالى، بدَلالةِ الكِتابِ والسُّنةِ على ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أعوذُ بوَجهِك))[4].

(٨/ ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٥٨).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الدعاءَ بالغَدواتِ والعَشِيَّاتِ أفضَلُ وأجدَرُ بالإجابةِ[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الاستبدالَ بمجالسةِ صالحي الفقراءِ مجالسةَ طالحي الأغنياءِ، مَعصيةٌ، وإنْ لم يعملِ المُستبدِلُ بأعمالِهم[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لو فارَقَهم -هؤلاء الذين يَدْعُونَ اللهَ- لِمَصلحةٍ دينيَّةٍ؛ لم يدخُلْ هذا في النَّهيِ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ ما يَعرِضُ للعَبدِ مِن غَفلةٍ ومعصيةٍ، إنَّما هو بمشيئةِ الله تعالى؛ إذ لا يقَعُ شَيءٌ البتَّةَ كائنًا ما كان إلَّا بمشيئتِه الكونيَّةِ القَدَريَّة -جلَّ وعلا- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الأنعام: ٢٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ كُلَّ شيءٍ مِن خيرٍ وشَرٍّ، لا يقَعُ إلَّا بمشيئةِ خالقِ السَّمواتِ والأرضِ[٤].

والحديث أخرجه البخاري (٤٦٢٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٥).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ -ولم يقُلْ: (غَفَلوا)-، ثمَّ قال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ -ولم يقلْ: (وأتبَعْناه هواه)-، ففيه أكبرُ الدليلِ على أنَّ إضافةَ أفعالِهم إليهم في مواضِعِ الإضافةِ في القُرآنِ غيرُ دافعٍ فِعْلَه بهم وإرادتَه فيهم؛ إذْ قد يُجمَعُ بينهما في حَرفٍ واحدٍ كما ترى[1].

١٠- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ هذا نَهيٌ جامعٌ عن مُلابَسةِ شَيءٍ ممَّا يأمُرُه به المُشرِكون، والمقصودُ من النَّهيِ تأسيسُ قاعدةٍ لأعمالِ الرَّسولِ والمُسلِمين تُجاهَ رغائبِ المُشرِكين، وتأييسُ المُشرِكين من نَوالِ شَيءٍ ممَّا رَغِبوه من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ[2].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ يدُلُّ على أنَّ صُدورَ الفِعلِ عن الفاعِلِ بدونِ القَصدِ والدَّاعي، مُحالٌ[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذه الصيغةُ تهديدٌ ووعيدٌ، وليست بتخييرٍ، وذلك يدُلُّ على أنَّ صِيغةَ الأمرِ لا لمعنى الطَّلَبِ في كتابِ اللهِ كثيرةٌ[4].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى لا ينتَفِعُ بإيمانِ المؤمنينَ ولا يستَضِرُّ بكُفرِ الكافرينَ، بل نَفعُ الإيمانِ يعودُ إليهم، وضرَرُ الكُفرِ يَعودُ عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ

---

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾[1] [الإسراء: ٧].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ فيه سؤالٌ: هل في هذا إباحةُ الكُفرِ؟

الجواب: لا؛ فالأَمْرُ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ للتهديد وليس للإباحة! كما يُهَدِّدُ الإنسانُ غيرَه فيقول: «إنْ كنتَ صادقًا فافعلْ كذا»، ويدلُّ عليه قولُه تعالى بعده: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ يعني: مَن كَفرَ؛ فله النارُ قد أُعِدَّتْ[2]، وهذا بِناءً على أن الضَّميرَ في (شاء) لـ (مَن)، وعليه الجُمهورُ.

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ مَن شاء اللهُ إيمانَه آمنَ، ومن شاء كُفرَه كفَرَ، بناءً على أنَّ الضميرَ فيه (لله)[3]، وكأنَّه لمَّا كان الإيمانُ والكُفْرُ تابعيْنِ لمَشيئةِ اللهِ، جاء بصِيغَةِ الأمْرِ، حتَّى كأنَّه تحتَّمَ وُقوعُه، مأمورٌ به، مطلوبٌ منه[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾

- الأمْرُ في قولِه: ﴿وَٱتۡلُ﴾ كِنايةٌ عن الاستمرارِ. و﴿مَآ أُوحِيَ﴾ مُفيدٌ للعُمومِ، أي: كلَّ ما أُوحِيَ إليك، ومفهومُ الموصولِ: أنَّ ما لم يُوحَ إليه لا يَتْلوه[5].

- قولُه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ عامٌّ، و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ عامٌّ أيضًا؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٣).

فالتَّخصيصُ إمَّا في ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾، أي: لا مُبدِّلَ له سِواهُ، ألَا ترى إلى قولِه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]. وإمَّا في ﴿كَلِمَاتِهِ﴾، أي: لكلماتِه المُتضمِّنةِ الخبرَ؛ لأنَّ ما تضمَّنَ غيرَ الخبرِ وقَعَ النَّسخُ في بعْضِه[١].

- قولُه: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ فيه مَجيءُ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ بِصيغَةِ الافتعالِ؛ لأنَّ أصْلَه تكلُّفُ الميْلِ، ويُفْهَمُ من صِيغَةِ التَّكلُّفِ أنَّه مَفرٌّ من مَكروهٍ، يتكلَّفُ الخائفُ أنْ يأوِيَ إليه؛ فلذلك كان المُلتحَدُ بمعنى الملجَأِ، والمقصودُ من هذا تأييسُهم ممَّا طَمِعوا فيه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ (مع) تَقْتضي الصُّحبةَ والمُوافقةَ، والأمْرُ بالصَّبرِ هنا يظهَرُ منه كبيرُ اعتناءٍ بهؤلاء الَّذينَ أُمِرَ أنْ يصبِرَ نفْسَه معهم[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال في سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]؛ وذلك أنَّ سادةَ المُشركين كانوا زعَموا أنَّه لولا أنَّ مِن المُؤمِنين ناسًا أهْلَ خَصاصةٍ في الدُّنيا، وأرقَّاءَ لا يُدانونهم ولا يستأهِلونَ الجُلوسَ معهم؛ لأتَوْا إلى مُجالَسةِ النَّبيِّ صَلَّى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٦).

اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ، واسْتَمعوا القُرآنَ، فاقْتَرحوا عليه أنْ يطرُدَهم مِن حولِه إذا غشِيَه سادةُ قُريشٍ؛ فرَدَّ اللهُ عليهم بما في سُورةِ الأنعامِ، وما هنا في هذه السُّورةِ آكَدُ؛ إذ أمَرَه بمُلازمتِهم بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾، ولتَضمينِ فعْلِ (اصْبِر) معنى المُلازَمةِ عُلِّقَ به ظرْفُ (مع)[1].

- قولُه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ والتَّعبيرُ عنهم بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى تَعليلِ الأمْرِ بمُلازمتِهم، أي: لأنَّهم أحرياءُ بذلك؛ لأجْلِ إقبالِهم على اللهِ، فهم الأجدرُ بالمُقارَنةِ والمُصاحبةِ[2].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ فيه تخصيصُ الغداةِ والعشيِّ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العربَ إذا أرادَتِ الدوامَ أطْلَقَتِ الليلَ والنهارَ، والغداةَ والعشيَّ، يَعْنُونَ أنَّهم دائمونَ على ذلك، أو: لأنَّ أولَ النهارِ وآخِرَهُ من أفضلِ الأوقاتِ التي تُنْتَهَزُ فيها فرصةُ العباداتِ[3].

- قولُه: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ جِيءَ بقولِه: ﴿عَيۡنَاكَ﴾ والمقصودُ هو؛ لأنَّهما بهما تكونُ المُراعاةُ للشَّخصِ والتَّلفُّتُ له، والمعنى: ولا تَعْدُ أنت عنهم النَّظرَ إلى غيرِهم[4]. وفيه تأكيدُ الأمْرِ بمُواصلتِهم بالنَّهيِ عن أقَلِّ إعراضٍ عنهم، وظاهِرُ ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ نهْيُ العينينِ عن أنْ تَعْدُوَا عن الَّذين يَدْعون ربَّهم، والمقصودُ: الإعراضُ؛ ولذلك ضُمِّنَ فعْلُ العَدوِ معنى الإعراضِ؛ فعُدِّيَ إلى المفعولِ بـ(عن)، وكان حَقُّه أنْ يتعدَّى إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٤-٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٥).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٧).

بنفْسِه، أو ضُمِّن معنى (نَبا) و(علا)، والغرضُ في هذا التَّضمينِ -وعدَمِ قولِه مثلًا: (ولا تَعْدُهم عيناكَ)، أو: (ولا تعْلُ عيناكَ عنهم)- إعطاءُ مجموعِ مَعنيينِ، وذلك أقوى من إعطاءِ معنًى فردٍ؛ إذ المعنى هنا: ولا تَقْتحِمْهم عيناكَ مُجاوِزَتينِ إلى غيرِهم(١).

- قولُه: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه تَعريضٌ بحَماقةِ سَادةِ المُشرِكين الَّذين جعَلوا همَّهم وعِنايتَهم بالأُمورِ الظَّاهرةِ، وأهْمَلوا الاعتبارَ بالحقائقِ والمَكارمِ النَّفسيَّةِ، فاسْتَكبروا عن مُجالَسةِ أهْلِ الفضلِ والعُقولِ الرَّاجحةِ والقُلوبِ النَّيِّرةِ، وجَعَلوا هَمَّهم الصُّورَ الظَّاهرةَ(٢).

- في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ عبَّرَ عنهم بالموصولِ ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا﴾؛ للإيذانِ بعِلِّيةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للنَّهيِ عن الإطاعةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ فيه زِيادةُ فعْلِ الكونِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الخبرِ من الاسمِ، أي: حالةَ تمكُّنِ الإفراطِ والاعتداءِ على الحقِّ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٦).

- التَّعبيرُ بـ ﴿رَبِّكُمْ﴾ للتَّذكيرِ بوُجوبِ توحيدِه[١].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إمَّا من تَمامِ القولِ المأمورِ به، والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدها على ما قبلَها بطَريقِ التَّهديدِ، لا لتَفريعِه عليه، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، أي: عَقِيبَ تحقُّقِ أنَّ ما أُوحِيَ إليَّ حَقٌّ لا ريبَ فيه، وأنَّ ذلك الحقَّ من جِهَةِ ربِّكم؛ فمَن شاء أنْ يُؤمِنَ به، فلْيُؤْمِنْ كسائرِ المُؤمنين، ولا يتعلَّلْ بما لا يكادُ يصلُحُ للتَّعليلِ، ومَن شاء أنْ يكفُرَ به فلْيفعَلْ، وفيه من التَّهديدِ وإظهارِ الاستغناءِ عن مُتابعتِهم، وعدَمِ المُبالاةِ بهم وبإيمانِهم وُجودًا وعدَمًا: ما لا يَخْفى. وإمَّا تَهديدٌ من جِهَةِ اللهِ تعالى، والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدَها من التَّهديدِ على الأمْرِ، لا على مَضمونِ المأمورِ به، والمعنى: قُلْ لهم ذلك، وبعدَ ذلك مَن شاء أنْ يُؤمِنَ به أو أنْ يُصدِّقَك فيه، فلْيُؤمِنْ، ومَن شاء أنْ يكفُرَ به أو يُكذِّبَك فيه، فلْيفعَلْ[٢].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ وقولِه: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾؛ للتَّسويةِ المُكنَّى بها عن الوعدِ والوعيدِ. وقُدِّمَ الإيمانُ على الكُفرِ؛ لأنَّ إيمانَهم مَرغوبٌ فيه. وفِعْلا (يُؤمِن، ويَكفُر) مُستعملانِ للمُستقبَلِ، أي: مَن شاء أنْ يُوقِعَ أحدَ الأمرينِ، ولو بوجْهِ الاستمرارِ على أحدِهما المُتلبِّسِ به الآنَ؛ فإنَّ العزْمَ على الاستمرارِ عليه تَجديدٌ لإيقاعِه[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١٩-٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٧).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما دَلَّ عليه الكلامُ من إيكالِ الإيمانِ والكُفرِ إلى أنفُسِهم، وما يُفيدُه من الوعيدِ، كِلاهما يُثيرُ في النُّفوسِ أنْ يقولَ قائلٌ: فمَاذا يُلاقي مَن شاء، فاستمَرَّ على الكُفْرِ؟ فيُجابُ بأنَّ الكُفْرَ وخيمُ العاقبةِ عليهم[١]. وتنكيرُ ﴿نَارًا﴾؛ للتَّهويلِ والتَّعظيم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا ...﴾ فيه وعيدٌ شَديدٌ، وتأكيدٌ للتَّهديدِ، وتَعليلٌ لِما يُفيدُه من الزَّجْرِ عنِ الكُفرِ، أو لِما يُفْهَمُ من ظاهرِ التَّخييرِ؛ من عدَمِ المُبالاةِ بكُفْرِهم، وقِلَّةِ الاهتمامِ بزجْرِهم عنه؛ فإنَّ إعدادَ جزائِه مِن دواعي الإملاءِ والإمهالِ، وعلى القولِ بأنَّه مِن تمامِ القولِ المأمورِ بِهِ فهو تَعليلٌ للأمْرِ بما ذُكِرَ من التَّخييرِ التَّهديديِّ، أي: قُلْ لهم ذلك[٣].

- والتَّعبيرُ عنهم بـ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَشيئةَ الكُفْرِ واختيارَه تَجاوزٌ عن الحدِّ، ووضْعٌ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه. وأُوثِرَت صِيغَةُ الماضي في قولِه: ﴿أَحَاطَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ تَشبيهٌ مُؤكَّدٌ؛ فقد شبَّهَ النَّارَ المُحيطةَ بهم بالسُّرادقِ المضروبِ على مَن يَحتويهم، وأُضِيفَ السُّرادِقُ إلى النَّارِ؛ فذلك هو التَّشبيهُ المُؤكَّدُ، وهو أنْ يُضافَ المُشبَّهُ إلى المُشبَّهِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩٠).

- قولُه: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ فيه تهكُّمٌ، حيث سمَّى أعلَى أنواعِ العَذابِ إغاثةً -والإغاثةُ هي الإنقاذُ من العذابِ-؛ تهكُّمًا بهم وتَشفِّيًا منهم، والتَّهكُّمُ فنٌّ طريفٌ من فُنونِهم، وهو من تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه. والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ في سَوادِ اللَّونِ وشِدَّةِ الحرارةِ، فلا يَزيدُهم إلَّا حرارةً؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ[(١)].

- وقيل: أتى قولُه: ﴿يُغَاثُواْ﴾ على سَبيلِ المُقابَلةِ لقولِه: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾، وإلَّا فليست إغاثةً[(٢)].

- قولُه: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ فيه اختصاصُ الوُجوهِ بهذا؛ لكونِها عندَ شُربِهم يقرُبُ حرُّها من وُجوهِهم. وقيل: عُبِّرَ بالوُجوهِ عن جميعِ أبدانِهم[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لتَشنيعِ ذلك الماءِ مَشروبًا كما شُنِّعَ مُغتَسلًا، والمخصوصُ بذَمِّ (بِئْس) محذوفٌ، دَلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: بِئْسَ الشَّرابُ ذلك الماءُ[(٤)].

- وجُملةُ: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾، فهي مُستأنَفةٌ أيضًا لإنشاءِ ذَمِّ تلك النَّارِ بما فيها، وشأْنُ المُرتفَقِ أنْ يكونَ مكانَ استراحةٍ؛ فإطلاقُ ذلك على النَّارِ تهكُّمٌ، كما أُطْلِقَ على ما يُزادُ به عذابُهم لفظُ الإغاثةِ، وكما أُطْلِقَ على مكانِهم السُّرادقُ[(٥)]؛ فهو لمُقابَلةِ ومُشاكَلةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولِه: ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾، وإلَّا فلا ارتفاقَ لأهْلِ النَّارِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩٠-٥٩١).

الآيتان (٣٠-٣١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أسورةٍ، وأسورةٌ جمعُ سِوارٍ، وهو الذي يُلبَسُ في الذِّراعِ مِن ذهبٍ[١].

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[٢].

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: غليظِ الحريرِ[٣].

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: أي: جمعُ أريكةٍ، وهي السريرُ في الحجالِ[٤]، وأصلُ (أرك) هنا: إقامةٌ، سُمِّيت بذلك؛ لكونِها مكانًا للإقامةِ[٥].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) الحَجَلَةُ: كالقُبَّةِ، وموضعٌ يُزَيَّنُ بالثيابِ والسُّتورِ للعَروسِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٨٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى حسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، إنَّا لا نُضيعُ أجورَهم ولا نَنقُصُها؛ لأنَّهم أحسَنوا عَمَلَهم، أولئك لهم جنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، تجري مِن تحتِ غُرَفِهم ومَنازِلِهم وأشجارِهم الأنهارُ العَذبةُ، يُحَلَّونَ فيها مِن أساوِرِ الذَّهبِ، ويَلْبَسونَ ثيابًا خَضراءَ مِن حريرٍ رَقيقٍ وغَليظٍ، يتَّكِئونَ فيها على الأسِرَّةِ المُزينةِ المغطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ، نِعْمَ الثوابُ تلك الجنَّاتُ، وحَسُنت مَنزِلًا ومَقرًّا لهم!

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ وَعيدَ المُبطِلينَ، أردَفَه بوَعدِ المُحِقِّينَ[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، إنَّا لا نُضيعُ جَزاءَهم؛ لأنَّهم أحسَنوا عَمَلَهم، ولا نُضيعُ جَزاءَ كُلِّ مَن أحسَنَ عمَلَه كذلك، فجعَلَه خالِصًا لله، واتَّبع فيه شَرْعَه على هَدْيِ رَسولِه[٢].

وقيل: تسميتُها بذلك لكونِها في الأرضِ متَّخذةً مِن أراكٍ، وهو شجرةٌ. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٥).

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أن اللهَ تعالى لَمَّا أثبَتَ الأجرَ المُبهَمَ للمُحِقِّينَ، أردفه بالتَّفصيلِ مِن وُجوهٍ؛ أوَّلُها: صفةُ مكانِهم. وثانيها: لِباسُهم. وثالثُها: كيفيَّةُ جُلوسِهم[(١)].

وأيضًا لمَّا ذكَرَ مكانَ أهْلِ الكُفْرِ -وهو النَّارُ-، ذكَرَ مكانَ أهْلِ الإيمانِ، وهي جنَّاتُ عدْنٍ، ولمَّا ذكَرَ هناك ما يُغاثونَ به -وهو الماءُ كالمُهْلِ-، ذكَرَ هنا ما خَصَّ به أهْلَ الجنَّةِ من كونِ الأنهارِ تَجْري من تحتِهم، ثمَّ ذكَرَ ما أنعَمَ عليهم من التَّحليةِ واللِّباسِ اللَّذينِ هما زِينةٌ ظاهرةٌ[(٢)].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

أي: أولئك -الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- لهم بساتينُ إقامةٍ دائمةٍ، تجري الأنهارُ الكَثيرةُ بينَ أيديهم مِن تَحتِ غُرَفِهم ومَنازِلِهم وأشجارِهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٥).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

أي: يُزيَّنُ المُؤمِنونَ في الجنَّةِ بأساورَ مِن ذَهَبٍ في أيديهم[١].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

أي: ويَلبَسونَ ثيابًا خَضراءَ مِن الحريرِ الرَّقيقِ، ومِنَ الحَريرِ الغليظِ[٢].

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم متَّكِئونَ[٣] في الجنَّةِ على السُّررِ المزيَّنةِ المغطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٥).

قال ابن عثيمين: (﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ إمَّا أن تكون للتبعيض: أي يُحلَّونَ فيها بعضَ أساوِرَ، أي: يُحلَّى كلُّ واحدٍ منهم شَيئًا من هذه الأساوِر، وحينئذٍ لا يكونُ إشكالٌ، وإمَّا أن تكون «للبيان» أي: بيان ما يُحَلَّون، وهو أساوِرُ، وليس قلائِدَ أو خُروصًا مثلًا، وأما قَولُه: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي بيانيَّة، أي: لبيان الأساوِرِ أنَّها مِن ذَهَبٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

قال ابن عاشور: (السندسُ: صِنفٌ مِن الثياب، وهو الدِّيباجُ الرَّقيقُ يُلبَسُ مُباشِرًا للجِلدِ؛ ليقيَه غِلَظَ الإستبرقِ. والإستبرق: الدِّيباجُ الغَليظُ المنسوجُ بخُيوطِ الذهب، يُلبَسُ فوق الثيابِ المباشِرةِ للجِلدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٣).

(٣) قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الاتكاءُ: قيل: الاضطجاعُ. وقيل: التربُّعُ في الجلوس، وهو أشبَهُ بالمراد هاهنا، ومنه الحديثُ في الصحيح: «أمَّا أنا، فلا آكُلُ مُتَّكِئًا» فيه

الثِّيابِ الفاخِرةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۞ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥- ٥٦].

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾.

أي: نِعمَ ثَوابُ المؤمنينِ تلك الجنَّاتُ التي وصَفَ اللهُ بعضَ نَعيمِها؛ جزاءً لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ[(٢)].

﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

أي: وحسُنَت تلك الجنَّاتُ مُقامًا ومَنزِلًا يَستَقِرُّ فيه الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ[(٣)].

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً

القولان. ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦).

وقال البقاعي: (استأنفَ الوَصفَ عن حالِ جُلوسِهم فيها بأنَّه جُلوسُ الملوكِ المتمَكِّنينَ مِن النَّعيمِ، فقال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: لأنَّهم في غايةِ الرَّاحةِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٥٥).

وقال ابن عثيمين: (الاتكاءُ يدُلُّ على راحةِ النَّفسِ وعلى الطُّمأنينةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٠، ٢٧٣).

وَسَلَٰمًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفرقان: ٧٥- ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ إحسانُ العَمَلِ: أن يُريدَ العَبدُ العملَ لوَجهِ الله مُتَّبِعًا في ذلك شَرعَ اللهِ، فهذا العمَلُ لا يُضَيِّعُه اللهُ ولا شيئًا منه، بل يحفَظُه للعاملينَ، ويُوَفِّيهم مِن الأجرِ بحَسَبِ عَمَلِهم وفَضْلِه وإحسانِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ يدلُّ على أنَّ الحِليةَ في الجنةِ عامَّةٌ للذُّكورِ والإناثِ؛ لأنَّه أطلَقَها في قَولِه: ﴿يُحَلَّوۡنَ ﴾، وكذلك الحريرُ ونَحوُه[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ السُّندُسُ والإستِبرقُ نوعانِ مِن الحريرِ، وأحسَنُ الألوانِ الأخضَرُ، وألْيَنُ اللباسِ الحريرُ؛ فجمَعَ لهم بين حُسنِ مَنظَرِ اللِّباسِ والْتذاذِ العَينِ به، وبين نُعومتِه والتذاذِ الجِسمِ به، وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾[3] [الحج: ٢٣].

٣- قولُه: ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾. إنْ قيل: إنَّ (إستبرق) ليس بعربيٍّ، وغيرُ العربيِّ من الألفاظِ دونَ العربيِّ في الفصاحةِ والبلاغةِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

فالجوابُ: أنَّه لو اجتمَعَ فُصحاءُ العالَمِ، وأرادوا أنْ يَتْركوا هذا اللَّفظَ، ويأْتوا بلفظٍ يقومُ مقامَه في الفصاحةِ لَعَجزوا؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى إذا حَثَّ عِبادَه على الطَّاعةِ، فإنْ لم يُرغِّبْهم بالوعدِ الجميلِ، ويُخوِّفْهم بالعذابِ الوبيلِ، لا يكونُ حَثُّه على وجْهِ الحكمةِ، فالوعدُ والوعيدُ نظرًا إلى الفَصاحةِ واجبٌ، ثمَّ إنَّ الوعدَ بما يرغَبُ فيه العُقلاءُ، وهو مُنحصرٌ في: الأماكنِ، والمآكلِ، والمشاربِ، والملابسِ، والمناكحِ، ونحوِها ممَّا تتَّحِدُ فيه الطِّباعُ أو تختلِفُ فيه. وأرفَعُ الملابسِ في الدُّنيا الحريرُ، والحريرُ كلَّما كان ثوبُه أثقَلَ كان أرفَعَ، فحينئذٍ وجَبَ على الفصيحِ أنْ يَذكُرَ الأثقلَ والأثخنَ، ولا يترُكَه في الوعدِ. فإذا أُريدَ ذِكْرُ هذا، فالأحسَنُ أنْ يُذْكَرَ بلفظٍ واحدٍ موضوعٍ له صريحٍ، وذلك ليس إلَّا (الإستبرق)[1]، على أنَّ كونَ كلمةِ (إستبرق) غيرَ عربيةٍ هو موضعُ خلافٍ بينَ أهلِ العلمِ، فمِنهم مَن يرَى أنَّها عربيةُ الأصلِ، فالمسألةُ خلافيةٌ[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ مُستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، مُراعًى فيه حالُ السَّامعينَ من المُؤمِنين؛ فإنَّهم حين يَسْمعونَ ما أُعِدَّ للمُشرِكين، تتشوَّفُ نُفوسُهم إلى معرفةِ ما أُعِدَّ للَّذين آمنوا ونَبَذوا الشِّركَ، فأُعْلِموا أنَّ عمَلَهم مَرْعيٌّ عندَ ربِّهم، وجرْيًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ الوعيدِ بالوعدِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[3]. وهو في مَحلِّ التَّعليلِ للحثِّ على الإيمانِ المفهومِ من التَّخييرِ ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾؛ كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ١٢٧- ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٨٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٧٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠٩-٣١٠).

قيل: (والَّذين آمَنوا)[١].

- ولعلَّ تَغييرَ نظْمِه عن الكلامِ على الفَريقِ الآخرِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ...﴾ الآيةَ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَنافي مآلَيِ الفريقينِ، أي: إنَّ الَّذين آمَنوا بالحقِّ الَّذي أُوحِيَ إليك[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ افتُتِحَتِ الجُملةُ الأُولى بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ مَضمونِها. وإعادةُ حرْفِ (إنَّ) في الجُملةِ الثَّانيةِ المُخبَرِ بها عن المُبتدَأِ الواقعِ في الجُملةِ الأُولى؛ لمَزيدِ العِنايةِ والتَّحقيقِ. والجُملةُ الثَّانيةُ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ لها استقلالٌ بمَضمونِها من حيث هي مُفيدةٌ حُكمًا يعُمُّ ما وقعَتْ خبرًا عنه، وغيرَه مِن كلِّ مَن يُماثِلُ الخبَرَ عنهم في عمَلِهم؛ فذلك العُمومُ في ذاتِه حُكمٌ جديرٌ بالتَّأكيدِ؛ لتَحقيقِ حُصولِه لأربابِه[٣].

- وقَولُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ أشار بإظهارِ ضَميرِهم إلى أنَّهم استحَقُّوا ذلك الوَصفَ بالإحسانِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾

- جُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي ...﴾ يجوزُ أنْ تكونَ خبَرَ ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٤).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وتكونَ جُملةُ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضًا، أو تكونَ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما أُجْمِلَ من عدمِ إضاعةِ أجْرِهم يَستشرِفُ بالسَّامعِ إلى ترقُّبِ ما يُبيِّنُ هذا الأجْرَ[1].

- وافتتاحُ الجُملةِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِما فيه من التَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جديرونَ لِما بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ الأوصافِ المذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهي كونُهم آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ[2].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أُوثِر إضافةُ (تحت) إلى ضَميرِهم دونَ ضَميرِ الجنَّاتِ؛ زِيادةً في تَقريرِ المعنى الَّذي أفادَتْه لامُ المِلْكِ؛ فاجتمَعَ في هذا الخبرِ عِدَّةُ مُقرِّراتٍ لمَضمونِه، وهي: ذِكْرُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولامُ المِلْكِ، وجَرُّ اسمِ الجهةِ بـ(مِن)، وإضافةُ اسمِ الجِهةِ إلى ضَميرِهم، والمقصودُ من ذلك: التَّعريضُ بإغاظةِ المُشرِكين؛ لتَتقرَّرَ بِشارةُ المُؤمنين أتَمَّ تَقرُّرٍ[3].

- قولُه: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ...﴾ نكَّرَ (أساورَ)؛ لإبهامِ أمْرِها في الحُسنِ. وجمَعَ بين السُّندسِ -وهو ما رَقَّ من الدِّيباجِ- وبين الإستبرقِ -وهو الغليظُ منه- جمْعًا بين النَّوعينِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ فيها ما تَشْتهي الأنفُسُ وتلَذُّ الأعينُ.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وخَصَّ الاتِّكاءَ؛ لأنَّه هيئةُ المُنعَّمينَ والمُلوكِ على أسِرَّتِهم(١)، وذلك بعدَ أن وصَفَ الجنةَ بأنَّ الأنهارَ تجري خلالَها مِن تحتِهم، وهذا يُسمَّى الاستِتباعَ(٢).

- وبناءُ فعْلِ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ للمفعولِ الَّذي لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ إشعارًا بأنَّهم يُكْرَمون بذلك، ولا يَتعاطَون ذلك بأنفُسِهم. وأسنَدَ اللِّباسَ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ إليهم؛ لأنَّ الإنسانَ يَتعاطى ذلك بنفْسِه، خُصوصًا لو كان باديَ العورةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧١-١٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٩١).

والاستِتباع -ويُقالُ له أيضًا: الاستقصاء- مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو: تناوُلُ المُتكلِّمِ معنًى يَستقصيه؛ فيأتي بجميعِ عَوارضِه ولوازمِه، بعدَ أن يَستقصيَ جميعَ أوصافِه الذاتيةِ، بحيثُ لا يترُكُ بعدَه فيه مقالًا، ومثالُه: قولُه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؛ فإنَّه تعالى لو اقتصَر على قوله: ﴿جَنَّةٌ﴾ لكان كافيًا، فلم يقِفْ عندَ ذلك حتَّى قال في تفسيرِها: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ فإنَّ مُصابَ صاحبها بها أعظمُ، ثم زاد ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مُتمِّمًا لوَصْفها بذلك، ثم كَمَّل وصْفَها بعدَ التتميمينِ فقال: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ فأتى بكلِّ ما يكونُ في الجِنان؛ ليشتدَّ الأسفُ على إفسادها، ثم قال في وصْف صاحبها: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾، ثم استقصَى المعنى في ذلك بما يُوجِبُ تعظيمَ المصابِ بقولِه بعد وصْفِه بالكبر: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ﴾، ولم يقِفْ عند ذلك حتى وصَفَ الذريةَ بالضعفاءِ، ثم ذَكَر استئصالَ الجنةِ التي ليس لهذا المصابِ غيرُها بالهلاكِ في أسرعِ وقتٍ، حيث قال: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾، ولم يَقتصرْ على ذِكرِه للعلم بأنه لا يحصُل سرعةُ الهلاك، فقال: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾، ثم لم يقِفْ عند ذلك حتى أخبَر باحتراقها؛ لاحتمالِ أنْ تكون النارُ ضعيفةً لا تفي باحتراقها لِما فيها من الأنهار ورُطوبة الأشجار؛ فاحترَس عن هذا الاحتمال بقوله: ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾؛ فهذا أحسنُ استقصاءٍ وقَع في كلامٍ، وأتمُّه وأكملُه. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

- وقُدِّمتِ التَّحليةُ على اللِّباسِ؛ لأنَّ الحُلِيَّ في النَّفسِ أعظَمُ، وإلى القلْبِ أحبُّ، وفي القيمةِ أغلَى، وفي العينِ أحلَى[1]. أو قُدِّمَ ذِكْرُ الحُليِّ على اللِّباسِ هنا؛ لأنَّ ذلك وقَعَ صِفَةً للجنَّاتِ ابتداءً، وكانت مَظاهِرُ الحُليِّ أبهَجَ للجنَّاتِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ الحُليِّ، وأُخِّرَ اللِّباسُ؛ لأنَّ اللِّباسَ أشَدُّ اتِّصالًا بأصحابِ الجنَّةِ لا بمَظاهِرِ الجنَّةِ، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ الإنسانِ في قولِه: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ [الإنسان: ٢١]؛ لأنَّ الكلامَ هُنالك جَرى على صِفاتِ أصحابِ الجنَّةِ[2].

- قولُه: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ الأساورُ: أصْلُه جمْعُ (أسورةٍ) الَّذي هو جمْعُ سِوارٍ؛ فصيغَةُ جمْعِ الجمْعِ للإشارةِ إلى اختلافِ أشكالِ ما يُحلَّون به منها؛ فإنَّ الحِليةَ تكونُ مُرصَّعةً بأصنافِ اليواقيتِ. وقيل: جمْعُ (سِوارٍ) على غيرِ قياسٍ[3].

- قولُه: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ في الكلامِ اكتفاءٌ، أي: من ذهَبٍ وفِضَّةٍ، كما اكْتَفى في آيةِ سُورةِ الإنسانِ بذِكْرِ الفِضَّةِ عن ذِكْرِ الذَّهبِ بقولِه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، ولكلٍّ من المَعدنينِ جَمالُه الخاصُّ[4].

- قولُه: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خُصَّ الأخضرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أعدلُ الألوانِ وأنفعُها عندَ البصرِ، وأشدُّ ما يكونُ راحةً للعينِ؛ ففيه جمالٌ، وفيه راحةٌ للعينِ، وكان مِن شعارِ الملوكِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

- قولُه: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ جُملةُ ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ استئنافُ مدْحٍ، ومَخصوصُ فعْلِ المدحِ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ عليه. والتَّقديرُ: نِعْمَ الثَّوابُ الجنَّاتُ الموصوفةُ. وعُطِفَ عليه فعْلُ إنشاءٍ ثانٍ وهو ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾؛ لأنَّ (حسُنَ) و(ساء) مُستعملانِ استعمالَ (نِعْمَ) و(بئْس)؛ فعَمِلا عمَلَهما؛ ولذلك كان التَّقديرُ: وحسُنَتِ الجنَّاتُ مُرتفقًا. وهذا مُقابِلُ قولِه في حكايةِ حالِ أهْلِ النَّارِ: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٤).

الآيات (٣٢-٣٤)

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حَفَفۡنَٰهُمَا﴾: # أي: أحَطْناهما مِن جوانِبِهما، والحَفُّ: الإطافةُ بالشَّيءِ، يقالُ: حَفَّ القَومُ بسَيِّدِهم: إذا أطافُوا به، وأصلُ (حف): يدُلُّ على إطافةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿أُكُلَهَا﴾: أي: ثَمَرَها، وما يُؤْكَلُ منها، وسُمِّي الثَّمرُ أُكُلًا؛ لأنَّه يُؤْكَلُ، وأصْلُ (أكل): التَّنَقُّصُ[2].

﴿تَظۡلِم﴾: أي: تَنقُصْ، والظُّلمُ: وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِه المختَصِّ به، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، وأصلُ (ظلم): وضعُ الشَّيءِ غيرَ موضعِه تعدِّيًا[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧، ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١، ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

وذهَب بعضُ أئِمَّةِ الاشْتِقاقِ إلى أنَّ الظلمَ في أصلِ اللُّغةِ: النَّقْصُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٣/ ٣٣).

﴿نَفَرًا﴾: أي: عَشيرةً وأعوانًا، والنَّفَرُ: ما بين الثلاثةِ إلى العَشرةِ، وأصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ، وسُمُّوا نَفَرًا؛ لأنَّهم يَنفِرونَ للنُّصرةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يضربَ المثلَ برجلينِ: مؤمنٍ شاكرٍ لنعمِ الله عليه، وكافرٍ مشركٍ جاحدٍ لنعمِ الله عليه، فيقول: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- لمُشرِكي قَومِك مَثَلًا: رَجُلَينِ؛ أحَدُهما مؤمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهما ويتَّعِظوا، وقد جعَلْنا للكافِرِ حَديقتَينِ مِن أعنابٍ، وأحَطْناهما بنَخلٍ كثيرٍ، وأنبَتْنا وسْطَهما زُروعًا. كلتا الحديقتين أخرجَت ثَمَرَها، ولم تَنْقُصْ منه شَيئًا، وشَقَقْنا بينهما نهرًا لِسَقيِهما. وكان لصاحِبِ الحَديقَتَينِ ثمارٌ منهما، فقال لصاحِبِه المؤمنِ وهو يحاوِرُه، تكبُّرًا وافتخارًا: أنا أكثَرُ منك مالًا، وأعَزُّ أنصارًا وأعوانًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ...﴾ الآيات؛ فإنَّه بعدَ أن بَيَّنَ لهم ما أعدَّ لأهلِ الشِّركِ، وذكَرَ ما يُقابِلُه مِمَّا أعَدَّه للذين آمنوا؛ ضرَبَ مَثَلًا لحال الفريقَينِ بمَثَلِ قِصَّةٍ أظهَرَ اللهُ فيها تأييدَه للمُؤمِنِ وإهانتَه للكافِرِ، فكان لذلك المَثَلِ شَبَهٌ بمَثَلِ قصَّةِ أصحابِ الكَهفِ مِن عَصرٍ أقرَبَ لعِلْمِ المُخاطَبينَ مِن عَصرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

أهلِ الكَهفِ، فضرَبَ مَثَلًا للفريقَينِ -للمُشرِكينَ وللمُؤمِنينَ- بمَثَلِ رَجُلَينِ كان حالُ أحَدِهما مُعجِبًا مُؤنِقًا، وحالُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك، فكانت عاقِبةُ صاحِبِ الحالِ المُؤنقةِ تَبابًا وخَسارةً، وكانت عاقبةُ الآخَرِ نجاحًا؛ لِيَظهَرَ للفريقينِ ما يجُرُّه الغرورُ والإعجابُ والجَبَروتُ إلى صاحِبِه مِن الأرزاءِ، وما يلقاه المؤمِنُ المتواضِعُ العارِفُ بسُنَنِ اللهِ في العالَمِ مِن التَّذكيرِ والتَّدبُّرِ في العواقِبِ، فيكونُ مُعَرَّضًا للصَّلاحِ والنَّجاحِ[١].

وأيضًا بعدَ أن أمَرَ اللهُ نبيَّه بصبرِ نَفسِه مع فُقَراءِ المؤمنين، وعَدَمِ طاعةِ أولئك الأغنياءِ مِن المُشرِكين الذين طلَبوا منه صلَّى الله عليه وسلَّم طَرْدَهم- قفَّى على ذلك بمَثَلٍ يَستبينُ منه أنَّ المالَ لا ينبغي أن يكون موضِعَ فَخارٍ؛ لأنَّه ظِلٌّ زائِلٌ[٢]، وظهَرَ بضرْبِ هذا المَثلِ الرَّبطُ بينَ هذه الآيةِ والَّتي قبْلَها؛ إذ كان من أشرَكَ إنَّما افتخَرَ بمالِه وأنصارِه، وهذا قد يزولُ، فيَصيرُ الغَنيُّ فقيرًا، وإنَّما المُفاخَرةُ بطاعةِ اللهِ[٣].

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ المُستَكبرينَ، الذين سألوك أن تطرُدَ الضُّعَفاءَ والمَساكينَ الذين يَدْعونَ رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ ابتغاءَ وَجهِه؛ اذكُرْ لهم مَثَلًا[٤] قِصَّةَ رَجُلَينِ[٥] أحَدُهما مؤمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهما،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤).
(٤) قال القرطبي: (هذا مَثَلٌ لِمَن يتعَزَّزُ بالدنيا ويستنكِفُ عن مجالسةِ المؤمنين، وهو متَّصِلٌ بِقَولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٨).
(٥) قال الشوكاني: (وقد اختُلِف في الرَّجلَينِ هل هما مُقدَّرانِ أو مُحقَّقانِ؟ فقالَ بالأوَّلِ بعضُ

ويتَّعِظوا بما جرَى لهما[1].

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾.

أي: جعَلْنا لأحدِ هذينِ الرَّجُلينِ -وهو الكافرُ- بُستانَينِ مِن أعنابٍ[2].

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾.

أي: وأحَطْنا هذين البُستانَينِ بنَخلٍ يُحدِقُ بهما[3].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

أي: وجعَلْنا وَسْطَ بُستانَي العِنَبِ زَرعًا[4].

المفسِّرينَ. وقال بالآخرِ بعضٌ آخرُ. وَاخْتَلفوا في تعيينِهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٨).
ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠١).
قال السعدي: (ليس معرفةُ أعيانِ الرَّجُلينِ، وفي أيِّ زمانٍ أو مكانٍ هما، فيه فائدةٌ أو نتيجةٌ؛ فالنتيجةُ تَحصُلُ مِن قِصَّتِهما فقط، والتعَرُّضُ لِما سوى ذلك مِن التكَلُّف). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾: قدَّرْنا له أسبابَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧).

قال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ الكلامِ أنَّ هذا الزَّرْعَ كانَ فاصلًا بينَ الجنَّتينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٧).



﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣)﴾.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾.

أي: كِلا البُستانَينِ أخرجَ ثِمارَه دونَ أن يَنقُصا منها شيئًا[١].

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾.

أي: وأجرَيْنا وشَقَقْنا خِلالَ هذينِ البُستانَينِ نَهرًا بين أشجارِهما[٢].

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿ثَمَرٌ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿ثَمَرٌ﴾، بفتحِ الثَّاءِ والمِيمِ في الحرفينِ؛ جمعُ ثَمَرَةٍ، كبَقَرةٍ وبقَرٍ، الفرقُ بينَ الواحِدِ والجمعِ إسقاطُ الهاءِ[٣].

وقد أعلَمَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّ عِمارتَهما كامِلةٌ متَّصِلةٌ، لا يَفصِلُ بينهما إلَّا عِمارةٌ، فلم يكُنْ بين الجنَّتينِ مَوضِعُ خَرابٍ، وقد جعَلَها أرضًا جامِعةً للأقواتِ والفواكِهِ، مع الشَّكلِ الحَسَنِ، والترتيبِ الأنيقِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٨).

وقيل: معنى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: بينَ النخلِ والأعنابِ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠١، ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩).

(٣) قرأ بها عاصمٌ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

٢- ﴿ثُمْرٌ﴾، بضمِّ الثاءِ، وإسكانِ الميمِ، جمعُ ثَمَرَةٍ، كبَدَنَةٍ وبُدْنٍ، ويجوزُ أَن يكونَ جمعَ ثمارٍ، كما يُخفَّفُ (كُتْب)[1].

٣- ﴿ثُمُرٌ﴾، بضمِّ الثاءِ والميمِ، جمعُ ثمارٍ، كقولِك: كتابٌ وكُتُبٌ، قيل: معناها الأموالُ، وقيل: الأصولُ التي تحملُ الثمرةَ[2].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾.

أي: وكان لصاحِبِ الجَنَّتَينِ ثمارٌ عظيمةٌ منهما[3].

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٦).

(١) قرأ بها أبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

ويُنظر: لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٨١).

ونسَب الواحدي القولَ بأنَّ المرادَ بها: الأموالُ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٢).

قال العليمي: (مَن قرَأ بالضمِّ، فهي الأموالُ الكثيرةُ المثمرةُ مِن كلِّ صنفٍ، جمعُ ثمارٍ، ومَن قرَأ بالفتحِ، جمعُ ثمرةٍ، وما يخرجُه الشجرُ مِن الثمارِ المأكولةِ). ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٧٥).

وقال الرازي: (ذَكَر أهلُ اللُّغةِ: أنَّه بالضَّمِّ: أنواعُ الأموالِ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ وغيرِهما، وبالفتحِ: حَمْلُ الشَّجرِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٣).

وقال ابنُ عطية: (اختلف المتأوِّلونَ في «الثمر» بضمِّ الثاءِ والميمِ؛ فقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: «الثمر»: جميعُ المالِ مِن الذهبِ والفضةِ والحيوانِ وغيرِ ذلك... وقال ابنُ زيدٍ: «الثمر» هي الأصولُ التي فيها الثمرُ... وأمَّا مَن قرَأ بفتحِ الثاءِ والميمِ، فلا إشكالَ في أنَّ المعنى ما في رؤوسِ الشجرِ مِن الأُكُلِ، ولكن فصاحة الكلامِ تقتضي أن يعبَّر إيجازًا عن هلاكِ الثمرِ والأصولِ بهلاكِ الثمرِ فقط، فخصَّصها بالذكرِ؛ إذ هي مقصودُ المستغلِّ، وإذ هلاكُ الأصولِ إنما يسوءُ منه هلاكُ الثمرِ الذي كان يُرجَى في المستقبلِ، كما يقتضي قولُه: «إنَّ له ثمرًا» أنَّ له أصولًا، كذلك تقتضي الإحاطةُ المطْلقةُ بالثمرِ أنَّ الأصولَ قد هلَكت). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٢)،

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾.

أي: فقال مالِكُ الجَنَّتَينِ الكافِرُ لصاحِبِه[١] المؤمِنِ -المجعولِ مَثَلًا لفُقَراءِ المؤمِنينَ- وهو يُراجِعُه في الكلامِ ويُخاطِبُه، ويجادِلُه تكبُّرًا وافتخارًا عليه، وتقبيحًا لحالِه بالنِّسبةِ إليه: لي من المالِ أكثَرُ مِمَّا تَملِكُ، وأنا أكثَرُ منك أُناسًا يَنصُرونَني فيقومونَ معي في المُهِمَّات، ويَنفِرونَ عند الضَّروراتِ؛ مِن وَلَدٍ أو عشيرةٍ، أو خَدَمٍ وأتباعٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ دلَّ فِعلُ المُحاورةِ على أنَّ صاحِبَه قد وعَظَه في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فراجَعَه الكلامَ بالفَخرِ عليه والتَّطاوُلِ، شأنُ أهلِ الغَطرسةِ والنَّقائِصِ؛ أن يَعدِلوا عن المجادلةِ بالتي هي أحسَنُ إلى إظهارِ العَظَمةِ والكِبرياءِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ

((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٦).

ممن قال بأنَّ المرادَ بالثمرِ هاهنا: الثمارُ المعروفةُ، وهي ما يخرجُه الشجرُ مِن الثمارِ المأكولةِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) قال ابن عاشور: (و«الصَّاحِبُ» هنا بمعنى المقارِنِ في الذِّكرِ؛ حيث انتظمَهما خبَرُ المَثَلِ، أو أُريدَ به الملابِسُ المخاصِمُ... والمرادُ بالصَّاحِبِ هنا الرجُلُ الآخَرُ مِن الرَّجُلين، أي: فقال مَن ليس له جنَّاتٌ في حوارٍ بينهما، ولم يتعلَّقِ الغَرَضُ بذِكرِ مكانِ هذا القَولِ ولا سَبَبِه؛ لعَدَمِ الاحتياجِ إليه في الموعِظةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ تأمَّلْ هذه الهيئةَ التي ذكَرَ اللهُ؛ فإنَّ المرءَ لا يَكادُ يتخيَّلُ أجمَلَ منها في مكاسبِ النَّاسِ: جَنَّتا عِنَبٍ أحاط بهما نَخلٌ، بينهما فُسحةٌ، هي مُزدرَعٌ لجَميعِ الحُبوبِ، والماءُ الجاري يَسقي جميعَ ذلك من النَّهرِ الذي قد جمَّلَ هذا المنظَرَ، وعظَّمَ النَّفعَ، وقرَّبَ الكَدَّ، وأغنى عن النواضِحِ[١] وغَيرِها[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ فجعَل الفِعلَ واحِدًا، ولم يقُلْ: (آتَتا أُكُلَها)؛ لأنَّه يجوزُ مراعاةُ اللَّفظِ ومُراعاةُ المعنى في (كلتا)، فلو راعى معنى قَولِه: ﴿كِلْتَا﴾ لقال: (آتتا)، لكِنَّه راعى اللفظ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

- أُبْهِمَ في قولِه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أيُّ الرَّجُلينِ، وتبيَّنَ أنَّه هو الكافرُ الشَّاكُّ في البَعثِ، وأبْهَمَ تعالى مكانَ الجنَّتينِ؛ إذ لا يتعلَّقُ بتَعيينِه كبيرُ فائدةٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ فيه تَتميمٌ[٥] ....

---

(١) النَّواضِحُ: الإبِلُ التي يُستقَى عليها، واحِدُها: ناضِحٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤).

(٥) التتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِم غيرَ المرادِ بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارة أخرى هو: إردافُ الكلامِ بكلمةٍ ترفعُ عنه اللبسَ، وتقرِّبُه للفهمِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد

واحتراسٌ[١] وكِنايةٌ[٢]؛ فالتَّتميمُ أو التَّمامُ في وصْفِ الجنَّتينِ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ يحتملُ أنْ تكونَ الجنَّتانِ مُجرَّدَ اجتماعِ شَجرٍ مُتكاثفٍ، أو يكونَ النَّفعُ منها ضَئيلًا، فيكون أَسَفُه عليها أقلَّ مِن أنْ تكونَ الجنَّتانِ من نَخيلٍ وأعنابٍ يَنتفِعُ بما تُثمرانِه عليه، ثمَّ تمَّمَ ذلك أيضًا بقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ الانتفاعَ قاصرٌ على النَّخيلِ والأعنابِ، ولتكونَ كلٌّ من الجنَّتينِ جامعةً للأقواتِ والفواكهِ، وعلى الشَّكلِ الحسنِ والتَّرتيبِ الأنيقِ، ثمَّ تمَّمَ ذلك بقولِه: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾؛ للدَّلالةِ على دَيمومةِ الانتفاعِ بهما؛ فإنَّ الماءَ هو سِرُّ الحياةِ، وعامِلُ النُّموِّ الأوَّلِ في النَّباتاتِ، ثمَّ تمَّمَ ذلك بقولِه: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ التَّامَّةِ للانتفاعِ بالمواردِ، واحترَسَ بقولِه: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ من أنْ يكونَ ثمَّةَ نقْصٌ في الأُكلِ الَّذي آتَتْه، وليكونَ كِنايةً عن تَمامِ الجنَّتينِ ونُمُوِّهما دائمًا

سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(١) الاحتراس: هو التحرُّز من الشيء والتحفُّظ منه، وهو نوعٌ من أنواع إطناب الزِّيادة، وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٢) الكِناية في اصطلاح البلاغيِّين: هي لفظٌ أُريدَ به غيرُ مَعناهُ الذي وُضِعَ له، مع جوازِ إرادةِ المعنى، حيثُ يُريدُ المتكلمُ إثباتَ معنى من المعاني فلا يَذكُره باللفظِ الموضوعِ له مِن اللُّغة، ولكن يَجيءُ إلى معنى هو تاليه ورَديفُه في الوجودِ فيُشيرُ به إليه ويجعلُه دليلًا عليه؛ فيدلُّ على المرادِ مِن طريقٍ أولى، مِثل قولهم: «كثير الرماد»؛ يعنون كثيرَ الضِّيافةِ؛ فتوصَّلوا إلى المرادِ بذِكرِ معنًى آخَرَ هو رديفُه في الوجودِ؛ لأنَّه إذا كَثُرَ القِرَى كَثُر الرَّماد. والكنايةُ أبلغُ مِن التصريح. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦).

وأبدًا، فهي فيَّاضةُ الموردِ في كلِّ حينٍ؛ فقدِ استوفى وصْفُ الجنَّتينِ هذه الفُنونَ الثَّلاثةَ جميعًا(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾

- جُملةُ: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ مُعترِضةٌ بين الجُملِ المُتعاطِفةِ. والمعنى: أثمرَتِ الجنَّتانِ إثمارًا كثيرًا حتَّى أشبهَتِ المُعطِيَ مِن عندِه(٢).

- قولُه: ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بحذْفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: ولم تَظلِمْ من مِقدارِ أمثالِه(٣).

- قولُه: ﴿ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ فيه تأخيرُ ذِكْرِ النَّهرِ عن ذِكْرِ إيتاءِ الأُكُلِ، مع أنَّ التَّرتيبَ الخارجيَّ على العكسِ؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ من إيتاءِ الأُكُلِ وتَفجيرِ النَّهرِ في تكميلِ مَحاسنِ الجنَّتينِ، ولو عُكِسَ لانْفَهمَ أنَّ المجموعَ خَصلةٌ واحدةٌ بعضُها مُترتِّبٌ على بعضٍ؛ فإنَّ إيتاءَ الأُكلِ مُتفرِّعٌ على السَّقْيِ عادةً. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إيتاءَ الأُكلِ لا يتوقَّفُ على السَّقيِ(٤).

- قولُه: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ شُدِّدَ ﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ وهو نَهرٌ واحدٌ؛ لأنَّ النَّهرَ يمتَدُّ، فكأنَّ التَّفجُّرَ فيه كلِّه، أعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ شُرْبَهما كان من نَهرٍ واحدٍ، وهو أغزَرُ الشُّربِ(٥).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٤-٦٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ...﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على الجُملِ السَّابقةِ؛ لأنَّ ما تَضمَّنَته الجُملُ السَّابقةُ من شأنِه أنْ ينشَأَ عنه غُرورٌ بالنَّفسِ يَنطِقُ ربُّه عن مثْلِ ذلك القولِ[1].

- قولُه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ فيه المُبالَغةُ والإفراطُ في الصِّفةِ؛ وهو أنْ يذكُرَ المُتكلِّمُ حالًا لو وقَفَ عندها لأجزأَتْ، فلا يقِفُ عندها حتَّى يَزيدَ في معنى كلامِه ما يكونُ أبلَغَ في معنى قصْدِه، وهو أنواع، وهو هنا الإتيانُ بصِيغةِ اسمِ التَّفضيلِ وهو مَحضُ الحَقيقةِ مِن غيرِ قَرينةٍ[2].

- قولُه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ فيه اللَّفُّ والنَّشرُ المُشوَّشُ[3]، وحاصِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٦).

(٣) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكر شيئان أو أشياء، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا- بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ - ثم يذكر أشياء على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحد إلى ما يَليقُ به؛ فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشْرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مثل: قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النصارى، وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّف والنَّشر إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّف والنشرُ المُرتَّب، هو: أن يأتي النشرُ على وَفقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يليقُ به على الترتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعٍ مُرتَّب؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ بالليلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهار.

ما قاله هذا الكافرُ ثلاثُ مَقالاتٍ شَنيعةٍ؛ الأولى: قولُه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. والثَّانيةُ: عندما دخَلَ جنَّتَه مُتكبِّرًا مَزْهُوًّا ظالِمًا لنفْسِه، قال -وقد رنَّحه الغُرورُ-: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾. والثَّالثةُ: قولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، فردَّ المؤمنُ على مقالاتِه الثلاثِ بادئًا بالأخيرةِ -لأنَّها الأهمُّ- قائلًا: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ وذلك لشكِّه في البعثِ، وثنَّى بالثَّانيةِ ناصحًا؛ لأنَّها تأتي في المرتبةِ بعدَها فقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ ...﴾، وثلَّثَ بالأُولى مُقرِّعًا فقال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾[1].



وغيرُ المرتَّب، وقد يُعبَّر عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس»: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّب؛ فجملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ٩ - ١١] ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠-٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٥).

الآيات (٣٥-٤١)

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبِيدَ﴾: أي: تَفنى وتَخرَبُ، وأصلُ (بيد): يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ[1].

﴿مُنقَلَبٗا﴾: أي: مَرجِعًا وعاقِبةً، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على ردِّ الشَّيءِ[2].

﴿حُسۡبَانٗا﴾: أي: مَراميَ يُرمَى بها مِن عذابِه؛ إمَّا حجارةً، وإما نارًا أو غيرَ ذلك مِن أنواعِ العذابِ، واحِدُها حُسبانةٌ، والحُسبانُ أيضًا: العَذابُ والسِّهامُ القِصارُ[3].

﴿زَلَقًا﴾: أي: مَلساءَ، لا تَثبُتُ فيها قدَمٌ، وأصلُ (زلق): يدُلُّ على تزلُّجِ شَيءٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٣).

عن مَقامِه[١].

﴿غَوْرًا﴾: أي: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ودخَل الرجُلُ حَديقتَه، وهو ظالمٌ لِنَفسِه بالكُفرِ باللهِ وإنكارِه البَعثَ، وقال: ما أظنُّ أن تَهلِكَ هذه الحديقةُ أبدًا، وما أظنُّ القيامةَ واقعةً، وإنْ فُرِضَ وقوعُها ورُجِعْتُ إلى رَبِّي، لأجِدَنَّ عنده خيرًا مِن هذه الحديقةِ التي أعطانيها في الدُّنيا؛ لكَرامَتي ومَنزِلتي عندَه. قال له صاحِبُه المؤمِنُ وهو يحاوِرُه: أكفَرْتَ باللهِ الذي خلق أصلَك آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ أنشأك مِن نُطفةِ أبوَيك، ثمَّ سَوَّاك بَشَرًا مُعتَدِلَ القامةِ والخِلْقةِ؟!

لكِنْ أنا لا أقولُ بمقالَتك الدَّالَّةِ على كُفرِك، وإنَّما أقولُ: المستحِقُّ العبادةَ هو اللهُ رَبِّي وَحدَه، ولا أُشرِكُ في عبادتي له أحَدًا غيرَه، وهلَّا حين دخَلْتَ حديقَتَك فأعجَبَتْك، قلتَ: ما شاء اللهُ، لا قُوَّةَ لي على شيءٍ إلَّا باللهِ، إنْ كنتَ تراني أقَلَّ منك مالًا وأولادًا، فعسى ربِّي أن يُعطِيَني أفضَلَ مِن حَديقتِك، ويُرسِلَ على حديقتِك عَذابًا من السَّماءِ، فتُصبِحَ أرضًا مَلساءَ جَرداءَ لا يَنبُتُ فيها نَباتٌ، ولا تَثبُتُ عليها قَدَمٌ، أو يصيرَ ماؤُها الذي تُسقَى منه ذاهبًا في الأرضِ، فلا تَقدِرَ على إخراجِه.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ٣٥﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

أي: ودخل الرَّجُلُ[١] بُستانَه والحالُ أنَّه ظالمٌ لِنَفسِه بالكُفرِ باللهِ وتَكبُّرِه وتجَبُّرِه، وإنكارِه البَعثَ يومَ القيامةِ[٢].

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

أي: قال: ما أظُنُّ أن تفنى وتضمَحِلَّ جنَّتي هذه أبدًا[٣]!

---

(١) قال الشوكاني: (قال المفسِّرُونَ: أخَذ بيدِ أخيه المسلمِ، فأدْخَله جَنَّتَه يطوفُ به فيها، ويُرِيه عجائِبَها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (جملةُ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ في موضِعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿قَالَ﴾، أي: قال ذلك وقد دخل جنَّتَه مُرافِقًا لصاحِبِه، أي: دخَلَ جَنَّتَه بصاحِبِه، كما يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]؛ لأنَّ القولَ لا يكونُ إلَّا خِطابًا لآخَرَ، أي: قال له، ويدُلُّ عليه أيضًا قَولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧]، ووقوعُ جوابِ قَولِه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] في خلالِ الحوارِ الجاري بينهما في تلك الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٦٩).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في قوله ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى جنَّتِه: ابن جرير، وابن كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الإشارةُ ترجِعُ إلى الدنيا، فيكون الرجلُ مُنكِرًا لفناءِ الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤).

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾.

أي: وما أظُنُّ القِيامةَ كائِنةً؛ فلا يُوجَدُ بَعثٌ ولا حِسابٌ ولا جَزاءٌ[1]!

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴾.

أي: ولو قُدِّرَ وافتُرِضَ أنَّني رُجِعْتُ إلى ربِّي فبعَثَني بعد موتي، لَأُعطَيَنَّ في الآخرةِ جَنَّةً خَيرًا مِن هذه الجنَّةِ التي أعطانيها في الدُّنيا؛ لأنَّه لم يُعطِني هذه إلَّا لأني أستحِقُّها ولي عنده حُظوةٌ ومكانةٌ، فكذلك يكون حالي في الآخرةِ على تقديرِ وُجودِها[2]!

قال ابنُ جُزي: (يحتملُ أن تكونَ الإشارةُ إلى السَّمواتِ والأرض وسائرِ المخلوقاتِ، فيكون قائلًا ببقاء هذا الوجودِ، كافرًا بالآخرةِ، أو تكون الإشارةُ إلى جنَّته، فيكون قولُه إفراطًا في الاغترارِ، وقِلَّةِ التَّحصيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٠).

قال السعدي: (هذا لا يخلو من أمرَينِ: إمَّا أن يكونَ عالِمًا بحقيقةِ الحالِ، فيكونَ كَلامُه هذا على وَجهِ التهَكُّمِ والاستهزاءِ، فيكونَ زيادةَ كُفرٍ إلى كُفرِه، وإما أن يكونَ هذا ظَنَّه في الحقيقةِ، فيكونَ مِن أجهَلِ النَّاسِ، وأبخَسِهم حظًّا من العَقلِ؛ فأيُّ تلازمٍ بين عطاءِ الدنيا وعطاءِ الآخرة، حتى يَظُنَّ بجَهلِه أنَّ مَن أعطِيَ في الدنيا أعطِيَ في الآخرةِ؟! بل الغالِبُ أنَّ اللهَ تعالى يزوي الدُّنيا عن أوليائِه وأصفيائِه، ويوسِّعُها على أعدائِه الذين ليس لهم في الآخِرةِ نصيبٌ، والظَّاهِرُ أنَّه يعلَمُ حَقيقةَ الحالِ، ولكِنَّه قال هذا الكلامَ على وَجهِ التهَكُّمِ والاستهزاءِ، بدليلِ قَولِه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾؛ فإثباتُ أنَّ وَصْفَه الظُّلمُ في حالِ دخولِه الذي جرى منه من القَولِ ما جرى: يدُلُّ على تمرَدُّه وعِنادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: قال له صاحِبُه المؤمِنُ وهو يخاطِبُه ويكَلِّمُه: أكفَرْتَ باللهِ الذي خلق أصلَك آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ أنشأك مِن مَنِيٍّ، ثمَّ عَدَلَك وكَمَّلَك، فصَيَّرك رجُلًا سَوِيًّا مُعتَدِلَ القامةِ والخِلْقةِ، صحيحَ الأعضاءِ؟! فالذي خلَقَك كذلك قادِرٌ على البَعثِ الذي أنت تُنكِرُه[1]!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال ابن عثيمين: (فكأنَّه يقولُ: بما أنَّ الله أنعم عليَّ بالدُّنيا، فلا بُدَّ أن يُنعِمَ عليَّ بالآخرةِ. وهذا قياسٌ فاسِدٌ؛ لأنَّه لا يلزَمُ مِن التَّنعيمِ في الدُّنيا أن يُنعَّمَ الإنسانُ في الآخرةِ، ولا مِن كَونِ الإنسانِ لا يُنَعَّمُ في الدنيا ألَّا ينَعَّمَ في الآخرةِ؛ لا تلازُمَ بين هذا وهذا، بل إنَّ الكُفَّارَ ينعَّمونَ في الدُّنيا وتُعَجَّلُ لهم طيِّباتُهم في حياتِهم الدُنيا، ولكِنَّهم في الآخرةِ يعَذَّبونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧١).

قال الرازي: (هذا الاستِدلالُ يحتَمِلُ وَجهَينِ:

الأوَّلُ: يرجِعُ إلى الطريقةِ المذكورةِ في القُرآنِ، وهو أنَّه تعالى لَمَّا قَدَر على الابتداءِ وجَبَ أن يقدِرَ على الإعادةِ؛ فقَولُه: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ إشارةٌ إلى خَلقِ الإنسانِ في الابتداءِ.

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا خَلَقَك هكذا فلم يخلُقْك عبثًا، وإنما خلَقَك للعبوديةِ، وإذا خلَقَك لهذا المعنى وجَبَ أن يحصُلَ للمُطيعِ ثوابٌ، وللمذنِبِ عِقابٌ...، ويدُلُّ على هذا الوَجهِ قَولُه: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: هيَّأك هيئةً تَعقِلُ وتَصلُحُ للتَّكليفِ، فهل يجوزُ في العَقلِ مع هذه الحالةِ إهمالُه أمْرَك؟!). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

أي: لكِنْ أنا لا أكفُرُ ولا أقولُ مِثلَ قَولِك، بل أقولُ: الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحدَه، هو الله ربِّي، ولا أعبُدُ أحدًا غَيرَه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

قال الفراء: (قَولُه: ﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ معناه: لكِنْ أنا هو اللهُ ربي، تُرِك همزةُ الألفِ مِن «أنا»، وكثُرَ بها الكلامُ، فأُدغِمَت النونُ مِن «أنا» مع النونِ مِن «لكنْ»). ((معاني القرآن)) (٢/ ١٤٤).

ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٠٣).

قال الشوكاني: (وضميرُ ﴿هُوَ﴾ للشَّأنِ، والجملةُ بعدَه خبرُه، والمجموعُ خبرُ «أنا»، والرَّاجعُ ياءُ الضَّميرِ، وتقديرُ الكلامِ: لكنَّ أنا الشَّأنُ اللَّهُ رَبِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٠).

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: وهلَّا إذ دخلتَ بُستانَك قلتَ حين أعجبَك: ما شاءَ اللهُ[1].

﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

أي: وهَلَّا قُلتَ: لا قُوَّةَ لي على شَيءٍ إلَّا بإعانةِ اللهِ لي، ومِن ذلك إنشاءُ الجنَّتَينِ وعِمارتُهما، وتدبيرُ أمرِهما[2].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((يا عبدَ اللهِ بنَ قَيسٍ، ألَا أعَلِّمُك كَلِمةً هي مِن كُنوزِ الجنَّةِ؟ لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ))[3].

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨).

قال الزمخشري: (﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ يجوزُ أن تكونَ ﴿ مَا ﴾ موصولةً مرفوعةَ المحلِّ على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: الأمرُ ما شاء اللهُ. أو شرطيَّةً منصوبةَ الموضِعِ، والجزاءُ محذوفٌ، بمعنى: أيَّ شَيءٍ شاء اللهُ كان). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٣).

وممن اختار المعنى الأولَ: الزجاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٨٨).

وممن اختار المعنى الثاني: ابنُ جرير، وابنُ تيمية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٤).

(٣) رواه البخاري (٦٦١٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤).

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا عَلَّمه الإيمانَ وتفويضَ الأمورِ إلى اللَّهِ سبحانَه؛ أجابَه على افتخارِه بالمالِ والنَّفَرِ، فقالَ[١]:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

أي: قال الرجُلُ المؤمِنُ للكافِرِ: إنْ رأيتَني أقَلَّ منك مالًا وأولادًا، فتكبَّرْتَ وافتخَرْتَ بذلك عليَّ واحتقَرْتَني[٢].

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

أي: فلعَلَّ[٣] ربِّي أن يرزُقَني لإيماني خَيرًا مِن بُستانِك الذي تفتَخِرُ به عليَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ٧٣).

(٣) قولُه تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ يحتَمِلُ أحدَ مَعنَيَينِ:
الأول: الترجِّي، وأنَّ هذا دعا أن يؤتيَه اللهُ خَيرًا مِن جَنَّتِه، وأن يُنْزِلَ عليها حُسبانًا من السَّماءِ؛ لأنَّه احتَقَره واستذَلَّه، فدعا عليه بمِثلِ ما فَعَلَ به من الظُّلم.
الثاني: التوقُّع، والمعنى أنَّك إن كنتَ ترى هذا فإنَّه يُتوقَّعُ أنَّ الله تعالى يُزيلُ عني ما عِبْتَني به، ويُزيلُ عنك ما تفتَخِرُ به. وأيًّا ما كان فالأمرُ وقَع؛ إمَّا استجابةً لدعائِه، وإمَّا تحقيقًا لتوقُّعِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٣- ٧٤).
وذهب البِقاعي إلى أنَّه دعاءٌ بصورةِ التوقُّع. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٣).
قال ابنُ عاشور: (و﴿عَسَى﴾ للرَّجاءِ، وهو طلبُ الأمرِ القريبِ الحصولِ. ولعلَّه أرادَ به الدُّعاءَ لنفسِه وعلى صاحِبِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي))

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: ويُرسِلَ على بُستانِك الذي ظَنَنْتَ أنَّه لا يَبيدُ ولا يفنى عَذابًا من السَّماءِ لِيُهلِكَه(١).

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

أي: فيُصبِحَ بُستانُك بسَبَبِ العذابِ أرضًا مُسْتويةً، جَرداءَ لا نباتَ فيها، ملساءَ لا تَثبُتُ عليها قَدَمٌ(٢).

(١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٢).

قال الماوَردي: (فيه وجهان: أحدُهما: ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدُّنيا فأساويك فيها. الثاني: وهو الأشهَرُ ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الآخرةِ، فأكون أفضَلَ منك فيها). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: في الآخرةِ: البغوي، والقرطبي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

قال ابنُ كثير: (والظاهِرُ أنَّه مطَرٌ عَظيمٌ مُزعِجٌ، يَقلَعُ زَرعَها وأشجارَها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (الحُسْبانُ: مصدَرُ حَسَب، كالغُفران. وهو هنا صِفةٌ لِموصوفٍ محذوفٍ، أي: هَلاكًا حُسبانًا، أي: مقدَّرًا من الله، كقَولِه تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]. وقيل: الحُسبانُ: اسمُ جمعٍ لسهامٍ قِصارٍ يُرمى بها في طَلَقٍ واحدٍ، وليس له مفردٌ. وقيل: اسمُ جَمعِ حُسبانةٍ، وهي الصاعقةُ. وقيل: اسمٌ للجرادِ. والمعاني الأربعة صالحةٌ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

قال الرسعني: (يرمي ويرسلُ عليها مراميَ مِن عذابِه، إمَّا حجارةً، وإمَّا بردًا، وإما نارًا، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ العذابِ، وهذا يجمعُ أقوالَ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٨)، ((الوسيط))

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: أو يُصبِحَ ماءُ النَّهرِ الذي يَسْقي بستانَك غائرًا ذاهبًا في الأرضِ، فلن تَقدِرَ على طَلَبِ الماءِ واستِخراجِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ فيه استِحبابُ هذ الذِّكرِ عند رؤيةِ ما يُعجِبُ[2]؛ حتى يفَوِّضَ الأمرَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ لا إلى حَولِه وقُوَّتِه[3]، فينبغي لِمن دخل بُستانَه أو دارَه، أو رأى في مالِه

للواحدي (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ في قولِه: ﴿غَوْرًا﴾: (أي: غائرًا في الأرضِ، وهو ضِدُّ النَّابعِ الذي يَطلُبُ وجهَ الأرض، فالغائِرُ يَطلُبُ أسفلَها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] أي: جارٍ وسائحٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٩).

وقال القرطبي: (﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيعَ ردَّ الماءِ الغائرِ، ولا تقدِرُ عليه بحيلةٍ. وقيل: فلن تستطيعَ طلَبَ غيرِه بدلًا منه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (فدعا دعوةً يكونُ فيها زوالُ هذه الجنَّةِ، إمَّا بماءٍ يُغرِقُها حتى تصبِحَ ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾، وإما بغَورٍ لا سُقيا معه؛ لِقَولِه: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾، وكلا الأمرينِ تدميرٌ وخرابٌ. فالفيضاناتُ تدمِّرُ المحصولَ، وغَورُ الماءِ حتى لا يستطيعَ أن يَطلُبَه لِبُعدِه في قاعِ الأرضِ أيضًا يدَمِّرُ المحصولَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٢).

وأهلِه ما يُعجِبُه: أن يبادِرَ إلى هذه الكَلِمةِ؛ فإنَّه لا يرى فيه سُوءًا[١]؛ ولهذا قال بعضُ السَّلَفِ: (من أعجبه شيءٌ مِن حالِه أو مالِه أو ولَدِه، فليقُلْ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾). وهذا مأخوذٌ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أفادت هذه الكَلِمةُ إثباتَ القُوَّةِ لله، وبراءةَ العَبدِ منها، والتَّنبيهَ على أنَّه لا قُدرةَ لأحدٍ مِن الخَلقِ إلَّا بتقديرِه تعالى، فلا يُخافُ مِن غَيرِه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الآيةِ الإرشادُ إلى التسَلِّي عن لذَّاتِ الدُّنيا وشَهَواتِها بما عندَ اللهِ مِن الخَيرِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فيه الدُّعاءُ بتَلَفِ مالِ مَن كان مالُه سَبَبَ طُغيانِه وكُفرِه وخُسرانِه -وذلك على أحدِ الاحتمالينِ في التفسيرِ-، خُصوصًا إنْ فَضَّلَ نَفسَه بسَبَبِه على المُؤمِنينَ، وفخَرَ عليهم[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ في إفرادِ الجنَّةِ بعد تثنيتِها فيما سبق أوجهٌ:

الوجه الأول: أنَّه وحَّد لإرادة الجِنسِ، ودلالةً على ما أفاده الكلامُ مِن أنَّهما

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لاتصالِهما كالجنَّةِ الواحدةِ(١).

الوجه الثاني: لأنَّه أوَّلَ ما يدخُلُ إنَّما يدخُلُ إحداهما قبل أن ينتَقِلَ منها إلى الأخرى، فما دخل إلَّا إحدى الجنَّتين؛ لأنَّه لا يدخُلُهما معًا في وقتٍ واحدٍ(٢).

الوجه الثالث: أنَّه إنما أفرَدَها بعد ذِكرِ التثنيةِ؛ اكتفاءً بالواحِدِ للعِلمِ بالحالِ(٣).

الوجه الرابع: أنَّه أفرَدَ؛ لأنَّهما جميعًا مِلْكُه، فصارا كالشَّيءِ الواحِدِ(٤).

الوجه الخامس: أنَّ معناه: (ودخل ما هو جنَّتُه، ما له جنةٌ غيرُها)، يعني: أنَّه لا نصيبَ له في الجنَّةِ التي وُعِدَ المؤمنون؛ لأنَّه لا حَظَّ له في الآخرةِ، فما ملَكَه في الدُّنيا هو جنَّتُه لا غيرُ، ولم يقصِدِ الجنَّتين ولا واحدةً منهما(٥).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ في هذه الآياتِ أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وهذا الثَّاني كَفَّرَه؛ حيث قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ وهذا يدُلُّ على أنَّ الشَّاكَّ في حُصولِ البَعثِ ومنكرَ المعادِ كافرٌ بربِّ العالمين، وإن زعَم أنَّه مقِرٌّ به(٦)، وقد جاء

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٩).

لكن استبعَد الشوكاني هذا الوجهَ، فقال: (وما أبعدَ ما قالَه صاحبُ الكشَّافِ أنَّه وَحَّد الجنَّةَ للدَّلالَةِ على أنَّه لا نصيبَ له في الجنَّةِ الَّتي وُعِد المؤمِنونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤).

ذلك صريحًا في أوَّلِ سورةِ (الرَّعدِ) في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] [الرعد: ٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ما قال سُبحانَه: «ما شاء اللهُ كان» ولا: «يكونُ»، بل أطلقَ اللفظَ؛ ليَعُمَّ الماضيَ والمستقبلَ والرَّاهنَ[2].

٤- قال ابنُ هُبيرة: (تدبَّرتُ قولَه تعالى: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فرأيتُ لها ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ قائِلَها يتبرَّأُ مِن حَولِه وقُوَّتِه، ويُسَلِّمُ الأمرَ إلى مالِكِه.

والثاني: أنَّه يعلمُ أنْ لا قُوَّةَ للمَخلوقينَ إلَّا باللَّه، فلا يخافُ منهم؛ إذ قُواهُم لا تكونُ إلَّا باللَّهِ، وذلك يُوجِبُ الخوفَ من اللهِ وحدَهُ.

والثَّالثُ: أنَّه ردٌّ على الفَلاسفةِ والطَّبائعيِّينَ الذين يدَّعونَ القُوى في الأشياءِ بطبيعتِها؛ فإنَّ هذه الكَلِمةَ بيَّنَت أنَّ القويَّ لا يكونُ إلَّا باللهِ)[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٧).

(٢) الفائدةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٤٣).

ذِكْرِ دُخولِ جنَّتِه حالَ ظُلْمِه لنفْسِه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال إذْ ذاك؟ فقيل: قال قولَه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، ولعلَّه إنَّما قاله بمُقابلةِ مَوعظةِ صاحبِه، وتَذْكيرِه بفَناءِ جنَّتَيه، ونَهْيِه عن الاغترارِ بهما، وأمْرِه بتَحصيلِ الباقياتِ الصَّالحاتِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

- عقَّبَ نفيَ قيامِ الساعةِ بقولِه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾؛ تهكُّمًا بصاحبِه، وقرينةُ التَّهكُّمِ قولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وأكَّدَ كلامَه بلامِ القَسَمِ ونُونِ التَّوكيدِ؛ مُبالغةً في التَّهكُّمِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ حكَى كلامَ صاحبِه بفِعْلِ القولِ بدونِ عطْفٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّه واقعٌ موقعَ المُحاورةِ والمُجاوبةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ؛ فائدتُها التَّنبيهُ من أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ ما يَتْلوه كلامٌ مُعتنًى بشأنِه، مسوقٌ للمُحاوَرةِ(٤).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

والإنكارِ، وليس على حقيقتِه؛ لأنَّ الصاحبَ كان يعلَمُ أنَّ صاحبَه مُشرِكٌ؛ بدَليلِ قولِه له: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ فالمُرادُ بالكُفرِ هنا الإشراكُ، الَّذي من جُملةِ مُعتقداتِه إنكارُ البعْثِ؛ ولذلك عُرِّفَ بطريقِ الموصوليَّةِ؛ لأنَّ مَضمونَ الصِّلةِ مِن شأْنِه أنْ يَصرِفَ مَن يُدرِكُه عن الإشراكِ به؛ فإنَّهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ هو الَّذي خلَقَ النَّاسَ، فما كان غيرُ اللهِ مُستحِقًّا للعِبادةِ. ثمَّ إنَّ العلْمَ بالخلْقِ الأوَّلِ من شأْنِه أنْ يَصرِفَ الإنسانَ عن إنكارِ الخَلْقِ الثَّاني، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ فكان مضمونُ الصِّلةِ تَعريضًا بجهْلِ المُخاطَبِ[١]. والتعبيرُ بالموصولِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ لإنكارِ الكُفرِ، والتَّلويحِ بدَليلِ البعثِ الَّذي نطَقَ به قولُه عَزَّ من قائلٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ...﴾[٢] [الحج: ٥].

وقِيل: الظاهرُ أنَّ الإنكارَ المدلولَ عليه بهَمزةِ الإنكار في قوله: ﴿أَكَفَرۡتَ﴾ مُضمَّنٌ معنى الاستبعادِ؛ لأنَّه يُستبعَدُ جدًّا كُفرُ المخلوقِ بخالقِه، الذي أبرزَهَ من العدمِ إلى الوجودِ، ويُستبعدُ إنكارُ البعثِ ممَّن عَلِم أنَّ اللهَ خلَقَه مِن تُرابٍ، ثُمَّ مِن نُطفةٍ، ثم سوَّاه رجلًا[٣].

- وجعَلَ كُفْرَه بالبعثِ كُفرًا باللهِ تعالى؛ لأنَّ منشَأَهُ الشَّكُّ في كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ ولذلك رتَّبَ الإنكارَ على خلْقِه إيَّاهُ من التُّرابِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ على بَدْءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٦).

خلْقِه منه قدَرَ أنْ يُعيدَه منه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ موقعُ الاستدراكِ هنا مُضادةُ ما بعدَ (لكن) لِما قبْلَها[٢]، ولا سيَّما إذا كان الرَّجلانِ أخوينِ أو خليلينِ كما قيل؛ فإنَّه قد يُتوهَّمُ أنَّ اعتقادَهما سواءٌ. وأكَّدَ إثباتَ اعترافِه بالخالقِ الواحدِ بمُؤكِّداتٍ أربعةٍ، وهي:

الأول: الجُملتانِ الاسميَّتانِ؛ فأصلُ الكلامِ (لكنْ أنا هُو اللهُ ربِّي)؛ فـ(الله ربي) جملةٌ اسميَّةٌ خبرٌ لـ(هو)، و(هو الله ربي) جملةٌ اسميَّة خبَر لـ(أنا)، وهذان هُما الجملتان.

الثاني: ضَميرُ الشَّأنِ في قولِه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾.

الثالث: تَعريفُ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾، المُفيدُ قصْرَ صِفَةِ رُبوبيَّةِ اللهِ على نفْسِ المُتكلِّمِ قصْرًا إضافيًّا بالنِّسبةِ لمُخاطبِه، أي: دونَك؛ إذ تعبُدُ آلهةً غيرَ اللهِ، وما القصرُ إلَّا توكيدٌ مُضاعفٌ.

الرابع: التَّوكيدُ اللَّفظيُّ للجُملةِ بقولِه: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[٣].

- في قولِه: ﴿لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ تَعريضٌ بإشراكِ صاحبِه، وأنَّه مُخالِفُه في ذلك، وقد صرَّحَ بذلك صاحبُه في قولِه: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٣).

٤٢](١).

٥- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

- عطْفُ جُملةِ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ ﴾ على جُملةِ ﴿أَكَفَرْتَ ﴾ عطْفُ إنكارٍ على إنكارٍ، و(لولا) للتَّوبيخِ، كشأنِها إذا دخلَتْ على الفِعلِ الماضي(٢).

- قولُه: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾ على المُحضَّضِ عليه؛ للإيذانِ بتحتُّمِ القولِ في آنِ الدُّخولِ من غيرِ إبطاءٍ، لا للقصْرِ(٣).

- وجُملةُ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تعليلٌ لكونِ تلك الجنَّةِ من مَشيئةِ اللهِ، أي: لا قُوَّةَ لي على إنشائِها، أو لا قُوَّةَ لمَن أنشأَها إلَّا باللهِ؛ فإنَّ القُوى كلَّها موهبةٌ من اللهِ تعالى، لا تُؤثِّرُ إلَّا بإعانتِه بسَلامةِ الأسبابِ والآلاتِ المُفكِّرةِ والصَّانعةِ؛ فما في جُملةِ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ من العُمومِ، جعَلَها كالعِلَّةِ والدَّليلِ لكونِ تلك الجنَّةِ جُزئيًّا من جُزئياتِ مُنشآتِ القُوى البشريَّةِ الموهوبةِ للنَّاسِ بفضْلِ اللهِ(٤).

- قولُه: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فائدةُ ذِكْرِ ﴿أَنَا۠﴾ في مثْلِ ذلك: حصْرُ الخبرِ في المُبتدأِ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ [طه: ١٢]، وقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾(٥) [القصص: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤١).

٦- قوله تعالى: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴾

- قَولُه: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ خَصَّ السماءَ؛ لأنَّ ما جاء مِن الأرضِ قد يُدافَعُ؛ كأمطارٍ وسيولٍ جارِفةٍ أو نيرانٍ مُحرِقةٍ، فهذه يمكنُ أنْ تُدافَعَ، لكنْ ما نَزلَ مِن السَّماءِ يَصعُبُ دَفعُه أو يَتعذَّرُ[١].

- قولُه: ﴿زَلَقًا﴾ مصدرٌ أُريدَ به المفعولُ، مُبالغةً[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾

- قولُه: ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا ﴾، أي: غائرًا في الأرضِ، ووصْفُه بالمصدرِ للمُبالَغةِ[٣]؛ ولذلك فرَّعَ عليه: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾، وجاء بحرْفِ تَوكيدِ النَّفيِ (لن)؛ زِيادةً في التَّحقيقِ لهذا الرَّجاءِ الصَّادرِ مصدرَ الدُّعاءِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٥).

الآيات (٤٢-٤٤)

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: أي: أصابه ما أهلَكَه، وأصلُه مِن: أحاطَ به العدوُّ؛ لأنَّه إذا أحاط به فقد مَلَكه واستولَى عليه، ثم استُعمِل في كلِّ إهلاكٍ، وأصلُ (حوط): يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ[١].

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خاليةٌ، قد سقط بعضُها على بعضٍ، وأصلُ (خوي): يدلُّ على الخلوِّ والسُّقوطِ[٢].

﴿عُرُوشِهَا﴾: أي: سُقوفِها، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ[٣].

﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: أي: المُوالاةُ والنُّصرةُ. والوَلايةُ والوِلايةُ قيل: كلاهما بمعنًى، وقيل: بالكسر معناها الإمارةُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨، ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((غريب

﴿عُقْبًا﴾: أي: عاقِبةً، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يختتِمُ الله سبحانه مثلَ الرجلين: المؤمنِ والكافرِ ببيانِ العاقبةِ السيئةِ التي حلَّت بذلك الكافرِ، فيقولُ تعالى: وأحاط الدَّمارُ بحَديقةِ هذا الكافرِ، فهلك كلُّ ما فيها، فصار يُقَلِّبُ كَفَّيه؛ حَسرةً وندامةً على ما أنفقَ فيها، وهي خاويةٌ من كلِّ شيءٍ، قد سقطَ بَعضُها على بعضٍ، ويقولُ: يا ليتَني لم أُشرِكْ بربِّي أحدًا! ولم تكنْ له جماعةٌ ممَّن افتخَرَ بهم يمنَعونَه مِن عذابِ اللهِ النَّازلِ به، وما كان مُمتَنِعًا بنَفسِه وقُوَّتِه من ذلك العذابِ. في تلك الحالِ تكونُ النُّصرةُ لله الحَقِّ، ويتولَّاه الجميعُ ويُؤمِنونَ به، ويتبرَّؤون مما كانوا يعبدونَ مِن دونِه، لكِنَّ الله لا يتولَّى إلا المؤمِنينَ المتَّقينَ، والله هو خيرٌ جزاءً، وخيرٌ عاقِبةً لأهلِ طاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان من المعلومِ أنَّ هذا المُؤمِنَ المُخلِصَ بعَينِ الرِّضا، كان من المعلومِ أنَّ التَّقديرَ: فاستُجيبَ لهذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ، أو: فحُقِّقَ له ما توَقَّعه، فخُيِّبَ ظَنُّ المُشرِكِ، فعُطِفَ عليه قولُه[2]:

القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٤).

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾.

أي: وأحاط الهلاكُ بثِمارِ جَنَّةِ الكافِرِ مِن كُلِّ جانبٍ، فتَلِفَت أشجارُه، وزُروعُه، وثِمارُه[1].

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾.

أي: فأصبح يُقَلِّبُ كَفَّيه[2]؛ تحسُّرًا ونَدَمًا على ذَهابِ أموالِه الكثيرةِ التي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٦).

قال السعدي: (والإحاطةُ بالثمرِ يستلزمُ تلفَ جميعِ أشجارِه، وثمارِه، وزرعِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

وقيل: أُتْلِف مالُه كلُّه، وهَلَكَتْ أنعامُه، وسُلِبَتْ أموالُه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٦).

وسبَق ذِكرُ القراءاتِ في كلمةِ (ثمر)، والخلافِ في معناها (ص: ١٨٩).

(٢) قال الرسعني: (﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ قال ابنُ عباس: يضرِبُ يديه واحدةً على أخرى. وقيل: يُقلِّبُهما ظهرًا لبَطنٍ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٢).

وممن ذهَب إلى المعنى الأولِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠٩-٤١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤١).

وممن ذهب إلى المعنى الثاني: ابنُ جرير، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦).

قال أبو حيان: (وتقليبُ كَفَّيه ظاهِرُه أنَّه يقَلِّبُ كَفَّيه ظهرًا لِبَطنٍ، وهو أنَّه يُبدي باطِنَ كَفِّه ثمَّ يعوجُ كَفَّه حتى يبدوَ ظَهرُها). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١).

وقيل: يصفقُ بكفٍّ على كفٍّ، ويقلبُ كفَّيه ظهرًا لبطنٍ. وممن ذهب إلى ذلك: الثعلبي، والبغوي، والخازنُ، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٣)،

أنفَقَها في جنَّتِه، فلم يَبقَ لها عِوَضٌ[(١)].

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

أي: وهي خاليةٌ مِن الأشجارِ والزُّروعِ والثِّمارِ، قد سقَطَت سقوفُها ثمَّ سقَطَت جُدرانُها عليها[(٢)].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

أي: ويقولُ الكافِرُ[(٣)]: يا ليتَني كنتُ مُوَحِّدًا لم أُشرِكْ برَبِّي أحدًا، وشَكَرتُه

((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٧٩).

قال الألوسي: (وأيًّا ما كان فهو كنايةٌ عن الندمِ والتحسُّرِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

قال القرطبي: (دلَّ قولُه: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ على أنَّ هذا الإهلاكَ جرى بالليلِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩-٢٠]). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠).

قال الشوكاني: (﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عمارتِها وإصلاحِها من الأموالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤١).

وقيل: (في) هاهنا بمعنى (على). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٥).

قال ابنُ أبي زمنين: (معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خرابٌ على سقفِها، والأصلُ في ذلك: أن يسقُطَ السَّقفُ، ثم تسقُطَ الحِيطانُ عليها). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩).

(٣) ذهب ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي إلى أنَّ هذا القولَ يقولُه الكافرُ في الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤٨)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣٨٩).

وممن ذهب إلى أنَّه في الدنيا: الزمخشري، والرازي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

على نِعَمِه ولم أكفُرْ به[١].

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا افتخر الكافرُ بكثرةِ مالِه، وعِزَّةِ نَفَرِه؛ أخبرَ تعالى أنَّه لم تكُنْ له فِئةٌ -أي: جماعةٌ- تنصُرُه، ولا كانَ هو مُنتَصِرًا بنفسِه[٢].

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولم تكُنْ له جماعةٌ يَمنَعونَ عنه عذابَ اللهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦).

قال الزمخشري: (تذكَّر موعظةَ أخيه فعَلِمَ أنه أُتي من جهةِ شِركِه وطُغيانِه، فتمنَّى لو لم يكُنْ مُشرِكًا حتى لا يُهلِكَ الله بستانَه، ويجوزُ أن يكونَ توبةً مِن الشركِ، وندمًا على ما كان منه، ودخولًا في الإيمانِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤).

وقال السعدي: (ولا يُستبعَدُ مِن رحمة اللهِ ولُطفِه: أنَّ صاحِبَ هذه الجنَّةِ التي أحيطَ بها، تحسَّنَت حالُه، ورَزَقَه اللهُ الإنابةَ إليه، وراجَعَ رُشدَه، وذهَبَ تَمَرُّدُه وطُغيانُه؛ بدليلِ أنَّه أظهَرَ النَّدَمَ على شِركِه بربِّه، وأنَّ الله أذهَبَ عنه ما يُطغيه، وعاقَبَه في الدنيا، وإذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا عجَّل له العُقوبةَ في الدُّنيا. وفَضلُ اللهِ لا تحيطُ به الأوهامُ والعُقول، ولا يُنكِرُه إلَّا ظالِمٌ جَهولٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠).

قال الواحدي: (لم ينصُرْه النفَرُ الذين افتخر بهم حين قال: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾). ((الوجيز)) (ص: ٦٦٢).

وقال السعدي: (لَمَّا نزل العذاب بجنَّتِه، ذهب عنه ما كان يفتخِرُ به من قوله لصاحبِه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ فلم يدفعوا عنه من العذابِ شيئًا، أشدَّ ما كان إليهم حاجةً!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

أي: وما كان مُمتَنِعًا بنَفسِه مِن عذابِ اللهِ[١].

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنتج هذا المثَلُ قَطعًا أنَّه لا أمرَ لغيرِ الله المرجوِّ لنَصرِ أوليائه بعد ذُلِّهم، ولإغنائِهم بعد فَقرِهم، ولإذلالِ أعدائِه بعدَ عِزِّهم وكِبرِهم، وإفقارِهم بعد إغنائِهم وتجبُّرِهم، وأنَّ غيرَه إنما هو كالخيالِ لا حقيقةَ له- صَرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى[٢]:

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿الْوِلَايَةُ﴾ بكسر الواو، أي: المُلكُ والسُّلطانُ والقدرةُ لله[٣].

٢- قراءةُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، أي: النُّصرةُ لله[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٥).

(٣) قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن

وفي قوله: ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿الْحَقُّ﴾ بضمِّ القافِ، صِفةً للوَلايةِ، قيل المعنى: وَلايةُ اللهِ حَقٌّ وصِدقٌ لا يشوبُها نَقصٌ ولا خَلَلٌ. وقيل المعنى: الولايةُ الحَقُّ لله لا يستَحِقُّها غيرُه(١).

٢- قراءةُ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ بكسرِ القافِ، صفةً لله تعالى، بمعنى: ذي الحَقِّ، أي: هو الحَقُّ في ألوهيَّتِه(٢).

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: في ذلك المقامِ، وتلك الحالِ(٣)، النُّصرةُ لله المعبودِ الحَقِّ وَحدَه، لا يملكُها غيرُه، ولا يَقدِرُ عليها سِواه(٤)، فيتولَّونَ اللهَ جميعُهم ويُؤمِنونَ به،

زنجلة (ص: ٤١٨).

(١) قرأ بها أبو عمرٍو، والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٩)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٦٣).

(٣) وممن ذهَب إلى أنَّ الإشارةَ في قولِه: ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى العذابِ الذي أصاب جنتَه في الدنيا: الزمخشري، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٩).
وممن ذهب إلى أنَّ الإشارةَ فيها إلى العذابِ في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٧).

ويتبرَّؤون مِن الآلهةِ الباطلةِ الكاذبةِ، لكِنَّ الله لا يتولَّى ولا ينصُرُ سوى عبادِه المؤمِنينَ المتَّقينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١].

وممن اختار المعنى المذكورَ: الرسعني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) ممن اختار هذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ قتيبة، والنحاس، وابنُ أبي زمنين، والواحدي، والخازن، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٨٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٠).

قال الشنقيطي: (على قراءةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ﴾ بفتحِ الواوِ فإنَّ معناها: الموالاةُ والصِّلةُ، وعلى هذه القراءةِ ففي معنَى الآيةِ وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ معنَى ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ﴾، أي: في ذلك المقامِ، وتلكَ الحالِ تكونُ الولايةُ مِنْ كلِّ أحدٍ للَّهِ؛ لأنَّ الكافرَ إذا رأَى العذابَ رَجَع إلى اللَّهِ، وعلَى هذا المعنَى فالآيةُ كقولِه تعالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤]، وقولِه في فرعونَ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩١]، ونحو ذلك مِنَ الآياتِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الولايةَ في مثلِ ذلك المقامِ وتلك الحالِ للَّهِ وحدَه، فيوالِي فيه المسلمينَ ولايةَ رحمةٍ، كما في قولِه تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٥٧]، وقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]، وله على الكافرينَ وَلايةُ الملكِ والقهرِ، كما في قولِه: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٧٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

أي: اللهُ أفضَلُ جَزاءً لأهلِ طاعتِه في الدُّنيا وفي الآخرةِ، وعاقِبةُ طاعتِه خيرٌ مِن عاقبةِ طاعةِ غيره(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ في هذه القِصَّةِ العَظيمةِ اعتِبارٌ بحال الذي أنعم اللهُ عليه نِعَمًا دُنيويَّةً، فألهَتْه عن آخِرتِه وأطغَتْه، وعصى اللهَ فيها؛ أنَّ مآلَها الانقِطاعُ والاضمِحلالُ، وأنَّه وإن تمتَّعَ بها قليلًا فإنَّه يُحرَمُها طَويلًا(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ...﴾ فأحاطَ به هذا العِقابُ لا لمُجرَّدِ الكُفْرِ؛ لأنَّ اللهَ قد يُمتِّعُ كافرينَ كثيرينَ طولَ حياتِهم، ويُمْلي لهم ويَسْتدرِجُهم، وإنَّما أحاط به هذا العِقابُ جزاءً على طُغيانِه، وجعْلِه ثَروتَه ومالَه وسيلةً إلى احتقارِ المُؤمنِ الفقيرِ؛ فإنَّه لمَّا اعتزَّ بتلك النِّعمِ، وتوسَّلَ بها إلى التَّكذيبِ بوعْدِ اللهِ؛ استحَقَّ عِقابَ اللهِ بسلْبِ تلك النِّعمِ عنه، كما سُلِبَتِ النِّعمةُ عن قارونَ حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وبهذا كان هذا المَثَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٧٧).

موضِعَ العِبرةِ للمُشرِكينَ الَّذين جَعَلوا النِّعمةَ وسيلةً للتَّرفُّعِ عن مجالسِ الدَّعوةِ؛ لأنَّها تجمَعُ قومًا يَرَونهم أحطَّ منهم، وطَلَبوا من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ طرْدَهم عن مَجْلِسِه[١].

٣- كشَفَ هذا المثَلُ أنَّ ما فيه الكفارُ مِن الارتفاقِ العاجلِ ليس أهلًا لأن يُفتخَرَ به؛ لأنَّه إلى زوالٍ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بُني الفِعلُ للمَفعولِ؛ لأنَّ النَّكَدَ حاصِلٌ بإحاطةِ الهَلاكِ مِن غيرِ نَظَرٍ إلى فاعلٍ مَخصوصٍ[٣].

٢- قولُه: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (خَيْرٌ) هنا ليستْ على بابِها[٤] -أي ليستْ للتَّفضيلِ، ولكنْ لإثباتِ الخَيريَّةِ المُطلَقةِ لثَوابِ اللهِ، ونَفْيِه عن غَيرِه-؛ إذْ غيرُ اللهِ لا يُثيبُ، ولا تُحْمَدُ طاعتُه في العاقبةِ ليكونَ اللهُ خيرًا منه ثوابًا وعُقبًا، أو ذلك على سَبيلِ الفرضِ والتَّقديرِ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ فيه أنَّ وَلايةَ اللهِ وعَدَمَها إنَّما تتَّضِحُ نتيجتُها إذا انجلى الغُبارُ، وحَقَّ الجزاءُ، ووجَدَ العامِلونَ أجْرَهم، فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٧٨).

(٤) قال الشنقيطي: (ولفظةُ «خيرٍ» و«شرٍّ» كلتاهما تأتي صيغةَ تفضيلٍ حُذِفَتْ منها الهمزةُ تخفيفًا؛ لكثرةِ الاستعمالِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤١).

ومآلًا[(١)].

٤- الحَقُّ اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ عطْفٌ على مُقدَّرٍ؛ كأنَّه قيلَ: فوقَعَ بعضُ ما توقَّعَ من المحذورِ وأُهْلِكَ أموالُه -وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-؛ وإنَّما حُذِفَ لدَلالةِ السِّباقِ والسِّياقِ عليه[(٣)].

- وقوله: ﴿وَأُحِيطَ﴾، أي: أوقعتِ الإحاطةُ بالهلاكِ، وبُني للمفعولِ؛ لأنَّ الفِكرَ حاصلٌ بإحاطةِ الهلاكِ مِن غيرِ نَظرٍ إلى فاعِلٍ مخصوصٍ، وللدَّلالةِ على سُهولتِه[(٤)].

- قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ خُصِّص الثمرُ بالذكرِ مع أنَّ الأصولَ والثمرَ قد أُهلِكا جميعًا؛ إذ الثمرُ مقصودُ المستغِلِّ، وإذ هلاكُ الأصولِ إنما يسوء منه هلاكُ الثمرِ الذي كان يُرجَى في المستقبَلِ، كذلك تقتضي الإحاطةُ المطلقةُ بالثمرِ أنَّ الأصولَ قد هلكَتْ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١٨٨). ويُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٦).

- وإنَّما لم تُعْطَفْ جُملةُ ﴿وَأُحِيطَ﴾ بفاءِ التَّفريعِ على رَجاءِ صاحبِه المُؤمنِ؛ إذ لم يَتعلَّقِ الغرضُ في هذا المقامِ بالإشارةِ إلى الرَّجلِ المُؤمنِ، وإنَّما المُهِمُّ التَّنبيهُ على أنَّ ذلك حادثٌ حَلَّ بالكافرِ بسَببِ كُفرِه وطُغيانِه؛ ليعلَمَ السَّامِعون أنَّ ذلك جزاءُ أمثالِه، وأنْ ليس بخُصوصيةٍ لدَعوةِ الرَّجلِ المُؤمنِ[١].

- قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ...﴾ فيه تتميمٌ، حيثُ صَوَّرَ الإطاحةَ بالجنَّتينِ وبالثَّمرِ معًا، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، ثمَّ وصَفَ حالتَه فقال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾[٢].

- في قولِه: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تَقليبُ الكفَّينِ كِنايةٌ عن النَّدمِ والتَّحسُّرِ؛ لأنَّ النَّادِمَ يُقلِّبُ كفَّيْه ظهرًا لبطنٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ لعلَّ تَخصيصَ النَّدمِ به دُونَ ما هلَكَ الآنَ من الجنَّةِ؛ لأنَّه إنَّما يكونُ على الأفعالِ الاختياريَّةِ، ولأنَّ ما أنفَقَ في عِمارتِها كان ممَّا يُمكِنُ صِيانتُه عن طوارقِ الحَدثانِ، وقد صرَفَه إلى مصالحِها؛ رجاءَ أنْ يتمتَّعَ بها أكثَرَ ممَّا يتمتَّعُ به، وكان يَرى أنَّه لا تَنالُها أيدي الرَّدى؛ ولذلك قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فلمَّا ظهَرَ له أنَّها ممَّا يَعتريه الهلاكُ، ندِمَ على ما صنَعَ بِناءً على الزَّعمِ الفاسدِ، من إنفاقِ ما يُمكِنُ ادِّخارُه في مثْلِ هذا الشَّيءِ السَّريعِ الزَّوالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٤- ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٣-٢٢٤).

- قولُه: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، أي: وهي خاليةٌ من الشَّجرِ والزَّرعِ، والعُروشُ: السُّقفُ. وهذا التَّركيبُ أرسَلَه القُرآنُ مثَلًا للخَرابِ التَّامِّ الَّذي هو سُقوطُ سُقوفِ البِناءِ وجُدرانِه(١). وقيل: تَخصيصُ حالِ العُروشِ فقط بالذِّكرِ دُونَ النَّخلِ والزَّرعِ؛ لأنَّها العُمدةُ وهما من مُتَمِّماتِها، أو لأنَّ ذِكْرَ هلاكِها مُغْنٍ عن ذِكْرِ هلاكِ الباقي؛ لأنَّها حيثُ هلَكَت وهي مُشيَّدةٌ بعُروشِها؛ فهلاكُ ما عداها بالطَّريقِ الأَولى، وإمَّا لأنَّ الإنفاقَ في عِمارتِها أكثرُ(٢).

- قوله: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى﴾ جيءَ بالمُضارِعِ ﴿وَيَقُولُ﴾ -مع أنَّه حِكايةٌ لتندُّمِه على ما فرَطَ منه حين لا ينفَعُه النَّدمُ بعدَ حُلولِ العذابِ-؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك القولِ منه(٣).

- وحرْفُ النِّداءِ (يا) مُستعملٌ في التَّلهُّفِ. و(لَيْتَني) تمَنٍّ مُرادٌ به التَّندُّمُ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾

- قولُه: ﴿فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ لم يقُلْ: (تنصُرُه) وإنَّما جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ باعتبارِ المعنى، كما في قولِه عزَّ وعَلا: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾(٥) [آل عمران: ١٣].

٣- قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

- قولُه: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ تذييلٌ للجُملِ قبْلَها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤).

لِما في هذه الجُملةِ من العُمومِ الحاصلِ من قصْرِ الولايةِ على اللهِ تعالى المُقْتضي تَحقيقَ جُملةِ ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]، وجُملةِ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]، وجُملةِ ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣]؛ لأنَّ الولايةَ من شأْنِها أنْ تبعَثَ على نصْرِ المَولى، وأنْ تُطمِّعَ المَولى في أنَّ وَلِيَّه ينصُرُه؛ ولذلك لمَّا رأى الكافرُ ما دهاهُ من جرَّاءِ كُفْرِه، الْتجأَ إلى أنْ يقولَ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]؛ إذ علِمَ أنَّ الآلهةَ الأُخرى لم تُغْنِ ولايتُهم عنه شيئًا[(١)].

- واسمُ إشارةِ المكانِ البَعيدِ ﴿هُنَالِكَ﴾ للإشارةِ إلى الحالِ العجيبةِ بتَشبيهِ الحالةِ بالمكانِ؛ لإحاطتِها بصاحبِها، وتَشبيهِ غَرابتِها بالبُعدِ؛ لنُدرةِ حُصولِها. والمعنى: أنَّ في مثْلِ تلك الحالةِ تُقْصَرُ الولايةُ على اللهِ؛ فالولايةُ: جِنسٌ مُعرَّفٌ بلامِ الجنسِ، يُفيدُ أنَّ هذا الجنسَ مُختصٌّ باللَّامِ على نحوِ ما قُرِّرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾[(٢)] [الفاتحة: ٢]. وقيل: أُشيرَ به لدارِ الآخرةِ، أي: في تلك الدَّارِ الولايةُ للهِ، كقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦]؛ لَمَّا نفى عنه الفِئةَ النَّاصرةَ في الدُّنيا، نَفى عنه أنْ يَنتصِرَ في الآخِرةِ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۞ هُنَالِكَ﴾، أي: في الدَّارِ الآخرةِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٢).

الآيتان (٤٥-٤٦)

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَشِيمًا﴾: أي: يابسًا مُتفَتِّتًا، وأصلُ (هشم): يدُلُّ على كسرِ الشَّيءِ[1].

﴿تَذْرُوهُ﴾: أي: تَنسِفُه وتُفَرِّقُه، وأصلُ (ذرو): يدلُّ على الشَّيءِ يتساقَطُ مُتفرِّقًا[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه أن يضربَ مثلًا عامًّا للدنيا في سرعةِ زوالِها وانقضائِها، فيقولُ: واضرِبْ -يا مُحمَّدُ- مثلًا للدُّنيا التي اغترُّوا بها، في بهجَتِها وسُرعةِ زَوالِها؛ فهي كَماءٍ أنزله اللهُ مِن السَّماءِ على الأرضِ، فكثُرَ بسببِ هذا المطرِ نباتُ الأرضِ والتفَّ واجتمَعَ بعضُه ببَعضٍ، فصار هذا النَّباتُ -بعد أن كان نَضِرًا مُبهِجًا- يابِسًا متكَسِّرًا تُفَرِّقُه الرِّياحُ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قديرًا.

ثم يبينُ الله تعالى أنَّ الأموالَ والأبناءَ في حقيقتِهما مجردُ زينةٍ، وأن الذي ينفعُ العبدَ في الآخرةِ هو العملُ الصالحُ، فيقول: الأموالُ والأولادُ زينةُ هذه الحياةِ الدُّنيا، والأعمالُ الصَّالحةُ الباقيةُ لصاحبِها في الآخرة أفضَلُ أجرًا، وهي خيرُ ما يؤمِّلُه الإنسانُ عندَ الله من زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢).

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في المَثَلِ السَّابِقِ حالَ الكافِرِ والمؤمِنِ، وما آل إليه ما افتخَرَ به الكافِرُ مِن الهلاكِ؛ بَيَّنَ في هذا المَثَلِ حالَ الحياةِ الدُّنيا واضمِحلالَها، ومصيرَ ما فيها من النَّعيمِ والترَفُّه إلى الهلاكِ[١]، فبعدَ أن ضرَب المثلَ لدُنيا هؤلاء الكافرينَ التي أبطَرتْهم، وكانت سببَ شقائِهم- ضرَب مثلًا لدارِ الدُّنيا عامةً[٢].

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- لهم[٣] ما يُشبِهُ الحياةَ الدُّنيا[٤] في زَهرتِها وسُرعةِ تقَلُّبِها، وزوالِها وانقِضائِها؛ لِيَعرِفوا حقيقتَها، فصِفتُها كمَطَرٍ أنزَلْناه من السَّماءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ١٥٢).

(٣) قيل: المرادُ: المستكبرينَ الذين سألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طرْدَ فقراءِ المؤمنين. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٢).

وقيل: المرادُ: الناسُ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨).

(٤) قال ابنُ عاشور: (الحياةُ الدُّنيا: تُطلَقُ على مدَّةِ بقاءِ الأنواعِ الحيَّةِ على الأرضِ، وبقاءِ الأرضِ على حالتِها؛ فإطلاقُ اسمِ الحياةِ الدنيا على تلك المدَّةِ؛ لأنَّها مُدَّةُ الحياة الناقصةِ غيرِ الأبديَّةِ؛ لأنَّها مُقدَّرٌ زوالُها، فهي دنيا. وتطلَقُ الحياةُ الدنيا على مدَّةِ حياة الأفراد، أي: حياةِ كلِّ أحد... وهذا المثَلُ مُنطَبِقٌ على الحياةِ الدنيا بإطلاقَيها، فهما مراداتِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٠-٣٣١).

على الأرضِ[1].

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: فشبَّ نباتُ الأرضِ، وحَسُنَ استِواؤُه[2]، وكثُرَ والتفَّ، واجتمَعَ بعضُه ببَعضٍ[3]؛ بسبَبِ المطرِ[4].

﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾.

أي: فأصبح النَّباتُ -بعد أن كان مُتنوِّعًا نَضِرًا مُبهِجًا- يابسًا متفَتِّتًا، تحمِلُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١).

(٣) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، وابنُ عطية، وابن عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٧).

قال ابن عاشور: (اختلاطُ النباتِ: وفرتُه والتفافُ بعضِه ببعضٍ مِن قوَّةِ الخصبِ والازدهارِ، والباءُ في قولِه: ﴿بِهِۦ﴾ باءُ السَّبَبيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١).

وقيل: المعنى: اختلط وتداخَل النباتُ بذلك الماءِ. وممن اختاره: السمعاني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٩).

وتكونُ الباءُ في قوله ﴿بِهِۦ﴾ -على ذلك القولِ- للمصاحبةِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧).

قال الماوردي: (﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحتَمِلُ وجهينِ: أحدُهما: أنَّ الماءَ اختلَط بالنَّباتِ حينَ استوَى. الثاني: أنَّ النباتَ اختلَط بعضُه ببعضٍ حينَ نزَل عليه الماءُ حتَّى نما). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١).

الرِّياحُ وتُفرِّقُه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

أي: وكان اللهُ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ؛ من الإنشاءِ والإفناءِ، والإعادةِ وغير ذلك، قويًّا قادرًا، لا يُعجِزُه شَيءٌ[٢].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٧).

قال ابن القيم: (المراد: قِلَّةُ بقاء زَهرةِ الدُّنيا كقِلَّةِ بقاء هذا الخَضِر). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَقَّر تعالَى حالَ الدُّنيا بما ضَرَبه مِن ذلك المَثَلِ؛ ذَكَر أنَّ المال والبنينَ زينةُ هذه الحياةِ الدُّنيا المحقَّرَةِ، وأنَّ مصيرَ ذلك إنَّما هو إلى النَّفادِ، فينبَغي أنْ لا يُكْتَرَثَ به[1].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: الأموالُ[2] والأبناءُ[3] يتجَمَّلُ بهما النَّاسُ في حياتِهم الدُّنيا ويتزيَّنونَ، وليسا مما ينفعُ في الآخرةِ؛ فهما مما يفنَى عن قريبٍ[4].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٦).

(٢) قال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ﴾ مِن أيِّ نوعٍ، سواء كان مِن العُروضِ أو النقودِ أو الآدميينَ أو البهائمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨).

(٣) قال ابن عرفة: (لفظُ البنينَ خاصٌّ بالذكورِ؛ ولذلك لم يقُل: المالُ والأولادُ؛ لدخول البناتِ في الأولادِ، وقد كانوا [يَقْتلونَهنَّ] ويَتشاءَمونَ بهنَّ، فكيف يكُنَّ زينةً؟!). ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٩١).

وقال ابنُ عثيمين: (ذَكرَ البنينَ دونَ البناتِ؛ لأنَّه جرت العادةُ أنَّهم لا يفتَخِرونَ إلَّا بالبنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٨، ٧٩).

قال القرطبي: (إنَّما كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا؛ لأنَّ في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنينَ قُوَّةً ودَفعًا، فصارا زينةَ الحياة الدنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٣).

وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: ١١].

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾.

أي: وأعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ التي تبقَى لصاحِبِها في الآخرةِ الباقيةِ، ويبقى نَفعُها وثوابُها؛ أفضَلُ جزاءً عندَ رَبِّكَ -يا مُحمَّدُ- من زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وهي أفضَلُ ما يُؤَمِّلُه الإنسانُ، ويرجو نَفعَه وعواقِبَه الحميدةَ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٣، ٢٨١)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١- ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧٩).

قال الشنقيطي: (وأقوالُ العُلماءِ في الباقيات الصالحات كُلُّها راجعةٌ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الأعمالُ التي تُرضي الله، سواءٌ قلنا: إنَّها الصلواتُ الخمسُ، كما هو مرويٌّ عن جماعةٍ مِن السلَفِ: منهم ابنُ عباس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وأبو ميسرةَ، وعمرو بنُ شرحبيل؛ أو أنَّها: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا الله، والله أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيمِ، وعلى هذا القولِ جمهورُ العلماء، وجاءت أحاديثُ مرفوعةٌ عن أبي سعيدٍ الخُدري، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، والنعمان بن بشير، وعائشة رضي الله عنهم.

قال مقيِّدُه [الشنقيطي] عفا الله عنه: التحقيقُ أن «الباقيات الصالحات» لفظٌ عامٌّ يشملُ الصلواتِ

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، والله أكبَرُ؛ مِن الباقياتِ الصَّالِحاتِ))[1].

الخمسَ، والكلماتِ الخَمسَ المذكورةَ، وغيرَ ذلك من الأعمالِ التي تُرضي الله تعالى؛ لأنَّها باقيةٌ لصاحِبها غيرُ زائلةٍ ولا فانيةٍ، كزينةِ الحياةِ الدنيا، ولأنَّها أيضًا صالحةٌ لوقوعِها على الوجه الذي يُرضي الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨١).

وذكَر الرسعني بعضَ الأقوالِ في معنى الباقياتِ الصالحاتِ، ثم قال: (هذا وأمثالُه ليس على سبيلِ الحَصرِ، وإنما هو لبيانِ جِنسِ المرادِ، بذِكرِ بعضِ أنواعِه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٩٨).

قال السعدي: (الباقياتُ الصَّالحاتُ... يشملُ جميعَ الطاعاتِ الواجبةِ والمستحَبَّةِ مِن حقوق اللهِ، وحقوقِ عبادِه؛ مِن صلاةٍ، وزكاةٍ، وصدقةٍ، وحَجٍّ، وعمرةٍ، وتسبيحٍ، وتحميدٍ، وتهليلٍ، وتكبير، وقراءة، وطلَبِ علمٍ نافع، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيامٍ بحقِّ الزوجات والمماليك والبهائم؛ وجميعَ وجوهِ الإحسان إلى الخَلقِ. كلُّ هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خيرٌ عند الله ثوابًا وخيرٌ أملًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

وقال القرطبي: (﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضَلُ. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضَلُ مِن ذي المال والبنينَ دونَ عَمَلٍ صالحٍ، وليس في زينةِ الدنيا خيرٌ، ولكنَّه خرجَ مُخرَجَ قَولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: خيرٌ في التحقيقِ مِمَّا يظُنُّه الجُهَّالُ أنَّه خيرٌ في ظنِّهم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٤).

قال الشوكاني: (﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضلُ أملًا، يعني أنَّ هذه الأعمالَ الصَّالحةَ لأهلِها مِن الأملِ أفضلُ مِمَّا يُؤمِّله أهلُ المالِ والبنينَ لأنَّهم يَنالونَ بها في الآخرَةِ أفضلَ مِمَّا كان يُؤمِّلُه هؤلاءِ الأغنياءُ في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٤).

(١) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (١٨/ ٣٤).
صحَّحه الألباني بشواهدِه في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ فأحوالُ الدُّنيا تظهَرُ أوَّلًا في غايةِ الحُسنِ والنَّضارة، ثم تتزايدُ قليلًا قليلًا، ثم تأخُذُ في الانحطاطِ إلى أن تنتهيَ إلى الهلاكِ والفَناءِ، ومِثلُ هذا الشيءِ ليس للعاقِلِ أن يبتهِجَ به[١]؛ فالدُّنيا سريعةُ الزوالِ، وشيكةُ الارتحالِ، مع كثرةِ الأنكادِ، ودوامِ الأكدارِ، مِن الكَدِّ والتَّعَب، والخَوفِ والنَّصَب، فهي جديرةٌ لذلك بالزُّهدِ فيها، والرغبةِ عنها، وألَّا يفتَخِرَ بها عاقِلٌ فَضلًا عن أن يكاثِرَ بها غيرَه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أخبر تعالى أنَّ المالَ والبنينَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا، أي: ليس وراءَ ذلك شيءٌ، وأنَّ الذي يبقى للإنسانِ وينفعُه ويَسُرُّه: الباقياتُ الصَّالحاتُ، وهذا يشمَلُ جميعَ الطَّاعاتِ الواجبةِ والمستحبَّةِ مِن حقوقِ الله، وحقوقِ عبادِه؛ فهذه خيرٌ عند الله ثوابًا وخيرٌ أملًا؛ فثوابُها يبقى ويتضاعَفُ على الآباد، ويُؤَمَّلُ أجرُها وبِرُّها ونَفعُها عند الحاجةِ، فهذه التي ينبغي أن يتنافَسَ فيها المتنافِسونَ، ويستبِقَ إليها العامِلون، ويجِدَّ في تحصيلِها المجتَهِدون، وتأمَّلْ كيف لَمَّا ضرب اللهُ مَثَلَ الدُّنيا وحالَها واضمحلالَها، ذكر أنَّ الذي فيها نوعان: نوعٌ مِن زينتها يُتمَتَّعُ به قليلًا ثم يزولُ بلا فائدةٍ تعودُ لصاحِبِه، بل ربَّما لَحِقتْه مَضرَّتُه وهو المالُ والبنونَ؛ ونوعٌ يبقى وينفَعُ صاحِبَه على الدَّوامِ، وهي الباقياتُ الصَّالحاتُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).



٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ المرادُ مِن الآيةِ الكريمةِ تنبيهُ النَّاسِ للعمَلِ الصَّالحِ؛ لئلَّا يشتَغِلوا بزينةِ الحياةِ الدُّنيا مِن المالِ والبنينَ عَمَّا ينفَعُهم في الآخرةِ عند الله من الأعمالِ الباقياتِ الصَّالحاتِ، وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء مُبيَّنًا في آياتٍ أُخَرَ، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ * قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ الإنسانَ لا ينبغي له الاشتِغالُ بزينةِ الحياةِ الدُّنيا عمَّا ينفَعُه في آخرتِه[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ كان أعظمَ حائلٍ بينَ المشركينَ وبينَ النظَرِ في أدلَّةِ الإسلام انهماكُهم في الإقبالِ على الحياةِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٠).

الزائلةِ ونعيمِها، والغُرور الذي غَرَّ طُغاةَ أهلِ الشِّركِ، وصرَفَهم عن إعمالِ عُقولِهم في فَهمِ أدلَّة التوحيدِ والبعثِ، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]، وقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القَلَم: ١٤- ١٥]، وكانوا يحسَبونَ هذا العالَمَ غيرَ آيلٍ إلى الفَناءِ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وما كان أحدُ الرجُلينِ اللذينِ تقدَّمت قصَّتُهما إلَّا واحدًا مِن المشركينَ؛ إذ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكَهْف: ٣٦]، فأمر اللهُ رسولَه بأن يضرِبَ لهم مثَلَ الحياةِ الدنيا التي غرَّتْهم بهجتُها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ إنَّما شَبَّه تعالى الدُّنيا بالماءِ؛ لأنَّ الماءَ لا يستَقِرُّ في موضعٍ، كذلك الدُّنيا: لا تبقَى على واحدٍ، ولأنَّ الماءَ لا يستقيمُ على حالةٍ واحدةٍ، كذلك الدُّنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقَى، ويذهَبُ، كذلك الدُّنيا تفنَى، ولأنَّ الماءَ لا يَقدِرُ أحَدٌ أن يَدخُلَه ولا يبتَلَّ، كذلك الدنيا: لا يسلَمُ أحَدٌ دخلَها مِن فِتنَتِها وآفَتِها، ولأنَّ الماءَ إذا كان بقَدَرٍ كان نافِعًا مُنبِتًا، وإذا جاوز المقدارَ كان ضارًّا مُهلِكًا، وكذلك الدُّنيا: الكَفافُ منها ينفَعُ، وفُضولُها يضُرُّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

شُبِّهَت حالةُ الدُّنيا في نُضرتِها وبَهجتِها وما يَتعقَّبُها من الهلاكِ والفناءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٢).



وحالُ هذا العالَمِ بما فيه، بحالةِ الرَّوضةِ تَبْقَى زمانًا بَهِجةً خضِرةً، ثمَّ يصيرُ نبْتُها بعدَ حينٍ إلى اضمحلالٍ، ويَهيجُ فتُطيِّرُه الرِّياحُ كأنْ لم يَكُن. ووجْهُ الشَّبهِ: المصيرُ من حالٍ حسَنٍ إلى حالٍ سَيِّئٍ، وهذا تَشبيهُ معقولٍ بمحسوسٍ؛ لأنَّ الحالةَ المُشبَّهةَ معقولةٌ؛ إذ لم يَرَ النَّاسُ بوادرَ تقلُّصِ بهَجةِ الحياةِ. وأيضًا شُبِّهَت هيئةُ إقبالِ نَعيمِ الدُّنيا في الحياةِ مع الشَّبابِ والجِدَةِ، وزُخرفِ العيشِ لأهْلِه، ثمَّ تَقلُّصِ ذلك وزوالِ نفْعِه، ثمَّ انقراضِه أشتاتًا: بهيئةِ إقبالِ الغيثِ مُنبتِ الزَّرعِ، ونشأْتِه عنه ونَضارتِه ووفْرَتِه، ثمَّ أخْذِه في الانتقاصِ وانعدامِ التَّمتُّعِ به، ثمَّ تَطايُرِه أشتاتًا في الهواءِ؛ تَشبيهًا لمُركَّبٍ محسوسٍ بمُركَّبٍ مَحسوسٍ[(١)].

قيل: وهو تَشبيهٌ تَمثيليٌّ مقلوبٌ[(٢)]؛ أمَّا التَّشبيهُ التَّمثيليُّ فهو تَشبيهُ الحياةِ الدُّنيا وما فيها من زخارفَ تُعجِبُ المُتلهِّيَ برُؤيتِها والمُستمتِعَ بزينتِها، حتَّى إذا أفاقَ من عَمايتِه وجَدَ أنَّ ما كان يتلَّهى ويستمتِعُ به باطلٌ لا حقيقةٌ، شبَّهَ ذلك بالنَّباتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣١ - ٣٣٢).

(٢) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشبَّه من أحكام المُشبَّه به. وقد اتَّفق الأدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البلاغة، وأنه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلام العرب، بل هو أكثرُ كلامهم. وينقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتبارات عِدَّة: فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجهُ الشبه فيه مُنتزَعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّب من أحوال الحِمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. وقد يكونُ التشبيه (تشبيهًا مقلوبًا) بجَعْلِ المُشبَّهِ به مُشبَّهًا، والمُشبَّهِ مُشبَّهًا به؛ لغَرَضِ المبالغةِ. ومنه: التشبيه البليغ: وهو ما كانت أداة التشبيه فيه محذوفة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

الَّذي اختلَطَ به الماءُ الهاطِلُ من السَّماءَ فربَا والْتفَّ، وزهَا ورَفَّ، وأنبَتَ من كلِّ زوجٍ بَهيجٍ، ولم تكَدِ العينُ تَستمتِعُ به، والنَّفسُ تنشرِحُ بمَنظرِه، حتَّى يبِسَ وتصوَّحَ، ثمَّ جَفَّ وذبَلَ، ثمَّ أصبَحَ هشيمًا تَذروهُ الرِّياحُ، فكأنَّه ما كان. وأمَّا التَّشبيهُ المقلوبُ فقد كان من حَقِّ الكلامِ أنْ يقولَ: فاختَلَطَ بنَباتِ الأرضِ -على أحدِ القولين في التفسيرِ-، ووجْهُه: أنَّه لمَّا كان كلٌّ من المُختلطينِ موصوفًا بصِفَةِ صاحبِه عُكِسَ؛ للمُبالَغةِ في كثرتِه(١).

- قوله: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ وصْفُها بـ(الدُّنيا) بمعنى القريبةِ، أي: الحاضرةِ غيرِ المُنتظَرةِ، كنَّى عن الحُضورِ بالقُربِ، والوصْفُ للاحترازِ عن الحياةِ الآخرةِ، وهي الحياةُ بعدَ الموتِ(٢).

- قولُه: ﴿ كَمَآءٍ ﴾ استئنافٌ لبَيانِ المثَلِ، أي: هي كماءٍ(٣).

- قولُه: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الباءُ في قولِه: (به) قيل إنَّها: باءُ السَّببيَّةِ، أي: فالْتفَّ بسَببِه، وتكاثَف حتى خالَطَ بعضُه بعضًا من كثْرَتِه. وقيل: نَجَع في النباتِ الماءُ فاختَلَط به حتَّى روَى وبَرَق وتَلألأَ، وكان حقُّ اللَّفظِ على هذا التفسيرِ: فاختلط بنباتِ الأرضِ. وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ عليه؛ للمُبالَغةِ بالكثرةِ؛ فإنَّ كُلَّ مُختلطينِ موصوفٌ كلُّ واحدٍ منهما بصِفةِ صاحبِه(٤).

- وجُملةُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ في آخرِ الكلامِ.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦١٨- ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

موقِعُها: التَّذكيرُ بقُدرةِ اللهِ تعالى على خلْقِ الأشياءِ وأضدادِها، وجعْلُ أوائِلِها مُفضيةً إلى أواخرِها، وتَرتيبُه أسبابَ الفَناءِ على أسبابِ البقاءِ، وذلك اقتدارٌ عجيبٌ. وقد أُفيدَ ذلك على أكمَلِ وجْهٍ بالعُمومِ الَّذي في قولِه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، وهو بذلك العُمومِ أشبَهَ التَّذييلَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ اعتراضٌ أُريدَ به الموعظةُ والعِبرةُ للمُؤمِنينَ، بأنَّ ما فيه المُشرِكون من النِّعمةِ من مالٍ وبنينَ ما هو إلَّا زينةُ الحياةِ الدُّنيا الَّتي علِمْتُم أنَّها إلى زوالٍ، كقولِه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وأنَّ ما أعَدَّ اللهُ للمُؤمِنين خيرٌ عندَ اللهِ وخيرٌ أملًا. والاغتباطُ بالمالِ والبنينَ عادةٌ معروفةٌ في العربِ[2]؛ فقولُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بيانٌ لشأنِ ما كانوا يَفتخِرون به من مُحسِّناتِ الحياةِ الدُّنيا، كما قال الرجلُ الكافرُ: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾، إثْرَ بَيانِ شأْنِ نفْسِها بما مَرَّ من المثَلِ[3].

- وتَقديمُ المالِ هنا على البنينَ مع كونِهم أعَزَّ منه، كما في الآيةِ المحكيةِ آنفًا، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦]، وغيرِ ذلك من الآياتِ الكريمةِ؛ لأنَّه أسبَقُ خُطورًا لأذهانِ النَّاسِ؛ لأنَّه يرغَبُ فيه الصَّغيرُ والكبيرُ، والشَّابُّ والشَّيخُ، ومَن له من الأولادِ ما قد كفاهُ[4]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٣).

ولعَراقتِه فيما نِيطَ به مِن الزِّينةِ والإمدادِ وغيرِ ذلك، وعُمومِه بالنِّسبةِ إلى الأفرادِ والأوقاتِ؛ فإنَّه زينةٌ، وممدٌّ لكلِّ أحدٍ مِن الآباءِ والبنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وأمَّا البنونَ فزينتُهم وإمدادُهم إنَّما يكونُ بالنِّسبةِ إلى مَن بلَغَ مبلغَ الأُبوَّةِ، ولأنَّ المالَ مناطٌ لبقاءِ النَّفسِ، والبنينَ لبقاءِ النَّوعِ، ولأنَّ الحاجةَ إليه أمسُّ مِن الحاجةِ إليهم، ولأنَّه أقدَمُ منهم في الوُجودِ، ولأنَّه زِينةٌ بدونِهم مِن غيرِ عكسٍ؛ فإنَّ مَن له بنونَ بلا مالٍ، فهو في ضِيقِ حالٍ ونَكالٍ[1]، فالولدُ بعدَ وجودِ المالِ نِعمةٌ ومسرَّةٌ، وعندَ الفقرِ وسُوءِ الحالِ هَمٌّ ومَضرَّة، فهذا مِن بابِ تقديمِ السَّببِ على المسبَّبِ؛ لأنَّ المالَ سببُ تمامِ النِّعمةِ بالولدِ، وأمَّا قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ فتقديمُ النِّساءِ على البَنينَ بالسببِ، وتَقَدُّمُ الأموالِ على البنينِ بالرُّتبةِ[2].

- وأُفْرِدت الزِّينةُ في قولِه: ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مع أنَّها مُسْنَدةٌ إلى الاثنينِ؛ لأنَّها مصدرٌ في الأصْلِ أُطلِقَ على المفعولِ مُبالغةً، كأنَّهما نفْسُ الزِّينةِ[3]، وهذا يُسمَّى بفنِّ الجمْعِ؛ وهو أنْ يجمَعَ المُتكلِّمُ بين شيئينِ أو أكثرَ في حُكْمٍ واحدٍ، وهو واضحٌ في الآيةِ[4].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ إذ كان مُقْتضَى الظَّاهرِ في تَرتيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٢٠).

الوصفينِ: أنْ يُقدَّمَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾؛ لأنَّهما وإنْ كانا وَصفَينِ لموصوفٍ محذوفٍ، إلَّا أنَّ أعرَفَهما في وَصفيَّةِ ذلك المحذوفِ هو الصَّالحاتُ؛ لأنَّه قد شاعَ أنْ يُقالَ: الأعمالُ الصَّالحاتُ، ولا يُقال: الأعمالُ الباقياتُ، ولأنَّ بقاءَها مُترتِّبٌ على صلاحِها، فلا جرَمَ أنَّ (الصَّالحاتِ) وصفٌ قام مَقامَ الموصوفِ، وأغنى عنه كثيرًا في الكلامِ، حتَّى صار لفظُ (الصَّالحات) بمنزلةِ الاسمِ الدَّالِّ على عمَلِ خيرٍ، وخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ هنا؛ فقُدِّمَ (الباقياتُ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِرَ قبْلَه إنَّما كان مفضولًا؛ لأنَّه ليس بباقٍ، وهو المالُ والبنونَ، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فكان هذا التَّقديمُ قاضيًا لحقِّ الإيجازِ؛ لإغنائِه عن كلامٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: (أنَّ ذلك زائلٌ)، أو: (ما هو بباقٍ)، والباقياتُ مِن الصَّالحاتِ خيرٌ منه، فكان قولُه: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] مُفيدًا للزَّوالِ بطريقةِ التَّمثيلِ، وهو من دَلالةِ التَّضمُّنِ، وكان قولُه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ مُفيدًا زوالَ غيرِها بطريقةِ الالتزام(١)، فحصَلَ دَلالتانِ غيرُ مُطابقتَينِ، وهما أوقَعُ في صِناعةِ البلاغةِ، وحصَلَ بثانيتِهما تأكيدٌ لمُفادِ الأُولى؛ فجاء كلامًا مُؤكَّدًا مُوجَزًا(٢).

---

(١) الدَّلالة اللفظية الوضعية تنقسم ثلاثة أقسام: دلالة المطابقة، ودلالة التضمُّن، ودلالة الالتزام؛ فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على تمام مسماه، كدلالة الإنسان والأسد على حقيقتيهما. ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على بعض مسماه، كدلالة البيت على السقف أو الحائط. ودلالة التزام: دلالةُ اللفظ على معنىً آخر خارجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩- ٣٣٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٢٠٩-٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠- ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٣).

- وإخراجُ بَقاءِ تلك الأعمالِ وصلاحِها مَخرجَ الصِّفاتِ المفروغِ عنها، مع أنَّ حقَّهما أنْ يكونَا مَقصودَيِ الإفادةِ، لا سيَّما في مُقابَلةِ إثباتِ الفَناءِ لِما يُقابِلُها من المالِ والبنينَ على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]؛ للإيذانِ بأنَّ بقاءَها أمرٌ مُحقَّقٌ لا حاجةَ إلى بَيانِه، بل لفظُ (الباقيات) اسمٌ له وصفٌ، ولذلك لم يُذْكَرِ الموصوفُ، وإنَّما الَّذي يحتاجُ إلى التَّعرُّضِ له خيريَّتُها[١].

- قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: في الآخرةِ، وهو بَيانٌ لِما يَظهَرُ فيه آثارُ خَيريَّتِها، بمنزلةِ إضافةِ الزِّينةِ إلى الحياةِ الدُّنيا، لا لأفضليَّتِها فيها من المالِ والبنينَ، مع مُشاركةِ الكلِّ في الأصلِ؛ إذ لا مُشاركةَ لهما في الخيريَّةِ في الآخرةِ[٢].

- قولُه: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ تكريرُ ﴿خَيْرٌ﴾؛ للإشعارِ باختلافِ حيثيَّةِ الخيريَّةِ والمُبالَغةِ فيها[٣].

- ومعنى ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أنَّ أمَلَ الآمِلِ في المالِ والبنينَ إنَّما يأمُلُ حُصولَ أمْرٍ مَشكوكٍ في حُصولِه، ومَقصورٍ على مُدَّتِه. وأمَّا الآمِلُ لثوابِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فهو يأمُلُ حُصولَ أمْرٍ موعودٍ به من صادقِ الوعدِ، ويأمُلُ شيئًا تحصُلُ منه منفعةُ الدُّنيا ومَنفعةُ الآخرةِ؛ فكان قولُه: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ بالتَّحقُّقِ والعُمومِ تَذييلًا لِما قبْلَه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٤).

الآيات (٤٧-٤٩)

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَارِزَةً﴾: أي: بادِيةً ظاهِرةً ليس عليها جَبَلٌ ولا شجَرٌ ولا بِناءٌ، وأصلُ (برز): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُدُوِّه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا بعضَ مشاهِدِ يومِ القيامةِ وأهوالِها: واذكُرْ يومَ نُزيلُ الجِبالَ عن أماكِنِها، وترى الأرضَ ظاهِرةً ليس عليها شيءٌ يَستُرُها، وجمَعْنا العِبادَ كُلَّهم لِمَوقِفِ الحسابِ، فلم نَترُكْ منهم أحدًا، وعُرِضوا جميعًا على ربِّك مُصطَفِّينَ لا يُحجَبُ منهم أحَدٌ، فيُقالُ لهم: لقد جِئتُم إلينا كما خلَقْناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فُرادى، حُفاةً، عُراةً، غيرَ مختونينَ، لا مالَ معكم ولا ولَدَ، ثمَّ يقالُ لمُنكِري البعثِ: بل ظَنَنْتُم أنْ لن نجعَلَ لكم مَوعِدًا نبعَثُكم فيه؛ لِمُجازاتِكم على أعمالِكم.

ووُضِعَ كِتابُ أعمالِ العِبادِ، فتُبصِرُ المجرمينَ خائِفينَ مِمَّا فيه؛ بسبَبِ ما عَمِلوه من السيِّئاتِ، ويقولونَ حين يطَّلِعون عليه: يا ويلَنا! ما لهذا الكِتابِ لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥).

يَترُكْ صغيرةً مِن أفعالِنا ولا كبيرةً إلَّا عدَّها وأثبَتَها؟! ووجَدوا كُلَّ ما عَمِلوه في الدُّنيا حاضِرًا مُثبَتًا، ولا يَظلِمُ رَبُّك أحدًا مِثقالَ ذَرَّةٍ؛ فلا يَنقُصُ أحدًا من حَسَناتِه، أو يزيدُ في سَيِّئاتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّنَ لهم تعَرُّضَ ما هم فيه من نعيمٍ إلى الزَّوالِ على وجهِ الموعظةِ؛ أعقَبَه بالتَّذكيرِ بما بعد ذلك الزَّوالِ، بتَصويرِ حالِ البَعثِ وما يترقَّبُهم فيه من العِقابِ على كُفرِهم به؛ وذلك مقابلةً لضِدِّه المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾(١) [الكهف: ٤٦].

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾.

أي: واذكُرْ(٢) يومَ نُزيلُ الجِبالَ عن أماكِنِها ونَنسِفُها، فتضمَحِلُّ وتتلاشَى(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٤).

(٢) قال ابن عطية: (التقديرُ: واذكُرْ يومَ، وهذا أفصَحُ ما يُتأوَّلُ في هذا هنا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٠).

وقال ابن عثيمين: (أي: اذكُرْ للنَّاسِ هذه الحالَ، وهذا المشهدَ العظيمَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥).

قال أبو السعود: (نَقلَعُها من أماكِنِها ونُسَيِّرُها في الجوِّ على هيئاتِها، كما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أو نُسَيِّرُ أجزاءَها بعد أن نجعَلَها هباءً مُنبَثًّا. والمرادُ بتذكيرِه: تحذيرُ المُشرِكينَ مِمَّا فيه من الدَّواهي). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

أي: وترَى الأرضَ يومَ القيامةِ باديةً ظاهِرةً لأعيُنِ النَّاظِرينَ، ليس عليها شيءٌ يَستُرُها مِن جبَلٍ أو شجَرٍ أو بُنيانٍ، وليس فيها مَعلَمٌ لأحدٍ، ولا مكانٌ يُواري أحدًا[(١)].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

أي: وجمَعْنا العِبادَ أوَّلَهم وآخِرَهم على تلك الأرضِ؛ للحِسابِ والجزاءِ،

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهِرةً؛ لأنَّها تكون قاعًا وصفصَفًا، وهي الآن ليست بارزةً لأنَّها مُكوَّرةٌ، وأكثَرُها غيرُ بارزٍ، ثم إنَّ البارزَ لنا أيضًا كثيرٌ منه مختفٍ بالجبالِ، فيومَ القيامةِ لا جبالَ ولا أرضَ كُرويَّة، بل تُمَدُّ الأرضُ مَدَّ الأديمِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٣]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).

قال أبو السعود: (الخطابُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكل أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه الرُّؤيا). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦).

فلم نَترُكْ منهم أحَدًا بلا بَعثٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حَشرَ الخَلقِ، ذكَرَ كيفيَّةَ عَرضِهم[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

أي: وعُرِضَ العِبادُ على ربِّك -يا مُحمَّدُ- مُصطَفِّينَ ظاهِرينَ، لا يخفَى منهم أحَدٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨١-٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

قال ابن كثير: (يحتَمِل أن يكونَ المرادُ: أنَّ جميعَ الخلائِقِ يقومونَ بين يدي اللهِ صَفًّا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، ويحتَمِلُ أنَّهم يقومونَ صُفوفًا صفوفًا، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥).

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: فيُقالُ لهم: لقد جِئتُمونا -أيُّها النَّاسُ- بعد مَوتِكم أحياءً، كهَيئتِكم حينَ خَلَقْناكم أوَّلَ مَرَّةٍ: فُرادَى، حُفاةً، عُراةً، غيرَ مختونينَ، لا شيءَ معكم ممَّا كنتُم تتباهَوْن به في الدُّنيا من الأهلِ والأموالِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: ((قام فينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخطُبُ، فقال: إنَّكم مَحشُورونَ حُفاةً عُراةً غُرلًا(٢): ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]))(٣).

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

أي: يُقالُ لِمُنكري البَعثِ(٤): بل اعتَقَدتُم خَطأً في الدُّنيا أنَّ اللهَ لن يبعَثَكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٥).

(٢) غُرلًا: جمعُ أغْرَل، وهو الذي لم يُختَنْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٦٠).

(٤) قال الواحدي: (قَولُه تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ خِطابٌ لِمُنكري البعثِ خاصَّةً، ومعناه: بل زعمتُم في الدنيا أن لن تُبعَثوا؛ لأنَّ الله وعَدَهم البَعثَ فلم يصَدِّقوا، والمعنى: ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ للبعثِ والجزاءِ، و﴿بَلْ﴾ هاهنا إيذانٌ بأنَّ القِصَّةَ الأولَى قد تمَّت، وبدأ في كلامٍ آخَرَ؛ وذلك أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في المؤمنِ والكافرِ إلى قَولِه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾، فلمَّا أخَذ في كلامٍ خاصٍّ لأحَدِ الفريقينِ أدخَلَ ﴿بَلْ﴾ ليؤذِنَ بتحقيقِ ما سبق، وتوكيدِ ما يأتي بعدَه). ((البسيط)) (١٤/ ٤١). ويُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

أي: ووُضِعَت كُتُبُ أعمالِ العبادِ -التي كتَبَتْها الملائِكةُ- في أيديهم؛ فمنهم آخِذٌ كتابَه بيَمينِه، ومنهم آخِذٌ كِتابَه بشِمالِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا

(ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٣).

وقيل في قولِه: ﴿مَّوۡعِدٗا﴾: إنَّ الموعِدَ يشمَلُ زمانَ الوعدِ ومكانَه، والمعنى: أنَّهم زعَموا أنَّ الله لم يجعَلْ وَقتًا ولا مكانًا لإنجازِ ما وعدَهم على ألسنةِ رُسُلِه من البَعثِ والجزاءِ والحسابِ. وممن قال بذلك: البقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ به هنا: الزمنُ الموعودُ به؛ الحياةُ بعدَ الموتِ. وممن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٤).

يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

أي: فترى المُجرمِينَ[١] خائفينَ مِمَّا في كُتُبِ أعمالِهم من السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، خوفًا عظيمًا مِن عقابِ اللهِ والفَضيحةِ بين خَلقِ الله[٢].

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

أي: ويقولُ المُجرِمونَ إذا اطَّلَعوا على كُتُبِ أعمالِهم، فرَأَوا ما فيها من السَّيِّئاتِ: يا حَسرَتَنا وهلاكَنا! ما شأنُ هذا الكتابِ لا يَترُكُ صَغيرةً مِن ذُنوبِنا ولا كبيرةً منها إلَّا حَفِظَها وعَدَّها[٣]؟!

---

(١) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال مجاهدٌ: هم الكافِرونَ. وذكَرَ بعضُ أهل العلم أنَّ كُلَّ مجرمٍ ذُكِرَ في القرآن، فالمرادُ به: الكافرُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨٩).
وممن فسَّر ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالمُشرِكينَ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).
قال الشِّنقيطي: (قولُ مَن قال: الصَّغيرةُ: القُبلةُ، والكبيرةُ: الزِّنا، ونحوُ ذلك من الأقوالِ في الآيةِ؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامٗا كَٰتِبِينَ * يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ * مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧- ١٨].

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾.

أي: ووجَدوا كُلَّ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ مَكتوبًا مُثبَتًا في صُحُفِ أعمالِهم، فجُوزُوا به(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾.

أي: ولا يَظلِمُ رَبُّك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن عبادِه، سواء مِن هؤلاء المُجرِمينَ أم مِن غَيرِهم؛ فلا يَنقُصُ أحدًا من حَسَناتِه، أو يزيدُ في سَيِّئاتِه، أو يُعاقِبُه بذنبٍ لم يفعَلْه، ونحو ذلك من الأفعالِ التي يُنزَّهُ عنها الرَّبُّ سُبحانه؛ لكَمالِ عَدلِه وغِناه

إنَّما هو على سبيلِ التَّمثيلِ لا على سبيلِ الحَصرِ. ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٣).

ورَحمتِه، وإنَّما يُجازي كلًّا بما يستَحِقُّه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

وعن عبد اللهِ بنِ أُنَيسٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ -أو قال: العِبادُ- عُراةً غُرْلًا بُهْمًا. قال: قُلْنا: وما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شَيءٌ، ثُمَّ يناديهم بصَوتٍ يَسمَعُه مَن بَعُدَ كما يَسمَعُه مَن قَرُب: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ، ولا ينبغي لأحدٍ مِن أهلِ النَّارِ أن يَدخُلَ النَّارَ وله عندَ أحدٍ مِن أهلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حتى أُقُصَّه منه، ولا ينبغي لأحدٍ مِن أهلِ الجنَّةِ أن يَدخُلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِن أهلِ النَّارِ عندَه حَقٌّ حتى أُقُصَّه منه، حتى اللَّطمةُ. قال: قُلْنا: كيف وإنَّا إنَّما نأتي اللهَ عَزَّ وجَلَّ عُراةً غُرلًا بُهمًا؟ قال: بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ))[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٢، ١٤٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البُخاريُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ التَّمريضِ قبل حديث (٧٤٨١) مختصرًا، وأخرجه موصولًا أحمد (١٦٠٤٢) واللَّفظ له.

حَسَّنَ إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٣٠٣)، وقال الذهبي في ((العرش)) (٨٠): (محفوظٌ وله طُرق يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا)، وحسَّنه ابن القيم في ((مختصر الصواعق

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾، فلا مالَ، ولا أهلَ، ولا عَشيرةَ، ما معهم إلَّا الأعمالُ التي عَمِلوها، والمكاسِبُ في الخيرِ والشَّرِّ التي كَسِبوها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾[1] [الأنعام: ٩٤].

٢- عن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ قال: (يَشتكي القَومُ -كما تَسمَعونَ- الإحصاءَ، ولم يَشتَكِ أحَدٌ ظُلمًا، فإيَّاكم والمُحَقَّراتِ مِن الذُّنوبِ؛ فإنَّها تجتَمِعُ على صاحِبِها حتى تُهلِكَه)[2].

٣- عن عَونِ بنِ عبدِ اللهِ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾، قال: (ضجَّ -واللهِ- القَومُ مِن الصِّغارِ قبلَ الكِبارِ)[3]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [الأنعام:

المرسلة)) (٤٨٩)، وحسَّنَ إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٢٨٣)، ووثَّق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٣٤٨)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٢/ ٨٤).

٣٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، كُلُّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الله ليس في خَلقِه، ولا خَلْقُه فيه، سُبحانه وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ عُلُوًّا كبيرًا(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ ليس المرادُ حصولَ المساواةِ مِن كلِّ الوجوهِ؛ لأنَّهم خُلِقوا صِغارًا ولا عقلَ لهم ولا تكليفَ عليهم، بل المرادُ أنَّه قال للمُشرِكين المُنكِرين للبَعثِ، المفتَخِرين في الدُّنيا على فُقراءِ المؤمنينَ بالأموالِ والأنصارِ: قد جئتُمونا كما خلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ عراةً حُفاةً بغيرِ أموالٍ ولا أعوانٍ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ يَدُلُّ على إثباتِ صَغائِرَ وكبائِرَ في الذُّنوبِ، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بينَ المُسلِمينَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ فيه سؤالٌ: لماذا قال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ مع أنَّ الصَّغائِرَ تكَفَّرُ باجتنابِ الكبائِرِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟

الجوابُ: أنَّ الآيةَ الأولَى في حَقِّ الكافرينَ؛ بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، والثانيةُ في حقِّ المؤمنينَ؛ لأنَّ اجتنابَ الكبائِرِ لا يتحقَّقُ مع الكُفرِ.

---

(١) يُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١١٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٧١).

أو يقال: إنَّ الأُولى في حقِّ المؤمنينَ أيضًا، لكِنْ يجوز أن تُكتَبَ الصَّغائِرُ لِيُشاهِدَها العبدُ يومَ القيامةِ، ثمَّ يُكَفَّر عنه، فيَعلَم قَدْرَ نِعمةِ العَفوِ عليه[١].

٥- القرآنُ مملوءٌ مِن الأخبارِ بأنَّ دُخولَ النَّارِ إنَّما يكونُ بالأعمالِ، كما في قولِه: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] إلى غيرِ ذلك من النُّصوصِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يُستفادُ مِن ذلك أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تَعُمُّ[٣].

٧- إنَّ نفيَ الظُّلمِ عنه سُبحانه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يتضَمَّنُ كمالَ عَدلِه[٤]، فهو سبحانَه حكَمٌ عدلٌ لا يضعُ الأشياءَ إلا مواضعَها، ووضعُها غيرَ مواضعِها ليس ممتنعًا لذاتِه؛ بل هو ممكنٌ لكنَّه لا يفعلُه؛ لأنَّه لا يريدُه؛ بل يكرهُه ويبغضُه؛ إذ قد حرَّمه على نفسِه، فاستحقَّ الحمدَ والثناءَ؛ لأنَّه ترَك هذا الظلمَ وهو قادرٌ عليه، وكما أنَّ الله منزهٌ عن صفاتِ النقصِ والعيبِ، فهو أيضًا منزهٌ عن أفعالِ النقصِ والعيبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٥، ١٤٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ فلفظُ (يوم) منصوبٌ بفعْلٍ مُضمَرٍ، تَقديرُه: اذكُرْ. ويجوزُ أنْ يكونَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ غيرِ فعْلِ (اذكُرْ) يدُلُّ عليه مقامُ الوعيدِ، مثلُ: يَرَون أمرًا مُفظعًا أو عظيمًا، أو نحوُ ذلك ممَّا تذهَبُ إلى تَقديرِه نفْسُ السَّامعِ. ويُقدَّرُ المحذوفُ مُتأخِّرًا عن الظَّرفِ وما اتَّصَلَ به؛ لقَصدِ تَهويلِ اليومِ وما فيه[(١)].

- قولُه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الماضي بعدَ ﴿نُسَيِّرُ﴾ ﴿وَتَرَى﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الحشرِ المُتفرِّعِ على البعثِ الَّذي يُنكِرُه المُنكِرون[(٢)]. وقيل: هو للدَّلالةِ على أنَّ حشْرَهم قبْلَ التَّسييرِ والبُروزِ؛ ليُعاينوا تلك الأهوالَ، كأنَّه قيلَ: وحشَرْناهم قبْلَ ذلك[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾

- جُملةُ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾، فهي في موضعِ الحالِ من الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾، أي: حشَرْناهم وقد عُرِضوا؛ تَنبيهًا على سُرعةِ عَرْضِهم في حينِ حشْرِهم[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

- قولُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ في الالْتِفات إلى الغَيبةِ في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ دُونَ أَنْ يُقَالَ: (علينا)، وبناءِ الفعلِ ﴿وَعُرِضُواْ﴾ للمفعولِ، مع التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، والإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: من تَربيةِ المَهابةِ، والجَري على سَنَنِ الكبرياءِ، وإظهارِ اللُّطْفِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لا يَخْفى[١]. وفيه كذلك تَنويهٌ بشأْنِ المُضافِ إليه، بأنَّ في هذا العرضِ وما فيه من التَّهديدِ نَصيبًا من الانتصارِ للمُخاطَبِ؛ إذ كذَّبوه حين أخبَرَهم وأنذَرَهم بالبعثِ[٢].

- قولُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، أي: مُصْطفِّينَ. وقيل: المعنى صَفًّا صفًّا، فحُذِفَ (صَفًّا) وهو مُرادٌ، وهذا التَّكرارُ مُنبِئٌ عنِ استيفاءِ الصُّفوفِ إلى آخرِها[٣]، وانتصَبَ ﴿صَفًّا﴾ على الحالِ من واوِ ﴿وَعُرِضُواْ﴾، وتلك الحالةُ إيذانٌ بأنَّهم أُحْضِروا بحالةِ الجُناةِ الَّذين لا يَخْفى منهم أحدٌ؛ إيقاعًا للرُّعبِ في قُلوبِهم[٤].

- وجُملةُ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ مقولٌ لقولٍ مَحذوفٍ، دَلَّ عليه أنَّ الجُملةَ خِطابٌ للمَعروضينَ؛ فتعيَّنَ تَقديرُ القولِ، وهذه الجُملةُ في مَحلِّ الحالِ، والتَّقديرُ: قائلينَ لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾[٥]. والخبرُ في قولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ مُستعملٌ في التَّهديدِ والتَّغليظِ والتَّنديمِ على إنكارِهم البعثَ[٦] مع التقريعِ،

---

(١) يُنظر: يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٦).

والتوبيخِ لهم على رؤوسِ الأشهادِ[١].

- قولُه: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واقعٌ موقعَ المفعولِ المُطلَقِ المُفيدِ للمُشابهةِ، أي: جئتُمونا مَجيئًا كخلْقِكم أوَّلَ مرَّةٍ؛ فالخلْقُ الثَّاني أشبَهَ الخلْقَ الأوَّلَ، أي: فهذا خلْقٌ ثانٍ. و(ما) مصدريَّةٌ، أي: كخلْقِنا إيَّاكم المرَّةَ الأُولى، والمقصودُ التَّعريضُ بخطَئِهم في إنكارِهم البعثَ[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ للإضرابِ بمعنى الانتقالِ من خبرٍ إلى خبرٍ، وليس بمعنى الإبطالِ[٣]، وهو انتقالٌ من التَّهديدِ، وما معه من التَّعريضِ بالتَّغليطِ، إلى التَّصريحِ بالتَّغليطِ في قالبِ الإنكارِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ اللَّامُ للجنسِ، وهو صحُفُ الأعمالِ، أي: وُضِعَت كُتبُ أعمالِ البشرِ؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ كِتابًا، كما دلَّتْ عليه آياتٌ أُخرى؛ منها قولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾[٥] [الإسراء: ١٣، ١٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

- قولُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ جاء الفعْلُ بصِيغَةِ الماضي؛ لتَحقُّقِ وُقوعِه[(١)].

- وإفرادُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِمَّا فِيهِ﴾؛ لمُراعاةِ إفرادِ لفْظِ (الكِتاب)[(٢)].

- قولُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: قاطبةً، فيدخُلُ فيهم الكَفرةُ المُنكِرون للبعثِ دُخولًا أوَّليًّا[(٣)].

- في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عُبِّرَ بالمضارعِ (يَقُولُونَ)؛ لاستِحضارِ الحالةِ الفظيعةِ، أو لإفادةِ تَكرُّرِ قولِهم ذلك وإعادتِه، شأْنَ الفَزِعينَ الخائفينَ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ كِنايةٌ عن أنَّه لا نَديمَ لهم إذ ذاكَ إلَّا الهلاكُ[(٥)].

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ[(٦)]؛ فـ (ما) اسمُ استفهامٍ، ومعناها: أيُّ شَيءٍ، و(لِهَذَا الْكِتَابِ) صِفَةٌ لـ (ما) الاستفهاميَّةِ؛ لِما فيها من التَّنكيرِ، أي: ما ثبَتَ لهذا الكتابِ. واللَّامُ للاختصاصِ مثْلُ قولِه: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١]. وجُملةُ ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ في موضعِ الحالِ، هي مَثارُ التَّعجُّبِ، وقد جَرى الاستعمالُ بمُلازمةِ الحالِ لنحوِ: (ما لكَ)، فيقولون: ما لك لا تفعَلُ؟ وما لك فاعلًا[(٧)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٧-٣٣٨).

- قولُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، أي: حواها وضبَطَها، جُملةٌ حاليَّةٌ مُحقِّقةٌ لِما في الجُملةِ الاستفهاميَّةِ من التَّعجُّبِ. أو استئنافيَّةٌ مَبنيَّةٌ على سُؤالٍ نشَأَ من التَّعجُّبِ؛ كأنَّه قيل: ما شأْنُه حتَّى يُتَعَجَّبَ منه؟ فقيل: لا يُغادِرُ سيِّئةً صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها[1].

- قولُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ قُدِّم الصغيرةُ اهتمامًا بها؛ ليُنبِّهَ منها، ويدلَّ أنَّ الصغيرةَ إذا أُحصيتْ، فالكبيرةُ أحْرَى بذلك، والعربُ أبدًا تُقدِّمُ في الذِّكرِ الأقلَّ مِن كُلِّ مُقترنَينِ، نحو قولِهم: القَمران، والعُمران، سَمَّوْا باسمِ الأقلِّ؛ تَنبيهًا منهم؛ فقُدِّمَ ذِكْرُ الصَّغيرةِ؛ لأنَّها أهَمُّ من حيثُ يتعلَّقُ التَّعجُّبُ من إحصائِها، وعُطِفَت عليها الكبيرةُ؛ لإرادةِ التَّعميمِ في الإحصاءِ؛ لأنَّ التَّعميمَ أيضًا ممَّا يُثيرُ التَّعجُّبَ، فقد عَجِبوا من إحاطةِ كاتبِ الكتابِ بجميعِ الأعمالِ[2]. وقيل: تَقديمُ الصغائرِ على الكبائرِ؛ لأنَّهم لَمَّا هالَهم إثباتُ جميعِ الصغائرِ، بَدؤوا بها، وصرَّحوا بالكبائرِ -وإنْ كان إثباتُ الصغائرِ يُفهِمُها- تأكيدًا؛ لأنَّ المقامَ للتهويلِ وتَعظيمِ التفجُّعِ، وإشارةً إلى أنَّ الذي جرَّهم إلى الكبائرِ هو الصغائرُ[3].

- قوله: ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ الاستثناءُ من عُمومِ أحوالِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، أي: لا يُبْقي صَغيرةً ولا كبيرةً في جميعِ أحوالِهما إلَّا في حالِ إحصائِه إيَّاها، أي: لا يُغادِرُه غيرَ مُحصًى، فالاستثناءُ هنا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّه إذا أحصاهُ فهو لم يُغادِرْه، فآلَ إلى معنى: أنَّه لا يُغادِرُ شيئًا، وانتفَتْ حقيقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٣).

الاستثناءِ[١].

- قولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ فيه استعمالُ العامِّ في النَّفيِ، والخاصِّ في الإثباتِ؛ فإنَّ وُجودَ المُؤاخذةِ على الصَّغيرةِ يَلزَمُ منه وُجودُ المُؤاخذةِ على الكبيرةِ؛ فيَنْبغي أنْ يكونَ لا يُغادِرُ كبيرةً ولا صغيرةً؛ لأنَّه إذا لم يُغادِرْ صَغيرةً، فمِن الأَولى ألَّا يُغادِرَ كبيرةً، وأمَّا إذا لم يُغادِرْ كبيرةً، فإنَّه يجوزُ أنْ يُغادِرَ صغيرةً؛ لأنَّه إذا لم يَعْفُ عن الصَّغيرةِ، فيَنْبغي القياسُ أنَّه لا يَعْفو عن الكبيرةِ، وإذا لم يَعْفُ عن الكبيرةِ، فيجوزُ أنْ يعفُوَ عن الصَّغيرةِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾؛ لِما أفهمَتْه الصِّلةُ من أنَّهم لم يَجِدوا غيرَ ما عَمِلوا، أي: لم يُحْمَلْ عليهم شَيءٌ لم يَعْمَلوه؛ لأنَّ اللهَ لا يظلِمُ أحدًا، فيُؤاخِذُه بما لم يَقترِفْه، وقد حدَّدَ لهم من قبْلِ ذلك ما ليس لهم أنْ يَفْعلوه وما أُمِرُوا بفعْلِه، وتوعَّدَهم ووعَدَهم، فلم يكُنْ في مُؤاخذتِهم بما عَمِلوه من المَنهيَّاتِ بعدَ ذلك ظُلمٌ لهم. والمقصودُ: إفادةُ هذا الشَّأنِ من شُؤونِ اللهِ تعالى، فلذلك عُطِفَتِ الجُملةُ؛ لتَكونَ مقصودةً أصالةً، وهي مع ذلك مُفيدةٌ معنى التَّذييلِ؛ لِما فيها من الاستِدلالِ على مضمونِ الجُملةِ قبْلَها، ومن العُمومِ الشَّاملِ لمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها وغيرِه؛ فكانت من هذا الوجْهِ صالحةً للفصْلِ بدُونِ عطْفٍ؛ لتكونَ تَذييلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٩).

الآيتان (٥٠-٥١)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَضُدًا﴾: أي: أعوانًا وأنصارًا، وأصلُ (عضد): يدُلُّ على عُضوٍ مِن الأعضاءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا عداوةَ إبليسَ لآدمَ، محذرًا مِن تولِّيه وذريتِه: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- حينَ أمَرْنا الملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ سُجودَ تشريفٍ وتكريمٍ، فسجَدَ الملائكةُ جَميعًا إلَّا إبليسَ كان من الجِنِّ فخرج عن طاعةِ رَبِّه، ولم يَسجُدْ معهم كِبرًا وحَسَدًا. أفتجعَلونَه -يا بني آدَمَ- وذُرِّيَّتَه أولياءَ لكم تُطيعونَهم وتَتركونَ طاعتي، وهم لكم أعداءٌ يُضِلُّونَكم؟! قَبُحَ اتخاذُ إبليسَ وليًّا مِن دونِ الرَّحمنِ بَدَلًا.

ثمَّ يذكرُ تعالى ما يدلُّ على كمالِ علمِه وقدرتِه، فيقولُ: ما أحضَرْتُ إبليسَ وذُرِّيَّتَه خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ فأستعينَ بهم على خَلْقِهما، ولا أشهَدْتُ بعضَهم خَلْقَ بَعضٍ، بل تفَرَّدْتُ بخلقِ جميعِ ذلك بغيرِ مُعينٍ ولا ظهيرٍ، وما كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ مِن الشَّياطينِ وغَيرِهم أعوانًا لي.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ الآياتِ المتقَدِّمةِ الرَّدُّ على القَومِ الذين افتَخَروا بأموالِهم وأعوانِهم على فُقَراءِ المُسلِمينَ، وهذه الآيةُ المقصودُ مِن ذِكرِها عَينُ هذا المعنى؛ وذلك لأنَّ إبليسَ إنما تكبَّرَ على آدمَ لأنَّه افتخر بأصلِه ونَسَبِه، وهؤلاء المُشرِكونَ عامَلوا فُقَراءَ المُسلِمينَ بعَينِ هذه المُعاملة؛ فاللهُ تعالى ذكَرَ هذه القِصَّةَ هاهنا تنبيهًا على أنَّ هذه الطَّريقةَ هي بعينِها طريقةُ إبليسَ، ثمَّ إنَّه تعالى حَذَّرَ عنها وعن الاقتداءِ بها في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ﴾[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى يومَ القيامةِ والحَشر، وذكَرَ خَوفَ المُشرِكينَ مِمَّا سُطِرَ في ذلك الكِتابِ، وكان إبليسُ هو الذي حمَلَ المُجرِمينَ على مَعاصيهم، واتِّخاذِ شُرَكاءَ مع الله؛ ناسب ذِكرُ إبليسَ والنَّهيِ عن اتِّخاذِ ذُرِّيتِه أولياءَ مِن دُونِ الله؛ تبعيدًا عن المعاصي، وعن امتِثالِ ما يُوسوِسُ به[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكر الله تعالى البَعثَ، وختَمَه بإحسانِه بالعَدلِ المثمِرِ لإعطاءِ كُلِّ أحدٍ ما يستحقُّه؛ أتبَعَه -بما له مِن الفَضلِ- بابتداءِ الخَلقِ الذي هو دليلُه، في سياقٍ مذَكِّرٍ بوَلايتِه الموجِبةِ للإقبالِ عليه، وعداوةِ الشَّيطانِ الموجِبةِ للإدبارِ عنه؛ مُبَيِّنٍ لِما قابلوا به عَدْلَه فيهم وفي عدُوِّهم من الظُّلم بفِعلِهم، كما فعَلَ مِن التكَبُّر على آدَمَ عليه السلامُ بأصلِه، فتكَبَّروا على فُقَراءِ المؤمنينَ بأصلِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧١).

لكن قال أبو حيان بعدَ أن ذكَر هذه المناسبةَ: (وهذا الذي ذكروه في الارتباطِ هو ظاهرٌ بالنسبةِ للآياتِ السابقةِ قبلَ ضربِ المثلينِ، وأمَّا أنَّه واضحٌ بالنسبةِ لما بعدَ المثلينِ فلا). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٩).

وأموالِهم وعشائِرِهم، فكان فِعلُهم فِعْلَه سواءً، فكان قدوتَهم وهو عدوُّهم، ولم يقتَدوا بخيرِ خَلْقِه وهو وليُّهم وهو أعرَفُ النَّاسِ به[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ حالَ المغرورِ بالدُّنيا والمُعرِضِ عنها، وكان سبَبُ الاغترارِ بها حُبَّ الشَّهواتِ وتَسويلَ الشَّيطانِ؛ زهَّدَهم أوَّلًا في زخارفِ الدُّنيا بأنَّها عُرضةُ الزَّوالِ، والأعمالُ الصَّالحةُ خيرٌ وأبْقَى مِن أنْفَسِها وأعْلاها، ثمَّ نفَّرَهم عنِ الشَّيطانِ بتَذكيرِ ما بينهم مِن العداوةِ القديمةِ[2].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسجدَ الملائِكةُ كُلُّهم لآدمَ؛ امتثالًا لأمرِ اللهِ، سُجودَ تشريفٍ وتكريمٍ، إلَّا إبليسَ لم يَسجُدْ معهم؛ استكبارًا على اللهِ، وحَسَدًا لآدمَ[3]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه مذكِّرًا هؤلاء المُشرِكين حسَدَ إبليسَ أباهم، ومُعْلِمَهم ما كان منه مِن كِبْرِه واستكبارِه عليه حين أمَرَه بالسُّجودِ له، وأنَّه من العداوةِ والحسَدِ لهم على مِثلِ الذي كان عليه لأبيهم: ﴿وَ﴾ اذكُرْ -يا محمَّدُ- ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي يطيعُه هؤلاء المُشرِكون ويتَّبِعون أمْرَه ويخالِفونَ أمْرَ الله). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٨٥-٢٨٦).

لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾.

أي: كان إبليسُ مِن صِنفِ الجِنِّ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩١).
قيل: لم يكُنْ إبليسُ مِن الملائكةِ، وممن رجَّح ذلك: الزجاجُ، وابنُ حزمٍ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (١/ ١١٤)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩١).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، وشهرُ بنُ حَوْشَب، وسعدُ بنُ مسعود، وابنُ زيدٍ، والزهري، وسعيدُ بنُ جبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٥٤).
قال ابنُ حزم: (ادَّعى قَومٌ أنَّ إبليسَ كان ملَكًا فعصى، وحاشا لله مِن هذا؛ لأنَّ الله تعالى قد كذَّب هذا القولَ بقَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، وبقَولِه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] ولا ذريَّةَ للملائكةِ، وبقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وبإخباره أنَّه خلق إبليسَ مِن نارِ السَّمومِ، وصَحَّ عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم أنه قال: «خُلِقت الملائكةُ مِن نورٍ»، والنورُ غيرُ النارِ بلا شَكٍّ؛ فصحَّ أنَّ الجِنَّ غيرُ الملائكة، والملائِكةُ كُلُّهم خِيارٌ مُكْرَمون بنصِّ القرآنِ، والجِنُّ والإنسُ فيهما مذمومٌ ومحمودٌ). ((الفِصَل)) (٤/ ٢٨).
وقيل: بل كان إبليسُ مِن الملائكةِ، وممن رجَّح ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، واستظهره القرطبي، ونسبه البغوي والقرطبي إلى جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٢، ٥٤٣) و(١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦٧)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٩٤).
وممن قال من السلفِ: إنَّ إبليسَ كان مِن الملائكةِ: ابنُ مسعود في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ،

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ[1]، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))[2].

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

أي: فخرج عن طاعةِ رَبِّه، فلم يسجُدْ لآدَمَ كما أمَرَه اللهُ[3].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾.

أي: أبعْدَ ما ظهَرَ من إبليسَ مِن الفِسقِ والاستكبارِ، فرفَضَ السُّجودَ لأبيكم

وسعيدُ بنُ المسيب، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٥٤).

قال محمدُ بنُ إسحاق فيما رواه عنه ابنُ جرير: (أمَّا قَولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: كان من الملائكةِ، وذلك أنَّ الملائكةَ اجتنُّوا فلم يُروا، وقد قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وذلك لِقَولِ قُريشٍ: إن الملائكةَ بناتُ الله... قال: فأبت العربُ في لغتِها إلَّا أن الجِنَّ كلُّ ما اجتَنَّ. يقول: ما سمَّى الله الجِنَّ إلا أنَّهم اجتَنُّوا فلم يُرَوا، وما سَمَّى بني آدم الإنسَ إلَّا أنَّهم ظهروا فلم يَجتنُّوا، فما ظهر فهو إنسٌ، وما اجتَنَّ فلم يُرَ فهو جِنٌّ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٩).

(١) مارِجُ النَّارِ: لَهَبُها المُختَلِطُ بسوادِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣١٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠-٢٩١).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾، أي: خَرَج عن طاعةِ أمرِ رَبِّه... وهذا المعنَى ظاهرٌ لا إشكالَ فيه، فلا حاجةَ لقولِ مَنْ قالَ: إنَّ «عَنْ» سَبَبِيَّةٌ، كقولِه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، أي: بسَبَبِه، وأنَّ المعنَى: ففَسَق عن أمرِ رَبِّه، أيْ: بسببِ أمرِه حيثُ لم يمتثِلْه، ولا غيرَ ذلك مِنَ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٩١).

-يا بني آدَمَ- وحَسَدَه، وأخرَجَه من الجنَّةِ، تتَّخِذونَه وذُرِّيَّته من الشياطينِ أولياءَ تُطيعونَهم وتُوالونَهم في خِلافِ مَرضاتي، والحالُ أنَّهم لكم أعداءٌ يُضِلُّونكم، بدلًا مِن طاعتي، وأنا ربُّكم الذي أنعَمَ عليكم وأكرَمَكم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

أي: بِئسَ البدلُ للظَّالِمينَ[2] اتِّخاذُ إبليسَ وذُرِّيَتِه أولياءَ مِن دونِ اللهِ، وهم لهم أعداءٌ، فتركوا وَلايةَ الذي أنعَمَ عليهم وعلى أبيهم آدَمَ مِن قَبلُ، والذي في وَلايتِه كُلُّ الخيرِ والسَّعادةِ والفلاحِ[3].

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يمكِنُ أن نقولَ: إنَّها بمعنى الكافرينَ؛ لأنَّهم هم الذين اتَّخذوا الشَّيطانَ وذُرِّيَّته أولياءَ على وجهِ الإطلاقِ، ويُمكِنُ أن نقولَ: إنَّها تعُمُّ الكافرينَ ومَن كان ظُلمُهم دونَ ظُلمِ الكُفرِ؛ فإنَّ لهم مِن وَلايةِ الشَّيطانِ بقَدرِ ما أعرَضوا به عن وَلايةِ الرَّحمنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٣).

وممَّن فسَّر الظالِمينَ هنا بالكافرين: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٣).

وقال ابن عاشور: (الظالِمونُ: هم المُشرِكونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

وقال الشنقيطي: (والبدلُ: العِوَضُ مِنَ الشَّيءِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

عَضُدًا ﴿٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الشريكُ لا يستأثِرُ بفِعلِ أمرٍ عَظيمٍ في المُشتَرَكِ فيه مِن غيرِ عِلمٍ لشريكِه به؛ قال معلِّلًا للذمِّ على الظُّلمِ المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ بما يدُلُّ على حقارتِهم عن هذه الرُّتبة[١]:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ما أحضَرْتُ الشَّياطينَ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لأستعينَ بهم على خَلقِها أو أشاوِرَهم في ذلك، بل لم يكونوا موجودينَ حينذاك؛ فأنا المستَقِلُّ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُدَبِّرُها وَحدي، ليس معي في ذلك شَريكٌ، ولا وزيرٌ، ولا مُشيرٌ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: ولا أشهَدْتُ بَعضَهم خَلْقَ بَعضٍ، بل تفَرَّدتُ بخَلقِهم بغيرِ مُعينٍ ولا ظهيرٍ، فكيف تَصرِفونَ لهم حَقِّي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وأنا خالِقُ كُلِّ شَيءٍ[٣]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان))

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

أي: وما ينبغي ولا يليقُ أن أتَّخِذَ الذين يُضِلُّونَ الخلقَ عن طريقِ الحَقِّ أعوانًا لي في أيِّ شأنٍ مِن الشُّؤونِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ فيه الحثُّ على اتِّخاذِ الشَّيطانِ عَدُوًّا، والإغراءُ بذلك، وذِكرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لذلك، وأنَّه لا يتَّخِذُ الشيطانَ وليًّا إلا ظالمٌ، وأيُّ ظُلمٍ أعظَمُ مِن ظُلمِ مَن اتَّخذ عَدُوَّه الحقيقيَّ وليًّا، وترَك الوليَّ الحميدَ[٢]؟!

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ تأمَّلْ ما تحتَ هذا الخِطابِ الذي يَسلُبُ الأرواحَ حَلاوةً وعِقابًا، وجلالةً وتَهديدًا! كيف صَدَّره بإخبارِنا أنَّه أمَرَ إبليسَ بالسُّجودِ لأبينا، فأبى ذلك فطرَدَه ولعَنَه وعاداه؛ مِن أجلِ إبائِه عن السُّجودِ لأبينا، ثمَّ أنتم توالونَه مِن دوني وقد لعَنْتُه وطرَدْتُه؛ إذ لم يسجُدْ لأبيكم، وجعلتُه عدوًّا لكم ولأبيكم، فواليتُموه وترَكتُموني[٣]!! ويُشبِهُ

للشنقيطي (٣/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٥).

قال ابن عاشور: (المعنى: لا يليقُ بالكَمالِ الإلهيِّ أن أتَّخِذَ أهلَ الإضلالِ أعوانًا، فأشرَكَهم في تصرُّفي في الإنشاءِ؛ فإنَّ اللهَ مُفيضُ الهدايةِ، وواهبُ الدرايةِ، فكيف يكونُ أعوانُه مصادِرَ الضلالةِ، أي: لا يُعينُ المعين إلَّا على عمَلِ أمثالِه، ولا يكونُ إلَّا قرينًا لأشكالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٣).

أنْ يكونَ تحت هذا الخطابِ نوعٌ مِن العتابِ لَطيفٌ عَجيبٌ، وهو: أنِّي عاديتُ إبليسَ؛ إذ لم يسجدْ لأبيكم آدمَ مع ملائِكتي، فكانت معاداتُه لأجلِكم، ثمَّ كان عاقبةُ هذه المعاداةِ أنْ عقَدْتُم بينكم وبينه عَقْدَ المُصالحةِ[1]!! فليتأملِ اللبيبُ مواقعَ هذا الخطابِ، وشدةَ لصوقِه بالقلوبِ، والتباسه بالأرواحِ، وأكثرُ القرآنِ جاء على هذا النمطِ مِن خطابِه لعبادِه بالتوددِ والتحننِ واللطفِ والنصيحةِ البالغةِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ التَّنبيهُ على أنَّ الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ لا تنبغي الاستعانةُ بهم[3]، ولا ينبغي الاعتمادُ على السُّفَهاءِ، ولا أهلِ الأهواءِ المُنحَرفةِ؛ لأنَّهم لا خيرَ فيهم، فإذا كان اللهُ لم يتخذِ المضلِّين عَضُدًا، فنحن كذلك لا يَليقُ بنا أنْ نتَّخِذَ المضلِّينَ عَضُدًا، وفي هذا: النهيُ عن بطانةِ السُّوءِ، وعن مُرافقةِ أهلِ السُّوءِ، وأنْ يَحذرَ الإنسانُ مِن جُلَساءِ السوءِ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ بيَّن في سورة (الحِجر) وسورة (ص) أنَّ أصلَ الأمرِ بالسُّجودِ متقدِّمٌ على خَلقِ آدَمَ مُعلَّقٌ عليه؛ قال في (الحِجر): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]،

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٤).

وقال في (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، ولا ينافي هذا أنَّه بعد وجودِ آدمَ جَدَّد لهم الأمرَ بالسُّجودِ له؛ تنجيزًا[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ الأصلُ أنَّ سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، وإذا وقع ذلك امتِثالًا لأمرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ، ولم يكُنْ شِرْكًا؛ فالسُّجودُ لآدَمَ لولا أمْرُ الله لكان شِرْكًا، لكِنْ لَمَّا كان بأمرِ الله كان طاعةً لله، كما أن قَتْلَ النفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ، وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ؛ صار طاعةً[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ استدلَّ به الجمهورُ على أنَّ إبليسَ لم يكُنْ مِن الملائكةِ[(٣)].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: خانه أصلُه؛ فإنَّه خُلِقَ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وأصلُ خَلقِ الملائكةِ مِن نورٍ، فعند الحاجةِ نضَحَ كُلُّ وعاءٍ بما فيه، وخانه الطَّبعُ عند الحاجةِ؛ وذلك أنَّه كان قد توسَّم بأفعالِ الملائكةِ وتشَبَّه بهم، وتعَبَّد وتنَسَّك؛ فلهذا دخَلَ في خطابِهم، وعصى بالمُخالفةِ[(٤)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

وتقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٧).

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ المَلَك لا يَعصي البتَّة، وإنَّما عصى إبليسُ؛ لأنَّه كان جنيًّا في أصلِه[1].

٦- الفِسقُ قد يكون ناقِلًا عن المِلَّةِ، كما قال في حَقِّ إبليسَ: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وقال ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. وقد لا يكونُ الفِسقُ ناقِلًا عن المِلَّةِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾[2] [البقرة: ٢٨٢].

٧- قول الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ الشَّيطانَ وذُرِّيَّته ليسوا أولياءَ، بل أعداءٌ؛ لأنَّ الأولياءَ هم الأصدقاءُ؟

الجوابُ: المرادُ بالوَلايةِ هنا اتِّباعُ النَّاسِ لهم فيما يأمُرونَهم به من المعاصي[3].

٨- استَدَلَّ مَن قال بأنَّ الجِنَّ يَتناكَحونَ بقَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾، وكذلك قولُه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٧٤]، والدَّلالةُ مِن ذلك ظاهِرةٌ[4].

٩- قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ قولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ للشيطانِ ذريةً[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

وقال الشنقيطي: (ولكنْ طريقةُ وجودِ نسلِه هل هي عن تزويجٍ أو غيرِه، لا دليلَ عليها مِنْ نصٍّ

١٠- قولهُ تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّهم اعْتاضوا من الحقِّ بالباطلِ، وجَعَلوا مكانَ ولايتِهم إبليسَ وذُرِّيَّتَه، وهذا نفْسُ الظُّلمِ؛ لأنَّه وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ موضِعِه[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن تكلَّمَ في شيءٍ مِن أمْرِ السَّمواتِ والأرضِ بدونِ دَليلٍ شَرعيٍّ أو حِسِّيٍّ، فإنَّه لا يُقبلُ قَولُه، ويقالُ له: إنَّ الله ما أشهَدَك خلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ، ولن نقبَلَ منك أيَّ شيءٍ مِن هذا إلَّا إذا وجَدْنا دليلًا حِسِّيًّا لا مَناصَ لنا منه، حينَئِذٍ نأخذُ به؛ لأنَّ القرآنَ لا يُعارِضُ الأشياءَ المحسوسةَ[2]. وفيه أيضًا الرَّدُّ على الكُهَّانِ والمُنجِّمينَ وغيرِهم ممَّن يخوضُ في هذه الأشياءِ[3].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾

- تكرَّرَتْ هذه القِصَّةُ في مواضعَ كثيرةٍ من القُرآنِ، وهي في كلِّ موضعٍ تَشتمِلُ على شَيءٍ لم تَشتمِلْ عليه في الآخَرِ، ولها في كلِّ موضعٍ ذُكِرَت فيه عِبرةٌ تُخالِفُ عِبرةَ غيرِه؛ فذِكْرُها في سُورةِ البقرةِ -مثلًا- إعلامٌ بمبادئِ الأُمورِ، وذِكْرُها هنا تَنظيرٌ للحالِ، وتَوطئةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[4].

صريحٍ، والعلماءُ مختلِفونَ فيها). ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٠).

- قولُه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾، بتَقديرِ: واذكُرْ إذْ قُلْنا للملائكةِ؛ تَفنُّنًا لغَرَضِ الموعظةِ الَّذي سِيقَتْ له هذه الجُملُ، وهو التَّذكيرُ بعَواقبِ اتِّباعِ الهوى والإعراضِ عن الصَّالحاتِ، وبمَداحضِ الكبرياءِ والعُجْبِ، واحتقارِ الفضيلةِ، والابتهاجِ بالأعراضِ الَّتي لا تُكسِبُ أصحابَها كمالًا نَفسيًّا. وكما وُعِظُوا بآخرِ أيَّامِ الدُّنيا، ذُكِّروا هنا بالموعظةِ بأوَّلِ أيَّامِها، وهو يومُ خلْقِ آدمَ، وهذا أيضًا تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ ...﴾ الآيةَ؛ فإنَّ الإشراكَ كان من غُرورِ الشَّيطانِ ببَني آدمَ[(١)].

- قولُه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ جارٍ مَجْرى التَّعليلِ بعدَ استثناءِ إبليسَ من السَّاجدينَ، كأنَّ قائلًا قال: ما له لَمْ يسجُدْ؟ فقيلَ: كان من الجِنِّ، ففسَقَ عن أمْرِ ربِّه، والفاءُ للتَّسبيبِ أيضًا؛ جُعِلَ كونُه من الجنِّ سَببًا في فسْقِه[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ عُدولٌ إلى التَّعريفِ بطريقِ الإضافةِ دُونَ الضَّميرِ؛ لتَفظيعِ فِسْقِ الشَّيطانِ عن أمْرِ اللهِ بأنَّه فِسْقُ عبْدٍ عن أمرِ مَن تجِبُ عليه طاعتُه؛ لأنَّه مالكُه[(٣)].

- قولُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ فُرِّعَ على التَّذكيرِ بفِسْقِ الشَّيطانِ، وعلى تعاظُمِه على أصْلِ النَّوعِ الإنسانيِّ: إنكارُ اتِّخاذِه واتِّخاذِ جُندِه أولياءَ؛ لأنَّ تكبُّرَه على آدمَ يَقْتضي عداوتَه للنَّوعِ، ولأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١).

عِصيانَه أمْرَ مالِكه يَقْتضي أنَّه لا يُرْجى منه خيرٌ، وليس أهلًا لأنْ يُتَّبَعَ[(١)].

- والهمزةُ في ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ للتَّوبيخِ والإنكارِ والتَّعجُّبِ، أي: أبعْدَ ما ظهَرَ منه مِن الفسْقِ والعِصيانِ تتَّخِذونه وذُرِّيَّته أولياءَ من دُوني، مع ثُبوتِ عَداوتِه لكم تتَّخِذونه وليًّا[(٢)]؟!

- قولُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ و(مِن) صِلةٌ للتَّوكيدِ، أي: تتَّخِذونهم أولياءَ مُباعِدين لي، وذلك هو إشراكُهم في العِبادةِ[(٣)].

- في قولِه: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ قُيِّدَ الاتِّخاذُ بالجُملةِ الحاليَّةِ لتأكيدِ الإنكارِ وتَشديدِه؛ فإنَّ مَضمونَها مانعٌ من وُقوعِ الاتِّخاذِ، ومُنافٍ له قطْعًا[(٤)].

- وجُملةُ: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ مُستأنفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ إبليسَ وذُرِّيَّته باعتبارِ اتِّخاذِ المُشرِكين إيَّاهم أولياءَ، أي: بئْسَ البدلُ للمُشرِكين الشَّيطانُ وذُرِّيَّتُه، فقولُه: ﴿بَدَلٗا﴾ تَمييزٌ مُفسِّرٌ لاسمِ (بئس) المحذوفِ؛ لقصْدِ الاستغناءِ عنه بالتَّمييزِ، على طريقةِ الإجمالِ ثُمَّ التَّفصيلِ[(٥)].

- في قولِه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ، وفي هذا الالتفاتِ، مع وضْعِ (الظَّالمينَ) موضعَ الضَّميرِ: مِن الإيذانِ بكَمالِ السُّخطِ، والإشارةِ إلى أنَّ ما فَعَلوه ظُلمٌ قَبيحٌ ما لا يَخْفى[(٦)]؛ فأبرَزَ اللهُ تعالى الضميرَ في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

﴿لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، وكان الأصلُ: (لكم)؛ لتعليقِ الفِعلِ بالوصفِ والتعميم؛ إذ استبدلُوا مَن ليس لهم شيءٌ من الأمرِ -وهم لهم عدوٌّ- بمَن له الأمرُ كلُّه -وهو لهم وليٌّ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

- قولُه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ عدَمِ استحقاقِهم للاتِّخاذِ المذكورِ في أنفُسِهم، بعدَ بَيانِ الصَّوارفِ عن ذلك؛ من خَباثةِ الطبعِ، والفِسقِ والعداوةِ، أي: ما أحضرْتُ إبليسَ وذُرِّيَّته[2].

- وهذه الجُملةُ تتنزَّلُ مَنزلةَ التَّعليلِ للجُملتينِ اللَّتينِ قبْلَها، وهما: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ إلى قولِه: ﴿بَدَلًا﴾؛ فإنَّهم لمَّا لم يَشْهَدوا خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ، لم يَكونوا شُركاءَ للهِ في الخلْقِ بطريقِ الأَولى، فلم يَكونوا أحِقَّاءَ بأنْ يُعْبَدوا. وهذا احتجاجٌ على المُشرِكين بما يَعترِفون به؛ فإنَّهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ هو المُتفرِّدُ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وخلْقِ الموجوداتِ. والإشهادُ هنا كِنايةٌ عن إحضارٍ خاصٍّ، وهو إحضارُ المُشارَكةِ في العمَلِ أو الإعانةِ عليه. ونفيُ هذا الشُّهودِ يَستلزِمُ نفْيَ المُشارَكةِ في الخلْقِ والإلهيَّةِ بالأَولى؛ فإنَّ خلْقَ السَّمواتِ كان قبْلَ وُجودِ إبليسَ وذُرِّيَّتِه، فهو استدلالٌ على انتفاءِ إلهيَّتِهم بسَبْقِ العدَمِ على وُجودِهم[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٢).

- قولُه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ فيه إيثارُ نفْيِ الإشهادِ على نفْيِ شُهودِهم، ونفْيِ اتِّخاذِهم أعوانًا على نفْيِ كونِهم كذلك؛ للإشعارِ بأنَّهم مَقْهورون تحتَ قُدرتِه تعالى، تابِعون لمَشيئتِه وإرادتِه فيهم، وأنَّهم بمَعزلٍ من استحقاقِ الشُّهودِ والمعونةِ من تِلْقاءِ أنفُسِهم من غيرِ إحضارٍ واتِّخاذٍ، وإنَّما قُصارى ما يُتوهَّمُ في شأنِهم: أنْ يَبْلغوا ذلك المبلغَ بأمْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ولم يَكَدْ ذلك يكونُ[1].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (وما كنْتُ مُتَّخِذَهم)؛ لإفادةِ الذَّمِّ، والتنبيه بذلك على وَصْفِهم القَبيحِ، وتأكيدًا لِما سبَقَ من إنكارِ اتِّخاذِهم أولياءَ[2]، ولأنَّ التَّذييلَ يَنْبغي أنْ يكونَ كلامًا مُستقِلًّا[3]، وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه أبرَزَ الضَّميرَ إرشادًا إلى أنَّ المُضِلَّ لا يُستَعانُ به؛ لأنَّه مع عدَمِ نَفعِه يَضُرُّ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ تَهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بكَمالِ رَكاكةِ عُقولِهم وسَخافةِ آرائِهم؛ حيث لا يَفْهمون هذا الأمْرَ الجَلِيَّ الَّذي لا يكادُ يَشتبِهُ على البُلْهِ والصِّبيانِ، فيَحْتاجون إلى التَّصريحِ به[5].

- وكذلك في قولِه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ تَشبيهٌ بليغٌ؛ فقدْ شَبَّهَ المُضلِّينَ بالعضُدِ الَّذي يَتقوَّى به الإنسانُ، وأصْلُه العُضْوُ الَّذي هو المِرْفَقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٨).

إلى الكتِفِ، ولم يَذكُرِ الأداةَ[١]، والله سُبحانَه وتعالَى لا يَحتاجُ إلى عونِ أحدٍ. وخَصَّ المضلِّين بالذِّكرِ؛ لزِيادةِ الذمِّ والتوبيخِ[٢].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢).

الآيات (٥٢-٥٦)

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّوْبِقًا﴾: مَهلِكًا وحاجِزًا، وأصلُ (وبق): يدُلُّ على هَلاكٍ، وحَيلولةٍ بينَ شَيئَينِ[(١)].

﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: طَريقتُنا في إهلاكِهم، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطرادِه في سُهولةٍ[(٢)].

﴿قُبُلًا﴾: أي: عِيانًا ومُواجَهةً، وأصلُ (قبل): يدلُّ على مُواجَهةِ شَيءٍ لشَيءٍ[(٣)].

﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾: أي: لِيُبطِلوا ويُزيلوا، وأصلُ (دحض): يدلُّ على زَوالِ شيءٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١).

عن مَقامِه[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالَى مشهدًا مِن مشاهدِ القيامةِ، يكشفُ عن حالِ المشركينَ معَ شركائِهم، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يقولُ اللهُ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ: نادُوا آلهَتَكم الذين كُنتُم تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ؛ لِيَنصروكم اليومَ مني، فاستغاثوا بهم فلم يُغيثوهم، وجعَلْنا بين المُشرِكينَ وآلهَتِهم حائلًا مُهلِكًا في جَهنَّمَ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالةَ المجرمينَ عندَما يبصِرونَ النارَ، فيقولُ: ورأى المُجرِمونَ النَّارَ فأيقَنوا أنَّهم واقِعونَ فيها، ولم يَجِدوا عنها مكانًا يَنصَرِفونَ إليه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن عظمةِ القرآنِ، فيقولُ: ولقد وضَّحْنا ونوَّعْنا في هذا القُرآنِ للنَّاسِ أمثالًا كثيرةً؛ ليتذَكَّروا ويتَّعِظوا بها. وكان الإنسانُ أكثَرَ المخلوقاتِ مُجادَلةً ومُخاصَمةً.

ثمَّ يحكي الله تعالى الأسبابَ التي منَعتْ بعضَ الناسِ مِن الإيمانِ، فيقول: وما منعَ النَّاسَ مِن الإيمانِ بالحقِّ -حين جاءَهم- واستغفارِ رَبِّهم، إلَّا ما قدَّره اللهُ مِن أنَّهم لا يؤمِنونَ، بل يستمرُّون على كفرِهم فتُصيبُهم سُنَّةُ اللهِ في إهلاكِ السَّابِقينَ عليهم من الأمم الكافرة واستِئصالِهم، أو يُصيبُهم عذابُ الله عِيانًا يَرَونَه.

ثمَّ يبينُ تعالى وظيفةَ الرسلِ، فيقولُ: وما نُرسِلُ الرُّسُلَ إلى النَّاسِ إلَّا ليكونوا مُبَشِّرينَ المُؤمِنينَ بالثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ومُخوِّفينَ الكافِرينَ من العِقابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويُخاصِمُ الذين كَفَروا رُسُلَهم بالباطِلِ تَعَنُّتًا؛ لِيُزيلوا بباطِلِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

الحَقَّ الذي جاءَهم به الرَّسولُ، واتَّخَذوا كِتابي وحُجَجي وما خُوِّفوا به مِن العذابِ سُخريةً واستِهزاءً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ مَن أشرك به في الدُّنيا، وحَكَم بجَهلِ المشركِين وسَفَهِهم، وأبطَلَ هذا الشِّركَ غايةَ الإبطالِ، وأقام البُرهانَ القاطِعَ على بُعدِ رُتبةِ مَعبوداتِ المُشرِكينَ عن المَنزِلةِ التي أحَلُّوهم بها مِنَ الشِّركِ؛ أخبَرَ عن حالِهم مع شُرَكائِهم يومَ القيامةِ مبينًا أنَّهم مع عدَمِ نَفعِهم لهم في الدُّنيا، يتخَلَّونَ عنهم في الآخِرةِ أحوجَ ما يكونونَ إليهم؛ تخييبًا لِظَنِّهم أنَّهم يُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلفى[1].

وأيضًا فإنَّه انتقالٌ مِن إبطالِ مَعبوديَّةِ الشَّيطانِ والجِنِّ إلى إبطالِ إلهيَّةِ جَميعِ الآلهةِ التي عبَدَها دَهماءُ المُشركينَ، مع بيانِ ما يعتريهم من الخَيبةِ واليأسِ يَومَئذٍ[2].

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يقولُ اللهُ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ تَوبيخًا وتقريعًا لهم: نادُوا آلهَتَكم التي ادَّعيتُم في الدُّنيا كَذِبًا أنَّهم شُرَكائي في العِبادةِ؛ نادُوهم لِيَنصُروكم ويَمنَعوكم مِن عَذابي[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾.

أي: فاستغاثَ المُشرِكونَ بآلهَتِهم التي كانوا يَعبُدونَها في الدُّنيا، فلم يُجيبوهم ولم يَنصُروهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

أي: وجعَلْنا بين المُشرِكينَ وآلهَتِهم التي عَبَدوها حائِلًا مُهلِكًا[2] يَفصِلُ بينهم؛ فليس لأحدِ الفريقَينِ مِن سَبيلٍ للوُصولِ إلى الآخَرِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ

(٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٥).

(٢) قال ابنُ كثيرٍ عن (الموبق): (يجوزُ أن يكونَ واديًا في جهنَّمَ، أو غيرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٨).

وقال ابن عاشور: (والموبقُ هنا أُريدَ به جَهَنَّمُ، أيْ: حينَ دَعَوْا أصنامَهم بأسمائِهم كَوَّنَ اللَّهُ فيما بينَ مكانِهم ومكانِ أصنامِهم فُوَّهاتِ جهنَّمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٧٨-٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٦ - ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٥).

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨].

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾.

أي: وعايَنَ المُشرِكونَ النَّارَ فتيَقَّنوا[(١)] أنَّهم داخِلُوها، وواقِعونَ فيها[(٢)].

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾.

أي: ولم يجِدِ المُشرِكونَ عن النَّارِ التي رأَوها مَكانًا يَنصَرِفونَ إليه، فيَصرِفُهم عن الوقوعِ فيها، أو طَريقًا يعدِلون عنها إليه، فلا بدَّ لهم منها[(٣)].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

---

(١) ممن قال بأنَّ المرادَ بالظنِّ هنا اليقينُ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٥).

ونسَب أبو حيان هذا القولَ إلى أكثرِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٢).

وقيلَ: الظنُّ هنا على موضوعِه مِنْ كونِه ترجيحَ أحدِ الجانبينِ، وكونهم لم يَجْزِموا بدخولِها رَجاءً وطمعًا في رحمةِ اللَّهِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (والظَّنُّ مُستعملٌ هنا في معنى التحَقُّقِ، وهو مِن استعمالاتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ لَمَّا افتخَروا على فُقَراءِ المسلمينَ بكثرةِ أموالِهم وأتباعِهم، وبيَّن تعالى بالوجوهِ الكثيرةِ أنَّ قولَهم فاسِدٌ، وشُبهَتَهم باطِلةٌ، وذكر فيه المَثَلينِ المتقدِّمين، قال بعدَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، وهو إشارةٌ إلى ما سبق[١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

أي: ولقد نَوَّعْنا وكرَّرْنا وبَيَّنَّا في هذا القُرآنِ للنَّاسِ الأمثالَ بعِباراتٍ مُختَلفةٍ، وأساليبَ مُتنوِّعةٍ، ومِن كُلِّ جِنسٍ وصِنفٍ؛ لِيَعقِلوا ويتذَكَّروا، ويتَّعِظوا ويَهتَدوا إلى الحَقِّ[٢].

﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

أي: ومع هذا البَيانِ لم يتقَبَّلوا القُرآنَ، وجادلوا فيه؛ لأنَّ الإنسانَ بطَبعِه هو أكثَرُ الأشياءِ مُجادَلةً ومُخاصَمةً، فيُعارِضُ الحَقَّ بالباطِلِ، فلا يُنيبُ إلى الحَقِّ، ولا يَنزَجِرُ بالمواعِظِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٩، ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ هنا مُطلَقُ الجدَلِ وبخاصَّةٍ ما كان منه بباطلٍ، أي: أنَّ كُلَّ إنسانٍ في طَبعِه الحِرصُ على إقناعِ المخالفِ بأحقيَّةِ مُعتَقَدِه أو عَمَلِه، وسياقُ الكلامِ يقتضي إرادةَ الجَدلِ الباطِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩).

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طَرَقَه[١] وفاطِمةَ بنتَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقال لهم: ألَا تُصَلُّونَ؟! قال عليٌّ: فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاء أن يبعَثَنا بعَثَنا، فانصرف رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين قلتُ ذلك، ولم يرجِعْ إليَّ شَيئًا، ثمَّ سَمِعتُه وهو مُدبِرٌ يَضرِبُ فَخِذَه ويقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾))[٢].

وقال ابنُ عثيمين: (إذا مَرَّ بك مِثلُ هذا في القُرآنِ الكريمِ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ فلا تحمِلْه على الكافِرِ إلَّا إذا كان السِّياقُ يعَيِّنُ ذلك، فإذا كان السياقُ يراد به ذلك، صار هذا عامًّا يرادُ به الخاصُّ، لكِنْ إذا لم يكُنْ في السياقِ ما يُعَيِّنُ ذلك فاجعَلْه للعُمومِ؛ اجعَلْه إنسانًا بوَصفِ الإنسانيَّةِ، والإنسانيَّةُ إذا غلَبَ عليها الإيمانُ اضمحَلَّ مُقتضاها المخالِفُ للفِطرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٧).

وقال الشوكاني: (قال الزَّجَّاجُ: المرادُ بالإنسانِ: الكافرُ، واستدلَّ على أنَّ المرادَ: الكفارُ بقولِه تعالَى: ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقيلَ: المرادُ به في الآيةِ: النَّضرُ بنُ الحارِثِ. والظَّاهِرُ العمومُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٩٦).

وقال الشنقيطي: (أي: أكثَرُ الأشياءِ التي مِن شأنِها الخصومةُ إنْ فصَّلْتَها واحِدًا بعد واحدٍ ﴿جَدَلًا﴾ أي: خُصومةً ومماراةً بالباطِلِ؛ لِقَصدِ إدحاضِ الحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٣).

(١) طَرَقَه: أي: أتاه في اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٦٥) واللفظ له، ومسلم (٧٧٥).

قال ابنُ تيمية: (هذا الحديثُ نَصٌّ في ذَمِّ مَن عارضَ الأمرَ بالقَدَرِ؛ فإنَّ قولَه: «إنَّما أنفُسُنا بيد الله» إلى آخِره، استنادٌ إلى القَدَرِ في تَركِ امتثالِ الأمرِ، وهي في نفسِها كَلِمةُ حَقٍّ؛ لكِنْ لا تصلُحُ لمعارضةِ الأمرِ، بل معارضةُ الأمرِ بها من بابِ الجَدَلِ المذمومِ الذي قال اللهُ فيه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٢٩).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾.

أي: وما منع النَّاسَ مِن الإيمانِ بالحَقِّ حين جاءَهم، وأن يَطلُبوا مِن رَبِّهم مَغفِرةَ ذُنوبِهم(١).

﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي: إلا ما قدَّره الله وسبَق في علمِه أنَّهم لا يؤمنون، بل يستمرُّون على كفرِهم حتى يأتيَهم سنةُ الأممِ الكافرةِ قبلَهم، وهي عذابُ الاستئصالِ، والإهلاكُ في الدُّنيا(٢).

---

(١) مِن المفسِّرينَ مَن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾: الكُفَّارُ والمُشركون في عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ المرادَ بالهُدى: ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. ومنهم: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٥).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ قال المفسِّرون: يعني: أهلَ مكة إذ جاءهم الهُدى، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقرآنُ، والإسلامُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٢).

وقيل: المعنى: وما منع الكُفَّارَ مِن جميعِ الأمم أن يؤمِنوا حين جاءَتْهم رسُلُهم بالبيِّناتِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

وممن ذهب إلى المعنى المذكور: الواحدي، وابنُ جزي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن المظفر الرازي: (تحقيقُه: أنَّه وعيدٌ وتهديدٌ لهم بالعذابِ، كأنَّه قال: إنَّهم لا يؤمنونَ إلى أن يأتيَهم العذابُ، فحينئذٍ يؤمنونَ، ولا ينفعُهم إيمانُهم، نظيره: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ❁ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، كما تقولُ في

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠ - ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾

الشاهِدِ لعدوِّك: ما تريدُ إلَّا أن أقتلَك، ولا شكَّ أنَّه لا يريدُ ذلك، كأنَّه قال: إنَّما يمتنعونَ مِن الإيمانِ لأعذبَهم. والله أعلم). ((مباحث التفسير)) (ص: ٢٠٨).

وقيل: المعنى: ما منَعَ النَّاسَ أن يؤمنوا إلَّا الذي منَع الأوَّلينَ قَبلَهم؛ مِن عادةِ العِنادِ والطغيانِ، وطريقتِهم في تكذيبِ الرسُلِ، والاستخفافِ بهم. فمَنَعهم تقليدُ سُنَّةِ الأوَّلينَ مِن الإيمانِ إلى أن يأتيَهم العذابُ كما أتى الأوَّلينَ. وممن قال به: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٠).

وقيل: المعنى: ما منَع الناسَ مِن الإيمانِ إلَّا طلبُ مجيءِ العذابِ، كما أتَى الأوَّلينَ عندَ امتناعِهم مِن الإيمانِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: الزجاج، ومكي بنُ أبي طالبٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٩٦)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢).

[غافر: ٨٤- ٨٥].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قُبُلًا ﴾ بضَمِّ القافِ والباءِ، قيل: جمعُ (قَبيلٍ)، أي: صنفًا صنفًا، ونوعًا نوعًا، والمعنى: يأتيهم العذابُ أنواعًا وأصنافًا مُختَلفةً يتلو بَعضُها بعضًا. وقيل: (قُبُل) بالضمِّ بمعنَى (قِبَل) بكسرِ القافِ، أي: مواجهةً، والمعنى: يأتيهم العذابُ عِيانًا أمامَ وُجوهِهم[1].

٢- قِراءةُ ﴿قِبَلًا ﴾ بكَسرِ القافِ وفتحِ الباءِ، أي: يأتيهم العذابُ عِيانًا أمامَ وُجوهِهم[2].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴾.

أي: أو[3] ....

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائي، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٥٣، ١٥٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٥٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

(٣) قال ابنُ الجوزي: (ذكر ابنُ الأنباري في ﴿أَوۡ ﴾ هاهنا ثلاثةَ أقوالٍ: أحدُها: أنَّها بمعنى الواوِ. والثاني: أنَّها لوقوعِ أحدِ الشيئينِ؛ إذ لا فائدةَ في بيانِه. والثالثُ: أنَّها دخلَتْ للتَّبعيضِ، أي: أنَّ بعضَهم يقَعُ به هذا، وبعضَهم يقعُ به هذا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٢).
وقال ابنُ عاشور: («أو» هي التي بمعنى «إلى»، وانتصابُ فعلِ ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ بـ«أن» مضمرةٍ

يأتيَ العذابُ الكُفَّارَ عِيانًا يَرونَه أمامَ وُجوهِهم[1].

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن أشارَ اللهُ تعالى إلى جِدالِ الكافرينَ في هُدى القُرآنِ، بما مهَّدَ له مِن قَولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وأشار إلى أنَّ الجِدالَ فيه مُجَرَّدُ مُكابَرةٍ وعِنادٍ، وأنَّه لا يَحُفُّ بالقُرآنِ ما يَمنَعُ مِن الإيمانِ به، كما لم يَحُفَّ بالهُدى الذي أُرسِلَ إلى الأُمَمِ ما يمنَعُهم الإيمانَ به- أعقَبَ ذلك بأنَّ وظيفةَ الرُّسُلِ التَّبليغُ بالبِشارةِ والنِّذارةِ، لا التَّصدِّي للمُجادَلة؛ لأنَّها مُجادَلةٌ لم يُقصَدْ منها الاسترِشادُ، بل الغايةُ منها إبطالُ الحَقِّ[2].

بعدَ «أو». و «أو» متصلةُ المعنى بفِعلِ «مَنَع»، أي: منَعَهم تقليدُ سنةِ الأولينَ مِن الإيمانِ إلى أن يأتيَهم العذابُ كما أتَى الأوَّلينَ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الآخرةِ ﴿قُبُلًا﴾: قال الفرَّاء: إنَّ قُبُلًا جمعُ قَبيلٍ، أي: متفرِّقًا يتلو بعضُه بعضًا. وقيل: عِيانًا. وقيل: فجأةً. ويناسِبُ ما قاله الفرَّاءُ قراءةُ أبي جعفرٍ وعاصمٍ والأعمشِ وحمزةَ والكسائيِّ ويحيى بن وثَّاب وخلف ﴿قُبُلًا﴾ بضمتين، فإنَّه جمعُ قبيل، نحوُ سَبيل وسُبُل، والمرادُ أصنافُ العذابِ، ويناسِبَ التفسيرَ الثانيَ -أي: عِيانًا- قراءةُ الباقين بكسرِ القاف وفتح الباءِ: أي: مُقابلةً ومُعاينةً، وقرئ بفتحتين على معنى: أو يأتيَهم العذابُ مُستقبَلًا، وانتصابُه على الحال. فحاصِلُ معنى الآية أنَّهم لا يؤمنون ولا يَستغفِرون إلَّا عند نزولِ عذابِ الدنيا المستأصِلِ لهم، أو عند إتيان أصنافِ عذابِ الآخرةِ أو معاينتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٢).

﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾.

أي: وما نُرسِلُ الرُّسُلَ إلَّا لِيُبَشِّروا المُؤمِنينَ بالثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويُنذِروا الكافِرينَ بالعِقابِ العاجِلِ والآجِلِ، ولم نُرسِلْهم عَبَثًا، ولا لِيَتَّخِذَهم النَّاسُ أربابًا، ولا لِيدْعوا إلى أنفُسِهم، ولا لِيَجبُروا النَّاسَ على الإيمانِ، ولا لِيُجيبوا أقوامَهم إلى طَلَبِ الآياتِ المُقتَرَحةِ أو إتيانِهم بالعَذابِ والهَلاكِ؛ فليس لهم ذلك ولا هو مِن مَهامِّهم(١).

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾.

أي: لَسْنا نَبعَثُ رُسُلَنا للجِدالِ والخُصُوماتِ، وإنَّما نَبعَثُهم مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، ولكِنَّ الكُفَّارَ يُخاصِمونَ رُسُلَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا ويُبطِلوا بجِدالِهم الحقَّ الذي جاءَت به الرُّسُلُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٦، ٣٠٧).

قال الشِّنقيطي: (كقَولِهم في الرَّسولِ: ساحِرٌ، شاعِرٌ، كاهِنٌ، وكقولهم في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ، سِحر، شِعر، كهانة، وكسُؤالِهم عن أصحابِ الكهف، وذي القرنين، وسؤالِهم عن الرُّوحِ؛ عِنادًا وتعَنُّتًا، ليُبطِلوا الحقَّ بجدالهم وخِصامِهم بالباطلِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (مثالُ ذلك في الرسُلِ يقولون: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ويجادلونَ في البَعثِ فيقولون: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، ويجادِلون في الآلهة؛ يقولون: إذا كان المشرِكونَ وما يَعبُدونَ مِن دون الله حَصَبَ جهنَّمَ، فعيسى عليه السَّلامُ مِن حَصَبِ جهنَّمَ، وغير ذلك من المجادلة، وقد أبطل اللهُ مجادلتَهم بعيسى؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾، ومنهم عيسى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٠).

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾.

أي: وجعَل[١] الكُفَّارُ حُجَجي وبَراهيني، وما أيَّدتُ به رُسُلي من المُعجِزاتِ، وما خُوِّفوا به مِن العذابِ، موضعَ سخريةٍ واستخفافٍ واستهزاءٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ يخبرُ الله تعالى عن عَظَمةِ القرآنِ، وجلالتِه، وعُمومِه، وأنَّه صَرَّف فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ، أي: من كلِّ طريقٍ مُوصِلٍ إلى العلوم النَّافعةِ، والسَّعادةِ الأبديَّةِ، وكلِّ طريقٍ يَعصِمُ مِن الشَّرِّ والهلاكِ؛ ففيه أمثالُ الحلالِ والحرامِ، وجزاءُ الأعمالِ، والترغيبُ والترهيبُ، والأخبارُ الصَّادقةُ النافعةُ للقُلوبِ؛ اعتقادًا، وطُمأنينةً، ونورًا، وهذا مما يوجِبُ التَّسليمَ لهذا القرآنِ وتلقِّيَه بالانقيادِ والطاعةِ، وعدمَ المنازعةِ له في أمرٍ مِن الأمورِ، ومع ذلك كان كثيرٌ مِن النَّاسِ يجادِلونَ في الحَقِّ بعد ما تبَيَّن، ويجادِلونَ بالباطِلِ ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ

(١) قال الراغب: (والاتِّخاذُ افتعالٌ منه [أي: الأخذ]، ويعدَّى إلى مفعولينِ، ويجري مجرَى الجعلِ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٦٧). ويُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠١).



ٱلۡحَقَّ ﴾؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ أي: مجادلةً ومُنازعةً فيه، مع أنَّ ذلك غيرُ لائقٍ بهم، ولا عَدلٌ منهم، والذي أوجب له ذلك وعدمَ الإيمانِ باللهِ إنَّما هو الظُّلمُ والعِنادُ، لا لقُصورٍ في بيانِه وحُجَّتِه وبُرهانِه، وإلَّا فلو جاءهم العذابُ، وجاءهم ما جاء قَبلَهم؛ لم تكُنْ هذه حالَهم[(١)].

٢- الجدالُ مذمومٌ إذا استُعمِلَ عندَ عدمِ الحاجةِ إليه، فيكونُ حينئذٍ شاغلًا عن الدعوةِ ومؤديًا -في الأكثرِ- إلى الفسادِ والفتنةِ. فإذا كان الجدالُ لمجردِ الغلبةِ والظهورِ فهو شرٌّ كلُّه، وأشدُّ شرًّا منه إذا كان لمدافعةِ الحقِّ بالباطلِ، قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾[(٢)]، فكلُّ إنسانٍ يُجادِلُ مِن أجلِ أن يُدحِضَ الحقَّ، فله نصيبٌ من هذه الآيةِ أي: مِن الكُفرِ -والعياذُ باللهُ- لأنَّ الكافرينَ هم الذين يُجادِلونَ بالباطِلِ؛ لِيُدحِضوا به الحقَّ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ فهم تحقَّقوا -لا محالةَ- أنَّهم مُواقِعوها؛ لِيَكونَ ذلك من بابِ تَعجيلِ الهَمِّ والحَزَنِ لهم؛ فإنَّ توقُّعَ العذابِ والخَوفَ منه قبلَ وُقوعِه، عذابٌ ناجزٌ[(٤)].

٢- وجهُ الجَمعِ بينَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾، وبينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] بما حاصِلُه: أنَّ المانِعَ المذكورَ في سورة (الإسراء)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧١).

مانِعٌ عاديٌّ يجوزُ تخَلُّفُه؛ لأنَّ استِغرابَهم بَعْثَ رَسولٍ مِن البشَرِ مانِعٌ عادِيٌّ يجوزُ تخَلُّفُه؛ لإمكانِ أن يستغرِبَ الكافِرُ بَعثَ رَسولٍ مِن البشَرِ، ثمَّ يُؤمِنَ به مع ذلك الاستغرابِ؛ فالحَصرُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] حصرٌ في المانعِ العاديِّ، وأمَّا الحصرُ في قَولِه هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ فهو حَصرٌ في المانِعِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ إرادتَه جَلَّ وعلا عَدَمَ إيمانِهم، وحُكْمَه عليهم بذلك، وقضاءَه به: مانِعٌ حقيقيٌّ مِن وقوعِ غيرِه(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ فيه دليلٌ على إثباتِ القدرِ(٢)، وذلك على القولِ المختارِ في تفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؛ فيُقدَّرُ: واذكُرْ يومَ يقولُ: نادُوا شُركائي، أو على جُملةِ ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فالتَّقديرُ: ولا أشهدْتُ شُركاءَهم جميعًا، ولا تنفَعُهم شُركاؤُهم يومَ الحشرِ؛ فهو انتقالٌ مِن إبطالِ مَعبوديَّةِ الشَّيطانِ والجنِّ إلى إبطالِ إلهيَّةِ جميعِ الآلهةِ الَّتي عبَدَها دَهْماءُ المُشرِكين، مع بَيانِ ما يَعتريهم من الخَيبةِ واليأسِ يومئذٍ. وقد سلَكَ في إبطالِ إلهيَّتِها بالاستدلالِ على انتفاءِ الماهيَّةِ بانتفاءِ لَوازِمِها؛ فإنَّه إذا

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٩).

انْتَفى نفْعُها للَّذين يَعبُدونها، استلزَمَ ذلك انتفاءَ إلهيَّتِها، وحصَلَ بذلك تَشخيصُ خَيبتِهم ويأسِهم من النَّجاةِ[١].

- قولُه: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾، أي: اللهُ عَزَّ وجَلَّ للكافرينَ؛ تَوبيخًا وتَعجيزًا[٢]، وضميرُ الغائبِ عائدٌ إلى اللهِ تعالى؛ لدَلالةِ المقامِ عليه[٣].

- وإضافةُ الشُّركاءِ إليه في قولِه: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ على زَعْمِهم؛ تَوبيخًا لهم، والإضافةُ تكونُ بأدنى مُلابسةٍ. ومفعولَا (زعَمْتُم) مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ المعنى عليهما؛ إذ التَّقديرُ: زعمْتُموهم شُركائي[٤].

- قولُه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أمْرُه إيَّاهم بمُناداةِ شُركائِهم مُستعملٌ في معناه مع إرادةِ لازمِه، وهو إظهارُ باطلِهم؛ بقرينةِ فعْلِ الزَّعمِ، ولذلك لم يسَعْهم إلَّا أنْ يُنادوهم، حيث قال: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لطمَعِهم، فإذا نادَوهم تبيَّنَ لهم خَيبةُ طمَعِهم، ولذلك عُطِفَ فعْلُ الدُّعاءِ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّعقيبِ، وأتَى به في صِيغَةِ المُضيِّ؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِ وُقوعِه حينئذٍ، حتَّى كأنَّه قدِ انْقَضى[٥].

- وفيه تقديمُ وصْفِهم بوصْفِ الشُّركاءِ قبْلَ فعْلِ الزَّعمِ؛ تَهكُّمًا بالمُخاطبينَ، وتَوبيخًا لهم، ثمَّ أردَفَ بما يدُلُّ على كذِبِهم فيما ادَّعَوا بفعْلِ الزَّعمِ الدَّالِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

على اعتقادٍ باطلٍ[(١)].

- قولُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، أي: نادَوهم للإغاثةِ، وفيه بَيانٌ لكَمالِ اعتنائِهم بإعانتِهم على طريقةِ الشَّفاعةِ؛ إذ مَعلومٌ أنْ لا طريقَ إلى المُدافعةِ، وفي إيرادِ عدمِ استجابتِه لهم مع ظُهورِه: تَهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بأنَّهم في الحَماقةِ بحيثُ لا يَفْهمونه إلَّا بالتَّصريحِ به[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾، أي: جعَلْنا المَوبقَ ورآهُ المُجْرِمون؛ فذِكْرُ المُجرِمين إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للدِّلالةِ على ما يُفيده ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ من تلبُّسِهم بما استحقُّوا به عذابَ النَّارِ[(٣)]، وكذلك عُبِّرَ بـ(النَّارِ) في مَقامِ الإضمارِ للمَوبقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المَوبقَ هو النَّارُ، فهو شَبيهٌ بعطْفِ البَيانِ[(٤)]. ولم يقل: (وَرأَوا)، ولكنَّه أظهرَ؛ للدَّلالةِ على تَعليقِ الحُكمِ بالوصفِ[(٥)].

- قولُه: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ والظَّنُّ مُستعمَلٌ هنا في معنى التَّحقُّقِ، ولعلَّ اختيارَه هنا ضربٌ من التَّهكُّمِ بهم، بأنَّهم رَجَّحوا أنَّ تلك النَّارَ أُعِدَّتْ لأجْلِهم في حينِ أنَّهم مُوقِنون بذلك. والمُواقعةُ: مُفاعَلةٌ من الوُقوعِ، وهو الحصولُ؛ لقصْدِ المُبالَغةِ، أي: واقِعون فيها وُقوعَ الشَّيءِ الحاصلِ في موقعٍ يتطلَّبُه، فكأنَّه يقَعُ هو فيه[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٦).

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ في الكلامِ إيجازٌ، تَقديرُه: وحاوَلوا الانقلابَ أو الانصرافَ، فلم يَجِدوا عنها مَصرِفًا(٧).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ عطفٌ على الجُملِ السَّابقةِ الَّتي ضُرِبَت فيها أمثالٌ، مِن قولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]، ولمَّا كان في ذلك لهم مَقنعٌ، وما لهم منه مَدفعٌ، عاد إلى التَّنويهِ بهَدْيِ القُرآنِ عودًا ناظرًا إلى قولِه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقولِه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ فأشارَ لهم أنَّ هذه الأمثالَ الَّتي قرَعَتْ أسماعَهم هدْيٌ من جُملةِ هدْيِ القُرآنِ الَّذي تبرَّموا منه(٨).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ الإسراءِ، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، فقُدِّمَ في هذه الآيةِ أحدُ مُتعلِّقي فعْلِ التَّصريفِ على الآخرِ؛ إذ قُدِّمَ هنا قولُه: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾، عكْسَ آيةِ سُورةِ الإسراءِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ذِكْرَ القُرآنِ أهمُّ من ذِكْرِ النَّاسِ بالأصالةِ، ولا مُقْتضى للعُدولِ عنه هنا، بل الأمْرُ بالعكْسِ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ، وأنَّه يَنزِلُ بالحقِّ لا بِهوى الأنفُسِ. والنَّاسُ:

---

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اسمٌ عامٌّ لكلِّ مَن يبلُغه القرآنُ في سائرِ العُصورِ المُستقبَلةِ، والمقصودُ على الخُصوصِ المُشرِكون، كما دَلَّ عليه جُملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، فوِزانُه وِزانُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وسيجيءُ قولُه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]. وهذا يُشبِهُ العامَّ الواردَ على سبَبٍ خاصٍّ وقرائنَ خاصَّةٍ[(١)].

- وجُملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ تَذييلٌ، وهو مُؤذِنٌ بكلامٍ مَحذوفٍ على وجْهِ الإيجازِ، والتَّقديرُ: فجَادلوا فيه؛ وكان الإنسانُ أكثرَ جدَلًا، فإنَّ الإنسانَ اسمٌ لنَوعِ بني آدمَ، وحرْفُ (أل) فيه لتعريفِ الحقيقةِ، فهو أوسعُ عُمومًا من لفْظِ (النَّاس)[(٢)].

- وقولُه: ﴿شَىْءٍ﴾ اسمٌ مُفردٌ مُتوغِّلٌ في العُمومِ؛ ولذلك صَحَّت إضافةُ اسمِ التَّفضيلِ إليه، أي: أكثرَ الأشياءِ، واسمُ التَّفضيلِ هنا مَسلوبُ المُفاضَلةِ، وإنَّما أُتِيَ بصِيغَتِه؛ لقصْدِ المُبالَغةِ في شِدَّةِ جدَلِ الإنسانِ، وجُنوحِه إلى المُماراةِ والنِّزاعِ حتَّى فيما تَرْكُ الجدالِ في شأْنِه أحسَنُ، بحيث إنَّ شِدَّةَ الوصفِ فيه تُشْبِهُ تفوُّقَه في الوصْفِ على كلِّ مَن يَعرِضُ أنَّه موصوفٌ به[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ هذا تأسُّفٌ عليهم، وتَنبيهٌ على فَسادِ حالِهم؛ لأنَّ هذا المنْعَ لم يكُنْ بقصْدٍ منهم أنْ يَمتنِعوا ليَجِيئَهم العذابُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٦-٣٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنَّما امْتَنعوا هم مع اعتقادِ أنَّهم مُصيبونَ، لكنَّ الأمْرَ في نفْسِه يَسوقُهم إلى هذا، فكان حالُهم يَقْتضي التَّأسُّفَ عليهم(١).

- وهو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ ...﴾ [الكهف: ٥٤]، ومعناها مُتَّصِلٌ تَمامَ الاتِّصالِ بمعنى الجُملةِ الَّتي قبْلَها، بحيث لو عُطِفَت عليها بفاءِ التَّفريعِ لكان ذلك مُقْتضَى الظَّاهِرِ، وتُعْتبَرُ جُملةُ ﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] مُعترِضةً بينهما، لولا أنَّ في جَعْلِ هذه الجُملةِ مُستقِلَّةً بالعطْفِ اهتمامًا بمضمونِها في ذاتِه، بحيث يُعَدُّ تَفريعُه على مَضمونِ الَّتي قبْلَها يَحيدُ به عن الموقعِ الجديرِ هو به في نُفوسِ السَّامعينَ؛ إذ أُريدَ أنْ يكونَ حقيقةً مُقرَّرةً في النُّفوسِ. ولهذه الخُصوصيَّةِ عُدِلَ في هذه الجُملةِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ بقولِه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾، وبقولِه: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ دونَ أنْ يقولَ: وما منَعَهم أنْ يُؤمِنوا إذ جاءهم الهُدى؛ قصْدًا لاستقلالِ الجُملةِ بذاتِها غيرِ مُستعانةٍ بغيرِها، فتكونُ فائدةً مُستقِلَّةً تَستأهِلُ توجُّهَ العُقولِ إلى وعْيِها لذاتِها، لا لأنَّها فرعٌ على غيرِها. على أنَّ عُمومَ (النَّاس) هنا أشمَلُ من عُمومِ لفْظِ (النَّاس) في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ [الكهف: ٥٤]؛ فإنَّ ذلك يعُمُّ النَّاسَ الَّذين يَسْمَعون القُرآنَ في أزمانِ ما بعْدَ نُزولِ تلك الآيةِ، وهذا يعُمُّ النَّاسَ كلَّهم الَّذين امْتَنعوا من الإيمانِ باللهِ. وكذلك عُمومُ لفْظِ (الهُدى) يشمَلُ هُدى القُرآنِ وما قبْلَه من الكُتبِ الإلهيَّةِ وأقوالِ الأنبياءِ كلِّها؛ فكانت هذه الجُملةُ قِياسًا تَمثيليًّا بشَواهدِ التَّاريخِ وأحوالِ تلقِّي الأُمَمِ دَعواتِ رُسلِهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩).

- وذِكْرُ الاستغفارِ هنا بعْدَ ذِكْرِ الإيمانِ تلْقينٌ لهم بأنْ يُبادِروا بالإقلاعِ عنِ الكُفرِ، وأنْ يَتوبوا إلى اللهِ من تَكذيبِ النَّبيِّ ومُكابرتِه(١).

- قولُه: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: إلَّا طلَبُ، أو: انتظارُ، أو: تَقديرُ أنْ تَأتيَهم سُنَّةُ الأوَّلينَ، وهي الاستئصالُ؛ فحُذِفَ المُضافُ وأُقِيمَ المُضافُ إليه مَقامَه(٢) -وهذا على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ- والمرادُ: ما منَعهم إلَّا سببُ إتيانِ سُنَّةِ الأوَّلينَ لهم، أو إتيانُ العذابِ؛ وسببُ ذلك هو: التكبُّرُ والمكابرةُ والتمسُّكُ بالضلالِ؛ فلا يُوجَدُ مانعٌ يَمنعُهم الإيمانَ يُعطيهم المعذرةَ به، ولكنَّهم ساروا على سَننِ مَن قَبْلَهم مِن الضلالِ. وهذا كنايةٌ عن انتفاءِ إيمانِهم إلى أنْ يَحُلَّ بهم أحدُ العَذابَينِ، وفي هذه الكِنايةِ تهديدٌ وإنذارٌ وتحذيرٌ، وحثٌّ على المبادرةِ بالاستغفارِ مِن الكفرِ(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾

- جُملةُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وكِلْتا الجُملتينِ مُرتبِطٌ بجُملتيْ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وتَرتيبُ هذه الجُملِ في الذِّكرِ جارٍ على تَرتيبِ مَعانيها في النَّفسِ، بحيث يُشْعِرُ بأنَّ كلَّ واحدةٍ منها ناشئٌ مَعناها على معنى الَّتي قبْلَها؛ فكانت جُملةُ ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ مُفيدةً معنى الاستدراكِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٢).

أي: أرسَلْنا الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ بما فيه مَقنعٌ لطالبِ الهُدى، ولكنَّ الَّذين كَفَروا جادَلوه بالباطلِ؛ لإزالةِ الحقِّ لا لقصْدٍ آخرَ(١).

- واختيارُ فِعْلِ المُضارَعةِ ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ المُجادَلةِ، أو لاستحضارِ صُورةِ المُجادَلةِ(٢).

- وجُملةُ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾؛ فإنَّهم ما قَصَدوا مِن المُجادَلةِ الاهتداءَ، ولكنْ أرادوا إدحاضَ الحقِّ، واتِّخاذَ الآياتِ كلِّها -وبخاصَّةٍ آياتُ الإنذارِ- هُزؤًا(٣).

- وفعلُ الاتِّخاذِ إذا قُيِّد بحالةٍ يفيدُ شدَّةَ اعتناءِ المُتَّخِذِ بتلك الحالةِ بحيثُ ارتَكَب الفعلَ لأجلِها، وجَعَله لها قَصْدًا(٤).

- وعطْفُ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ على (الآياتِ) عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ لأنَّه أبلَغُ في الدَّلالةِ على توغُّلِ كُفْرِهم وحَماقةِ عُقولِهم. و(مَا) مَصدريةٌ، أي: وإنذارَهم، والإخبارُ بالمصدرِ للمُبالَغةِ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٥٣).

الآيات (٥٧-٥٩)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَكِنَّةً﴾: أي: أغطيةً، جمعُ كِنانٍ، وهو الغِطاءُ، وأصلُ (كنن): يدلُّ على سترٍ وصونٍ[١].

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا، وصممًا، وأصلُ (وقر): يدلُّ على ثِقَلِ الشيءِ[٢].

﴿مَوْئِلًا﴾: أي: مَلْجَأً؛ يُقال: وَأَلَ فلانٌ إلى كذا: إذا لجأ، وأصلُ (وأل): يدُلُّ على تجَمُّعٍ والتِجاءٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا سوءَ عاقبةِ المعرضينَ: لا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا لِنَفسِه ممَّن وُعِظَ بآياتِ رَبِّه الواضِحةِ، فأعرَضَ عنها، ونَسِيَ ما قدَّمَتْه يداه مِن السيِّئاتِ فلم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(٦/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٩٩).

يَرجِعْ عنها، ولم يَتُبْ إلى اللهِ منها، إنَّا جعَلْنا على قُلوبِهم أغطيةً، لئَلَّا يَفهَموا ما ذُكِّروا به منها، وجعَلْنا في آذانِهم ثِقلًا؛ لئلَّا يسمَعوه سماعَ انتفاعٍ، وإن تَدْعُهم إلى الحقِّ فلن يَستَجيبوا لك، ولن يَهتَدوا إليه أبدًا.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدلُّ على سعةِ رحمتِه، وعظيمِ فضلِه، فيقول: وربُّك الغفورُ لذُنوبِ عِبادِه إذا تابوا، ذو الرَّحمةِ بهم، لو أراد أن يُعاقِبَ هؤلاء المُعرِضينَ عن آياتِه بما كَسَبوا من الذُّنوبِ والآثامِ، لعجَّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا، بل لهم مَوعِدٌ وأجلٌ مقدَّرٌ لعذابِهم إذا حلَّ لم يتأخَّرْ عنهم، ولن يَجِدوا مَلجَأً يَلجَؤون إليه مِنَ العذابِ، وتلك القُرى أهلَكْنا أهلَها حين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، وجعَلْنا لهلاكِهم مَوعِدًا مُقَدَّرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ جِدالَهم بالباطِلِ، وصَفَهم بعدَه بالصِّفاتِ المُوجِبةِ للخِزيِ والخِذلانِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكينَ مِن مُجادَلةِ الرُّسُلِ، ومِن استهزائِهم بالإنذارِ، وعرَّضَ بحَماقتِهم؛ أتبَعَ ذلك بأنَّه أشَدُّ الظُّلمِ[2].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٤).

أي: ولا أحدَ أظلمُ لِنَفسِه ممَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه(١) التي تَدُلُّه على طريقِ الحَقِّ والنَّجاةِ مِن الهَلاكِ، فأعرضَ عنها، فلم يتدبَّرْها، ولم يتَّعِظْ ويتذكَّرْ بها، ونَسِيَ ما عَمِلَ مِن السيِّئاتِ مِن الكُفرِ والمعاصي، فلم يتفكَّرْ في عاقِبتِها، ولم يَتُبْ إلى اللهِ منها(٢).

(١) قال الشنقيطي: (لا أحدَ أظلَمُ، أي: أكثَرُ ظُلمًا لنَفسِه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾، أي: وُعِظَ بآياتِ رَبِّه، وهي هذا القرآنُ العظيمُ ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ أي: تولَّى وصَدَّ عنها. وإنَّما قلنا: إنَّ المرادَ بالآياتِ: هذا القرآنُ العظيمُ؛ لقرينةِ تذكيرِ الضميرِ العائدِ إلى الآياتِ في قوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾، أي: القرآنَ المُعَبَّرَ عنه بالآياتِ، ويحتملُ شمولُ الآيات للقرآنِ وغيرِه، ويكونُ الضميرُ في قوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ أي: ما ذُكِرَ مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: ذكَّره الواعِظُ بآياتِ ربِّه الكونيَّةِ، كأخْذِه الأمَمَ المكذِّبينَ، أو الشَّرعيةِ، كالقُرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٢).

وقال الشوكاني: (أي: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه مِمَّنْ وُعِظَ بآياتِ رَبِّه التَّنزيلِيَّةِ أو التَّكوينيَّةِ أو مجموعِهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٢-١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٠-٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٩).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى نسيانِ ما قَدَّمت يداه أنَّه لم يَعرِضْ حالَه وأعمالَه على النظَرِ والفِكرِ؛ لِيَعلمَ أهي صالحةٌ لا تُخشى عواقِبُها، أم هي سيِّئةٌ مِن شأنِها ألَّا يَسلَمَ مُقترِفُها من مؤاخذةٍ. والصلاحُ بَيِّنٌ والفسادُ بيِّنٌ؛ ولذلك سمِّيَ الأوَّلُ معروفًا، والثاني منكرًا، ولا سيَّما بعدَ أن جاءتهم الذِّكرى على لسانِ الرسولِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فهم بمجموعِ الحالَينِ أشدُّ الناسِ ظُلمًا، ولو تفكَّروا قليلًا لعَلِموا أنَّهم غيرُ مُفلِتينَ مِن لقاءِ جزاءِ أعمالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٤).

وقال أيضًا: (والنسيانُ: مُستعمَلٌ في التغاضي عن العَمَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٥).

وقال الشنقيطي: (اليدُ أكثَرُ مُزاولةً للأعمالِ مِن غيرِها من الأعضاءِ، فنُسِبَت الأعمالُ إليها على عادةِ العرَبِ في كلامِهم، وإن كانت الأعمالُ التي قدَّمها: منها ما ليس باليدِ، كالكُفرِ باللسانِ والقَلبِ، وغير ذلك من الأعمالِ التي لا تزاوَلُ باليدِ، كالزِّنا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣١٠).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا[١] على قُلوبِ هؤلاء المُعرِضينَ عن آياتِ اللهِ إذا ذُكِّروا بها أغطيةً؛ لئَلَّا يَفهَموا ما ذُكِّروا به منها، ولا يُدرِكوا معانيَها إدراكًا ينتَفِعونَ به[٢].

---

(١) قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ قيل: إنه تعليلٌ لإعراضِهم ونِسيانِهم، وممن ذهَب إلى ذلك: البيضاوي، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩١-٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥).

قال القاسمي: (والجملةُ تعليلٌ لإعراضِهم ونسيانِهم، بأنَّهم مطبوعٌ على قلوبِهم؛ وذلك لإيثارِهم الضَّلالَ على الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥).

وقد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ على أنَّ الأكِنَّةَ والطبعَ والختمَ ونحوَ ذلك سَبَبُه الأوَّلُ الإعراضُ عن آياتِ اللَّهِ، والكفرُ بها. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

وقال ابن القيم: (قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهذه الأكِنَّةُ والوَقرُ: هي شِدَّةُ البُغضِ والنُّفرةِ والإعراضِ، التي لا يستطيعون معها سمعًا ولا عقلًا، والتحقيقُ أنَّ هذا ناشئٌ عن الأكِنَّة والوَقرِ فهو موجِبُ ذلك ومقتضاه، فمن فسَّر الأكِنَّةَ والوَقْرَ به، فقد فسَّرَهما بموجِبِهما ومقتضاهما. وبكُلِّ حال فتلك النُّفرةُ والإعراضُ والبُغضُ: من أفعالِهم، وهي مجعولةٌ لله سبحانه، كما أنَّ الرأفةَ والرحمةَ ومَيلَ الأفئدةِ إلى بيتِه: هو مِن أفعالِهم، والله جاعِلُه، فهو الجاعِلُ للذواتِ وصفاتِها وأفعالِها، وإراداتِها واعتقاداتِها، فذلك كلُّه مجعولٌ مخلوقٌ له، وإن كان العبدُ فاعِلًا له باختيارِه وإرادتِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١١، ٣١٣).

ممَّن أعاد الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ إلى القرآنِ: ابنُ تيمية، وابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾.

أي: وجعَلْنا في آذانِ المُعرِضينَ عن آياتِ اللهِ ثِقلًا؛ لئلَّا يَسمَعوا آياتِه سَماعَ فَهمٍ وانتِفاعٍ بها[١].

﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾.

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ يتناولُ مَن لم يفهَمْ منه تفسيرَ اللَّفظِ كما يُفهَمُ بمجَرَّدِ العربيةِ، ومَن فَهِمَ ذلك لكِنْ لم يعلَمْ نَفسَ المرادِ في الخارجِ، وهو: «الأعيان» و«الأفعال» و«الصفات» المقصودةُ بالأمرِ والخبرِ؛ بحيث يراها ولا يعلَمُ أنَّها مدلولُ الخِطابِ، مِثلُ: مَن يعلَمُ وَصفًا مذمومًا ويكونُ هو متَّصِفًا به أو بعضًا مِن جِنسِه، ولا يعلَمُ أنَّه داخِلٌ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٩).

وقال ابنُ القَيِّم في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ الإسراءِ، الآية (٤٦): (أخبر سبحانَه أنَّه منعَهم فِقهَ كَلامِه، وهو الإدراكُ الذي يَنتفِعُ به من فَقِهَه، ولم يكن ذلك مانعًا لهم من الإدراكِ الذي تقومُ به الحجَّةُ عليهم... ومعلومٌ أنَّهم لم يَعدَموا السَّمعَ جملةً ويصيروا كالأصَمِّ؛ ولذلك ينفي سُبحانَه عنهم السَّمعَ تارةً، ويُثبِتُه أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ومعلومٌ أنهم قد سمعوا القرآنَ، وأَمَرَ الرَّسولَ بإسماعِهم إيَّاه؛ وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فهذا السَّمعُ المنفيُّ عنهم سَمعُ الفَهمِ والفِقهِ. والمعنى: ولو عَلِمَ الله فيهم خيرًا لأسمَعَهم سمعًا ينتَفِعونَ به، وهو فِقهُ المعنى وعَقلُه، وإلَّا فقد سمعوه سمعًا تقومُ به عليهم الحُجَّةُ، ولكِنْ لَمَّا سَمِعوه مع شِدَّةِ بُغضِه وكراهتِه ونُفرتِهم عنه، لم يفهَموه!). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٠١-١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١١).

أي: وإن تَدعُهم -يا مُحمَّدُ- إلى طريقِ الحَقِّ، فلن يَسلُكوه أبدًا؛ لإعراضِهم، وطبْعِ اللهِ على قُلوبِهم وأسماعِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦- ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠- ٨١].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

قال السعدي: (﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧]؛ لأنَّ الذي يُرجى أن يُجيبَ الدَّاعيَ للهُدى مَن ليس عالِمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثمَّ عَمُوا، ورأوا طريقَ الحَقِّ فتَرَكوه، وطريقَ الضَّلالِ فسَلَكوه، وعاقَبَهم الله بإقفالِ القلوبِ والطبعِ عليها: فليس في هدايتِهم حيلةٌ ولا طريقٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

وقال الشنقيطي: (هذه الآيةُ وأمثالُها في القرآنِ فيها وجهانِ معروفانِ عندَ العلماءِ:

أحدُهما: أنَّها في الذين سبَق لهم في علمِ الله أنَّهم أشقياءُ، عياذًا بالله تعالى.

والثاني: أنَّ المرادَ أنهم كذلك ما داموا متلبِّسينَ بالكفرِ، فإنْ هداهم الله إلى الإيمانِ وأنابوا زال ذلك المانِعُ. والأوَّلُ أظهَرُ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣١٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مِن عادةِ القُرآنِ تَعقيبَ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ والعكس، فلمَّا رماهم بقوارعِ التَّهديدِ والوعيدِ؛ عطَفَ على ذلك التَّعريضَ بالتذكيرِ بالمغفرةِ؛ لعلَّهم يتفكَّرونَ في مرضاتِه؛ ثمَّ التَّذكيرَ بأنَّه يَشمَلُ الخَلقَ برَحمتِه في حينِ الوعيدِ، فيؤخِّرُ ما توعَّدَهم به إلى حَدٍّ معلومٍ؛ إمهالًا للنَّاسِ لعلَّهم يَرجِعونَ عن ضلالِهم، ويتدبَّرونَ فيما هم فيه مِن نِعَمِ الله تعالى؛ فلعَلَّهم يَشكُرونَ[1].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- كثيرُ السَّترِ على ذُنوبِ عِبادِه، والتَّجاوُزِ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهم[2].

﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾.

أي: لو أراد اللهُ أن يُعاقِبَ هؤلاء الكفارَ، المُعرِضينَ عن آياتِه، بما عَمِلوا من الذُّنوبِ والآثامِ التي من جُملتِها: الكُفرُ، والمُجادلةُ، والإعراضُ؛ لعجَّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا، ولكِنَّه تعالى لاتِّصافِه بالمغفرةِ والرَّحمةِ، ترَكَ معاجَلَتَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٦).

قال الرسعني: (﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ بهم إذ لم يُعاجِلْهم بالعقوبةِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣١٠).
ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠).

وقال الشنقيطي: (﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾: يرحَمُ عبادَه المؤمنينَ يومَ القيامةِ، ويرحمُ الخلائقَ في الدُّنيا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

أي: ولكنْ لهم مَوعِدٌ[(١)] ....

الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٥).

وممن اختار المعنَى المذكورَ، وهو أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ يعودُ على الكفارِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، وابنُ عطيةَ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٠، ٣٥١).

وممن اختار أنَّه يعودُ على الناسِ: السعدي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٥).

(١) قيل: المرادُ بالموعدِ هنا: يومُ القيامةِ. وممن قال بذلك: البغوي، والخازنُ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره ابنُ عثيمين. ونسَبه الواحدي إلى المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٢).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ الموعدَ هنا يومُ القيامةِ: السديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٦٩).

وقيل: المرادُ به: يومُ بدرٍ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٠٨).

قال ابنُ عطيةَ: (ولكِنَّه تعالى أخَّرَهم إلى موعدٍ لا يجِدون عنه منجًى، قالت فرقةٌ: هو أجَلُ الموتِ، وقالت فرقةٌ: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يومُ بدرٍ ...). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦).

وقال القرطبي: (﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي: أجَلٌ مقَدَّرٌ يؤخَّرون إليه، أي: إذا حَلَّ لم يتأخَّرْ عنهم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧-٨).

مَضروبٌ، وأجلٌ مقدَّرٌ لعذابِهم[1]، يُؤَخِّرُهم اللهُ إليه، ولن يَجِدوا مَلجَأً يَلجَؤون إليه مِنَ العذابِ[2].

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعد أن أُزيلَ غُرورُ الكافِرينَ بتأخُّرِ العذابِ، وأُبطِلَ ظَنُّهم الإفلاتَ منه ببيانِ أنَّ ذلك إمهالٌ مِن أثَرِ رَحمةِ الله بخَلقِه؛ ضرَبَ لهم المثَلَ في ذلك بحالِ أهلِ القُرى السَّالفينَ الذين أُخِّرَ عنهم العذابُ مُدَّةً، ثمَّ لم يَنجُوا منه بأَخَرةٍ، فالجُملةُ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾[3].

وأيضًا لَمَّا كانت هذه سُنَّتَه في القُرونِ الماضيةِ والأُمَمِ الخاليةِ؛ قال تعالى

وقال القاسمي: (الموعدُ المذكورُ هو يومُ بدرٍ، أو: الفتحُ المشارُ إليه في كثيرٍ مِن الآياتِ، أو: يومُ القيامةِ. والكلُّ لاحقٌ بهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، أي: مكانًا يَؤولون إليه، وهذا يومُ القيامةِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ ما يحصُلُ للكُفَّارِ مِن القَتلِ على أيدي المؤمنينَ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] إذًا يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ ما سيكونُ عليهم من القَتلِ والأخذِ في الدنيا، أو ما سيكونُ عليهم يوم القيامة الذي لا مفرَّ منه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٤)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٤١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧، ٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٨).

عاطِفًا على قَولِه: ﴿لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾ مُرَوِّعًا لهم بالإشارةِ إلى ديارِهم، المُصَوِّرةِ لدمارِهم(١):

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾.

أي: وتلك قُرى قَومِ نُوحٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، وشُعَيبٍ، ولوطٍ، وغيرِهم من الأُمَمِ الماضيةِ؛ أهلَكْنا أهلَها لَمَّا ظلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا * وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا * وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ * وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ * وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢].

﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾.

أي: وجعَلْنا لوَقتِ إهلاكِ القُرى الظَّالِمةِ مِيقاتًا مَعلومًا ومَوعِدًا مُقَدَّرًا لا يُتقَدَّمُ عنه ولا يُتأَخَّرُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾ فيه مِنَ التَّخويفِ لِمَن ترَكَ الحَقَّ بعد عِلْمِه؛ أن يُحالَ بينَهم وبينَه، ولا يتمَكَّنَ منه بعدَ ذلك، ما هو أعظَمُ مُرَهِّبٍ وزاجِرٍ عن ذلك[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ حَثٌّ على فِقْهِ القرآنِ، وأنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يقرأَ القرآنَ، ويَتعَلَّمَ معناه، كما كان الصَّحابةُ -رضوانُ الله عليهم- لا يتجاوَزونَ عَشرَ آياتٍ حتى يتعَلَّموها وما فيها مِن العِلمِ والعَمَلِ[2]؛ فقَولُه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يعودُ إلى القرآنِ كُلِّه، فعُلِمَ أنَّ اللهَ يحِبُّ أن يُفقَهَ؛ ولهذا قال الحسَنُ البَصريُّ: (ما أنزل اللهُ آيةً إلَّا وهو يحِبُّ أن يُعلَمَ في ماذا أنزِلَت وماذا عَنى بها، وما استَثنى مِن ذلك لا مُتَشابِهًا ولا غيرَه). وقال مجاهِدٌ: (عرَضْتُ المُصحَفَ على ابنِ عبَّاسٍ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه مرَّاتٍ، أقِفُ عند

قال البقاعي: (كما أنَّا جعَلْنا لهؤلاء موعِدًا في الدنيا بيومِ بدرٍ والفتحِ وحُنَينٍ ونحوِ ذلك، وفي الآخرةِ لن نُخلِفَه، وكذا كُلُّ أمرٍ يقولُه نبيٌّ من الأنبياءِ عَنَّا لا يقَعُ فيه خُلفٌ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

كلِّ آيةٍ وأسألُه عنها)[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أخبَرَ تعالى عن سَعةِ مَغفِرتِه ورَحمتِه، وأنَّه يَغفِرُ الذُّنوبَ، ويتوبُ اللهُ على من يتوبُ، فيتغَمَّدُه برَحمتِه، ويَشمَلُه بإحسانِه، وأنَّه لو آخَذَ العِبادَ على ما قَدَّمَت أيديهم من الذُّنوبِ، لعجَّلَ لهم العذابَ، ولكِنَّه تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ بالعقوبةِ، بل يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، والذنوبُ لا بُدَّ مِن وقوعِ آثارِها وإن تأخَّرَت عنها مُدَّةً طويلةً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ فيه تحذيرٌ مِن الظُّلمِ؛ إذ نتيجتُه الإهلاكُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يُخبِرُ تعالى أنَّه لا أعظَمَ ظُلمًا، ولا أكبَرَ جُرمًا، مِن عَبدٍ ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ وبُيِّنَ له الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهدَى مِنَ الضَّلالِ، وخُوِّفَ ورُهِّبَ ورُغِّبَ؛ فأعرض عنها، فلم يتذكَّرْ بما ذُكِّرَ به، ولم يَرجِعْ عمَّا كان عليه، ونَسِي ما قَدَّمَت يداه مِن الذُّنوبِ، ولم يُراقِبْ علَّامَ الغُيوبِ؛ فهذا أعظَمُ ظُلمًا مِن المُعرِضِ الذي لم تأتِه آياتُ الله ولم يُذكَّرْ بها، وإن كان ظالِمًا، فإنَّه أخَفُّ ظُلمًا مِن هذا؛ لكَونِ العاصي على بصيرةٍ وعلمٍ أعظَمَ مِمَّن ليس كذلك[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وقد جاءت

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

آياتٌ أُخَرُ يُفهَمُ منها خِلافُ هذا، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ.

وللجَمعِ بين هذه الآياتِ أوجهٌ:

منها: تخصيصُ كُلِّ موضِعٍ بمعنى صِلتِه، أي: لا أحَدَ مِن المانعينَ أظلَمُ ممَّن منع مساجِدَ الله، ولا أحدَ مِن المُفتَرين أظلَمُ ممَّن افترى على الله كَذِبًا، وإذا تخصَّصَت بِصِلاتِها زال الإشكالُ.

ومنها: أنَّ التَّخصيصَ بالنِّسبةِ إلى السَّبقِ، أي: لَمَّا لم يسبِقْهم أحدٌ إلى مِثلِه حُكِمَ عليهم بأنَّهم أظلَمُ ممَّن جاء بعدَهم سالِكًا طريقَهم، وهذا يَؤولُ معناه إلى ما قبلَه؛ لأنَّ المرادَ السَّبقُ إلى المانعيَّةِ والافترائيَّةِ مَثلًا.

ومنها: أنَّ نَفيَ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نَفيَ المساواةِ؛ فلم يكُنْ أحدٌ ممَّن وُصِفَ بذلك يزيدُ على الآخَرِ؛ لأنَّهم يتساوَونَ في الأظلميَّةِ، فيصيرُ المعنى: لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن منَعَ مساجِدَ الله، ومَن افترى على الله كَذِبًا، ومَن كذَّب بآياتِ اللهِ، ولا إشكالَ في تساوي هؤلاء في الأظلميَّةِ، ولا يدُلُّ على أنَّ أحَدَهم أظلَمُ مِن الآخَرِ، كما إذا قُلْتَ: لا أحَدَ أفقَهُ مِن فلانٍ وفلانٍ مثلًا[1].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١٠-٣١١). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٩٧).

قال ابنُ عثيمينَ بعد أن ذكر الوجهَ الأوَّلَ: (وقيل: إنَّ «أظلم» و«أظلم» يشتركانِ في الأظلميَّةِ ويتساويانِ فيها بالنسبةِ لغيرِهما، وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لا يمكِنُ أن نقول: إنَّ مَن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعرض عنها أنَّه يُساوي مَن افترى على الله كَذِبًا، أو مَن منع مساجِدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسمُه يُساوي من كَذَب على الله، ونحو ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إنْ قيل: إذا كانوا لا يستطيعونَ السَّمعَ ولا يُبصِرون ولا يَفقَهون؛ لأنَّ الله جعل الأكِنَّةَ المانعةَ مِن الفَهمِ على قلوبِهم، والوَقْرَ -الذي هو الثِّقلُ المانِعُ من السَّمعِ- في آذانِهم، فهم مجبورونَ، فما وجهُ تعذيبِهم على شيءٍ لا يستطيعونَ العُدولَ عنه، والانصرافَ إلى غيره؟!

فالجواب: أنَّ الله جَلَّ وعلا بيَّنَ في آياتٍ كثيرةٍ مِن كتابِه العظيمِ أنَّ تلك الموانِعَ التي يجعَلُها على قُلوبِهم وسَمعِهم وأبصارِهم، كالخَتمِ والطَّبعِ، والغِشاوةِ والأكِنَّة، ونحو ذلك: إنما جعَلَها عليهم جزاءً وِفاقًا لِما بادروا إليه من الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم، فأزاغ اللهُ قُلوبَهم بالطَّبعِ والأكِنَّةِ ونحوِ ذلك؛ جزاءً على كُفرِهم. فمن الآياتِ الدالَّةِ على ذلك قولُه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، أي: بسبَبِ كُفرِهم، وهو نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في أنَّ كُفرَهم السَّابِقَ هو سبَبُ الطبعِ على قلوبِهم؛ وقولُه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وهو دليلٌ أيضًا واضِحٌ على أنَّ سَبَبَ إزاغةِ الله قُلوبَهم هو زيغُهم السَّابِقُ؛ وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، وقَولُه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولُه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقَولُه تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ الطبعَ على القُلوبِ، ومَنْعَها مِن فَهمِ ما ينفَعُ: عِقابٌ مِن اللهِ على الكُفرِ السَّابِقِ على ذلك[١].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١١).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ إنْ قال قائِلٌ: هل في هذا تيئيسٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أنَّه وإن دعا لا يُقبَلُ منه، أو فيه تَسليةٌ له؟

فالجواب: في هذا تسليةٌ له، وأنَّهم إذا لم يَقبَلوا الحَقَّ فلا عليك منهم؛ ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ هذا فيه تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يمكِنُ أن يقولَ: لماذا لم يُعاجَلوا بالعُقوبةِ، كيف يُكَذِّبونَني وأنا رسولُ الله ولم يعاقِبْهم؟! ولكِنْ بَيَّنَ اللهُ له أنَّه هو ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الذي يستُرُ الذنوبَ ويتجاوَزُ عنها، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: صاحِبُ الرَّحمةِ الذي يلطُفُ بالمُذنبِ؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: لو أراد اللهُ أن يؤاخِذَ النَّاسَ بما كسبوا، لعجَّلَ لهم العذابَ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ إن قيل: ظاهِرُ هذه الآيةِ يَقتضي أنَّ تأخيرَ العَذابِ عن الكُفَّارِ برحمةِ الله، ومعلومٌ أنَّه لا نَصيبَ لهم في رَحمتِه! **فعنه جوابانِ**:

أحدهما: أنَّ الرحمةَ هاهنا بمعنى النِّعمةِ، ونِعمةُ الله لا يخلو منها مؤمِنٌ ولا كافِرٌ، فأمَّا الرَّحمةُ التي هي الغُفرانُ والرِّضا، فليس للكافِرِ فيها نصيبٌ.

والثاني: أنَّ رحمةَ اللهِ مَحظورةٌ على الكُفَّارِ يومَ القيامةِ، فأمَّا في الدُّنيا فإنَّهم ينالونَ منها العافيةَ والرِّزقَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٣).

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ قد يقولُ قائِلٌ: هنا إشكالٌ: فإنَّ القُرى جمادٌ، والجَمادُ لا يعودُ عليه الضميرُ بصيغةِ الجَمعِ، فمثلًا يقال: هذه البيوتُ عَمَّرْناها، ولا يقال: عَمَّرْناهم، فلماذا قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾؟

فالجواب: لأنَّ الذي يَهلِكُ هم أهلُ القرى، فالقرى قد يراد بها أهلُها، وقد يُراد بها البِناءُ المجتَمِعُ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾

- قولُه: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ عطْفُ إعراضِهم عن الذِّكرِ على التَّذكيرِ بفَاءِ التَّعقيبِ: إشارةٌ إلى أنَّهم سارعوا بالإعراضِ، ولم يَتْركوا لأنفُسِهم مُهلةَ النَّظرِ والتَّأمُّلِ[2].

- في قولِه: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ علَّلَ إعراضَهم ونسيانَهم بأنَّهم مَطبوعٌ على قُلوبِهم، وجمَعَ بعْدَ الإفرادِ؛ حمْلًا على لفْظِ (مَن) ومعناهُ[3].

- قولُه: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وأكثرُ ما يُستعمَلُ مثْلُ هذا التَّركيبِ في القُرآنِ في العملِ السَّيِّئِ، فصار جاريًا مَجْرى المثَلِ؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٠).

مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[١] [الشورى: ٣٠].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ مُستأنَفةٌ بَيانيَّةٌ، نشأَتْ على جُملةِ ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾، أي: إنْ لم تعلَمْ سبَبَ نِسيانِه ما قدَّمَت يداهُ، فاعلَمْ أنَّا جعَلْنا على قُلوبِهم أكِنَّةً[٢].

- وعاد الضَّميرُ مُفردًا في قولِه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ ﴾؛ لأنَّ الآياتِ المُضافةَ إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ هي القُرآنُ[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، وهي مُتفرِّعةٌ عليها، ولكنَّها لم تُعْطَفْ بالفاءِ؛ لأنَّ المقصودَ جَعْلُ ذلك في الإخبارِ المُستقِلِّ. وأكَّدَ نفْيَ اهتدائِهم بحرْفِ تَوكيدِ النَّفيِ وهو (لن)، وبلفظِ (أبدًا) المُؤكِّدِ لمَعنى (لن)، وبحرْفِ الجزاءِ المُفيدِ تسبُّبَ الجوابِ على الشَّرطِ. وإنَّما حصَلَ معنى الجزاءِ باعتبارِ تفرُّعِ جُملةِ الشَّرطِ على جُملةِ الاستئنافِ البَيانيِّ، أي: ذلك مُسبَّبٌ على فطْرِ قُلوبِهم على عدَمِ قَبولِ الحقِّ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ ﴾، أي: فلا يكونُ منهم اهتداءٌ الْبتَّةَ، كأنَّه مُحالٌ منهم؛ لشِدَّةِ تَصميمِهم، ﴿أَبَدًا ﴾ مُدَّةَ التَّكليفِ كلِّها. و(إذًا) جزاءٌ وجوابٌ؛ فدَلَّ على انتفاءِ اهتدائِهم لدعوةِ الرَّسولِ، بمعنى أنَّهم جَعَلوا ما يجِبُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦).

سبَبَ وُجودِ الاهتداءِ سببًا في انتفائِه، وعلى أنَّه جوابٌ للرَّسولِ، على تَقديرِ قولِه: ما لي لا أدْعوهم حِرْصًا على إسلامِهم؟ فقيل: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا من العامِّ، والمُرادُ به الخُصوصُ، وهو مَن طبَعَ اللهُ على قلْبِه وقَضى عليه بالمُوافاةِ على الكُفْرِ؛ إذ قدِ اهتدى كثيرٌ من الكَفرةِ وآمَنوا، ويحتملُ أنْ يكونَ ذلك حُكمًا على الجميعِ، وفي تَقييدِه بالأبديَّةِ مُبالَغةٌ في انتفاءِ هِدايتِهم[2].

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا...﴾ قاله هنا بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّعقيبِ؛ لأنَّ ما هنا في الأحياءِ من الكفَّارِ؛ فإنَّهم ذُكِّروا فأعْرَضوا عَقِبَ ما ذُكِّروا، وقاله في السَّجدةِ بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي؛ لأنَّ ما هناك في الأمواتِ من الكُفَّارِ؛ فإنَّهم ذُكِّروا مرَّةً بعْدَ أُخرى، ثمَّ أعْرَضوا بالموتِ فلم يُؤْمِنوا[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾

وجَّه الخِطابَ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ، مُفتتِحًا باستحضارِ الجَلالةِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ؛ إيماءً إلى أنَّ مَضمونَ الخبرِ تكريمٌ له، كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[4] [الأنفال: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٣٤٤). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٧٦-٨٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٩-١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦).

- في قولِه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أورَدَ المغفرةَ على صِيغَةِ المُبالَغةِ دُونَ الرَّحمةِ؛ للتَّنبيهِ على كثرةِ الذُّنوبِ. وتَقديمُ الوصْفِ الأوَّلِ؛ لأنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ، أو لأنَّه أهمُّ بحسَبِ الحالِ؛ إذ المَقامُ مَقامُ بَيانِ تأخُّرِ العُقوبةِ عنهم بعدَ استيجابِهم لها[1].

- قولُه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ خُصَّ بالذِّكرِ من أسماءِ اللهِ تعالى اسمُ (الغفورِ)؛ تَعريضًا بالتَّرغيبِ في الاستغفارِ. و(الغفورُ) اسمٌ يتضمَّنُ مُبالغةَ الغُفرانِ؛ لأنَّه تعالى واسعُ المغفرةِ؛ إذ يغفِرُ لمَن لا يُحْصَونَ، ويغفِرُ ذُنوبًا لا تُحْصى إنْ جاءه عبْدُه تائبًا مُقلِعًا مُنكسِرًا، على أنَّ إمهالَه الكُفَّارَ والعُصاةَ هو أيضًا من أثرِ المغفرةِ؛ إذ هو مَغفرةٌ مُؤقَّتةٌ. وقولُه: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ هو المقصودُ تمهيدًا لجُملةِ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾؛ فلذلك كانت تلك الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾، باعتبارِ ﴿ٱلْغَفُورُ ﴾ الخبَرَ، وهو الوصْفُ الثَّاني. والمعنى: أنَّهم فيما كَسَبوه من الشِّركِ والعِنادِ أحرياءُ بتَعجيلِ العُقوبةِ، لكنَّ اللهَ يُمْهِلُهم إلى أمدٍ معلومٍ مُقدَّرٍ. وفي ذلك التَّأجيلِ رحمةٌ بالنَّاسِ، بتَمكينِ بعضِهم من مُهْلَةِ التَّدارُكِ وإعادةِ النَّظرِ، وفيه استبقاؤُهم على حالِهم زمنًا. فوصف ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ يساوي وصف (الرحيم)؛ لأن (ذو) تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه. وإنما عدل عن وصف (الرحيم) إلى ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾؛ للتنبيه على أنَّه خبر لا نعت تنبيهًا بطريقة تغيير الأسلوب؛ فإنَّ اسم (الرَّحيم) -مع كونِه مُشتَقًّا ومُتضمِّنًا لصِفةٍ- صارَ شَبيهًا بالأسماءِ الجامدةِ؛ لأنَّه صِيغَ بصِيغةِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ؛ فبَعُدَ عن مُلاحظةِ الاشتقاقِ فيه، واقترَبَ مِن صِنفِ الصِّفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣١).

الذَّاتيةِ[١].

- في قولِه: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ أُوثِرَتِ المُؤاخذةُ -المُنْبِئةُ عن شِدَّةِ الأخْذِ بسُرعةٍ- على التَّعذيبِ والعُقوبةِ ونحوِهما؛ للإيذانِ بأنَّ النَّفيَ المُستفادَ من مُقدمِ الشَّرطيَّةِ مُتعلِّقٌ بوصْفِ السُّرعةِ، كما يُنبِئُ عنه تاليها. وإيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ -وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ-؛ لإفادةِ أنَّ انتفاءَ تَعجيلِ العذابِ لهم بسبَبِ استمرارِ عدَمِ إرادةِ المُؤاخَذةِ؛ فإنَّ المُضارِعَ الواقعَ موقعَ الماضي يُفيدُ استمرارَ انتفاءِ الفعْلِ فيما مَضى[٢].

- جُملةُ: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾ معطوفةٌ على مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: لكنَّهم ليسوا بمُؤاخَذين بغْتةً...[٣].

- قولُه: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ (بل) للإضرابِ الإبطاليِّ عن مَضمونِ جوابِ (لو)، أي: لم يُعَجِّلْ لهم العذابَ؛ إذ لهم موعدٌ للعذابِ مُتأخِّرٌ، وهذا تَهديدٌ بما يحصُلُ لهم، وأكَّدَ النَّفيَ بـ (لن)؛ رَدًّا على إنكارِهم؛ إذ هم يحْسَبون أنَّهم مُفلِتونَ من العذابِ حين يَرَون أنَّه تأخَّرَ مُدَّةً طويلةً، أي: لأنْ لا ملجَأَ لهم من العذابِ دُونَ وقْتِ وعْدِه أو مكانِ وعْدِه، فهو ملْجَؤُهم. وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه، أي: هم غيرُ مُفلِتينَ منه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٦-٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٧).

- قولُه: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ فيه إشعارٌ بعِلَّةِ الإهلاكِ، وهي الظُّلمُ، ففيه تَحذيرٌ من الظُّلمِ؛ إذ نَتيجتُه الإهلاكُ[1]. وفيه ترْكُ المفعولِ، وهو إمَّا لتَعميمِ الظُّلمِ، أو لتَنزيلِه منزلةَ اللَّازمِ، أي: لمَّا فَعَلوا الظُّلمَ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣١).

الآيات (٦٠-٧٠)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: أي: لا أزالُ سائِرًا، مِن قَولِهم: بَرِحَ الرَّجُل بَراحًا: إذا راح مِن مَوضِعِه، وأصلُ (برح): يدلُّ على الزَّوالِ[١].

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أي: اجتماعَهما، أو: مُلتقاهما، وأصلُ (جمع): يدُلُّ على تضامِّ الشَّيءِ[٢].

﴿حُقُبًا﴾: أي: زَمانًا ودَهرًا، وجمْعُه: أحقابٌ، ولا يكادُ يُستعملُ الحقبُ إلَّا حيثُ يُرادُ تتابعُ الأزمنةِ وتَواليها، وأصلُ (حقب): يدلُّ على ترادُفٍ وتتابُعٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((ياقوتة الصراط)) للمطرز الباوردي (ص: ٣٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٩)،

﴿سَرَبًا﴾: أي: طريقًا ومَذهَبًا، وأصلُ (سرب): يدلُّ على الاتِّساعِ والذَّهَابِ في الأرضِ[1].

﴿نَصَبًا﴾: أي: تَعَبًا وعَناءً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، لأنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتى يُعيِيَ[2].

﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾: أي رَجَعا مِنَ الطَّريقِ الذي سَلَكاه يتتبَّعانِ الأثَرَ، والارتدادُ: الرُّجوعُ، والقَصَصُ: اتِّباعُ الأثَرِ. وأصلُ (رد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ، و (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي، و (قص): يدُلُّ على تتبُّعِ الشَّيءِ[3].

﴿خُبۡرٗا﴾: أي: عِلمًا، والخُبْرُ: العلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهةِ الخَبَرِ، وأصلُ (خبر): العِلمُ[4].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا قصةَ موسَى والخضرِ -عليهما السلامُ-: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال موسى لخادِمِه يوشَعَ بنِ نون: لا أزالُ أتابِعُ السَّيرَ حتى أصِلَ

((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣) و(٢/ ٣٨٦) و(٥/ ١١)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٥٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٣).

إلى مُلتقى البَحرينِ، أو أسيرَ زمنًا طويلًا حتى أجدَ العبدَ الصَّالحَ الذي أخبَرَني اللهُ بعِلمِه وفَضلِه؛ لأتعلَّمَ منه ما ليس عندي مِن العِلمِ، فلمَّا وصَل موسَى عليه السلامُ وفتاه إلى مُلتقى البَحرينِ نَسِيا حُوتَهما الذي جعَلَه اللهُ عَلامةً على وجودِ الخَضِرِ في المكانِ الذي يَفقِدانِه فيه، فشقَّ الحوتُ طَريقَه في البَحرِ نفقًا ظاهِرًا في الماءِ، فلمَّا فارقا المكانَ الذي نَسِيَا فيه الحوتَ قال موسى لخادِمِه: أحضِرْ إلينا غداءَنا، لقد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا تَعَبًا. قال له خادِمُه: أرأيتَ حين مكَثْنا عند الصَّخرةِ فإنِّي نَسِيتُ الحوتَ في ذلك المكانِ، وما أنساني أن أذكُرَ الحوتَ إلَّا الشَّيطانُ، واتَّخذ الحوتُ طريقَه في البَحرِ عجبًا.

قال موسى: ما حصَلَ مِن فَقدِ الحوتِ هو ما كنَّا نَطلُبُه؛ فإنَّه علامةٌ لي على مكانِ العبدِ الصَّالحِ، فرجَعا يتتَبَّعانِ آثارَ مَشيِهما حتى انتهَيا إلى الصَّخرةِ التي فقدا الحوتَ عندها، فوجدَا هناك عبدًا صالحًا من عبادِنا -هو الخَضِرُ عليه السلامُ- آتيناه رحمةً مِن عِندِنا، وعَلَّمْناه مِن لدنَّا عِلمًا عَظيمًا نافِعًا. قال له موسى: أتأذَنُ لي أن أتَّبِعَك؛ لتُعَلِّمَني من العِلمِ الذي علَّمَك اللهُ إيَّاه ما أهتدي به إلى الصَّوابِ؟ قال له الخَضِرُ: إنَّك -يا موسى- لن تُطيقَ أن تصبِرَ على اتِّباعي ومُلازَمتي، وكيف لك الصَّبرُ على ما سأفعَلُه مِن أمورٍ تَخفى عليك ممَّا عَلَّمَني اللهُ تعالى إياه؟! قال له موسى: ستَجِدُني إن شاء اللهُ صابِرًا على ما أراه منك، ولا أخالِفُ لك أمرًا تأمُرُني به. فقال له الخَضِرُ: فإنْ صاحَبْتَني فلا تسألْني عن شَيءٍ تُنكِرُه حتى أخبِرَك به دونَ سؤالٍ منك.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن ذكَرَ الله سُبحانَه قَصَصَ المُشرِكين الذين افتَخَروا على فُقَراءِ المؤمِنينَ بكَثرةِ الأموالِ والأنصارِ، وامتَنَعوا عن حضورِ مجلِسِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يشترِكوا معهم في مجلسٍ واحدٍ- قفَّى على ذلك بذِكرِ قَصَصِ موسى عليه السَّلامُ مع الخَضِرِ؛ لِيبيِّنَ بها أنَّ موسى مع كونِه نبيًّا صادِقًا أرسَلَه اللهُ إلى بني إسرائيلَ بشيرًا ونذيرًا، وهو كليمُ اللهِ- أُمِرَ أن يذهَبَ إلى الخَضِرِ ليتعَلَّمَ منه ما لم يعلَمْه، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ التواضُعَ خيرٌ مِن التكبُّرِ[١].

وأيضًا فإنه لَمَّا جَرى ذِكرُ قِصَّةِ خَلْقِ آدمَ وأمْرِ اللهِ الملائكةَ بالسُّجودِ له، وما عَرَضَ للشَّيطانِ مِن الكِبْرِ والاعتِزازِ بعُنصُرِه؛ جهلًا بأسبابِ الفضائلِ، ومُكابَرةً في الاعْتِرافِ بها، وحسَدًا في الشَّرفِ والفَضْلِ، فضرَب بذلك مَثَلًا لأهلِ الضَّلالِ عَبيدِ الهَوى والكِبْرِ والحسَدِ، أعقَب تلك القِصَّةَ بقِصَّةٍ هي مَثَلٌ في ضِدِّها؛ لأنَّ تَطَلُّبَ ذي الفضلِ والكمالِ للازديادِ منهما وسَعْيه للظَّفرِ بمَن يُبلِّغُه الزِّيادةَ مِن الكَمالِ، اعتِرافًا للفاضلِ بفَضيلتِه. وفي ذلك إبداءُ المقابَلةِ بين الخلقَيْن، وإقامةُ الحُجَّةِ على المماثَلةِ والمخالَفةِ بين الفريقَينِ المؤمِنين والكافِرين، وفي خلالِ ذلك تَعليمٌ وتنويهٌ بشَأنِ العِلم والهُدى، وتربيةٌ للمتَّقين[٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال موسَى[٣] لفتاه يُوشَعَ بنِ نون[٤]: لا أزالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ١٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٣) قال الشوكاني: (اتَّفق أهلُ العِلمِ على أنَّ موسى المذكورَ هو موسى بنُ عِمرانَ؛ النبيُّ المرسَلُ إلى فرعونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٢).

(٤) قال ابن الجوزي: (فأمَّا فتاه فهو يوشَعُ بنُ نون، مِن غيرِ خلافٍ؛ وإنَّما سُمِّي فتاه؛ لأنَّه كان يلازِمُه، ويأخذُ عنه العِلمَ ويَخدُمُه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٥).

أسيرُ في طَلَبِ العَبدِ الذي أخبَرَني اللهُ بعِلمِه وفَضلِه، حتى أصِلَ إلى مَوضِعِ مُلتقَى البَحرينِ الذي أعرِفُه[١] فألقاه هناك[٢].

عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ بنِ مَسعودٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّه تمارى هو والحُرُّ بنُ قَيسِ بنِ حصنٍ الفَزاريُّ في صاحِبِ موسى، فمَرَّ بهما أُبيُّ بنُ كَعبٍ، فدعاه ابنُ عبَّاسٍ فقال: إنِّي تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحِبِ موسى الذي سأل السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، هل سَمِعتَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يذكُرُ شَأنَه؟ فقال أُبيٌّ: نعم، سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَذكُرُ شأنَه يقول: ((بينَما موسَى في ملإٍ مِن بني إسرائيلَ، إذ جاءه رجُلٌ فقال: أتعلَمُ أحدًا أعلَمَ منك؟ قال موسى: لا، فأوحى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلى موسى: بلى، عَبدُنا خَضِرٌ، فسأل السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، فجعَلَ اللهُ له الحوتَ آيةً، وقيل له: إذا فقَدْتَ الحُوتَ فارجِعْ فإنَّك ستلقاه، فكان موسى صَلَّى اللهُ عليه يَتبَعُ أثَرَ الحوتِ في البَحرِ، فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، فوجدا خَضِرًا، فكان من شأنِهما ما قصَّ اللهُ في كتابِه))[٣].

وقال أبو حيان: (والفتى: الشابُّ، ولَمَّا كان الخَدَمُ أكثَرَ ما يكونون فِتيانًا، قيل للخادمِ: فتًى، على جهةِ حُسنِ الأدَبِ، ونَدَبت الشريعةُ إلى ذلك؛ ففي الحديث: «لا يَقُلْ أحَدُكم: عبدي، ولا أَمَتي، وليَقُلْ: فَتايَ وفتاتي»). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩٨).

(١) قال الشنقيطي: (تعيينُ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ لا دليلَ عليه من كتابٍ ولا سُنَّةٍ، وليس في معرفتِه فائِدةٌ؛ فالبَحثُ عنه تعَبٌ لا طائِلَ تحته، وليس عليه دليلٌ يجِبُ الرجوعُ إليه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).

(٣) رواه البخاري (٧٨) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قلتُ لابنِ عَبَّاسٍ: إنَّ نَوْفًا البِكَاليَّ[١] يزعُمُ أنَّ موسى صاحِبَ الخَضِرِ ليس هو موسى صاحِبَ بني إسرائيلَ! فقال ابنُ عبَّاسٍ: كذَبَ عَدُوُّ اللهِ[٢]، حدَّثني أُبَيُّ بنُ كعبٍ أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيلَ، فسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعلَمُ؟ فقال: أنا، فعتَبَ اللهُ عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العِلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه: إنَّ لي عبدًا بمَجمَعِ البَحرينِ هو أعلَمُ منك...)) فذكَر الحديثَ إلى أن قال: ((رجعا يَقُصَّانِ آثارَهما حتى انتهَيا إلى الصَّخرةِ، فإذا رجلٌ مُسجًّى[٣] ثوبًا فسَلَّمَ عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وأنَّى بأرضِك السَّلامُ؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، أتيتُك لتعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشدًا...)) الحديث[٤].

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

أي: أو أسيرَ زمانًا طَويلًا -إن لم أظفَرْ به في مجمَعِ البَحرينِ الذي أعرِفُه- حتى أجِدَه؛ لأتعَلَّمَ منه ما لا أعلَمُ[٥].

---

(١) هو نوفُ بنُ فَضالَةَ البِكاليُّ الشَّاميُّ، ابنُ امرأةِ كعبِ الأحبارِ، قال ابنُ حجرٍ: (مستورٌ، وإنما كذَّب ابنُ عباسٍ ما رواه عن أهلِ الكتابِ). يُنظر: ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ١٠١٣)، ((تقريب التهذيب)) لابن حجر (ص: ٥٦٧).

(٢) قال النووي في قولِه: (كذَب عدوُّ الله): (قال العلماءُ: هو على وجهِ الإغلاظِ والزَّجرِ عن مِثلِ قَولِه، لا أنَّه يعتَقِدُ أنَّه عدوُّ الله حقيقةً، إنما قاله مبالغةً في إنكارِ قَولِه؛ لِمُخالفتِه قولَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان ذلك في حالِ غَضَبِ ابنِ عبَّاسٍ؛ لشدةِ إنكارِه، وحالُ الغَضَبِ تُطلَقُ الألفاظُ، ولا تُرادُ بها حقائِقُها). ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٣٧). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤١٣).

(٣) مُسَجًّى: أي: مُغَطًّى. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢٤).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا وصَلَ موسى وفتاه إلى مكانِ اجتِماعِ البَحرينِ نَسِيَا حوتَهما(١) الذي

(٥/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٨).

قال أبو جعفر النحَّاس: (روى عمرُو بنُ ميمون عن عبدِ الله بنِ عَمرٍو قال: الحُقُب: ثمانون سنةً... قال أبو جعفر: الذي يعرِفُه أهلُ اللغةِ أنَّ الحُقبَ والحِقبةَ: زمانٌ مِن الدَّهرِ مُبهَمٌ غيرُ مَحدودٍ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(١) قال الواحدي: (وقولُه تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ إجماعُ المفسِّرين أنَّ النسيانَ هاهنا معناه: نسيانُ الفتى ذِكرَ قِصَّةِ الحوتِ لموسى، والناسي كان أحَدَهما، وأُضيف إليهما جميعًا، واختلفوا في وجهِ هذا). ((البسيط)) (١٤/ ٧٣).

وممَّا قيل في وجهِ إضافةِ النسيانِ إليهما: أنَّه إنما نُسِبَ إليهما، مع أنَّ الناسيَ له هو الفتى؛ لأنَّهما جميعًا تزوَّدا الحوتَ لسَفَرِهما. وممن قال بذلك: الثعلبي، والبغوي، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٩).

وقال الشنقيطي: (إنما أُسنِدَ النِّسيانُ إليهما؛ لأنَّ إطلاقَ المجموعِ مُرادًا بعضُه أسلوبٌ عربيٌّ كثيرٌ في القرآنِ وفي كلامِ العَرَبِ،... والدَّليلُ على أنَّ النِّسيانَ إنما وقع مِن فتى موسى دونَ موسَى قَولُه تعالى عنهما: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ الآية [الكهف: ٦٢، ٦٣]؛ لأنَّ قَولَ موسى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ يعني به الحوتَ، فهو يظُنُّ أنَّ فتاه لم ينْسَه، كما قاله غيرُ واحدٍ، وقد صرَّحَ فتاه بأنَّه نَسِيَه، بقولِه: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢١).

وقيل: النسيانُ واقعٌ حقيقةً منهما. وممن قال بذلك: البيضاوي، والبقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).

قال البيضاوي: (نسِيَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يطلُبَه ويتعَرَّفَ حالَه، ويوشَعُ أن يذكُرَ له ما

جعَلَه اللهُ علامةً على وجودِ الخَضِرِ في المكانِ الذي يَفقِدانِه فيه[1].

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾.

أي: فشقَّ الحوتُ طريقَه الذي سلَكَه في البَحرِ نفقًا ظاهرًا في الماءِ، لا يَلتَئِمُ بعده[2]!

رأى من حياتِه ووقوعِه في البَحرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (ومعنى نسيانِهما أنَّهما نَسِيَا أن يُراقِبا حالَه: أباقٍ هو في مِكْتَلِه حينئذٍ، حتى إذا فقداه في مقامِهما ذلك تحقَّقا أنَّ ذلك الموضِعَ الذي فقداه فيه هو الموضِعُ المؤقَّتُ لهما بتلك العلامةِ؛ فلا يزيدان تعبًا في المشيِ؛ فإسنادُ النسيانِ إليهما حقيقةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).

وقال الشوكاني: (قال المفسِّرون: إنَّهما تزوَّدا حوتًا مُملَّحًا في زنبيلٍ [أي: قُفَّة]، وكانا يصيبانِ منه عندَ حاجتِهما إلى الطعامِ، وكان قد جعل اللهُ فقدانَه أمارةً لهما على وِجدانِ المطلوبِ... فلمَّا انتَهَيا إلى ساحِلِ البحرِ وضَعَ فتاه المِكتَلَ الذي فيه الحوتُ، فأحياه اللهُ، فتحَرَّك واضطربَ في المِكتَلِ، ثم انسربَ في البحرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عطية: (الذي ورد في الحديثِ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقاله جمهورُ المفسِّرينَ: أنَّ الحوتَ بَقِيَ موضِعُ سُلوكِه فارِغًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٨).

قال الواحدي: (في نظمِ الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ على تقديرٍ: فلمَّا بلَغا مجمعَ بينِهما اتَّخذَ الحوتُ سبيلَه في البحرِ سربًا، ونسِي يوشعُ أن يذكرَ ذلك لموسَى؛ لأنَّ النسيانَ لم يتقدَّمْ على ذهابِ الحوتِ). ((البسيط)) (١٤/ ٧٢). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٧).

وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِرِ: ((وتَضَرَّبَ[1] الحوتُ حتى دخل البَحرَ[2]، فأمسك اللهُ عنه جَريةَ البَحرِ، حتى كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ -قال لي عَمرٌو[3]-: هكذا كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ، وحَلَّقَ بين إبهامَيه واللَّتَينِ تليانِهما))[4].

وفي لفظٍ آخَرَ: ((... أوحى اللهُ إليه: إنَّ لي عبدًا بمَجمَعِ البَحرينِ هو أعلَمُ منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به، قال: تأخُذُ معك حوتًا فتَجعَلُه في مِكتَلٍ[5]، فحيثما فقدْتَ الحوتَ فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مِكتَلٍ، ثم انطلق وانطلَقَ معه بفتاه يوشَعَ بنِ نون، حتى إذا أتيا الصخرةَ وَضَعا رؤوسَهما فناما، واضطرب الحوتُ في المِكتَل، فخرج منه فسَقَط في البَحرِ، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، وأمسك اللهُ عن الحوتِ جريةَ الماءِ، فصار عليه مِثلَ الطَّاقِ[6]، فلمَّا استيقظ نَسِيَ صاحِبُه أن يخبِرَه بالحوتِ، فانطلقا بقيَّةَ يَومِهما وليلَتَهما))[7].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

أي: فلمَّا جاوز موسى وفتاه مجْمَعَ البَحرينِ الذي نسِيا فيه الحوتَ، قال

---

(١) تضَرَّب: أي: اضطرَبَ سائِرًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٢٣).

(٢) قال البخاري: (قالَ سفيانُ [أي: ابن عيينة]: وفي حديثِ غيرِ عمرٍو [أي: ابن دينار]، قالَ: وفي أصلِ الصَّخرَةِ عينٌ يُقالُ لها: الحياةُ لا يُصيبُ مِنْ مائِها شيءٌ إلَّا حَيِيَ، فأصابَ الحوتَ مِنْ ماءِ تلكَ العينِ). ((صحيح البخاري)) (٦/ ٩٢) (٤٧٢٧). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤١٥).

(٣) أي قال عمرُو بنُ دينارٍ لابنِ جريجٍ.

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديثِ أبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه.

(٥) مِكتَلٍ: أي: قُفَّةٍ كبيرةٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٦) الطاقُ: أي: الكوَّةِ والنَّفَقِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥١).

(٧) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

موسى لفتاه: أحضِرْ طعامَنا[١] لنأكُلَ منه فنتقوَّى به[٢].

﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾.

أي: لقد وجَدْنا في سَفَرِنا هذا تعبًا ومَشقَّةً[٣].

وفي قصةِ موسى والخضرِ من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي اللهُ عنه: ((قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾، قال: ولم يجِدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوَزا المكانَ الذي أمَرَ الله به))[٤]!

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾.

---

(١) قال أبو السعود: (﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ أي: ما نتغدَّى به، وهو الحوتُ كما ينبئُ عنه الجوابُ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٧).

قال البقاعي: (وكأنَّ المَجمَع كان ممتدًّا، فظنَّ موسى عليه السَّلامُ أنَّ المطلوبَ أمامَه، أو ظَنَّ أنَّ المرادَ مجمَعٌ آخَرُ، فسار). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

قال الشوكاني: (قال المفسِّرون: الإشارةُ بقولِه: ﴿سَفَرِنَا هَذَا﴾ إلى السَّفَرِ الكائنِ منهما بعدَ مجاوزةِ المكانِ المذكورِ؛ فإنَّهما لم يَجِدا النَّصَبَ إلَّا في ذلك دونَ ما قبلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٢).

قال الألوسي: (الحِكمةُ في حُصولِ الجوعِ والتَّعَبِ له حين جاوز: أن يَطلُبَ الغداءَ فيَذكُرَ الحوتَ، فيرجِعَ إلى حيثُ يجتمِعُ بمرادِه). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

أي: قال يُوشَعُ لموسى: أرأيتَ حينَ أقَمْنا عندَ الصَّخرةِ التي في مَجمَعِ البَحرينِ، فإنِّي نَسِيتُ الحوتَ في ذلك المكانِ[١]!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي اللهُ عنه: ((قال: فبينما هو في ظِلِّ صَخرةٍ في مكانٍ ثَرْيانَ[٢]، إذ تضرَّبَ الحوتُ وموسى نائمٌ، فقال فتاه: لا أوقِظُه، حتى إذا استيقظ نَسِيَ أن يخبِرَه، وتضرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحرَ، فأمسك اللهُ عنه جَريةَ البَحرِ، حتى كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ))[٣].

وفي روايةٍ: ((قال: فانطلق هو وفتاه حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ، فعُمِّيَ عليه، فانطلق وترك فتاه، فاضطرب الحوتُ في الماء، فجعل لا يلتَئِمُ عليه، صار مِثلَ الكَوَّةِ، قال فقال فتاه: ألا ألحَقُ نبيَّ الله فأخبِرَه؟ قال: فنُسِّيَ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٠، ١١١).

قال الماوردي: (﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ فيه وجهانِ: أحدُهما: فإني نسيتُ حَملَ الحوتِ. الثاني: فإنِّي نسيتُ أن أخبِرَك بأمرِ الحوتِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ يعني: نَسِيتُ أن أتفَقَّدَه أو أسعى في شأنِه أو أذكُرَه لك، وإلَّا فالحوتُ معروفٌ كان في المِكتَلِ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ١١١).

وقال الزمخشري: (﴿أَرَءَيۡتَ﴾ بمعنى: أخبِرْني. فإن قلتَ: ما وجهُ التئامِ هذا الكلامِ؛ فإنَّ كُلَّ واحدٍ مِن ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ و﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ﴾ و﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ لا مُتعَلَّقَ له؟ قلتُ: لَمَّا طلَبَ موسى عليه السَّلامُ الحوتَ، ذكَرَ يوشَعُ ما رأى منه وما اعتراه مِن نسيانِه إلى تلك الغايةِ، فدُهِشَ وطَفِقَ يسألُ موسى عليه السَّلامُ عن سبب ذلك، كأنَّه قال: أرأيتَ ما دهاني إذ أوَينا إلى الصَّخرةِ؟! فإني نَسِيتُ الحوتَ، فحُذِفَ ذلك). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٣).

وممَّن ذهب إلى قولِ الزمخشري هاهنا في الحذفِ وتقديره: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٣).

(٢) ثَرْيان: أي: في ترابِه بلَلٌ ونَدى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢١١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٤) رواه مسلم (٢٣٨٠).

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

أي: وما أنساني أن أذكُرَ الحُوتَ إلَّا الشَّيطانُ(١).

وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِر: ((ذكَّر -أي: موسى عليه السَّلامُ- النَّاسَ يومًا حتى إذا فاضت العيونُ، ورَقَّت القلوبُ، ولَّى، فأدركه رجلٌ فقال: أيْ رسولَ اللهِ، هل في الأرضِ أحَدٌ أعلَمُ منك؟ قال: لا، فعَتَب عليه؛ إذْ لم يرُدَّ العِلمَ إلى اللهِ، قيل: بلى، قال: أيْ رَبِّ، فأين؟ قال: بمجمَعِ البَحرينِ، قال: أيْ ربِّ، اجعَلْ لي عِلمًا أعلَمُ ذلك به -فقال لي عمرو(٢)- قال: حيث يفارِقُك الحوتُ -وقال لي يَعلى(٣)- قال: خُذْ نونًا(٤) ميِّتًا، حيث يُنفَخُ فيه الرُّوحُ، فأخذ حوتًا فجعَلَه في مِكْتَلٍ، فقال لِفَتاه: لا أكلِّفُك إلَّا أن تخبِرَني بحيث يفارِقُك الحوتُ، قال: ما كَلَّفْتَ كثيرًا؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَعَ بنِ نونٍ))(٥).

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

أي: واتَّخَذ الحوتُ طريقَه الذي سلَكه في البحرِ عجبًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

(٢) هو عمرُو بنُ دينارٍ، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٣) هو يعلَى بنُ مسلمٍ، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٤) نونًا: أي: حُوتًا. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ١٣١).

(٥) رواه البخاري (٤٧٢٦) من حديث أُبيٍّ رضي الله عنه.

(٦) ينظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٩).

ممن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الضمير في (اتَّخذ) يعودُ على الحوتِ، أي: اتَّخَذَ الحوتُ سبيلَه في البحرِ: الزجَّاج، والواحدي، والكرماني، والرسعني، وأبو حيان، والبقاعي، وأبو السعود، والسعدي، وابن عاشور. ينظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٠)، ((البسيط))

للواحدي (١٤/ ٧٨)، ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) للكرماني (١/ ٦٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٧).

وهذا الكلامُ هو مِن تتمَّةِ كلامِ فتَى موسَى عليه السلامُ (يوشع)، وممن اختارَ هذا القولَ، ونصَّ عليه: الزجاجُ، والواحدي، والكرماني، والرسعني، وأبو حيان، وابنُ عاشور.

قال الألوسي: (﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ الظاهرُ الذي عليه أكثرُ المفسرينَ أنَّ مجموعَه كلامُ يوشعَ، وهو تتمةٌ لقولِه: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ وفيه إنباءٌ عن طرفٍ آخرَ مِن أمرِه، وما بينَهما اعتراضٌ قُدِّم عليه؛ للاعتناءِ بالاعتذارِ، كأنَّه قيل: حَيِي واضطربَ ووقَع في البحرِ، واتَّخذ سبيلَه فيه سبيلًا عجبًا). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٠٠).

قال ابنُ عطية: (ويحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ...﴾ الآيةَ إخبارًا مِن الله تعالى، وذلك على وجهين: إمَّا أن يخبرَ عن موسَى أنَّه اتَّخذَ سبيلَ الحوتِ مِن البحرِ عجبًا، أي: تعجَّب منه، وإمَّا أن يخبرَ عن الحوتِ أنَّه اتَّخذَ سبيلَه عجبًا للناسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٩).

وممن اختار أنَّ موسَى هو الذي اتَّخذَ سبيلَ الحوتِ مِن البحرِ عجبًا، أي: تعجَّب منه: مقاتلُ ابنُ سليمانَ، والفرَّاءُ. ينظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٩٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٣٠٠).

وقيل: اتَّخذ موسَى عليه السلام سبيلَ الحوتِ في البحرِ، أي: دخل في مدخَلِه فرأى الخَضِرَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٧)، ((التبصرة)) لابن الجوزي (١/ ٢٣٩).

قال القرطبي: (جمهورُ المفسِّرينَ أنَّ الحوتَ بقِي موضعُ سلوكِه فارغًا، وأنَّ موسَى مشَى عليه متَّبِعًا للحوتِ، حتَّى أفضَى به الطريقُ إلى جزيرةٍ في البحرِ، وفيها وجَد الخضرُ. وظاهرُ الرواياتِ والكتابِ أنَّه إنَّما وجَد الخضرَ في ضفَّةِ البحرِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦٨).

وقوله: ﴿عَجَبٗا﴾ قيل: صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: اتخاذًا عجبًا، أو: مصدرُ فعلٍ محذوفٍ، أي: أتعجَّبُ منه عجبًا. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٧).

قال ابنُ عادل: (﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ ووجهُ كونِه عجبًا: انقلابُه مِن المكتلِ، وصيرورتُه حيًّا، وإلقاءُ نفسِه في البحرِ على غفلةٍ منهما، ويكون المرادُ منه ما ذكرنا أنَّه تعالى جعَل الماءَ عليه كالطَّاقِ والسَّرَبِ. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، ثم قال: ﴿عَجَبٗا

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: ((... واضطربَ الحوتُ في المِكتَلِ، فخرج منه فسقَطَ في البَحرِ، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، وأمسك اللهُ عن الحوتِ جَريةَ الماء، فصار عليه مِثلَ الطَّاقِ... قال: فكان للحُوتِ سَرَبًا، ولموسى ولفتاه عجَبًا))[1].

وفي حديث أبيِّ بنِ كعبٍ أيضًا، في روايةٍ: ((ولم يَجِدْ موسَى النَّصَبَ حتَّى جاوَز حيثُ أمَرَه اللَّهُ، قالَ له فَتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فكانَ للحُوتِ سَرَبًا، ولهما عَجَبًا))[2].

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

أي: قال موسى لفتاه: فقْدُ الحوتِ هو ما نَطلُبُه في سَفَرِنا؛ حيث نَجِدُ الرجُلَ الذي نبحَثُ عنه في المكانِ الذي فقَدْنا فيه الحوتَ[3].

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

﴾ أي: أنَّه يعجبُ مِن رؤيةِ تلك العجيبةِ، ومِن نسيانِه لها). ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٥٢٨).
وقيل: يحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿عَجَبًا﴾ مِن كلامِ موسَى عليه السلامُ، أجاب به فتاه، كأنَّه قال: أعجبُ عَجَبًا. ينظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٠).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١١).
قال الرازي: (وقولُه: ﴿نَبْغِ﴾ أصلُه «نَبْغِي»، فحُذِفَتِ الياءُ طلبًا للتَّخفيفِ؛ لدلالةِ الكسرةِ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨١).

أي: فرجَعَ موسى وفتاه من الطريقِ الذي أتَيَا منه يتتبَّعانِ آثارَ سَيرِهما؛ لِيَصِلا إلى الصَّخرةِ التي فقدا الحوتَ عندها[1].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ: ((... فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: رجعا يقُصَّانِ آثارَهما...))[2].

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥﴾.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

أي: فوجد موسى وفتاه عندَ الصَّخرةِ عَبدًا مِن عبادِ اللهِ -وهو الخَضِرُ[3]-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣١٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) قال الشنقيطي: (هذا العبدُ المذكورُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هو الخَضِرُ عليه السَّلامُ، بإجماعِ العُلَماءِ، ودلالةِ النُّصوصِ الصَّحيحةِ على ذلك من كلامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٢).

وقال ابنُ تيمية: (أجمع المسلمونَ على أنَّ موسى أفضَلُ مِن الخَضِر). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ١١٣).

وقال الشنقيطي: (هذه الرحمةُ والعِلمُ اللدُنِّي اللذان ذكَرَ اللهُ امتنانَه عليه بهما لم يبَيِّنْ هنا: هل هما رحمةُ النُّبُوَّة وعِلمُها، أو رحمةُ الولاية وعِلمُها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٢).

فقيل: الخَضِرُ نبيٌّ مِن الأنبياءِ، وممَّن رجَّح ذلك: القرطبي -ونسَب هذا القولَ إلى الجُمهورِ- وابنُ كثير، وابنُ حجرٍ العسقلاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٤٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٤٣)، ((الزهر النضر في حال الخضر)) لابن حجر (ص: ٦٦، ٦٧، ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢٦).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ الخضرَ كان نبيًّا: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٢٥).

قال الشنقيطي: (يُفهَمُ مِن بعض الآياتِ أنَّ هذه الرَّحمةَ المذكورةَ هنا رحمةُ نبوَّةٍ، وأنَّ هذا العِلمَ اللدُنِّي علمُ وحيٍ... اعلم أولًا أنَّ الرحمةَ تكرَّر إطلاقُها على النبوَّةِ في القرآنِ، وكذلك العِلمُ

المؤتى مِن الله تكرَّر إطلاقُه فيه على عِلمِ الوحيِ؛ فمن إطلاقِ الرحمةِ على النبوَّةِ قَولُه تعالى في «الزخرف»: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، أي: نبوَّتَه... ومن إطلاقِ إيتاءِ العِلمِ على النبوَّةِ قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآياتِ... ومن أظهَرِ الأدلَّةِ في أنَّ الرحمةَ والعِلمَ اللدُنِّي اللَّذينِ امتنَّ الله بهما على عَبدِه الخَضِرِ، عن طريقِ النبوَّةِ والوحيِ- قَولُه تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، أي: وإنما فعلتُه عن أمرِ اللهِ جَلَّ وعلا، وأمْرُ اللهِ إنما يتحَقَّقُ عن طريقِ الوَحيِ؛ إذ لا طريقَ تُعرَفُ بها أوامِرُ الله ونواهيه إلَّا الوحيُ من الله جلَّ وعلا، ولا سيَّما قَتلُ الأنفُسِ البريئةِ في ظاهِرِ الأمر، وتعييبُ سُفُنِ الناس بخَرقِها؛ لأنَّ العُدوانَ على أنفُسِ الناسِ وأموالِهم لا يصِحُّ إلا عن طريق الوحيِ مِن الله تعالى، وقد حصر تعالى طرُقَ الإنذارِ في الوحيِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، و «إنما» صيغةُ حصر... وبهذا كلِّه تعلَمُ أنَّ قَتلَ الخَضِرِ للغلامِ، وخَرْقَه للسفينةِ، وقَولَه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ دليلٌ ظاهِرٌ على نبوَّتِه.

وعزا الفخرُ الرازي في تفسيرِه القَولَ بنبوَّتِه للأكثرين، وممَّا يُستأنَسُ به للقَولِ بنبوَّتِه تواضُعُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له في قولِه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وقَولِه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، معَ قولِ الخضِرِ له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٣- ٣٢٦).

وقيل: إنَّ الخَضِرَ عبدٌ صالحٌ وليس نبيًّا، وممَّن ذهَب إلى ذلك: البغَويُّ -ونسَب هذا القولَ إلى أكثَرِ أهلِ العلم- والقِنُّوجي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٢).

قال السعدي: (العبدُ الذي لَقِياه ليس نبيًّا، بل عبدٌ صالحٌ؛ لأنَّه وصَفَه بالعبوديَّة، وذَكَر منَّةَ الله عليه بالرحمةِ والعلمِ، ولم يذكُرْ رسالتَه ولا نبوَّتَه، ولو كان نبيًّا لذَكَر ذلك كما ذكَرَ غيرَه. وأمَّا قولُه في آخِرِ القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فإنَّه لا يدُلُّ على أنه نبيٌّ، وإنما يدلُّ على الإلهامِ والتحديثِ، كما يكونُ لغيرِ الأنبياءِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٨).

وهَبْنا له مِن عِندِنا رَحمةً واسعةً عَظيمةً(١).

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ رضي الله عنه: ((... فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، قال: رجعا يقُصَّانِ آثارَهما حتى انتَهيا إلى الصَّخرةِ، فإذا رجلٌ مُسجًّى ثوبًا، فسَلَّمَ عليه موسى))(٢).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إنَّما سُمِّي الخَضِرَ؛ أنَّه جلَس على فَروةٍ بَيضاءَ، فإذا هي تهتَزُّ مِن خَلفِه خَضراءَ))(٣).

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾.

وقال ابنُ عاشور: (اتفق الناسُ على أنَّه كان من المعَمَّرين، ثم اختلفوا في أنَّه لم يزَلْ حيًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٣).

وقال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ العُلَماءَ اختلفوا في الخَضِر: هل هو حيٌّ إلى الآن أو هو غيرُ حيٍّ، بل ممَّن مات فيما مضى من الزمانِ؟ فذهب كثيرٌ مِن أهل العلم إلى أنَّه حيٌّ، وأنَّه شَرِبَ مِن عينٍ تُسَمَّى عينَ الحياةِ، وممَّن نصر القولَ بحياتِه القرطبيُّ في «تفسيره»، والنوويُّ في «شرح مسلم»، وغيره، وابنُ الصلاح، والنقَّاش، وغيرهم... قال مقيِّدُه [الشنقيطي] عفا الله عنه: الذي يظهَرُ لي رُجحانُه بالدليلِ في هذه المسألةِ: أنَّ الخَضِرَ ليس بحيٍّ، بل توفِّيَ؛ وذلك لعِدَّةِ أدِلَّةٍ...). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٢٦-٣٣٨).

وقال ابنُ تيميةَ: (والذي عليه سائرُ العلماءِ المحقِّقينَ أنَّه مات). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٩٣).

ويُنظر: ((الموضوعات)) لابن الجوزي (١/ ١٩٣ - ١٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٠٠- ١٠٢)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٤)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٥٠ - ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٣٤)، ((الزهر النضر)) لابن حجر (ص: ٨٦- ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠٢).

أي: وعَلَّمْنا عَبْدَنا الخَضِرَ مِن عِندِنا عِلمًا نافِعًا خَصَصْناه به، ومن ذلك ما أطلَعَه اللهُ عليه مِن عِلمِ الغَيبِ[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ رضي الله عنه: ((... قال له الخَضِر: يا موسى، إنَّك على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكَه اللهُ لا أعلَمُه، وأنا على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه اللهُ لا تَعلَمُه... قال: ووقع عُصفورٌ على حَرفِ السَّفينةِ فغَمَس مِنقارَه في البَحرِ، فقال الخَضِرُ لموسى: ما عِلمُك وعِلمي وعِلمُ الخلائِقِ في عِلمِ اللهِ إلَّا مِقدارُ ما غَمَس هذا العُصفورُ مِنقارَه!!))[٢].

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: قال موسى للخَضِرِ: هل أصحَبُك لتعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمَك اللهُ عِلمًا أهتدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ١١٢).
قال ابن القيم: (العِلمُ اللدُنِّي: هو العِلمُ الذي يقذِفُه الله في القَلبِ إلهامًا بلا سببٍ مِن العبدِ، ولا استدلالٍ؛ ولهذا سُمِّيَ لدُنيًّا). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٩٩).
وقال القاسمي: (دلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ على أنَّ مِن العِلمِ عِلمًا غَيبيًّا -وهو المسمَّى بالعِلمِ اللدُنِّي- فالآيةُ أصلٌ فيه). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦١).
وقال السعدي: (كان قد أُعطِيَ من العلمِ ما لم يُعطَ موسى، وإن كان موسى عليه السَّلامُ أعلَمَ منه بأكثَرِ الأشياء، وخصوصًا في العلومِ الإيمانيَّة والأصوليَّة؛ لأنَّه مِن أولي العَزمِ مِن المُرسَلينَ، الذين فضَّلَهم اللهُ على سائرِ الخَلقِ بالعِلمِ والعَمَلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).
وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: عِلمًا لا يطَّلِعُ عليه الناس، وهو عِلمُ الغيب في هذه القصَّة المعيَّنة، وليس علمَ نبوَّة، ولكِنَّه علمٌ خاصٌّ؛ لأنَّ هذا العلمَ الذي اطَّلع عليه الخَضِرُ لا يمكِنُ إدراكُه، وليس شيئًا مبنيًّا على المحسوس، فيُبنى المستقبَلُ على الحاضر، بل شيءٌ من الغائب، فأطلَعَه الله تعالى على معلوماتٍ لا يطَّلِعُ عليها البَشَرُ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة الكهف)) (ص: ١١٢). وهذا القولُ بناءً على أنَّه عبدٌ صالحٌ، وليس بنبيٍّ.
(٢) رواه البخاري (٤٧٢٧) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

به إلى الصَّوابِ[(١)]؟

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((... أتيتُك لتعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشدًا، قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ يا موسى، إنِّي على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه لا تَعلَمُه أنت، وأنت على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكه اللهُ لا أعلَمُه))[(٢)].

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: إنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي؛ لِما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ، وباطِنُها بخلافِ ذلك[(٣)].

﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾.

أي: وكيف تَصبِرُ -يا موسى- على إقراري على فِعلِ ما تظنُّه مُنكَرًا، وأنت لا تعلَمُ وَجهَ صَوابِه، ولا الحِكمةَ مِن فِعلي له، ولا مَصلحَتَه الباطِنةَ التي أُطلِعْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١).

قال ابنُ عاشور: (هذا العِلمُ الذي سأل موسى تعَلُّمَه هو مِن العِلمِ النافِعِ الذي لا يتعَلَّقُ بالتشريعِ للأمةِ الإسرائيلية؛ فإنَّ موسى مستغنٍ في علمِ التشريعِ عن الازديادِ إلَّا من وحي الله إليه مباشرةً؛ لأنَّه لذلك أرسله، وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالةُ عِلمَه... وإنما رام موسى أن يعلَمَ شَيئًا من العلم الذي خَصَّ الله به الخَضِرَ؛ لأنَّ الازديادَ من العلوم النافعة هو من الخيرِ، وقد قال الله تعالى تعليمًا لنبيِّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]. وهذا العِلمُ الذي أوتِيَه الخَضِرُ هو عِلمُ سياسةٍ خاصَّةٍ غيرِ عامَّةٍ تتعَلَّقُ بمعيَّنينَ لجلبِ مصلحةٍ أو دفعِ مَفسدةٍ، بحسَبِ ما تهيِّئُه الحوادِثُ والأكوانُ، لا بحسَبِ ما يناسِبُ المصلحةَ العامةَ، فلعَلَّ الله يسَّرَه لنَفعِ مُعَيَّنين من عندِه، كما جعل محمدًا صلَّى الله عليه وآله وسلَّم رحمةً عامَّةً لكافَّةِ الناس، ومن هنا فارقَ سياسةَ التشريعِ العامَّة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

عليها دونَك[١]؟!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ شيءٌ أُمِرتُ به أن أفعَلَه، إذا رأيتَه لم تَصبِرْ))[٢].

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾.

أي: قال موسى للخَضِر: ستَجِدُني -إن شاء اللهُ- صابِرًا على ما أرى منك، وإن كان على خلافِ ما أراه صَوابًا[٣].

﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

أي: ولا أخالِفُك في أيِّ شَيءٍ تأمُرُني به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٤).

قال الرسعني: (﴿قَالَ﴾ حرصًا على طلبِ الزيادةِ في العلمِ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ عن الإنكارِ والسؤالِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢٦).

وقال البغوي: (إنَّما استثنَى؛ لأنَّه لم يثِقْ مِن نَفسِه بالصَّبرِ). يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٦).

وقيل: علَّقه على المشيئةِ حينَ رأى ذلك العالِمَ الكاملَ قد نفَى عنه وصفَ الاستطاعةِ بقولِه: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: علَّقه بمشيئةِ الله؛ لئلَّا يكونَ ذلك اعتزازًا بنفسِه، وإعجابًا بها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١).

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: فإنْ صَحِبْتَني فلا تبتَدِئْني بالسُّؤالِ عن أيِّ شَيءٍ أفعَلُه مِمَّا تَستنكِرُه[1].

﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

أي: لا تَسأَلْني أبدًا إلى أن أُخبِرَك عن سَبَبِ فِعلي الذي تَستَنكِرُه، وأُبَيِّنَ لك حقيقَتَه، ووجهَ صَوابِه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ...﴾ فموسَى عليه السلامُ رحَل مسافةً طويلةً، ولقِي النَّصَبَ في طلبِ العلمِ، وفي ذلك دَليلٌ على فضيلةِ العلمِ، والحَثِّ على الرِّحلةِ في طَلَبِه[3]، واغتنامِ لِقاءِ الفُضَلاءِ والعُلَماءِ وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأبَ السَّلَفِ الصَّالحِ، وبسبَبِ ذلك وصلَ المرتَحِلونَ إلى الحَظِّ الرَّاجِحِ، وحصَلوا على السَّعيِ النَّاجِحِ، فرسَخت لهم في العُلومِ أقدامٌ، وصَحَّ لهم مِن الذِّكرِ والأجرِ والفَضلِ أفضَلُ الأقسامِ؛ قال البخاريُّ[4]: ورحل جابرُ بنُ عبدِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٤، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٤) ((صحيح البخاري)) (كتاب العلم، باب الخروجِ في طلبِ العلمِ). قبل حديث (٧٨).

مَسيرةَ شَهرٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُنَيسٍ في حديثٍ[١]!

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ هذا إخبارٌ مِن موسى بأنَّه وطَّن نَفسَه على تحمُّلِ التَّعَبِ الشَّديدِ والعَناءِ العَظيمِ في السَّفَرِ لأجلِ طَلَبِ العِلمِ، وذلك تنبيهٌ على أنَّ المتعَلِّمَ لو سافرَ مِن المَشرِق إلى المَغربِ لطَلَبِ مَسألةٍ واحدةٍ، لَحَقَّ له ذلك[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ...﴾ رحَل موسَى عليه السلامُ لطلبِ العلمِ، وترَك القعودَ عندَ بني إسرائيلَ؛ لتعليمِهم وإرشادِهم، وفي ذلك دليلٌ على البداءةِ بالأهمِّ فالأهمِّ؛ فإنَّ زيادةَ العلمِ، وعلم الإنسانِ: أهمُّ مِن تركِ ذلك، والاشتغالِ بالتعليمِ مِن دونِ تزوُّدٍ مِن العلمِ، والجمعُ بينَ الأمرينِ أكملُ[٣].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ فيه أنَّ المُسافِرَ لطَلَبِ عِلمٍ أو جِهادٍ أو نحوِه، إذا اقتَضَت المَصلحةُ الإخبارَ بمَطلَبِه، وأين يُريدُه، فإنَّه أكمَلُ مِن كَتمِه؛ فإنَّ في إظهارِه فوائِدَ، مِن الإعدادِ له عُدَّتَه، وإتيانِ الأمرِ على بصيرةٍ، وإظهارِ شَرَفِ هذه العبادةِ الجَليلةِ[٤].

٥- إسنادُ النِّسيانِ إليهما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ حقيقةٌ -على أحد القولين-؛ لأنَّ يوشَعَ وإن كان هو الموكَّلَ بحِفظِ الحوتِ، فكان عليه مراقبَتُه، إلَّا أنَّ موسى هو القاصِدُ لهذا العَمَلِ، فكان يُهِمُّه

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعهُّدُه ومراقَبتُه؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ صاحِبَ العَمَلِ أو الحاجةِ إذا وكَلَه إلى غيرِه، لا ينبغي له تَركُ تعَهُّدِه(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فيه استحبابُ إطعامِ الإنسانِ خادِمَه مِن مأكَلِه، وأكلِهما جميعًا؛ لأنَّ ظاهِرَ قَولِه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافةً إلى الجَميعِ: أنَّه أكل هو وخادِمُه جميعًا(٢).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فيه أنَّ المعونةَ تَنزِلُ على العَبدِ على حَسَبِ قيامِه بالمأمورِ به، وأنَّ الموافِقَ لأمرِ اللهِ يُعانُ ما لا يُعانُ غَيرُه(٣)، فقد قال أهلُ العلمِ: إنَّ هذا مِن آياتِ الله؛ فقد سارا قبلَ ذلك مسافةً طويلةً ولم يتعَبا، ولمَّا جاوزا المكانَ الذي فيه الخَضِرُ، تعِبا سريعًا مِن أجلِ ألا يتمادَيا في البعدِ عن المكانِ(٤)؛ لأنَّ الله ميسرٌ أسبابَ الامتثالِ لأوليائِه(٥).

٨- لَمَّا سافَرَ موسَى إلى الخَضِرِ وجَدَ في طريقِه مَسَّ الجُوعِ والنَّصَبِ، فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فإنَّه سفَرٌ إلى مخلوقٍ، ولَمَّا واعده ربُّه ثلاثين ليلةً وأتمَّها بعشرٍ، فلم يأكُلْ فيها، لم يجِدْ مَسَّ الجوعِ ولا النَّصَبِ؛ فإنَّه سفَرٌ إلى رَبِّه تعالى. وهكذا سَفَرُ القلبِ وسَيرُه إلى ربِّه؛ لا يجِدُ فيه مِن الشَّقاءِ والنَّصَبِ ما يجِدُه في سَفَرِه إلى بعضِ المخلوقينَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٢).

(٦) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٣).

٩- في قولِه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ حُسنُ أدَبٍ؛ حيثُ نسَب النِّسيانَ إلى المتسبِّبِ فيه بوَسْوستِه[(١)]، وهو الشيطانُ، فمِن وسوستِه أن يشغَلَ القلبَ بحديثِه حتى ينسيَه ما يريدُ أن يفعلَه، ولهذا يُضاف النسيانُ إليه إضافتَه إلى سببِه[(٢)]، والشرُّ وأسبابُه وسائرُ الأمورِ المكروهةِ تُنسَبُ إلى الشيطانِ؛ تأدُّبًا عن نسبتِها إلى اللهِ تعالى، وإن كان الكُلُّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه[(٣)].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه دليلٌ على التواضُعِ للعالِمِ[(٤)]، فموسَى عليه السلامُ راعى في ذلك غايةَ التَّواضُعِ والأدَبِ، فاستجهَل نفْسَه، واستأذَن أن يَكونَ تابِعًا له، وسأَل مِنه أن يُرشِدَه ويُنعِمَ عليه بتَعليمِ بعضِ ما أنعَم اللهُ عليه[(٥)].

١١- قال قتادة: (لو كان أحدٌ يكتفي مِن العِلمِ بشَيءٍ، لاكتفى موسى عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٢).
وقيل: إنَّما نسَبه إلى الشَّيطانِ هَضمًا لنَفسِه، أو: لأنَّ عدَمَ احتِمالِ القوَّةِ للجانِبَينِ، واشتِغالَها بأحَدِهما عن الآخَرِ يُعَدُّ مِن نُقصانِ نفسِه. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
قال الشنقيطي: (الصَّحيح عندَ علماءِ السَّلفِ أَنَّ حقيقةَ النِّسيانِ والإنساءِ والتَّذكيرِ والتَّذكُّرِ كحقيقةِ أيِّ معنًى مِنَ المعاني، وأنَّها كُلَّها مِنَ اللَّهِ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، فما نُسِبَ إلى الشَّيطانِ فهو بتسليطٍ مِنَ اللَّهِ كما في قولِه تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فيكونُ إسنادُ الإنساءِ إلى الشَّيطانِ مِنْ بابِ قولِ الخليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ تأدُّبًا في الخطابِ مع اللَّهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٨/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٧).

السَّلامُ، ولكنَّه قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾)[١].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه دليلٌ على حُسنِ التلَطُّفِ والاستنزالِ، والأدبِ في طَلَبِ العِلمِ[٢]، فقال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فأخرَج الكلامَ بصورةِ الملاطفةِ والمشاورةَ، وأنَّك هل تأذنُ لي في ذلك أو لا، وإقرارُه بأنَّه يتعلمُ منه، بخلافِ ما عليه أهلُ الجفاءِ أو الكبرِ، لا يُظهِرُ الواحدُ منهم للمعلِّمِ افتقارَه إلى علمِه، بل يدَّعي أنَّه يتعاونُ هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنَّه يُعَلِّمُ معلِّمَه، وهو جاهلٌ جدًّا، فالذلُّ للمعلِّمِ، وإظهارُ الحاجةِ إلى تعليمِه، مِن أنفعِ شيءٍ للمتعلِّم[٣]، وبَيَّنَ موسى عليه السلامُ أنَّه لا يَطلُبُ من الخضر غيرَ العِلمِ، بقولِه: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، وزاد في التلَطُّفِ بالإشارةِ إلى أنَّه لا يَطلُبُ جميعَ ما عِندَه لِيَطولَ عليه الزَّمانُ، بل جوامِعَ منه يسترشِدُ بها إلى باقيه، فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ﴾[٤].

١٣- قول اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ حقَّ المعلِّمِ على المتعلِّمِ اتِّباعُه والاقتداءُ به[٥]. وفيه دَليلٌ على أنَّ المتعَلِّمَ تَبَعٌ للعالمِ، وإن تفاوَتَت المراتِبُ[٦].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (١/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧).

فيه المُسافَرةُ مع العالِمِ؛ لاقتباسِ فوائِدِه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه تواضُعُ الفاضِلِ للتعَلُّمِ ممَّن دُونَه؛ فإنَّ موسى -بلا شَكٍّ- أفضَلُ مِن الخَضِرِ[٢].

١٦- قال بعضُ أهلِ العِلمِ: (إنَّ فيما عاناه موسى مِن الدَّأبِ والسَّفَرِ، وصَبَر عليه من التواضُعِ والخُضوعِ للخَضِرِ بَعدَ مُعاناةِ قَصْدِه، مع محلِّ موسى مِن اللهِ ومَوضِعه مِن كرامتِه، وشَرفِ نُبُوَّتِه- دَلالةً على ارتفاعِ قَدرِ العِلمِ، وعلوِّ مَنزلةِ أهلِه، وحُسنِ التواضُعِ لِمن يُلتَمَس منه ويُؤخَذ عنه، ولو ارتفع عن التواضُعِ لِمخلوقٍ أحدٌ، بارتفاعِ دَرجةٍ، وسُمُوِّ منزلةٍ؛ لسبق إلى ذلك موسى، فلما أظهرَ الجِدَّ والاجتهادَ، والانزعاجَ عن الوطنِ، والحِرصَ على الاستفادةِ، مع الاعترافِ بالحاجةِ إلى أن يَصِلَ من العلمِ إلى ما هو غائبٌ عنه؛ دلَّ على أنَّه ليس في الخَلقِ مَن يعلو على هذه الحالِ، ولا يَكبُرُ عنها)[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه تعَلُّمُ العالِمِ الفاضِلِ للعِلمِ الذي لم يتمَهَّرْ فيه، ممَّن مهَرَ فيه، وإن كان دونَه في العِلمِ بدَرَجاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّ موسى -عليه السَّلامُ- مِن أُولي العَزمِ مِن المُرسَلينَ الذين منَحَهم اللهُ وأعطاهم من العِلمِ ما لم يُعطِ سِواهم، ولكِنْ في هذا العِلمِ الخاصِّ كان عند الخَضِرِ ما ليس عندَه؛ فلهذا حَرَص على التعَلُّمِ منه[٤].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((الرحلة في طلب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

إضافةُ العِلمِ وغيرِه مِن الفضائِلِ لله تعالى، والإقرارُ بذلك، وشُكرُ الله عليها؛ لِقَولِه: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: ممَّا عَلَّمَك اللهُ تعالى[1].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فيه أنَّ العِلمَ النَّافِعَ هو العِلمُ المُرشِدُ إلى الخيرِ، فكُلُّ عِلمٍ يكونُ فيه رُشدٌ وهدايةٌ لطُرقِ الخيرِ، وتحذيرٌ عن طريقِ الشَّرِّ، أو وسيلةٌ لذلك؛ فإنَّه مِن العِلمِ النَّافِعِ، وما سوى ذلك فإمَّا أن يكونَ ضارًّا، أو ليس فيه فائِدةٌ[2].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ في هذا أصلٌ مِن أصولِ التَّعليمِ: أن يُنَبِّهَ المعلِّمُ المتعلِّمَ بعوارِضِ مَوضوعاتِ العُلومِ المُلَقَّنةِ، لا سيَّما إذا كانت في معالجَتِها مَشقَّةٌ[3].

٢١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فيه أنَّ مَن ليس له قُوَّةُ الصبرِ على صُحبةِ العالِمِ والعِلمِ، وحُسنِ الثَّباتِ على ذلك، أنَّه يفوتُه بحَسَبِ عَدَمِ صَبرِه كثيرٌ مِن العِلمِ؛ فمَن لا صَبْرَ له لا يُدرِك العِلمَ، ومن استعمل الصَّبرَ ولازَمَه، أدرك به كُلَّ أمرٍ سعى فيه؛ لِقَولِ الخَضِر يَعتَذِرُ من موسى بذِكرِ المانِعِ لموسى في الأخذِ عنه: إنَّه لا يصبِرُ معه[4].

٢٢- السَّبَبُ الكبيرُ لحُصولِ الصَّبرِ على أمرٍ ما، هو إحاطةُ الإنسانِ عِلمًا وخِبرةً بذلك الأمرِ الذي أُمِرَ بالصَّبرِ عليه، وإلَّا فالذي لا يَدريه، أو لا يَدري

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤).

غايتَه ولا نتيجَتَه، ولا فائِدَتَه وثمَرتَه، ليس عنده سَبَبُ الصبرِ عليه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الخَضِرِ لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فجعَلَ المُوجِبَ لعدَمِ صَبرِه عَدَمَ إحاطتِه خُبرًا بالأمرِ(١).

٢٣- قَولُ الخَضِر لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ نِسبةٌ إلى قِلَّةِ العِلمِ والخُبرِ، وقَولُ موسى له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ تواضُعٌ شديدٌ وإظهارٌ للتحَمُّلِ التامِّ والتواضُعِ الشَّديدِ، وكلُّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الواجِبَ على المتعَلِّم إظهارُ التواضُعِ بأقصى الغاياتِ، وأمَّا المعَلِّمُ فإنْ رأى أنَّ في التَّغليظِ على المتعَلِّمِ ما يفيدُه نفعًا وإرشادًا إلى الخيرِ، فالواجِبُ عليه ذِكرُه؛ فإنَّ السُّكوتَ عنه يُوقِعُ المتعَلِّمَ في الغُرورِ والنَّخوةِ، وذلك يمنَعُه من التعَلُّمِ(٢).

٢٤- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ تعليقَ الأمورِ المُستقبليَّةِ التي من أفعالِ العِبادِ بالمَشيئةِ، وألَّا يقولَ الإنسانُ للشَّيءِ: إني فاعِلٌ ذلك في المُستَقبلِ، إلَّا أن يقولَ: (إنْ شاء الله)(٣).

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه الأمرُ بالتَّأنِّي والتثَبُّت، وعَدَمُ المبادرةِ إلى الحُكمِ على الشَّيءِ حتى يُعرَفَ ما يُرادُ منه وما هو المَقصودُ(٤).

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذِكۡرٗا﴾ هذا توجيهٌ مِن مُعَلِّمٍ لِمَن يتعلَّمُ منه؛ ألَّا يَتعجَّلَ في الرَّدِّ على معلِّمِه، بل ينتظرُ حتى يُحدِثَ له بذلك ذِكْرًا، وهذا مِن آدابِ المُتَعَلِّم؛ ألَّا يَتَعَجَّلَ في الرَّدِّ حتى يتبيَّنَ الأمْر[1].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ قبولُ نصيحةِ الشيخِ؛ لعلمِه منك ما لا تعلمُه مِن نفسِك، وإن كنتَ أفضلَ منه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ تسميةُ التلميذِ الخادمِ فتًى[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ فيه مِن الفِقهِ: استِعانةُ العالِمِ على رِحلتِه في طَلَبِ الازديادِ مِن العِلمِ بالخادِمِ والصَّاحِبِ[4]، وأنَّه لا بأسَ بالاستخدامِ، واتخاذِ الرقيقِ والخادمِ في السفرِ[5].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أنَّه يجوزُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٦)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٣) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٥)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣).

النبيِّ النسيانُ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ السَّفَرُ الطَّويلُ الذي وصلا به إلى مجمَعِ البَحرينِ لم يجِدا مَسَّ التَّعَبِ فيه، وهذا مِن الآياتِ والعَلاماتِ الدالَّةِ لموسى على وجودِ مَطلَبِه، وأيضًا فإنَّ الشَّوقَ المتعَلِّقَ بالوصولِ إلى ذلك المكانِ سَهَّلَ لهما الطَّريقَ، فلمَّا تجاوَزا غايتَهما وجَدَا مَسَّ التَّعَبِ[(٢)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فيه اتِّخاذُ الزَّادِ للسَّفَرِ، وأنَّه لا يُنافي التوكُّلَ، وهو رَدٌّ على الصُّوفيَّةِ الجَهَلةِ الأغْمار، الذين يقتَحِمونَ المَهامِهَ[(٣)] والقِفارَ، زعمًا منهم أنَّ ذلك هو التوكُّلُ على اللهِ الواحِدِ القَهَّارِ؛ هذا موسى نبيُّ اللهِ وكَليمُه مِن أهلِ الأرضِ قد اتَّخذ الزادَ، مع مَعرِفتِه برَبِّه وتوكُّلِه على رَبِّ العِبادِ[(٤)].

٦- يقولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ فيه جوازُ إخبارِ الإنسانِ عَمَّا هو مِن مُقتضى طبيعةِ النَّفسِ؛ مِن نَصَبٍ أو جُوعٍ أو عَطَشٍ، إذا لم يكُنْ على وجهِ التسَخُّطِ، وكان صِدقًا[(٥)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

(٣) المهامهُ: جمعُ مَهْمَهٍ أو مَهْمَهةٍ: وهي المفازةُ والصَّحراءُ البعيدةُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٩١).

إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف نسي يوشَعُ ذلك، ومِثْلُه لا يُنسَى؛ لكَونِه أمارةً لهما على الطَّلِبةِ التي تناهَضا من أجلِها، ولكونِه مُعجِزةً؟ ثمَّ كيف استمَرَّ به النسيانُ حتى خَلَّفا الموعِدَ، وحتى طلب موسى عليه السَّلامُ الحوتَ؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الأول: أنَّه قد شَغَله الشيطانُ بوساوِسِه، فذهب بفِكرِه كُلَّ مَذهَبٍ، حتى اعتراه النِّسيانُ[1].

الثاني: أنَّ يُوشَعَ كان قد شاهَدَ المعجزاتِ القاهرةَ مِنْ موسَى عليه السَّلامُ كثيرًا، فلم يَبْقَ لهذه المعجزةِ عندَه وَقعٌ عظيمٌ؛ فجاز حصولُ النِّسيان.

الثالث: أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا استعظم عِلمَ نَفسِه، أزال الله عن قَلبِ صاحِبِه هذا العِلمَ الضَّروريَّ؛ تنبيهًا لِموسى عليه السلام على أنَّ العِلمَ لا يحصُلُ إلَّا بتعليمِ اللهِ وحِفظِه على القَلبِ والخاطِرِ[2].

٨- في قوله تعالى -عن فتى موسى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ حجةٌ في إجازة «أرأيتَ» في المخاطبات؛ وإباحتِه في المحاورات، وردٌّ على مَن ينكرُ اللفظةَ في نفْسِها مِن أَجْلِ استعمال أهلِ الرأي لها، وقد ذكرها اللهُ تعالى عن نفْسِه في غيرِ موضعٍ مِن كتابه فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام: ٤٦]. وأمَّا قولُ الشعبيِّ رحمه اللهُ: (بَغَّض هذا المسجدَ إليَّ الأرأيتيُّون: أرأيتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٢-٧٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٠).

أرأيتَ)؛ فإنما أنْكَر منهم مرادَهم به، لا نفسَ الكلمةِ[١].

٩- نسيانُ الخيرِ يكونُ مِن الشيطانِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال أيضًا: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾[٢] [المجادلة: ١٩].

١٠- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ على أنَّ العِلْمَ غيرُ مقسومٍ على فضائلِ الرِّجالِ ودَرَجاتِهم عند الله، حتى يكونَ مَن هو أعظمُ فضلًا في عَمَلِه ودَرَجتِه أعلمَ في دِينِه، أو أنَّه غيرُ جائزٍ أنْ يكونَ الأدْوَنُ في الفَضلِ أعلمَ في أشياءَ ممَّن فَوقَه في درجةِ الفَضلِ، وإنَّما العِلمُ مَوهبةٌ مِن مواهبِ اللهِ يَخُصُّ به مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويُفَضِّلُ بعضَهم على بعضٍ فيه[٣].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ يُؤخَذُ منه جوازُ التَّعاقُدِ على تعليمِ القرآنِ والعلمِ، فصيغةُ: (أفعلُ كذا على كذا)، مِنْ صِيَغِ الالتزامِ والتَّعاقُدِ[٤].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ فيه اعتِذارُ العالمِ إلى مَن يريدُ الأخذَ عنه، في عَدَمِ تعليمِه ما لا يَحتَمِلُه طَبعُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ حكَمَ عليه بعادةِ الخَلقِ في عَدَمِ الصَّبرِ عمَّا يخرجُ مِن الاعتيادِ، وهو أصلٌ في الحُكمِ بالعادةِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الاختيارَ والمستحَبَّ في الاستثناءِ أن يكونَ في ابتداءِ الكلامِ؛ لأنَّ موسى ابتدأ به، وكذلك قَولُه: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] فإذا ترَكه في أوَّلِ كلامِه أو نَسِيَ، يَستثني في آخِرِه[٢].

١٥- قولُه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ واقعةٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فيه أنَّ العَزمَ على فِعلِ الشَّيءِ ليس بمَنزلةِ فِعلِه؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فوطَّنَ نَفسَه على الصَّبرِ ولم يَفعَلْ[٤].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فيه جوازُ اشتراطِ المَتبوعِ على التَّابِعِ، وأنَّه يَلزَمُ الوفاءُ بالشَّرطِ[٥].

١٨- قولُه: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما صدَر عنه فله حِكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ البتَّةَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥).

١٩- قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فنهَى الخضرُ موسَى عليه السلامُ عن السُّؤالِ عن شيءٍ ممَّا يُشاهِدُه مِن تَصرُّفاتِه حتَّى يُبيِّنَه له مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؛ لأنَّ السُّؤالَ قد يُصادِفُ وقتَ اشتغالِ المسؤولِ بإكمالِ عملِه، فتَضيقُ له نفسُه، فرُبَّما كان الجوابُ عنه بدونِ نشاطِ نفْسٍ، وربَّما خالَطه بعضُ القلقِ، فيكونُ الجوابُ غيرَ شافٍ، فأراد الخَضِرُ أن يتَولَّى هو بيانَ أعمالِه في الإبَّانِ الَّذي يَراه مُناسِبًا؛ ليكونَ البيانُ أبسَطَ، والإقبالُ أبهجَ، فيَزيدَ الاتِّصالُ بينَ القَرينينِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ في سَوْقِ هذه القِصَّةِ تعريضٌ بأهلِ الكتابِ بأنَّ الأوْلَى لهم أن يَدُلُّوا النَّاسَ على أخبارِ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وعلى سَفَرٍ لأجلِ تحصيلِ العِلمِ والحِكْمةِ، لا سَفَرٍ لأجْلِ بَسْطِ المُلْكِ والسُّلطانِ[(٢)].

- وجملةُ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ... ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الكهف: ٥٠] عَطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ، والتَّقديرُ: واذْكُرْ إذْ قال مُوسى لِفَتاه، أيِ: اذْكُرْ ذلك الزَّمَنَ وما جَرى فيه. وناسَبَها تقديرُ فِعلِ (اذْكُرْ)؛ لأنَّ في هذه القصَّةِ موعِظةً وذِكْرى، كما في قِصَّةِ خَلْقِ آدمَ[(٣)].

- وابتُدِئَت القِصَّةُ بحِكايةِ كلامِ موسى عليه السَّلامُ المقتَضِي تَصميمًا على ألَّا يَزولَ عمَّا هو فيه، أي: لا يَشتَغِلَ بشيءٍ آخَرَ حتَّى يَبلُغَ مَجمَعَ البحرَينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٤٦، ٣٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٥٩).

ابتِداءً عَجيبًا في بابِ الإيجازِ. وحُذِف ذِكرُ الغرَضِ الَّذي سارَ لأجْلِه موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه سيُذكَرُ بعدُ، وهو حَذفُ إيجازٍ وتشويقٍ، له مَوقِعٌ عظيمٌ في حكايةِ القِصَّةِ؛ لإخراجِها عن مَطْروقِ القَصصِ إلى أسلوبِ بديعِ الحِكَمِ والأمثالِ؛ قَضاءً لحقِّ بلاغةِ الإعجازِ[١].

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ عُطِفَ ﴿أَمۡضِيَ﴾ على ﴿أَبۡلُغَ﴾ بـ (أَوْ)، فصارَ المعطوفُ إحْدى غايتَيْنِ للإقلاعِ عن السَّيرِ، أي: إمَّا أن أبلُغَ المكانَ، أو أَمْضيَ زمَنًا طويلًا. ولَمَّا كان موسى لا يُخامِرُه الشَّكُّ في وُجودِ مكانٍ هو مَجمَعٌ للبَحْرينِ، وإلْفاءِ طِلْبَتِه عِندَه؛ لأنَّه عَلِم ذلك بوَحيٍ مِن اللهِ تعالى - تَعيَّنَ أن يكونَ المقصودُ بحَرفِ التَّرديدِ (أو) تأكيدَ مُضيِّه زمَنًا يتحقَّقُ فيه الوصولُ إلى مَجمَعِ البحرَين[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ الفاءُ للتَّفريعِ، والفَصيحةُ؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: فسَارَا حتَّى بَلَغا مَجمعَ البحرَين[٣].

- قولُه: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ شَبَّهَ بالسَّرَبِ مَسْلَكَ الحوتِ في الماء حينَ لم يَنطبِقِ الماءُ بعدَه، بل بَقِي كالطَّاقِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾، وفي الآيةِ الثَّالثةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]؛ وذلك لأنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٠ - ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠١).

والعَطْفِ، فكان اتِّخاذُ الحوتِ للسَّبيلِ عَقِيبَ النِّسيانِ، فذُكِرَ بالفاءِ. وفي الآيةِ الأُخْرى لَمَّا حِيلَ بينَهما بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] زالَ مَعنى التَّعقيبِ، وبَقِيَ العَطفُ المجرَّدُ، وحَرفُه الواوُ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾

- حُذِفَ مفعولُ ﴿جَاوَزَا﴾ للعِلْمِ، أي: جاوَزا مَجْمَعَ البحرَينِ[2].

- وجملةُ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ في مَحلِّ التَّعليلِ للأمرِ بإيتاءِ الغَداءِ؛ إمَّا باعتبارِ أنَّ النَّصبَ إنَّما يَعتَري بسبَبِ الضَّعفِ النَّاشئِ عن الجُوعِ، وإمَّا باعتبارِ ما في أثْناءِ التَّغذِّي مِن استراحةٍ ما[3].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾

- في قولِه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ مُرادُه بالاستفهامِ تَعجيبُ موسى عليه السَّلامُ ممَّا اعْتراه هُناك مِن النِّسيانِ، مع كَونِ ما شاهَدَه مِن العَظائمِ الَّتي لا تَكادُ تُنْسى[4].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾، ذَكَر الإيواء إليها مع أنَّ المذكورَ فيما سبَق مرَّتَين بُلوغُ مجمَعِ البحرَين؛ لِزيادةِ تَعْيينِ مَحلِّ الحادثةِ؛ فإنَّ المَجمَعَ محلٌّ متَّسِعٌ لا يُمكِنُ تحقيقُ المرادِ المذكورِ بنِسْبةِ الحادثةِ إليه، ولِتَمهيدِ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٢٩).

العُذرِ؛ فإنَّ الإواءَ إليها، والنَّومَ عِندَها ممَّا يُؤدِّي إلى النِّسيانِ عادةً[١].

- قولُه: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فيه تأكيدٌ للتَّعجيبِ، وتربيةٌ لاستِعْظامِ المنسيِّ. وإيقاعُ النِّسيانِ على اسْمِ الحوتِ دونَ ضميرِ الغَداءِ، مع أنَّه المأمورُ بإتيانِه؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه ليس مِن قَبيلِ نِسيانِ المسافِرِ زادَه في المنزِلِ، وأنَّ ما شاهَدَه ليس مِن قَبيلِ الأحوالِ المتعلِّقةِ بالغَداءِ مِن حيث هو غَداءٌ وطَعامٌ، بل مِن حيث هو حوتٌ كَسائرِ الحيتانِ، مع زيادةٍ، أي: نَسيتُ أن أَذكُرَ لك أمْرَه، وما شاهَدتُ مِنه مِن الأمورِ العَجيبةِ[٢].

- ووجهُ حَصرِه إسنادَ هذا الإنساءِ إلى الشَّيطانِ: أنَّ ما حَصَل له مِن نسيانٍ أن يُخبِرَ موسى بتِلْك الحادثةِ نِسيانٌ ليس مِن شأنِه أن يقَعَ في زمَنٍ قريبٍ، مع شِدَّةِ الاهتمامِ بالأمرِ المنسيِّ، وشِدَّةِ عنايتِه بإخبارِ نبيِّه به. ومعَ كونِ المنسيِّ أُعْجوبةً شأنُها ألَّا تُنْسى- يتَعيَّنُ أنَّ الشَّيطانَ ألْهاه بأشياءَ عن أن يتَذكَّرَ ذلك الحادثَ العَجيبَ، وعَلِم يوشَعُ أنَّ الشَّيطانَ يَسوءُه الْتِقاءُ هذَيْن العبدَيْن الصَّالِحَين، وما له مِن الأثرِ في بَثِّ العلومِ الصَّالحةِ؛ فهو يَصرِفُ عنها ولو بتَأخيرِ وُقوعِها؛ طَمَعًا في حُدوثِ العَوائقِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه[٤]. وقُدِّم على المعطوفِ عليه؛ للاعْتِناءِ بالاعْتِذارِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٣).

٥- قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾

- قولُه: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ تنكيرُ ﴿عَبۡدٗا﴾ للتَّفخيمِ، والإضافةُ في ﴿عِبَادِنَآ﴾ للتَّشريفِ والاختصاصِ[(١)]؛ فوُصِف بأنه مِن عبادِ اللهِ تَشريفًا له، وعَدَل عن الإضافةِ إلى التَّنكيرِ والصِّفةِ؛ لأنَّه لم يَسبِقْ ما يَقْتَضي تعريفَه، وللإشارةِ إلى أنَّ هذا الحالَ الغريبَ العظيمَ الَّذي ذُكِر مِن قصَّتِه ما هو إلَّا مِن أحوالِ عبادٍ كَثيرينَ للهِ تعالى[(٢)].

- والمخالَفةُ بينَ ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ وبينَ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ للتَّفنُّنِ؛ تَفاديًا مِن إعادةِ الكلمةِ[(٣)].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ مِن السِّياقِ، كأنَّه قيل: فماذا جَرى بينَهما مِن الكلامِ؟ فقيل: قال له مُوسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾[(٤)]. وجملةُ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ ابتداءُ مُحاوَرةٍ، فهو استِئْنافٌ ابتدائيٌّ؛ ولذلك لم يقَعِ التَّعبيرُ بـ(قالَ) مُجرَّدةً عن العاطِفِ[(٥)]. وفي الكلامِ محذوفٌ تقديرُه: فلَمَّا الْتَقيَا وتَراجَعا الكلامَ قال له موسى: هل أتَّبِعُك[(٦)]؟

- قولُه: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥).

العَرْضِ؛ بقَرينةِ أنَّه استِفْهامٌ عن عمَلِ نفسِ المستفهِمِ[1].

- و(على) مُستعمَلةٌ في معنى الاشْتِراط؛ جعَل الاتِّباع كأنَّه مُستعمَلٌ فوقَ التَّعليمِ؛ لِشِدَّةِ المقارَنةِ بينَهما[2].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نَفى عنه استِطاعةَ الصَّبرِ معَه على وُجوهٍ مِن التَّأكيدِ؛ كأنَّها ممَّا لا يَصِحُّ ولا يَستقيمُ، وعَلَّل ذلك واعتذَر عنه بقولِه: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[3]؛ فأكَّد جملة ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بحرف (إنَّ) وبحرف (لَن)؛ تَحقيقًا لِمَضمونِها مِن تَوقُّعِ ضِيقِ ذَرْعِ مُوسى عن قَبولِ ما يُبْديه إليه؛ لأنَّه عَلِم أنَّه تَصْدُرُ منه أفعالٌ ظاهِرُها المنكَرُ، وباطِنُها المعروفُ. وهذا تحذيرٌ مِنه لِمُوسى عليه السَّلامُ، وتنبيهٌ على ما يَستقبِلُه منه؛ حتَّى يُقْدِمَ على مُتابَعتِه إنْ شاء على بَصيرةٍ وعلى غيرِ اغْتِرارٍ، وليس المقصودُ منه الإخبارَ[4]؛ فمَناطُ التَّأكيداتِ في جُملةِ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ إنَّما هو تحقيقُ خُطورةِ أعمالِه وغَرابتِها في المتعارَفِ بحيث لا تُتحَمَّلُ، ولو كان خَبرًا على أصلِه لم يُقبَلْ فيه المراجعةُ، ولم يُجِبْه موسى بقولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، وزادَها تأكيدًا عُمومُ الصَّبرِ المنفيِّ؛ لِوُقوعِه نَكِرةً في سياقِ النَّفيِ، وأنَّ المنفيَّ استِطاعتُه الصَّبرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧١).

المفيدُ أنَّه لو تَجشَّم أن يَصبِرَ لم يَستطِعْ ذلك، فأفادَ هذا التَّركيبُ نفْيَ حُصولِ الصَّبرِ منه في المستقبَلِ على آكَدِ وجْهٍ[1].

- وفي زِيادةِ ﴿مَعِيَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه يَجِدُ مِن أعمالِه ما لا يَجِدُ مِثلَه معَ غيرِه؛ فانْتِفاءُ الصَّبرِ على أعمالِه أجْدَرُ[2].

٨- قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾

- جُملةُ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ في موضِعِ الحالِ مِن اسْمِ (إنَّ) أو مِن ضميرِ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾؛ فالواوُ واوُ الحالِ، وليسَت واوَ العطفِ؛ لأنَّ شأنَ هذه الجملةِ ألَّا تُعطَفَ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ بينَهما كَمالَ الاتِّصالِ؛ إذِ الثَّانيةُ كالعِلَّةِ للأُولى. وإنَّما أُوثِرَ مَجيئُها في صورةِ الجملةِ الحاليَّةِ، دونَ أن تُفصَلَ عن الجملةِ الأُولى فتَقَعَ عِلَّةً، مع أنَّ التَّعليلَ هو المرادُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَضمونَها عِلَّةٌ مُلازِمةٌ لِمَضمونِ الَّتي قبلَها؛ إذْ هي حالٌ مِن المسنَدِ إليه في الجملةِ قبلَها[3].

- و(كيف) للاستِفْهامِ الإنكاريِّ في معنى النَّفْيِ، أي: وأنتَ لا تَصبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبرًا[4].

٩- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾

- قولُه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أبْلَغُ في ثُبوتِ الصَّبرِ مِن نحوِ: (سأَصبِرُ)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لأنَّه يَدُلُّ على حُصولِ صبرٍ ظاهرٍ لرَفيقِه ومَتبوعِه(١).

- وفي تأكيدِه ذلك بالتَّعليقِ على مَشيئةِ اللهِ -استِعانةً به وحِرصًا على تَقدُّمِ التَّيسيرِ؛ تأدُّبًا مع اللهِ-: إيذانٌ بأنَّ الصبرَ والطَّاعةَ مِن المتعلِّمِ الَّذي له شيءٌ مِن العلمِ أعسَرُ مِن صَبرِ وطاعةِ المتعلِّمِ السَّاذَجِ(٢).

- قولُه: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ لَمَّا كان هذا الصَّبرُ الكاملُ يَقْتضي طاعةَ الآمِرِ فيما يأمُرُه به- عطَف عليه ما يُفيدُ الطَّاعةَ؛ إبلاغًا في الاتِّسام بأكمَلِ أحوالِ طالبِ العلمِ(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ...﴾ تَفريعٌ على وعْدِ موسى إيَّاه بأنَّه يَجِدُه صابِرًا، ففَرَّع على ذلك نَهْيَه عن السُّؤالِ عن شيءٍ ممَّا يُشاهِدُه مِن تَصرُّفاتِه حتَّى يُبيِّنَه له مِن تِلْقاءِ نَفْسِه(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧١-٧٣)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِمْرًا﴾: أي: عَظِيمًا مُنكرًا، من قَولِهم: أمِرَ الأمرُ، أي: كَبُر وكَثُر. وقيل: عجبًا[1].

﴿تُرْهِقْنِى﴾: تُغْشِني، وتُكَلِّفْني، وتُلْحِقْني، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: فانطلق موسى والخَضِرُ يَمشِيانِ على السَّاحِلِ، فمَرَّت بهما سَفينةٌ، فطلبا مِن أهلِها أن يركَبا معهم، فلمَّا رَكِبا قَلَعَ الخَضِرُ لوحًا من السَّفينةِ فخَرَقَها، فقال له موسى: أخَرَقْتَ السَّفينةَ؛ لتُغرِق أهلَها؟! لقد فعَلْتَ فعلًا عظيمًا مُنكَرًا. قال له الخَضِرُ: قد قُلتُ لك مِن أوَّلِ الأمرِ: إنَّك لن تستطيعَ الصَّبرَ على صُحبتي. قال موسى مُعتَذِرًا: لا تؤاخِذْني بنِسياني شَرطَك عليَّ، ولا تُكَلِّفْني مَشقَّةً في تعلُّمي منك، وعامِلْني بيُسرٍ ورِفقٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير الطبري)) (١٥/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٨)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾.

أي: فانطلق موسى والخَضِرُ يَسيرانِ إلى أنْ رَكِبا سَفينةً في البَحرِ، فقام الخَضِرُ بخَرقِها[(١)].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((فانطلقَ الخَضِرُ وموسى يمشِيانِ على ساحِلِ البَحرِ، فمَرَّت بهما سَفينةٌ، فكَلَّماهم أن يحمِلوهما، فعَرَفوا الخَضِرَ، فحَمَلوهما بغَيرِ نَولٍ[(٢)]، فعمَد الخَضِرُ إلى لوحٍ مِن ألواحِ السَّفينةِ فنَزَعه))[(٣)].

وفي روايةٍ: ((وجدا معابِرَ[(٤)] صِغارًا تحمِلُ أهلَ هذا السَّاحِلِ إلى أهلِ هذا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفوه فقالوا: عبدُ الله الصَّالحُ -قال: قُلْنا لسعيدِ بنِ جُبَير: خَضِر؟ قال: نَعَم- لا نحمِلُه بأجرٍ، فخَرَقَها ووتَدَ فيها وتدًا[(٥)]))[(٦)].

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) بغَيرِ نَولٍ: أي: بغير أجرٍ ولا جُعْلٍ، والنَّولُ والنَّوالُ: العطاءُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٢٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٤٠).

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٤) معابِرَ: أي: مَراكِبَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٢).

(٥) وتَدَ فيها وتدًا: أي: جعل فيها وتدًا، والوَتدُ: ما ثُبِّتَ في الأرضِ أو الحائطِ من خَشَبٍ ونَحوِه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٢٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ٢٣٩٤).

(٦) رواه البخاري (٤٧٢٦).

أي: قال موسى للخَضِر: أخرَقْتَ السَّفينةَ لتُغرقَ[١] ركَّابَها؛ فإنَّ خرقَها سببٌ لدخولِ الماءِ فيها وغَرقِهم[٢]؟!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((فقال له موسى: قومٌ حَمَلونا بغيرِ نَولٍ، عَمَدْتَ إلى سفينتِهم فخَرَقْتَها لتُغرِقَ أهلَها؟!))[٣].

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

أي: لقد أتيتَ شيئًا عظيمًا، وفعَلْتَ فِعلًا منكرًا[٤]!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

أي: قال الخَضِرُ لِموسى: ألم أُخبِرْك بأنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي؛ لِما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ قَبيحٌ؟! وأنَّك لن تَصبِرَ عن سؤالي عن أفعالي؛ لأنَّك لم تُحِطْ بها خُبْرًا[٥]؟!

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (واللامُ في قَولِه: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ليست للتعليلِ، ولكِنَّها للعاقبةِ، يعني: أنَّك إذا خرَقْتَها غَرِقَ أهلُها، وإلَّا لا شَكَّ أنَّ موسى عليه السَّلامُ لا يدري ما غَرَضُ الخَضِر، ولا شَكَّ أيضًا أنَّه يدري أنَّه لا يريدُ أن يُغرِقَ أهلَها؛ لأنَّه لو أراد أن يُغرِقَ أهلَها لكان أوَّلَ مَن يَغرَقُ هو وموسى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٦).

قال الواحدي: (قال مجاهدٌ: منكرًا. وهو قولُ قتادةَ، والمفسرينَ). ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾.

أي: قال موسى للخَضِر مُعتَذِرًا: لا تُؤاخِذْني بالذي نَسيتُه مِن عَهدِك إليَّ، واشتِراطِك ألَّا أسألَك عن شَيءٍ حتى تُخبِرَني[(١)].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ قال: ((كانت الأولى مِن موسى نِسيانًا))[(٢)].

﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾.

أي: ولا تُضَيِّقْ عليَّ أمري معك، وتشدِّدْ عليَّ في صُحبتي لك[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ نِسيانُ نَفسِه عندَما قال: ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ وهو بينَ الرَّاكِبين، وهو جَديرٌ بأن يَنهمِكَ بأمرِ نفْسِه، وما هو مُقْدِمٌ عليه مِن سوءِ المصيرِ، وإنَّما حمَلَه على المبادَرةِ بالإنكارِ الالْتِهابُ والحَميَّةُ للحقِّ، فنَسِي نفْسَه واشتَغَل بغيرِه في الحالةِ الَّتي يقولُ فيها كلُّ واحدٍ: نَفْسي نَفسي، ولا يَلْوي على مالٍ ولا ولَدٍ، وتلك حالةُ الغرَقِ تَذهَلُ فيها العقولُ، وتَغرُبُ الأحلامُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٧).

قال ابنُ عاشور: (﴿ مِنْ ﴾ يجوزُ أن تكونَ ابتدائيَّةً، فيكون المرادُ بـ «أمْرِه»: نسيانَه، أي: لا تجعَلْ نسياني مُنشِئًا لإرهاقي عُسرًا. ويجوزُ أن تكونَ بيانيَّةً، فيكون المرادُ بـ «أمرِه»: شأنَه معه، أي: لا تجعَلْ شأني إرهاقَك إيَّاي عُسرًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٧).

ويَضيعُ الرُّشدُ مِن الألبابِ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾ فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يأخُذَ مِن أخلاقِ النَّاسِ ومُعامَلاتِهم العَفوَ منها، وما سَمَحَت به أنفُسُهم، ولا ينبغي له أن يُكَلِّفَهم ما لا يُطيقونَ، أو يَشُقَّ عليهم ويُرهِقَهم؛ فإنَّ هذا مَدعاةٌ إلى النُّفورِ منه والسَّآمةِ، بل يأخُذُ المُتيَسِّرَ ليتيسَّرَ له الأمرُ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ إنْ قيل: فما بالُ فتَى موسَى ذُكِر في أوَّلِ القصةِ، ثمَّ لم يُذكَرْ بعدَ ذلك؟

فالجوابُ: أنَّ المقصودَ بالسياقِ إنما هو قصةُ موسَى معَ الخضرِ، وذِكرُ ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبعٌ، فاقتصر على ذكرِ المتبوعِ دونَ التابعِ، ويحتملُ أن يكونَ يوشعُ تأخَّر عنهما؛ لأنَّ المذكورَ انطلاقُ اثنينِ[3]. وقيل: كان موسى قد صَرَفه ورَدَّه إلى بَني إسرائيلَ[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ ﴾ فيه جوازُ رُكوبِ البَحرِ في غيرِ الحالةِ التي يُخافُ منها[5].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾ فيه أنَّ الأمورَ تجري أحكامُها على ظاهِرِها، وتُعَلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

بها الأحكامُ الدُّنيويَّةُ، في الأموالِ والدِّماءِ وغَيرِها؛ فإنَّ موسى -عليه السَّلامُ- أنكر على الخَضِرِ خَرْقَه السَّفينةَ، وقَتْلَ الغُلامِ -كما سيأتي-، وأنَّ هذه الأمورَ ظاهِرُها أنَّها مِن المُنكَرِ، وموسى عليه السَّلامُ لا يَسَعُه السُّكوتُ عنها في غيرِ هذه الحالِ التي صَحِبَ عليها الخَضِرَ، فاستعجل عليه السَّلامُ، وبادر إلى الحُكمِ في حالتِها العامَّةِ، ولم يلتَفِتْ إلى هذا العارِضِ الذي يوجِبُ عليه الصَّبرَ، وعَدَمَ المبادرةِ إلى الإنكارِ[1].

٤- في قَولِه تعالى عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُلوبَ المؤمنينَ مَجبولةٌ على إنكارِ المنكَرِ؛ وغيرُ مالكةٍ للصَّبرِ على احتمالِه؛ لأنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَعَد الخَضِرَ أنْ يَصْبِرَ على ما يراه منه، فلمَّا رأى منه ما يَعتقدُ أنه منكرٌ أنكَرَه عليه[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فيه أنَّ النَّاسيَ غيرُ مُؤاخَذٍ بنِسيانِه؛ لا في حقِّ اللهِ، ولا في حُقوقِ العِبادِ[3].

٦- قَولُه تعالى عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦] فيه قيامُ العُذْرِ بالمَرَّة الواحدةِ، وقيامُ الحُجَّةِ بالثَّانيةِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٢٢).

١- قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

- في الكلامِ إيجازٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ فأصلُ الكلامِ: حتَّى استَأْجَرا سفينةً فرَكِباها، فلمَّا رَكِبا في السَّفينةِ خرَقَها، وتعريفُ السَّفينةِ تعريفُ العَهدِ الذِّهْنيِّ[1].

- والاستفهامُ في ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ للإنكارِ، ومَحلُّ الإنكارِ هو العِلَّةُ بقولِه: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؛ لأنَّ العِلَّةَ مُلازِمةٌ للفِعْلِ المستفهَمِ عنه؛ ولذلك توجَّه أن يُغيِّر موسى عليه السَّلامُ هذا المنكَرَ في ظاهرِ الأمرِ، وتأكيدُ إنكارِه بقولِه: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال عزَّ وجلَّ هنا مُخبِرًا عن قولِ موسى للخَضِرِ عَليهِما السَّلامُ حين خرَق السَّفينةَ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، وعندَ قَتلِ الغُلامِ قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]؛ ففي الأُولى (الإِمْرُ) وفي الثَّانيةِ: (النُّكْرُ)، وذلك لِمُناسَبةٍ حسَنةٍ: وهي أنَّ خَرْقَ السَّفينةِ لم يَبلُغْ بحيثُ يُتلِفُها، وإنَّما قَصَد به الخَضِرُ عَيْبَها؛ ليَزهدَ فيها مُريدُ غَصْبِها؛ بدليلِ قولِه بعدُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فإنَّما أراد إبقاءَها على مالِكِها، ودَفْعَ هذا الغاصبِ إذا رأى ما بها مِن العيبِ المانعِ مِن الرَّغبةِ فيها، وهذا لا يَبلُغُ ظاهِرُه مبلغَ ظاهرِ قتلِ الغُلامِ بغيرِ سببٍ ظاهرٍ، فوصَف بإمرٍ في قولِه: ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، وهو دُونَ النُّكْرِ. وأمَّا البادي الظَّاهرُ مِن قتْلِ الغُلامِ عِندَ مَن يَغيبُ عنه ما عَلِمه مِن الخَضِرِ فشيءٌ نُكْرٌ، ومُرتكَبٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٧٥).

-عندَ مَن لَحَظَه بظاهِرِه، وغابَ عنه ما في طَيِّه- شنيعٌ ووِزرٌ، فوقَع التَّعبيرُ في الموضِعَينِ بما يُناسِبُ كِلا الفِعْلَين، وعن قتادةَ رَحِمه اللهُ: (النُّكْرُ أشَدُّ مِن الإمْرِ)، فجاء كلٌّ على ما يُلائِمُ، ولم يَكُنْ لِيَحسُنَ مَجيءُ أحَدِ الوصفَينِ في الموضِعِ الآخَرِ، واللهُ أعلمُ[1]. وقيل: لأنَّ العملَ الذي عَمِله الخَضِرُ ذَريعةٌ للغرقِ، ولم يقَعِ الغرقُ بالفِعلِ، أمَّا قتلُ النفسِ فإنَّه مباشرةٌ، وهو منكرٌ حادثٌ ما فيه احتمالٌ، فالأوَّلُ ذريعةُ فسادٍ، والثاني فسادٌ حاصلٌ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ استفهامُ تَقريرٍ وتعريضٍ باللَّومِ على عَدمِ الوَفاءِ بما الْتَزم، أي: أتُقِرُّ أنِّي قُلتُ: إنَّك لا تَستطيعُ مَعي صَبرًا[3]؟ و﴿مَعِىَ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾، فاستِطاعةُ الصَّبرِ المنفيَّةُ هي الَّتي تَكونُ في صُحبتِه؛ لأنَّه يَرى أُمورًا عَجيبةً لا يُدرِكُ تأويلَها. وحذَف مُتعلَّقَ القولِ؛ تنزيلًا له مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: ألَم يقَعْ منِّي قولٌ فيه خِطابُك بعدَمِ الاستِطاعةِ[4]؟

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال تعالى في حِكايةِ قَولِ الخَضِرِ لموسى عليهما السَّلامُ في خَرْقِ السَّفينةِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ بحَذفِ ﴿لَّكَ﴾، وفي قَتْلِ الغلامِ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥] بذِكْرِه؛ لأنَّ في ذِكْرِه قصْدَ زِيادةِ المواجَهةِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٢٢). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٧٨-٨٨٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

بالعِتابِ على تَرْكِ الوصيَّةِ مرَّةً ثانيةً[١]، فإثباتُه فيه لومٌ أشدُّ على موسَى، فلو أنَّك كلَّمتَ شخصًا بشيءٍ، وخالَفك، فتقولُ في الأوَّلِ: (ألم أقلْ: إنَّك)، وفي الثاني تقولُ: (ألم أقلْ لك)، يعني: أنَّ الخطابَ ورَد عليك ورودًا لا خفاءَ فيه، ومع ذلك خالفْتَ، فكان قولُ الخضرِ لموسَى في الثانيةِ أشدَّ[٢].

وقيل: إنَّ إثباتَه للتوكيدِ، واختزالَه له؛ لوضوحِ المعنَى، وكلاهما معروفٌ عندَ الفصحاءِ[٣].

وقيل: إنَّ الفَرقَ الموجِبَ لِزيادة «لك» في هذا القول الثَّاني: أنَّ الخَضِرَ قد كان قال لِمُوسى -حينَ قال له موسى عليه السَّلامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾-: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، فلَمَّا كان مِن موسى عندَ خَرْقِ السَّفينةِ ما كان مِن الإنكارِ بقولِه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، ذَكَّره الخَضِرُ بما كان قدْ قاله له، مِن غيرِ أن يَزيدَه على إيرادِ ما كان قد قالَه، فاعتذَر موسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، فلمَّا وقَع منه بعدَ ذلك إنكارُ قتلِ الغُلامِ، وأبلَغ في وصْفِ الفَعْلةِ بقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، قابَل الخَضِرُ ذلك بتَأكيدِ الكلامِ المتقدِّمِ، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥]؛ فهذه الزِّيادةُ (لَك) بيانٌ جيءَ به تأكيدًا؛ لِيُقابِلَ بالكَلامِ ما وقَع جَوابًا له مِن قَولةِ موسى عليه السَّلامُ؛ زيادةً للتَّناسُبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٣-٣٢٤).

- وقِيل: وجهُ زيادة (لك): أنَّ الخَضِرَ عليه السَّلامُ قال في الأولى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، أي: إنَّك تَعجِزُ عن احْتِمالِ ما ترى حتَّى تُبادِرَ إلى الإنكارِ، فلمَّا رأى قَتْلَ الغُلامِ وعادَ إلى الإنكارِ أكَّد التَّقريرَ الثَّانيَ بقولِه: ﴿لَّكَ﴾، وهذا وجَبَ في الثَّاني لا في الأوَّلِ الَّذي لم تتأكَّدْ حُجَّةُ الخَضِرِ كتأكُّدِها في الثَّاني[1].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾

قولُه: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي﴾ المؤاخَذةُ: مُفاعَلةٌ مِن الأخذِ، وهي هُنا للمُبالَغةِ؛ لأنَّها مِن جانبٍ واحدٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾[2] [النحل: ٦١].

- قولُه: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بالذي نسيتُه، أو بشيءٍ نسيتُه، أو بنِسْياني: أراد أنَّه نَسي وصيَّته، ولا مُؤاخَذةَ على النَّاسي. أو أخرَج الكلامَ في مَعرِضِ النَّهيِ عن المؤاخَذةِ بالنِّسيانِ، يُوهِمُه أنَّه قد نَسي؛ لِيَبسُطَ عُذرَه في الإنكارِ، وهو مِن التوريةِ ومَعاريضِ الكلامِ الَّتي يُتَّقى بها الكَذِبُ، مع التَّوصُّلِ إلى الغرَضِ، وهو هنا إيهامُ خِلافِ المرادِ؛ لِئلَّا يُلزَمَ الكَذِبَ، وهو فنٌّ ظَريفٌ مِن فُنونِهم، ولَعلَّه أجمَلُ أنواعِ التَّوريَةِ[3]. وقيل: اعتذَر موسى بالنِّسيانِ، وكان قد نَسِي التزامَه بما غَشِي ذِهنَه مِن مُشاهدةِ ما يُنكِرُه. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّعطُّفِ والتماسِ عدمِ المؤاخذةِ؛ لأنَّه قد يُؤاخِذُه على النِّسيانِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٨١-٨٨٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٢).

مُؤاخذةَ مَن لا يَصلُحُ للمُصاحبةِ؛ لِما يَنشأُ عن النِّسيانِ مِن خطَرٍ؛ فالحزامةُ الاحتِرازُ مِن صُحبةِ مَن يَطرَأُ عليه النِّسيانُ؛ ولذلك بُني كلامُ موسى على طلَبِ عدمِ المؤاخَذةِ بالنِّسيانِ، ولم يُبنَ على الاعتذارِ بالنِّسيانِ، كأنَّه رأى نفْسَه مَحقوقًا بالمؤاخَذةِ، فكان كَلامًا بَديعَ النَّسيجِ في الاعْتِذارِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

الآيات (٧٤-٧٦)

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَكِيَّةً﴾: أي: طاهِرةً من الذُّنوبِ، وأصلُ (زكي): يدلُّ على طَهارةٍ[١].

﴿نُكْرًا﴾: أي: مُنكرًا عظيمًا، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: انطلق موسَى والخضرُ بعدَ أن خرَجَا مِن السَّفينةِ، فبينما هما يَمشِيانِ إذ أبصَرَا غُلامًا صغيرًا، فقتَلَه الخَضِرُ، فأنكر موسى عليه وقال: كيف قتَلْتَ نَفسًا طاهِرةً من الذنوبِ وهي لم تَقتُلْ نفسًا، حتى تستحِقَّ القَتلَ بها؟! لقد فَعَلْتَ أمرًا مُنكَرًا عظيمًا. قال الخَضِرُ لموسى مُعاتِبًا ومُذَكِّرًا: ألم أقُلْ لك إنَّك لن تستطيعَ معيَ صَبرًا؟ قال موسى له: إنْ سألْتُك عن شَيءٍ بعد هذه المَرَّةِ فاترُكْني ولا تُصاحِبْني، قد وصلتَ إلى حالٍ تُعْذَرُ فيها في مفارقتي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧- ١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾.

أي: فانطلقَ موسى والخَضِرُ بعدَ ذلك يَسيرانِ إلى أن لَقِيَا غُلامًا صَغيرًا[1]، فقتَلَه الخَضِرُ[2]!!

وفي قِصَّةِ موسَى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((فلمَّا خَرَجا مِن البَحرِ مَرُّوا بغُلامٍ يلعَبُ مع الصِّبيانِ، فأخَذ الخَضِرُ برأسِه فقَلَعَه بيَدِه هكذا- وأومأ سُفيانُ بأطرافِ أصابعِه كأنَّه يَقطِفُ شَيئًا!))[3].

وفي روايةٍ: ((وَجَد غِلمانًا يَلعَبونَ فأخذ غُلامًا كافِرًا ظَريفًا[4]، فأضجَعَه ثمَّ ذبَحَه بالسِّكِّينِ[5]))[6].

وفي روايةٍ: ((فانطلَقا حتى إذا لَقِيا غِلمانًا يَلعَبونَ، قال: فانطلَقَ إلى أحَدِهم

(١) قال القرطبي: (قال الجمهورُ: لم يكُنْ بالغًا؛ ولذلك قال موسَى: «زاكيةً لم تُذْنِبْ»، وهو الَّذي يَقْتَضيه لفظُ الغلامِ، فإنَّ الغلامَ في الرِّجالِ يُقالُ على مَنْ لم يبلُغْ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠١).

(٤) الظَّرْفُ: حُسنُ الوَجْهِ والهَيئةِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١١٢).

(٥) قال ابن حجر: (فأضْجَعَه ثُمَّ ذَبَحه بالسِّكِّينِ، وفي روايةِ سفيانَ: «فأخَذ الخضرُ برأسِه فاقتلَعه بيدِه فقتَلَه»، وفي روايتِه في البابِ الَّذي يَلِيه: «فقَطَعه»، ويُجمَعُ بينَهما بأنَّه ذبَحه ثُمَّ اقتلَع رأسَه، وفي روايةٍ أُخرَى عندَ الطَّبريِّ: «فأخَذ صخرةً فثَلَغ رَأسَه» وهي بمثلثة ثمَّ معجمةٍ، والأوَّلُ أصحُّ، ويمكنُ أنْ يكونَ ضَرَب رأسَه بالصَّخرةِ، ثمَّ ذبَحه وقطَع رأسَه). ((فتح الباري)) (٨/ ٤١٩).

(٦) رواه البخاري (٤٧٢٦).

باديَ الرَّأيِ[١] فقتَلَه، فذُعِرَ[٢] عندها موسى عليه السَّلامُ ذَعرةً مُنكَرةً))[٣].

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

أي: قال موسى مُنكِرًا على الخَضِرِ قَتْلَ الغُلامِ: أقتَلْتَ نفسًا طاهرةً من الذُّنوبِ بغيرِ حَقٍّ ومُستنَدٍ يُخوِّلُ لك قَتْلَه؟! فلمْ يَقتُلِ الغُلامُ أحدًا حتى تَقتُلَه[٤]!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِرِ من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه: ((﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لم تعمَل بالحِنثِ[٥]؟!))[٦].

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

أي: لقد فعلتَ -بقَتلِك الغُلامَ بغيرِ ذَنبٍ- فِعلًا مُنكَرًا ظاهِرَ النَّكارةِ[٧]!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾.

---

(١) بادِيَ الرأيِ: أي: ظاهِرَ الرأْيِ والنَّظرِ من غير فِكرٍ ولا رَويَّةٍ، من البُدُوِّ: وهو الظُّهورُ، ومَن همزه (بادئ) فيكونُ المعنى: أي: في أوَّل رَأيٍ رآه وابتَدأ به. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٦٢).

(٢) فذُعِرَ: الذُّعرُ: الفزعُ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣٩، ٣٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
قال الزمخشري: (قُرِئَ: زاكية، وزكيَّة، وهي: الطَّاهِرةُ مِن الذُّنوبِ؛ إمَّا لأنَّها طاهرةٌ عنده؛ لأنَّه لم يَرَها قد أذنبت، وإمَّا لأنَّها صغيرةٌ لم تبلُغ الحِنثَ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٦).

(٥) الحِنث: أي: الإثم والمعصية، أي: لم يَبلُغْ. يُنظر: ((الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)) للكرماني (١٧/ ١٩٨).

(٦) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
قال السعدي: (كانت الأولَى مِن موسَى نسيانًا، وهذه غيرُ نِسيانٍ، ولكنْ عَدَم صَبرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

أي: قال الخَضِرُ لموسى: ألم أقُلْ لك مِن قَبلِ أن تَصحَبَني: إنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي؛ لِما تراه من أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ، وإنَّك لن تَصبِرَ عن سُؤالي عن أفعالي؛ لأنَّك لم تُحِطْ بها خُبْرًا[١]؟!

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

أي: قال موسى للخَضِرِ: إنْ سألتُك عن أيِّ شَيءٍ بعد هذه المرَّة، ففارِقْني، واترُكْ صُحبَتي[٢].

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

أي: قد وصلتَ إلى حالٍ تُعْذَرُ فيها في مُفارَقتي، وتَرْكِ مُصاحَبتي؛ وذلك باعتراضي مَرَّتَينِ، واحتِمالِك لي فيهما[٣].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم عندَ هذا المكانِ: ((رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنَّه عَجَّلَ لرأى العَجَبَ، ولكِنه أخذَتْه مِن صاحِبِه ذِمامةٌ[٤]، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، ولو صبَرَ لرأى العَجَبَ!!))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٩).

(٤) ذِمامةٌ: أي: حَياءٌ وإشفاقٌ، مِن الذَّمِّ واللَّومِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٠).

(٥) رواه مسلم (٢٣٨٠).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ فيه أنَّه ينبغي للصَّاحِبِ ألَّا يُفارِقَ صاحِبَه في حالةٍ مِن الأحوالِ، ويَترُكَ صُحبَتَه، حتى يُعتِبَه[١]، ويُعذِرَ منه، كما فعل الخَضِرُ مع موسى[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ الحكمُ بالظاهِرِ؛ لقولِه عليه السلامُ: ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ فيه أنَّ القَتلَ قِصاصًا غيرُ مُنكَرٍ، وأنَّ القصاصَ كان في شرعِ مَن قبلَنا[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ فيه أنَّ القَتلَ مِن أكبَرِ الذُّنوبِ[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ لم يَعتذِرْ هنا موسى عليه السَّلامُ بالنِّسيانِ؛ إمَّا لأنَّه لم يَكُنْ نَسي، ولكنَّه رجَّح تغييرَ المنكَرِ العَظيمِ، وهو قَتْلُ النَّفسِ بدونِ موجِبٍ، على واجبِ الوفاءِ بالالْتِزامِ، وإمَّا لأنَّه نَسي وأعرَض عن الاعتِذارِ بالنِّسيانِ؛ لِسَماجَةِ تكرُّرِ الاعْتِذارِ

---

(١) أعتبه: أي: أزال شكواه، والهمزةُ فيه للسَّلبِ. ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٩)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٤) يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

به، وعلى الاحْتِمالَينِ فقد عدَل إلى المبادَرةِ باشْتِراطِ ما تَطمئِنُّ إليه نفسُ صاحبِه بأنَّه إن عاد للسُّؤالِ الَّذي لا يَبْتَغيه صاحِبُه فقد جعَل له أن لا يُصاحِبَه بعدَه(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ فيه أنَّ للثَّلاثِ اعتِبارًا في التَّكرارِ ونَحوِه(٢).

٦- قَولُ موسى للخَضِر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ والتزامُ موسى بذلك ولم يكتُبا ذلك، ولم يُشهِدا أحدًا؛ فيه دَلالةٌ على العَمَلِ بمُقتضى ما دلَّ عليه الشَّرطُ؛ فإنَّ الخَضِرَ قال لموسى لَمَّا أخلَفَ الشَّرطَ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] ولم يُنْكِرْ موسى ذلك(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾

- قولُه: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ في الكلامِ حذفٌ تَقديرُه: فخرَجا مِن السَّفينةِ، ولم يقَعْ غرَقٌ بأهلِها، فانطلَقا(٤)، أو: فقَبِل عُذرَه، فخَرَجا مِن السَّفينةِ، فانطَلَقا(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال عزَّ وجلَّ هُنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ بالفاءِ؛ وقال فيما سبق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغيرِ فاءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه جعَل خَرْقَها جَزاءَ الشَّرطِ، فلم يَحتَجْ للفاءِ، وجعَلَ قتْلَ الغُلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٥).

مِن جُملةِ الشَّرطِ؛ فعَطَفه عليه بالفاءِ، وجَزاءُ الشَّرطِ قولُه: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]، وخُولِفَ بينَهما؛ لأنَّ خَرْقَ السَّفينةِ لم يَتعقَّبِ الرُّكوبَ، وقد تَعقَّبَ القَتْلُ لِقاءَ الغُلامِ[١]. وقيل: لعلَّ تَغْييرَ النَّظْمِ بأنْ جعَل خرْقَها جَزاءً، واعتِراضَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُستَأنَفًا في الأُولى وفي الثَّانية (قَتَلَهُ) مِن جُملةِ الشَّرطِ واعتِراضَه جَزاءً؛ لأنَّ القتلَ أقبَحُ والاعتِراضَ عليه أدخَلُ؛ فكان جَديرًا بأن يُجعَلَ عُمدةَ الكَلامِ؛ ولذلك فصَلَه بقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[٢]. وقيل: ولعلَّ تَغْييرَ النَّظْمِ الكَريمِ بِجَعلِ ما صدَر عن الخَضِرِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هاهنا مِن جُملةِ الشَّرطِ وإبرازِ ما صدَر عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في مَعرِضِ الجَزاءِ المقصودِ إفادتُه، مع أنَّ الحَقيقَ بذلك إنَّما هو ما صدَر عَن الخَضِرِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الخَوارِقِ البَديعةِ؛ لاسْتِشرافِ النَّفْسِ إلى وُرودِ خَبرِها لِقلَّةِ وُقوعِها في نفسِ الأمرِ، ونُدْرةِ وُصولِ خبَرِها إلى الأذهانِ؛ ولذلك رُوعِيَت تلك النُّكتةُ في الشَّرطيَّةِ الأُولى لِما أنَّ صُدورَ الخَوارِقِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خرَج بوُقوعِه مرَّةً مَخرَجَ العادةِ، فانصرَفَتِ النَّفسُ عن تَرقُّبِه إلى تَرقُّبِ أحوالِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ هل يُحافِظُ على مُراعاةِ شَرطِه بمُوجِبِ وعْدِه الأكيدِ عِندَ مُشاهَدةِ خارِقٍ آخَرَ، أو يُسارِعُ إلى المناقَشةِ، كما مرَّ في المرَّةِ الأُولى؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدَر عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ففعَل ما فعَل، ولله دَرُّ شأنِ التَّنزيلِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٦).

وقيل: خَرقُ السفينةِ ملائِمٌ لِسَببِه وهو الركوبُ؛ لأنَّهم فعلوا معهم أمرًا ملائِمًا، فحملوهم بغيرِ نَولٍ، ففعل هو معهم بسبَبِ ذلك أمرًا ملائِمًا، وهو خَرقُ السفينةِ الموجِبُ إنجاءَهم من المَلِك الذي يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ غَصبًا، فناسب جعْلَه سببًا عنه، وأمَّا قَتلُ الغلامِ فليس ملائِمًا للَّقاءِ، وإنَّما الملائِمُ له فِعلٌ مُقدَّرٌ، وهو خوفُ أن يُرهِقَ والِدَيه المؤمِنَينِ طُغيانًا وكفرًا؛ فلذلك عطَفَه على الشَّرطِ، ولم يجعَلْه جوابًا له ولا سببًا عنه[1].

- قولُه: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ تَعقيبٌ لِفعلِ ﴿لَقِيَا﴾ تأكيدًا للمُبادَرةِ المفهومةِ مِن تقديمِ الظَّرفِ؛ فكانَت المبادرةُ بقَتلِ الغُلامِ عندَ لِقائِه أسرَعَ مِن المبادَرةِ بخَرقِ السَّفينةِ حينَ رُكوبِها[2].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾، أي: بغَيرِ قتلِ نَفْسٍ محرَّمةٍ، وتخصيصُ نَفْيِ هذا المبيحِ بالذِّكْرِ مِن بينِ سائرِ المبيحاتِ؛ مِن الكُفرِ بعدَ الإيمانِ، والزِّنا بعدَ الإحصانِ؛ لأنَّه الأقرَبُ إلى الوُقوعِ نَظرًا إلى حالِ الغُلامِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾

- في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ استفهامُ تقريرٍ وتعريضٍ باللَّومِ على عدَمِ الوفاءِ بما الْتزَم، أي: أتُقِرُّ أنِّي قُلتُ: إنَّك لا تَستطيعُ مَعي صبرًا[4]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧٦).

- واللامُ في قولِه ﴿لَّكَ﴾ لامُ التَّبليغِ، وذلك عندَما يَكونُ الْمَقولُ له الكلامُ مَعلومًا مِن السِّياقِ، فيَكونُ ذِكرُ اللَّامِ لزيادةِ تَقوِّي الكَلامِ، وتَبْليغِه إلى السَّامِعِ؛ ولذلك سُمِّيَت لامَ التَّبليغِ؛ فاللَّامُ لم يُحتَجْ لِذِكْرِها في جوابِه أوَّلَ مرَّةٍ: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٢]؛ فكان التَّقريرُ والإنكارُ مع ذِكْرِ لامِ تَعدِيَةِ القولِ أقْوى وأشَدَّ[١].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥).

الآيتان (٧٧-٧٨)

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَأَبَوۡاْ﴾: أي: امْتَنعوا، والإباءُ: شِدَّةُ الامتناعِ؛ فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً[1].

﴿يَنقَضَّ﴾: أي: يَسقُطَ وينهَدِمَ، وأصلُ (نقض): يدُلُّ على هُوِيِّ الشَّيءِ[2].

﴿بِتَأۡوِيلِ﴾: أي: بعِلْمِ وتَفسيرِ، وأصلُ (أول): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الأصلِ؛ لأنَّ التَّأويلَ: إخبارٌ عمَّا يَرجِعُ إليه اللَّفظُ مِن المعنى[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: فسار موسى والخَضِرُ حتى أتيا أهلَ قَريةٍ، فطَلَبا منهم طعامًا على سَبيلِ الضِّيافةِ، فامتَنَعوا عن ضيافتِهما، فوجدا فيها حائِطًا مائِلًا يُوشِكُ أن يَسقُطَ، فأصلَحَه الخَضِرُ حتى صار مستقيمًا، قال له موسى: لو شِئتَ لأخَذْتَ على هذا العَمَلِ أجرًا، ولم تُقِمْه لهم مجَّانًا. قال الخَضِر لموسى: هذا وقتُ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

الفِراقِ بيني وبينَك، سأُخبِرُك بما أنكَرْتَ عليَّ مِن أفعالي التي فعَلْتُها، والتي لم تستَطِعْ أن تصبِرَ عن سؤالي عنها والإنكارِ عليَّ فيها.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

أي: فانطلق موسى والخَضِرُ يَسيرانِ بعدَ قَتْلِ الغُلامِ إلى أن بَلَغا قريةً[1] فطلَبا مِن أهلِها إطعامَهما، فامتَنَعوا عن أن يُنزِلوهما ويُطعِموهما؛ لُؤمًا منهم[2]!

وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِر: ((﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ لِئامًا، فطافا في المجالِسِ فـ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾))[3].

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾.

أي: فوجَد موسى والخَضِرُ في تلك القريةِ حائِطًا مائِلًا يُوشِكُ أن يَسقُطَ

---

(١) قال ابن حجر: (قيلَ: هي الأُبُلَّةُ. وقيلَ: إنطاكيةُ. وقيلَ: أذْرَبيجانُ. وقيلَ: بُرقةُ. وقيلَ: ناصِرَةُ. وقيلَ: جزيرةُ الأندلسِ... وشدَّةُ المبايَنةِ في ذلك تقتضي أنْ لا يُوثَقَ بشيءٍ مِنْ ذلك). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عثيمين: (لم يُعَيِّن اللهُ عزَّ وجَلَّ القريةَ، فلا حاجةَ إلى أن نبحَثَ عن هذه القريةِ، بل نقولُ: قريةٌ أبهَمَها الله فنُبهِمُها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

ويَنهَدِمَ، فأصلَحَه الخَضِرُ، وعدَّل مَيلَه فاستقامَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٥، ٣٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨).

وذهب ابنُ تيميَّةَ والشنقيطيُّ وابنُ عُثيمين إلى أنَّ إرادةَ الجدارِ السُّقوطَ حَقيقيَّةٌ، وليست مجازًا. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٠٧، ١٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٠).

قال ابنُ تيمية: (لَفظُ الإرادةِ قد استُعمِلَ في الميلِ الذي يكونُ معه شعورٌ، وهو مَيلُ الحَيِّ، وفي المَيلِ الذي لا شعورَ فيه، وهو مَيلُ الجَمادِ، وهو مِن مشهورِ اللُّغةِ؛ يقالُ: هذا السقفُ يريدُ أن يقَعَ، وهذه الأرضُ تريد أن تُحرَثَ، وهذا الزرعُ يُريدُ أن يُسقَى، وهذا الثَّمرُ يُريد أن يُقطَفَ، وهذا الثوبُ يريدُ أن يُغسَل، وأمثال ذلك. واللفظُ إذا استُعمل في معنيَينِ فصاعِدًا، فإمَّا أن يُجعَلَ حقيقةً في أحدهما مجازًا في الآخَرِ، أو حقيقةً فيما يختَصُّ به كلٌّ منهما، فيكونَ مُشتَرَكًا اشتِراكًا لَفظيًّا، أو حقيقةً في القَدرِ المُشتَرَك بينهما، وهي الأسماءُ المتواطئة، وهي الأسماءُ العامَّةُ كُلُّها. وعلى الأوَّلِ يلزَمُ المجازُ، وعلى الثاني يلزمُ الاشتراكُ، وكلاهما خلافُ الأصلِ؛ فوجب أن يُجعَلَ مِن المتواطئةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٠٨).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ لا مانِعَ مِن حَملِه على حقيقةِ الإرادةِ المعروفةِ في اللغة؛ لأنَّ الله يَعلَمُ للجماداتِ ما لا نَعلمُه لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤] الآية. وقد ثبت في «صحيحِ البُخاريِّ» حنينُ الجِذعِ الذي كان يخطُبُ عليه صلَّى الله عليه وسلم، وثبت في «صحيحِ مُسلِمٍ» أنَّه صلَّى الله عليه وسلم قال: «إني أعرِفُ حَجَرًا كان يُسَلِّمُ عليَّ في مكَّةَ». وأمثال هذا كثيرةٌ جِدًّا، فلا مانع مِن أن يَعلَمَ اللهُ مِن ذلك الجدارِ إرادةَ الانقضاض. ويجابُ عن هذه الآية أيضًا بما قَدَّمنا من أنَّه لا مانِعَ مِن كون العرب تستَعمِلُ الإرادةَ عند الإطلاقِ في معناها المشهورِ، وتستعمِلُها في الميلِ عند دَلالةِ القرينةِ على ذلك. وكلا الاستعمالَينِ حَقيقةٌ في محَلِّه. وكثيرًا ما تَستعمِلُ العَرَبُ الإرادةَ في مُشارفةِ الأمر، أي: قُرْبِ وُقوعِه). ((منع جواز المجاز)) (ص: ٢٦، ٢٧).

وقيل: نسبةُ الإرادةِ إلى الجدارِ مجازٌ، وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابنُ جزي، والخازنُ، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧١)، ((تفسير الخازن))

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بنِ كعبٍ: ((﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ يقولُ: مائِلٌ، قال الخَضِرُ بيده هكذا، فأقامَه))[(١)].

وفي روايةٍ: ((أومأَ بِيَدِه هكذا، وأشار سُفيانُ كأنَّه يَمسحُ شَيئًا إلى فوق))[(٢)].

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾.

أي: قال موسى للخَضِر: لو شِئتَ لم تُصلِحْ جِدارَ أهلِ هذه القريةِ اللِّئامِ، حتى يعطوك أُجرةً على ذلك، ولم تُقِمْه لهم مجَّانًا[(٣)].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بنِ كعبٍ: ((قال له موسى: قومٌ

(٣/ ١٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٨).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: فرَدَّه إلى حالةِ الاستقامةِ، وقد تقدَّم في الحديثِ أنَّه ردَّه بيديه ودعَمَه حتى ردَّ مَيلَه، وهذا خارِقٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (اختلَف المفسِّرونَ في قولِه: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ فقالت فِرقةٌ: هدَمَه وقعَدَ يبنيه، ووقع هذا في مُصحَفِ ابنِ مسعودٍ، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قولُه: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لأنَّه فِعلٌ يَستحِقُّ أجرًا. وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: مسَحَه بيَدِه وأقامَه فقام. قال القاضي أبو محمدٍ: ورُوِيَ في هذا حديثٌ، وهو الأشبَهُ بأفعالِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٤).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥١).

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧، ٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا سؤالٌ من جهةِ المعنى، فإنَّ السؤالَ والطَّلَبَ قد يكونُ بصيغةِ الشَّرطِ، كما تقولُ: لو نزَلْتَ عندنا لأكرَمْناك، وإن بتَّ الليلةَ عندنا أحسنتَ إلينا، ومنه قولُ آدمَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولُ نوحٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١١).

أتيناهم فلم يُضَيِّفونا ولم يُطعِمونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾))[1]!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر في روايةٍ: ((﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: أجرًا نأكُلُه))[2].

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: سُؤالُك لي واعتراضُك على فِعلي للمَرَّةِ الثالثةِ سَبَبُ حُصولِ الفِراقِ بيني وبينَك، وقد انتهى ما بينَنا، فلن تَصحَبَني بعدَ الآن[3].

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي: سأُخبرُك قبل مُفارَقتِك بتفسيرِ أفعالي التي أنكَرْتَها عليَّ، ولم تستطِعْ أن تصبِرَ عن سؤالي عنها حتى أُخبِرَك بحَقيقتِها[4].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فمَن لم يُعْطَ يَتَعَزَّ بهذه القصةِ، وكم ممن هانَ على الناسِ وهو جليلٌ عندَ الله[5].

---

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٧)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد ابن عبد الوهاب).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، قال: ﴿أَتَيَآ﴾، ولم يقُلْ: (وصَلا إلى أهلِ قريةٍ)؛ إشارةً إلى أنَّ إتيانَهم لها كان على قَصدٍ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ في الآيةِ دَليلٌ على إباحةِ طَلَبِ الطعامِ لعابِرِ السَّبيلِ؛ لأنَّه شَرعُ مَن قَبلَنا، وحكاه القرآنُ، ولم يَرِدْ ما يَنسَخُه[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ في الآيةِ مَشروعيَّةُ ضيافةِ عابِرِ السَّبيلِ إذا نزَل بأحدٍ مِن الحَيِّ أو القَريةِ[٣].

٤- في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ ما عليه الإنسانُ مِن البشريةِ ولو كان نبيًّا، وذلك مِن أدلةِ التوحيدِ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ في هذه الآيةِ إباحةُ المكاسِبِ، وأخذِ الأُجرةِ على العَمَلِ، وفي ذلك تجهيلُ مَن يُحَرِّمُ الكَسبَ مِن الصوفيَّةِ؛ لأنَّ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلم قال له: ﴿لَوۡ شِئۡتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧). ويُنظر أيضًا: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٣)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فلم يُنْكِرِ الخَضِرُ ما قال، بل أعلَمَه أنَّ الانتظارَ به إلى وقتِ اتِّخاذِه الأجرَ لم يُمكِنْه؛ لِما خشِيَ مِن ظهورِ الكَنزِ بعد انقِضاضِه(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: كان في مُكْنَتِك [أي: استطاعتِك] أن تجعَلَ لنفسِك أجرًا على إقامةِ الجِدارِ تأخُذُه ممَّن يَملِكُه من أهلِ القريةِ، ولا تقيمَه مجانًّا؛ لأنَّهم لم يقوموا بحَقِّ الضيافةِ، ونحن بحاجةٍ إلى ما نُنفِقُه على أنفُسِنا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نَفَقةَ الأتباعِ على المتبوعِ(٢).

٧- وقولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لَوْمٌ، وهذا اللَّومُ يتَضمَّنُ سُؤالًا عن سَببِ تَرْكِ المشارَطةِ على إقامةِ الجِدارِ عند الحاجةِ إلى الأجرِ، وليس هو لَوْمًا على مجرَّدِ إقامتِه مجَّانًا؛ لأنَّ ذلك مِن فِعلِ الخيرِ، وهو غيرُ مَلومٍ(٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾، وهذا لا شَكَّ أنَّه أُسلوبٌ رَقيقٌ فيه عَرضٌ لَطيفٌ، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: عِوَضًا عن بنائِه(٤).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف ساغ إضافة (بين) إلى غيرِ متعدِّدٍ؟

الجواب: أنَّ مسوِّغَ ذلك تكريرُه بالعَطفِ بالواو، ألا ترى أنَّك لو اقتصرت على قولِك: (المالُ بيني) لم يكُنْ كلامًا حتى تقولَ: (بينَنا) أو (بيني وبينَ

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٠).

فلانٍ)[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ فيه تكرارُ (أَهْل) على سَبيلِ التَّوكيدِ، وقد يَظهَرُ له فائدةٌ عن التَّوكيدِ، وهو أنَّهما حينَ أتَيَا أهْلَ القريةِ لم يأتِيا جَميعَ أهْلِ القريةِ، إنَّما أتَيَا بعضَهم، فلمَّا قال: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ احتمَل أنَّهما لم يَستطعِما إلَّا ذلك البعضَ الَّذي أتَياه، فجِيءَ بلَفظِ ﴿أَهۡلَهَا﴾؛ لِيَعُمَّ جَميعَهم، وأنَّهم يتبعونهم واحِدًا واحدًا بالاستِطْعام، ولو كان التَّركيبُ (استَطْعَماهم) لكان عائِدًا على البعضِ المأتيِّ[٢]؛ فإظهارُ لفظِ ﴿أَهۡلَهَا﴾ دونَ الإتيانِ بضميرِهم؛ لزيادةِ التَّصريحِ، تَشنيعًا بهِم في لُؤمِهم؛ إذْ أبَوْا أن يُضيِّفوهما[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾

- قولُه: ﴿فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾ فيه تَكريرُ (بين)، وعُدولُه عن (بينِنا)؛ لِمَعنى التَّأكيدِ[٤].

- وجملةُ ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١١).

تقَعُ جَوابًا لسُؤالٍ يَهجِسُ في خاطِرِ موسى عليه السَّلامُ عن أسبابِ الأفعالِ الَّتي فعَلَها الخَضِرُ عليه السَّلامُ، وسأَله عنها موسى؛ فإنَّه قد وعَده أن يُحْدِثَ له ذِكْرًا ممَّا يفعَلُه[١].

- والسِّينُ في ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ للتَّأكيدِ؛ لِعدَمِ تَراخي التَّنبِئةِ[٢]، أي: سأُخبِرُك عن قُربٍ قبلَ المفارقةِ، و(السينُ) تدُلُّ على القُربِ، وتفيدُ مع القُربِ التَّحقيقَ[٣].

- وأكَّد الموصولَ الأولَ الواقِعَ في قولِه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ تأكيدًا للتَّعريضِ باللَّومِ على عدَمِ الصبرِ[٤]؛ ففي جَعْلِ صِلَةِ الموصولِ عدَمَ استِطاعةِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للصَّبرِ -دونَ أن يُقالَ: بتأويلِ ما فعَلت، أو بتأويلِ ما رأيتَ، ونَحوُهما-: نوعُ تعريضٍ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعِتابٍ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥)

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١).

الآيات (٧٩-٨٢)

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَعِيبَهَا﴾: أي: أجعَلَها ذاتَ عَيبٍ[١].

﴿زَكَوٰةً﴾: أي: صلاحًا وطَهارةً، وأصل (زكو): يدُلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[٢].

﴿رُحْمًا﴾: أي: رَحمةً وعَطفًا، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ[٣].

﴿يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾: بلَغ أشدَّه، أي: بلَغ مُنْتهَى شَبابِه وقُوَّتِه، أو: اشتدَّ جِسْمُه وقوي، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتهاءُ إلى أقصَى المقصدِ والمنتهَى. وأصلُ (بلغ): الوصولُ إلى الشَّيءِ، وأصل (شدد): يدلُّ على قوةٍ في الشيءِ[٤].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(٢/ ٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٥٤، ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى قولَ الخضرِ لموسى حيثُ بيَّن له ما خفِي عليه مِن الأمورِ الثلاثةِ، وأنَّه قال له: أمَّا السَّفينةُ التي خرقتُها فإنَّها كانت لأُناسٍ مَساكينَ يَعمَلونَ في البَحرِ عليها، فأردتُ أن أَعيبَها بذلك الخَرقِ؛ لأنَّ أمامَهم مَلِكًا كان يَستولي على كُلِّ سَفينةٍ صالحةٍ غَصبًا مِن أصحابِها. وأمَّا الغلامُ الذي قتَلْتُه فكان أبوه وأمُّه مُؤمِنَينِ، وكان هو -في عِلمِ ربِّك- كافرًا، فخَشِينا لو بَقِيَ الغلامُ حيًّا أن يَحمِلَ والِدَيه على الكُفرِ باللهِ تعالى، فأرَدْنا أن يُبدِلَ اللهُ أبَوَيه بمن هو خيرٌ منه صَلاحًا ودينًا، وطهارةً مِن الذُّنوبِ، وبِرًّا بهما، وأرحمُ بهما منه. وأمَّا الحائِطُ الذي أقمتُه فكان لغُلامَينِ يَتيمَينِ في المدينةِ، وكان تحته كَنزٌ لهما، وكان أبوهما رَجُلًا صالحًا، فأراد ربُّك أن يَكبَرا ويبلُغا تمامَ قُوَّتِهما، ويَستخرِجا كنزَهما؛ رحمةً مِن رَبِّك بهما. وما فعَلْتُ -يا موسى- جميعَ الأمورِ التي رأيتَني فعَلْتُها، عن أمري ومِن تلقاءِ نَفسي، وإنَّما فعَلْتُها عن أمرِ اللهِ، ذلك الذي بيَّنْتُ لك أسبابَه هو تَفسيرُ الأمورِ التي لم تَستَطِعْ صَبْرًا عن سؤالي عنها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾.

أي: قال الخَضِرُ لموسى: أمَّا السَّفينةُ التي خَرَقْتُها فكانت لمساكينَ يَطلُبونَ فيها الرِّزقَ في البَحرِ[1].

(ص: ١٤٤، ٤٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير))

وفي قصةِ موسَى والخضرِ عليهما السلامُ، من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((وجدا معابرَ صِغارًا تحمِلُ أهلَ هذا السَّاحِلِ إلى أهلِ هذا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفوه فقالوا: عبدُ الله الصَّالحُ -قال: قُلْنا لسعيدِ بنِ جُبَير: خَضِر؟ قال: نَعَم- لا نحمِلُه بأجرٍ، فخَرَقَها ووتَدَ فيها وتدًا))[١].

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾.

أي: فأردتُ أن أخرِقَ السَّفينةَ، فأجعَلَها مَعِيبةً[٢].

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

أي: وكان أمامَ[٣] أصحابِ السَّفينةِ مَلِكٌ ظالِمٌ يَستولي على كُلِّ سَفينةٍ صالحةٍ

(٥/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٢١).

(١) تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤).

(٣) ممن اختار أنَّ معنى ﴿وَرَآءَهُم﴾: أمامَهم: مقاتلُ بنُ سليمان، والفرَّاء، وابنُ قتيبة، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ، والبغوي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٩).

قال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ مِن المفسِّرين وأصحابِ المعاني قالوا: ﴿وَرَآءَهُم﴾ هاهنا معناها أمامَهم... ولا خِلافَ بين أهلِ اللُّغةِ أنَّ «وراء» يجوزُ أن تكونَ بمعنى قُدَّام). ((البسيط)) (١٤/ ١١٣، ١١٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقتادةُ. وقرَأ ابنُ عبَّاسٍ، وأبيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ مسعودٍ: (وكان أمامَهم مَلِك). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٢).

وقيل ﴿وَرَآءَهُم﴾ بمعنى: خلفَهم. وممن قال بذلك: الزجاجُ، وابنُ عطية. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٥).

قال الزجاج: (و﴿وَرَآءَهُم﴾: خلفَهم، هذا أجودُ الوجهينِ. ويجوزُ أن يكونَ كان رجوعُهم في طريقِهم عليه، ولم يكونوا يعلمونَ بخبرِه، فأعلمَ اللَّهُ الخَضِر خَبَره). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عطية: (وقولُه: ﴿وَرَآءَهُم﴾ هو عندي على بابِه، وذلك أنَّ هذه الألفاظَ إنما تجيءُ مُراعًى بها الزَّمنُ، وذلك أنَّ الحادِثَ المقَدَّمَ الوجودِ هو الأمامُ، وبينَ اليدِ: لِما يأتي بعده في الزمَنِ، والذي يأتي بعدُ: هو الوراءُ، وهو ما خَلف، وذلك بخلافِ ما يظهَرُ ببادي الرأي، وتأمَّلْ هذه الألفاظَ في مواضعِها حيث ورَدَت تجِدْها تطَّرِدُ؛ فهذه الآيةُ معناها: أنَّ هؤلاء وعَمَلَهم وسَعْيَهم يأتي بعده في الزمَنِ غَصبُ هذا المَلِك، ومن قرأَ «أمامهم»، أراد في المكانِ، أي: إنهم كانوا يسيرونَ إلى بلَدِه، وقولُه تعالى في التوراةِ والإنجيلِ إنَّهما بين يدَيِ القرآنِ، مطَّرِدٌ على ما قُلْنا في الزَّمنِ، وقولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] مطَّرِدٌ كما قلنا مراعاةً للزَّمنِ، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «الصَّلاةُ أمامَك» يريدُ في المكانِ، وإلَّا فكَونُهم في ذلك الوقتِ كان أمام الصلاةِ في الزَّمَنِ، وتأمَّلْ هذه المقالةَ فإنَّها مريحةٌ مِن شَغبِ هذه الألفاظِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٥).

وقال القُرطبيُّ مُعَلِّقًا على كلامِ ابنِ عطيةَ: (وما اختاره هذا الإمامُ قد سبَقه إليه في ذلك ابنُ عرفة؛ قال الهَرَوي: قال ابنُ عرفة: يقولُ القائِلُ: كيف قال: «من ورائِه» وهي أمامه؟ فزعم أبو عُبَيد وأبو عليٍّ قُطرُب أنَّ هذا مِن الأضدادِ، وأنَّ «وراء» في معنى «قُدَّام»، وهذا غيرُ مُحصِّل؛ لأنَّ «أمام» ضِدُّ «وراء»، وإنما يصلُحُ هذا في الأماكِنِ والأوقاتِ، كقولِك للرجلِ إذا وعَد وعدًا في رجبٍ لرمضانَ، ثم قال: «ومِن ورائك شعبانُ»، لجاز وإن كان أمامَه؛ لأنه يخلفُه إلى وقتِ وَعدِه. وأشار إلى هذا القول أيضًا القُشيري، وقال: إنما يقال هذا في الأوقاتِ، ولا يقالُ للرجلِ أمامَك: إنَّه وراءك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥).

وقال ابنُ القيم: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ فإنْ صَحَّت قراءةُ: «وكان أمامَهم مَلِكٌ» فلها معنًى لا يناقِضُ القراءةَ العامَّةَ، وهو أنَّ المَلِكَ كان خَلْفَ ظهورِهم، وكان مَرجِعُهم عليه، فهو وراءَهم في ذَهابِهم، وأمامَهم في مَرجِعِهم؛ فالقراءتان بالاعتبارينِ. والله سبحانه وتعالى أعلم). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (و«وراء»: اسمُ الجهةِ التي خَلْفَ ظَهرِ مَن أضيفَ إليه ذلك الاسمُ، وهو ضِدُّ

قَهرًا[(١)].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فإذا جاء الذي يُسَخِّرُها[(٢)] وجَدَها مُنخَرِقةً فتَجاوَزَها، فأصلَحوها بخَشَبةٍ))[(٣)].

وفي روايةٍ: ((فأرَدتُ إذا هي مَرَّتْ به أن يَدَعَها لِعَيبِها، فإذا جاوَزوا أصلَحوها، فانتَفَعوا بها))[(٤)].

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (فكان ابنُ عبَّاسٍ يقرأُ: «وكان أمامَهم مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سَفينةٍ صالحةٍ غَصبًا»)[(٥)].

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

«أمام» و«قُدَّام»... وبعض المفسِّرين فسَّروا ﴿وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ بمعنى: أمامهم مَلِكٌ، فتوهَّم بعضُ مدوِّني اللغةِ أنَّ «وراء» مِن أسماءِ الأضدادِ، وأنكره الفرَّاء وقال: لا يجوزُ أن تقولَ للذي بين يديك: «هو وراءَك»، وإنما يجوزُ ذلك في المواقيتِ مِن الليالي تقولُ: وراءك بردٌ شديدٌ، وبين يديك بردٌ شديدٌ. يعني أنَّ ذلك على المجاز. قال الزجَّاج: وليس من الأضدادِ كما زعم بعضُ أهلِ اللغةِ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١-١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢).

(٢) يُسَخِّرُها: التَّسخيرُ بمعنَى التَّكليفِ، والحملِ على الفعلِ بغيرِ أُجرةٍ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٠).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٥) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

أي: وأمَّا الغلامُ الذي قتَلْتُه، فكان أبوه وأمُّه مُؤمِنَينِ باللهِ، وكان الغُلامُ كافِرًا[١].

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((وأمَّا الغُلامُ فطُبِعَ يومَ طُبِعَ كافِرًا))[٢].

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (فكان ابنُ عَبَّاسٍ يَقرأُ: «وأمَّا الغلامُ فكان كافِرًا وكان أبواه مؤمِنَينِ»)[٣].

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾.

أي: فخَشِينا[٤] إنْ بَقِيَ الغلامُ حيًّا أن يغْشَى أبوَيه بالعُقوقِ، ويَحمِلَهما على الكُفرِ باللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٥).

(٤) قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿فَخَشِينَآ﴾ في القائِلِ لهذا قولان: أحدُهما: الله عزَّ وجلَّ. ثمَّ في معنى الخَشيةِ المضافةِ إليه قولان: أحدُهما: أنَّها بمعنى: العِلم. قال الفرَّاء: معناه: فعَلِمْنا. والثاني: الكراهةُ، قاله الأخفَشُ والزجَّاج. وقال ابنُ عَقيل: المعنى: فعَلْنا فِعلَ الخاشي. والثاني: أنَّه الخَضِرُ، فتكون الخشيةُ بمعنى الخَوفِ للأمرِ المتوهَّم، قاله ابنُ الأنباري. وقد استدلَّ بعضُهم على أنَّه مِن كلامِ الخَضِرِ بقولِه: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٣).

وممَّن ذهبَ إلى أنَّ المرادَ بالخشيةِ هنا: العلمُ: ابنُ جريرٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٦- ٣٥٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بها: الخوفُ، وأنَّها مِن كلامِ الخَضِر: الزمخشري، ورجَّحه القرطبي، وذكر أنَّه قَولُ كثيرٍ مِن المفَسِّرين، وفَسَّره بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: ((وأمَّا الغُلامُ فطُبِع يومَ طُبِع كافِرًا، وكان أبواه قد عطَفَا عليه، فلو أنَّه أدرك، أرهَقَهما طُغيانًا وكُفرًا))[1].

وفي روايةٍ: ((﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أن يَحمِلَهما حُبُّه على أن يُتابِعاه على دِينِه))[2].

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾.

أي: قال الخَضِرُ: فأرَدْنا بقَتلِ الغُلامِ الكافِرِ أن يُبدِلَ اللهُ أبوَيه المُؤمِنَين ولَدًا صالِحًا خَيرًا مِن الأوَّلِ: دينًا، وصَلاحًا، وطهارةً مِن الذُّنوبِ، وأرحمَ بوالِدَيه، وأبَرَّ بهما منه[3].

الزمخشري)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٩).

قال ابن تيمية: (الغلامُ الذي قتَلَه الخَضِرُ: إمَّا أن يكونَ كافرًا بالغًا كَفَر بعدَ البلوغِ، فيجوزُ قَتلُه، وإمَّا أن يكونَ كافرًا قبلَ البلوغِ، وجاز قَتْلُه في تلك الشَّريعةِ، وقُتِل؛ لئلَّا يَفتِنَ أبويه عن دينِهما، كما يُقتَلُ الصبيُّ الكافِرُ في ديننا إذا لم يندَفِعْ ضَرَرُه عن المُسلِمينَ إلَّا بالقَتلِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٨/ ٤٢٨). ويُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦، ٥٧).

(١) رواه مسلم (٢٣٨٠).

قال ابن تيمية: (يعني: طَبَعه اللهُ في أمِّ الكِتابِ، أي: كتَبَه وأثبَتَه كافِرًا، أي: أنَّه إن عاش كَفَر بالفِعلِ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٤٦). ويُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٣٦٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٠، ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٢).

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه: ((ووقع أبوه على أمِّه فَعَلِقَتْ[1]، فوَلَدَت منه خيرًا منه زكاةً، وأقرَبَ رُحمًا))[2].

وفي حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ أيضًا في روايةٍ: ((﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هما به أرحَمُ منهما بالأوَّلِ الذي قَتَل خَضِرٌ)). [قال ابنُ جُرَيجٍ]: وزعم غيرُ سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: أنهما أُبدِلَا جاريةً. وأما داودُ بنُ أبي عاصِمٍ فقال: عن غيرِ واحدٍ: إنَّها جاريةٌ[3].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

أي: وأمَّا الحائِطُ الذي أقَمْتُه فكان لغُلامَينِ يتيمَينِ في المدينةِ التي أبَى أهلُها أن يُضَيِّفونا، فحالُهما تقتضي رحمَتَهما والرَّأفةَ بهما؛ لكَونِهما صَغيرَينِ فَقَدا أباهما[4].

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾.

قال البقاعي: (فكان الضَّررُ اللَّاحِقُ لهما بالتأسُّفِ عليه أدنى من الضَّرَرِ اللاحِقِ لهما عند كِبَرِه، بإفسادِ دينِهما أو دُنياهما). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢١-١٢٢).

(١) عَلِقَت: أي: حَبِلَت. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للفيومي (ص: ٢١٦).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٥٨٤٤)، وعبد الله بن أحمد في ((زوائد المسند)) (٢١١١٨) واللفظ له.

صحَّح إسنادَه شُعَيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣٥/ ٥٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

أي: وكان تحت الجِدارِ مالٌ عَظيمٌ مَدفونٌ لليتيمَينِ، فلو وقع الجِدارُ لكان أقرَبَ إلى ضَياعِ مالِهما(١).

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

أي: وكان والِدُ اليتيمَينِ -الذي مات وخلَّفهما- صالِحًا، فينبغي مُراعاتُه، والعنايةُ بذُرِّيتِه(٢).

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

أي: فأراد ربُّك -يا موسى- أن يَكبَرَ اليتيمانِ حتى يَصِلا إلى سِنِّ الرُّشدِ، وتَمامِ القُوَّةِ، ويَستَخرِجا حينَئذٍ مالَهما المدفونَ تحت الجِدارِ(٣).

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: هذا الذي كان -يا موسى- إنما فَعَلْتُه رَحمةً مِنْ رَبِّك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٢).
قال ابن جُزي: (قيل: إنَّه الأبُ السَّابِعُ. وظاهِرُ اللَّفظِ أنَّه الأقرَبُ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣).
ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).
قال البقاعي: (فكان التَّعَبُ في إقامةِ الجِدارِ مجَّانًا أدنى من الضَّرَرِ اللازِمِ مِن سُقوطِه؛ لِضَياعِ الكَنزِ، وفَسادِ الجدار). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

أي: وما فعلتُ جميعَ تلك الأمورِ التي رأيتَني فعَلْتُها عن رأيي، ومِن تِلقاءِ نَفسي، وإنَّما فعَلْتُها بأمرِ اللهِ(١).

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي: ذلك الذي بيَّنْتُه لك -يا مُوسى- هو تَفسيرُ أفعالي التي استنكَرْتَها عليَّ، ولم تستَطِعْ أن تَصبِرَ عن سؤالي عنها(٢).

قال أبو السعود: (﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدرٌ في موقعِ الحالِ، أي: مرحومَين منه عزَّ وجلَّ، أو مفعولٌ له، أو مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ «أراد»؛ فإنَّ إرادةَ الخير رحمةٌ. وقيل: متعلِّقٌ بمضمرٍ، أي: فعلتُ ما فعلتُ مِن الأمورِ التي شاهدتَها رحمةً مِن ربِّك، ويعضُدُه إضافةُ الربِّ إلى ضميرِ المخاطبِ دونَ ضميرِهما، فيكونُ قولُه عزَّ وعلا: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي؛ تأكيدًا لذلك). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

قال ابنُ كثير: (هذا الَّذي فعلْتُه في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ، إنَّما هو مِنْ رحمةِ اللَّهِ بمَن ذكَرنا مِنْ أصحابِ السَّفينةِ، ووالِدَي الغلامِ، ووَلَدَي الرَّجلِ الصَّالِحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٧).

وقال ابنُ جرير: (فَعَلْتُ فِعلي هذا بالجدارِ؛ رحمةً مِنْ ربِّك لليتيمَيْنِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: ذلك تفسيرُه الذي وعَدْتُك به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: تفسيرِه، ويحتَمِلُ أن يكونَ التأويلُ هنا في الثاني: العاقِبةَ، يعني: ذلك عاقبةُ ما لم تستطِعْ عليه صبرًا؛ لأنَّ التأويلَ يرادُ به العاقبةُ، ويرادُ به التفسيرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

وقال ابنُ تيميةَ: (هذا تأويلُ فِعلِه، ليس هو تأويلَ قَولِه، والمرادُ به: عاقبةُ هذه الأفعالِ بما

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ يدُلُّ على أنَّ العبدَ الصَّالحَ قدْ يحفظُه الله تعالى بصلاحِه بعدَ موتِه في ذُرِّيَّتِه، وتشملُ بركةُ عبادتِه لهم في الدُّنيا والآخرةِ، بشفاعتِه فيهم، ورفعِ درجتِهم إلى أعلَى درجةٍ في الجنَّةِ؛ لتَقَرَّ عينُه بهم، كما جاءَ في القرآنِ، ووردَتِ السُّنَّةُ به[١]، فالآيةُ دلَّت على أنَّ الوعدَ على العملِ الصالحِ ليس مختصًّا بالآخرةِ، بل يدخلُ فيه أمورُ الدنيا حتى في الذريَّةِ بعدَ موتِ العاملِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فيه أنَّ هذه القَضايا التي أجراها الخَضِرُ، هي قَدَرٌ مَحضٌ، أجراها الله وجعَلَها على يَدِ هذا العَبدِ الصَّالحِ؛ لِيستَدِلَّ العبادُ بذلك على ألطافِه في أَقضِيَتِه، وأنَّه يُقدِّرُ على العبدِ أمورًا يَكرَهُها جِدًّا، وهي صلاحُ دِينِه، كما في قَضِيَّةِ الغُلامِ، أو وهي صَلاحُ دُنياه كما في قَضِيَّةِ السَّفينةِ، فأراهم نَموذجًا مِن لُطفِه وكَرَمِه؛ لِيَعرِفوا ويَرضَوا غايةَ الرِّضا بأقدارِه المكروهةِ[٣].

يؤولُ إليه ما فعَلْتُه مِن مَصلحةِ أهلِ السَّفينةِ، ومَصلحةِ أبوَيِ الغُلام، ومَصلحةِ أهلِ الجِدارِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٦٧).

بل قال محمد رشيد رضا: (لفظ التَّأويلِ لم يَرِدْ في القرآنِ إلَّا بمعنَى الأمرِ العمليِّ الَّذي يقعُ في المآلِ تصديقًا لخبرٍ أو رُؤيا أو لعملٍ غامضٍ يُقصَدُ به شيءٌ في المستقبلِ). ((تفسير المنار)) (٣/ ١٤٤).

وكلمةُ (تسطع) و(تستطيع) كلاهما بمعنًى واحدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ٢٥٥)، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه أنَّ خِدمةَ الصَّالِحينَ أو من يتعَلَّقُ بهم، أفضَلُ مِن غَيرِها؛ لأنَّه عَلَّلَ استخراجَ كَنزِهما، وإقامةَ جِدارِهما بأنَّ أباهما صالِحٌ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فيه استِعمالُ الأدَبِ مع الله تعالى في الألفاظِ؛ فإنَّ الخَضِرَ أضاف عَيبَ السَّفينةِ إلى نَفسِه، وأمَّا الخَيرُ فأضافه إلى اللهِ تعالى فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وقالت الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، مع أنَّ الكُلَّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فيه أنَّ المسكينَ قد يكونُ له مالٌ لا يَبلُغُ كِفايتَه، ولا يَخرُجُ بذلك عن اسمِ المَسكنةِ؛ لأنَّ الله أخبَرَ أنَّ هؤلاء المساكينَ لهم سَفينةٌ[٣]، وأنَّ المسكينَ أصلَحُ حالًا مِن الفَقيرِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فيه أنَّ العَمَلَ يجوزُ في البَحرِ[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

﴿أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ عَمَلَ الإنسانِ في مالِ غَيرِه، إذا كان على وَجهِ المَصلَحةِ وإزالةِ المَفسَدةِ، أنَّه يجوزُ ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترَتَّبَ على عَمَلِه إتلافُ بَعضِ مالِ الغَيرِ، كما خَرَق الخَضِرُ السَّفينةَ؛ لِتَعيبَ فتَسلَمَ مِن غَصبِ المَلِك الظَّالمِ، فعلى هذا لو وقَعَ حَرقٌ أو غَرَقٌ أو نحوُهما في دار إنسانٍ أو مالِه، وكان إتلافُ بَعضِ المالِ، أو هَدمُ بعضِ الدارِ، فيه سَلامةٌ للباقي؛ جاز للإنسانِ، بل شُرِعَ له ذلك؛ حِفظًا لمالِ الغَيرِ، وكذلك لو أراد ظالِمٌ أخْذَ مالِ الغَيرِ، ودفَعَ إليه إنسانٌ بعضَ المالِ؛ افتداءً للباقي جاز، ولو مِن غَيرِ إذنٍ[1].

٤- في قَولِه تعالى حكايةً عن الخَضِر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ عندَ اللهِ واحِدٌ، وإنْ كان قد جُعِلَ لكلٍّ بأنْ يتكَلَّمَ فيه على اختلافِ ظاهرِ الرأيِ؛ إذْ إنكارُ موسى فِعْلَ الخَضِرِ -صلَّى اللهُ عليهما- كان حقًّا في الظَّاهِرِ عندَه، وفِعْلُ الخَضرِ هو الحقُّ عندَ اللهِ في الباطِنِ[2].

٥- في قَولِه تعالى حكايةً عن الخَضِر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ إحياءَ الحُقوقِ بذَهابِ بَعضِها قُربةٌ إلى اللهِ، إذا لم يوجدِ السَّبيلُ إليه إلَّا بذلك؛ لأنَّ الخَضِرَ صلَّى اللهُ عليه قد أنقَصَ بخَرقِ السَّفينةِ مِن ثَمَنِها؛ طَمَعًا في أنْ يبقى أصلُها لأصحابِها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٩).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ❁ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ عن قتادةَ قال: قال مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّيرِ: (إنَّا لَنعلَمُ أنَّهما قد فَرِحا به يومَ وُلِدَ، وحَزِنا عليه يومَ قُتِلَ، ولو عاش لكان فيه هلاكُهما، فلْيَرضَ العَبدُ بما قَسَم اللهُ له؛ فإنَّ قَضاءَ اللهِ للمُؤمِنِ خَيرٌ مِن قَضائِه لِنَفسِه، وقضاءُ اللهِ لك فيما تَكرَهُ خَيرٌ مِن قَضائِه لك فيما تُحِبُّ)[1].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ❁ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ تَهوينُ المصائِبِ بفَقدِ الأولادِ، وإن كانوا قِطَعًا مِن الأكبادِ، ومَن سَلَّم للقضاءِ، أسفَرَت عاقِبَتُه عن اليدِ البَيضاءِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ؛ لأنَّ الأمَّةَ بأسرِها مُجمِعةٌ على أنَّ المولودَ بين أبوينِ مُؤمِنَينِ يكونُ مُؤمِنًا، وهذا مولودٌ طُبِعَ كافِرًا، وأبواه مُؤمِنان، وليس في ذلك ارتيابٌ البَتَّةَ؛ لإباحةِ قَتلِه، ولإخبارِ الكُفرِ عنه بلَفظِه، فلو لم يكُنْ مِن الحُجَّةِ عليهم إلَّا هذا الغلامُ المخلوقُ كافرًا، وإباحةُ قَتلِه قبلَ بُلوغِ الحِنثِ، وجَريِ القَلَمِ عليه، والسَّلكُ به غيرَ مَسلَكِ أبوَيه؛ لكفى، فأين تَحذلُقُهم وادِّعاءُ الفَلسفةِ في مَعرفةِ عَدْلِ اللهِ عندهم بعُقولِهم النَّاقِصةِ العاثِرةِ؟! وهل يَقدِرونَ في هذا الموضِعِ إلَّا على التَّسليمِ لعَدلٍ لا يَعرِفونَه ضَرورةً، فيَلزَمُهم أن يُسَلِّموه في بابِ القَضاءِ والقَدَرِ ضَرورةً، أو يَكفُرونَ بالقُرآنِ، ويَنسُبونَ الخَضِرَ -صلى الله عليه- إلى أنَّه قَتَل

---

(١) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٢٩)، وعزاه لابن أبي حاتم والبيهقي في ((الشعب)).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٧).

في الحقيقةِ نَفسًا زكيَّةً بغيرِ نَفسٍ، كما رأى موسى -صلَّى الله عليه- مِن ظاهِرِ فِعلِه، وكيف لهم بذلك -وَيْلَهم- وقد سَلَّمَه موسى للخَضِر، وعَلِمَ أنَّه الحَقُّ، ثمَّ أخبَرَ اللهُ نبيَّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأنزله في كتابِه الذي لا يأتيه الباطِلُ مِن بينِ يَدَيه ولا مِن خَلفِه مِن غيرِ إنكارٍ عليه؟! بل أخبَرَ أنَّه فعَلَ بأمْرِه تبارك وتعالى حيثما يقولُ إخبارًا عنه -صلَّى الله عليه-: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّه يُدفَعُ الشَّرُّ الكبيرُ بارتِكابِ الشَّرِّ الصَّغيرِ، وأنَّه يُراعى أكبَرُ المصلَحَتينِ بتَفويتِ أدناهما؛ فإنَّ قَتلَ الغُلامِ شَرٌّ، ولكِنَّ بقاءَه حتى يَفتِنَ أبوَيه عن دينِهما أعظَمُ شَرًّا منه، وبقاءُ الغلامِ مِن دونِ قَتلٍ وعِصمَتُه، وإن كان يُظَنُّ أنَّه خَيرٌ، فالخَيرُ ببقاءِ دينِ أبوَيه وإيمانِهما خيرٌ مِن ذلك؛ فلذلك قَتَله الخَضِر، وتحت هذه القاعدةِ مِن الفُروعِ والفوائِدِ ما لا يدخُلُ تحتَ الحَصرِ، فتزاحُمُ المصالحِ والمفاسِدِ كُلِّها داخِلٌ في هذا[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ لَمَّا كان التَّعويضُ عن هذا الولَدِ لله وَحدَه، أسنَدَ الفِعلَ إليه تعالى[3].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه دليلٌ على إطلاقِ القريةِ على المدينةِ، وجوازِ تَسميةِ إحداهما بالأُخرى؛ لأنَّه قال

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢١).

أولًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾، وقال هاهنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾[١].

١٢- وَصْفُ الغُلامَينِ باليُتْمِ في قَولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يَدُلُّ على أنَّهما كانا صَغيرَينِ[٢].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ يدُلُّ على أنَّه يجوزُ دَفنُ المالِ في الأرضِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ إباحةُ حِفْظِ الأموالِ على الصِّغارِ إلى وقتِ البُلوغِ[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ فيه ردٌّ على مَن اعتقَد أنَّ الإنسانَ لا ينتفعُ إلَّا بعملِه؛ فإنَّ الغلامَينِ اليتيمَينِ قد انتَفَعا بصَلاحِ أبيهما، وليس مِن سَعيِهما[٥].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ استَدَلَّ به مَن قال بنُبُوَّةِ الخَضِرِ؛ لأنَّه يقتضي أنَّه أُوحِيَ إليه[٦]، وهو مِن أوضَحِ ما يُستدلُّ به على نُبُوَّتِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧١).

(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢).

(٧) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٢٠).

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ في قِصَّةِ موسى مع الخَضِر حثٌّ كبيرٌ على المجاهَرةِ بالمُبادرة بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهي عن المُنكَر والمُصابرةِ عليه، وألَّا يُراعَى فيه كَبيرٌ ولا صغيرٌ، إذا كان المرءُ على ثقةٍ مِن أمْرِه في الظَّاهِرِ بما عنده في ذلك مِن العِلمِ عن اللهِ ورَسولِه وأئِمَّةِ دِينِه[١].

١٨- هذه القِصَصُ التي أخبر اللهُ عزَّ وجَلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بها عن موسى وصاحِبِه: تأديبٌ منه له، وتقدُّمٌ إليه بتركِ الاستعجالِ بعُقوبةِ المُشرِكين الذين كذَّبوه واستهزَؤوا به وبكتابِه، وإعلامٌ منه له أنَّ أفعالَه بهم وإن جرت فيما ترى الأعيُنُ بما قد يجري مثلُه أحيانًا لأوليائِه؛ فإنَّ تأويلَه صائرٌ بهم إلى أحوالِ أعدائِه فيها، من هلاكِهم وبوارِهم بالسَّيفِ في الدُّنيا، واستحقاقِهم من اللهِ في الآخرةِ الخِزيَ الدَّائِمَ، كما كانت أفعالُ صاحبِ موسى واقعةً بخلافِ الصحَّةِ في الظاهِرِ عند موسى -إذ لم يكُنْ عالِمًا بعواقِبِها- وهي ماضيةٌ على الصحَّةِ في الحقيقةِ، وآيلةٌ إلى الصوابِ في العاقبةِ؛ يُنبئُ عن صحَّةِ ذلك قولُه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: ٥٨]، ثمَّ عقَّب ذلك بقصَّةِ موسى وصاحِبِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾

وقال: (ويَنبغي اعتقادُ كونه نبيًّا؛ لئلَّا يتذرَّعَ بذلك أهلُ الباطلِ في دَعْواهم أنَّ الوليَّ أفضلُ من النَّبيِّ، حاشا وكلَّا) ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٦٧- ٣٦٨).

- معنى ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فيه حذفٌ، والتقديرُ: أي: كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحةٍ، بقَرينةِ قولِه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[(١)].

- قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، حيث قدَّم قولَه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ على قولِه: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾؛ لأنَّ إرادةَ التَّعييبِ مُسبَّبةٌ عن خوفِ الغَصبِ عليها، فكان حقُّ قولِه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن يتأخَّرَ عن السَّببِ، وإنَّما قُدِّم؛ للعِنايةِ، ولأنَّ خوفَ الغصبِ ليس هو السَّببَ وحدَه، ولكنْ مع كونِها للمَساكينِ[(٢)]. أو: لأنَّ السببَ لَمَّا كان مجموعَ الأمرَيْنِ: خَوْف الغَصْبِ، ومَسكَنة المُلَّاكِ؛ رتَّبه على أقْوى الجُزْأين وأدْعاهُما، وعقَّبَه بالآخَرِ على سَبيلِ التَّقْييدِ والتَّتْميم[(٣)].

- وقُدِّم قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أيضًا خِلافًا لِمُقتَضى الظَّاهرِ؛ لِقَصدِ الاهْتِمامِ والعنايةِ بإرادةِ إعابةِ السَّفينةِ -حيثُ كان عمَلًا ظاهِرُه الإنكارُ، وحَقيقتُه الصَّلاحُ- زيادةً في تشويقِ موسى إلى عِلمِ تأويلِه؛ لأنَّ كَونَ السَّفينةِ لِمَساكينَ ممَّا يَزيدُ السَّامِعَ تَعجُّبًا في الإقدامِ على خَرقِها. والمعنى: فأَرَدتُ أن أَعيبَها وقد فعَلْتُ، وإنَّما لم يَقُلْ: (فعِبْتُها)؛ لِيَدُلَّ على أنَّ فِعلَه وقَع عن قصدٍ وتأمُّلٍ[(٤)].

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلك: أنَّه عزَّ وجلَّ حَكَى عن الخَضِرِ أنَّه قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٦/ ٢٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢).

هنا: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وقال بَعدَه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ فاختَلَفَتِ الإضافةُ في هذه الإراداتِ الثَّلاثِ، وهي كُلُّها في قِصَّةٍ واحدةٍ وفِعلٍ واحدٍ؛ ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا ذَكر (العَيب) أضافَ عَيبَ السَّفينةِ إلى إرادةِ نفسِه، فقال: ﴿أَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، مِن بابِ الأدَبِ مع اللهِ في الألفاظِ، أمَّا الخيرُ فأضافَه إلى اللهِ، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. وأيضًا لَمَّا ذَكَر رِعايةَ مَصالِحِ اليتيمَيْنِ لأجْلِ صَلاحِ أبيهِما؛ أضافَه إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه سُبحانَه هو المتكفِّلُ بمَصالِحِ الأبناءِ لِرعايَةِ حقِّ الآباءِ. وقيل: أسنَد الإرادةَ في قصَّةِ الجِدارِ إلى اللهِ تعالى دونَ القِصَّتَينِ السَّابقَتين؛ لأنَّ العمَلَ فيهما كان مِن شأنِه أن يَسعَى إليه كلُّ مَن يَقِفُ على سِرِّه؛ لأنَّ فيهِما دفْعَ فَسادٍ عن النَّاسِ، بخِلافِ قِصَّةِ الجِدارِ؛ فتِلْك كَرامةٌ مِن اللهِ لأبي الغُلامَين. وأيضًا قال في قِصَّة الجِدارِ والغُلامَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾؛ لأنَّ بَقاءَ الغُلامَينِ حتى يَبلُغَا أَشُدَّهما ليس للخَضِرِ فيه أيُّ قُدرةٍ، لكنِ الخَشيةُ -خشيةُ أنْ يُرْهِقَ الغُلامُ أبويه بالكُفرِ- تَقَعُ مِن الخَضرِ، وكذلك إرادةُ عَيبِ السَّفينةِ. ولَمَّا ذكَر (القَتْلَ) عبَّر عن نفْسِه بلَفظِ الجَمعِ، فقال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]؛ ووجهُ ذلك: الإشارةُ إلى أنَّه لا يُقْدِمُ على هذا القتلِ إلَّا لحِكْمةٍ عاليَةٍ، ولأنَّ قَتْلَه للغُلامِ إفسادٌ من حَيثُ القَتلُ، وإنعامٌ من حيثُ التَّأويلُ؛ فأسنَده إلى نَفْسِه وإلى اللهِ عزَّ وجلَّ، بخِلافِ الأوَّلِ (عَيْب السَّفينة) فإنَّه في الظَّاهرِ إفسادٌ؛ فأسنَدَه إلى نَفْسِه، والثَّالثَ (إقامة الجِدار) فإنَّه إنعامٌ مَحضٌ؛ فأسنَدَه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. وأيضًا ضَميرَا الجَماعةِ في قولِه: ﴿فَخَشِينَآ﴾، وقولِه: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ عائدانِ

إلى المتكلِّمِ الواحدِ بإظهارِ أنَّه مُشارِكٌ لغيرِه في الفِعلِ، وهذا الاستِعْمالُ يَكونُ من التَّواضُعِ لا مِن التَّعاظُمِ؛ لأنَّ الْمَقامَ مَقامُ الإعلامِ بأنَّ اللهَ أطْلَعه على ذلك، وأمَرَه، فناسبَه التَّواضُعُ، فقال: ﴿فَخَشِينَآ﴾ ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ولم يَقُلْ مِثلَه عندَما قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ لأنَّ سببَ الإعابةِ إدراكُ حالِ تِلك الأصْقاعِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾

- قولُه: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يُصرِّحْ بكُفرِ الغُلامِ؛ إشعارًا بعدَمِ الحاجةِ إلى الذِّكْرِ؛ لظُهورِه(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

- قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا﴾ في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، والإضافةِ إليهما: ما لا يَخْفى مِن الدَّلالةِ على إرادةِ وُصولِ الخيرِ إليهما(٣).

- وقال: ﴿زَكَوٰةً﴾ مُراعاةً لقولِ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٠-١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

- قولُه: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القريةُ المذكورةُ فيما سبَق؛ ولعلَّه عبَّر عنها بذلك؛ لإظهارِ نوعِ اعْتِدادٍ بها، باعْتِدادِ ما فيها مِن اليتيمَيْن وأَبيهِما الصَّالحِ[١].

- قولُه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضَميرِ موسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دونَ ضَميرِهما: تَنبيهٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على تَحتُّمِ كَمالِ الانْقِيادِ والاستِسْلامِ لإرادَتِه سُبحانه، ووجوبِ الاحْتِرازِ عن المناقَشةِ فيما وقَع بحسَبِها مِن الأمورِ المذكورةِ[٢].

- وقولُه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ تصريحٌ بما يُزيل إنكارَ موسى عليه تَصرُّفاتِه هذه بأنَّها رحمةٌ ومصلَحةٌ؛ فلا إنكارَ فيها بعدَ مَعرِفةِ تأويلِها. ثمَّ زاد بأنَّه فعَلَها عن وحيٍ مِن اللهِ؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ عَلِم موسى أنَّ ذلك بأمرٍ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ النَّبيَّ إنَّما يتصرَّفُ عن اجتهادٍ أو عن وحيٍ -هذا على القولِ بأنَّ الخضرَ كان نبيًّا-، فلمَّا نَفى أن يَكونَ فِعلُه ذلك عن أمرِ نفسِه تعيَّن أنَّه عن أمرِ اللهِ تعالى. وإنَّما أُوثِرَ نفيُ كَونِ فِعلِه عن أمرِ نفْسِه على أن يَقولَ: (وفَعَلتُه عن أمرِ ربِّي)؛ تَكمِلةً لِكَشفِ حَيرةِ موسى وإنكارِه؛ لأنَّه لَمَّا أنكَر عليه فَعْلاتِه الثَّلاثَ كان يُؤيِّدُ إنكارَه بما يَقْتَضي أنَّه تَصرَّف عن خطأٍ[٣].

٥- قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعْنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درَجتِها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤-١٥).

الفَخامةِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فَذْلَكةٌ[(٢)] للجُمَلِ الَّتي قبلَها ابْتِداءً مِن قولِه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩]؛ فالإشارةُ بذلك إلى المذكورِ في الكلامِ السَّابقِ، وهو تَلْخيصٌ للمَقْصودِ[(٣)].

- وفي جَعْلِ الصِّلةِ ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ عَيْنَ ما مرَّ تَكريرٌ للتَّنكيرِ، وتَشديدٌ للعتابِ[(٤)].

- وقولُه: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿تَسْطِع﴾ بحذفِ التاءِ، بينما قال في الآيةِ الأُولَى: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، بإثباتِ التَّاءِ؛ وذلك لأنَّه لمَّا أنْ فسَّرَه له وبيَّنَه ووضَّحه، وأزالَ المشكلَ؛ قال: ﴿تَسْطِع﴾، وقبلَ ذلك كان الإشكالُ قويًّا ثقيلًا فقَال: ﴿تَسْتَطِع﴾ فقابلَ الأثقلَ بالأثقلِ، والأخفَّ بالأخفِّ[(٥)]. وقيل: ﴿تَسْطِع﴾ مضارِعُ (اسْطَاعَ) بمَعْنى (اسْتَطَاعَ)، فحذَف تاءَ الاستِفْعالِ تَخفيفًا؛ لِقُربِها مِن مَخرَجِ الطَّاءِ، والمخالَفةِ بينَه وبينَ قولِه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ للتَّفنُّنِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ لَفْظٍ بعَينِه مع وجودِ مُرادِفِه، وابتُدِئَ بأشهَرِهما استِعْمالًا،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٢) الفَذْلَكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذَكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخلاصتَه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريع عليه، ومنها فذلكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٨).

وجيءَ في الثَّانيةِ بالفِعْلِ المخفَّفِ؛ لأنَّ التَّخفيفَ أولَى به؛ لأنَّه إذا كَرَّر ﴿تَسْتَطِع﴾ يَحصُلُ مِن تكْريرِه ثِقَلٌ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥).

الآيات (٨٢-٩١)

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَبَبًا﴾: أي: طَريقًا ومَسلكًا، يُقالُ للطَّريقِ إلى الشَّيءِ: سَبَبٌ، وللحَبْلِ يُتوصَّلُ به إلى الماءِ: سَبَبٌ، ولكُلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ يَبعُدُ عنك: سَبَبٌ، وأصلُ (سبب): يدُلُّ على طولٍ وامتِدادٍ(١).

﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: أي: عينِ ماءٍ ذاتِ حَمْأةٍ، والعينُ تُطلَقُ على الينبوعِ، وهو الماءُ الكثيرُ، والمرادُ بالعينِ: البحرُ، أو عينٌ مِن البحرِ، والحمأةُ هي: الطِّينُ الأسْودُ المُنتِنُ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٤)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

يقولُ تعالى: ويَسألُك -يا مُحمَّدُ- هؤلاء الكفَّارُ عن خَبَرِ ذي القَرنَينِ، قُل لهم: سأقصُّ عليكم منه ذِكْرًا تتذَكَّرونَه وتَتَّعِظونَ به: إنَّا مكَّنَّا له في الأرضِ، وآتيناه مِن كُلِّ شيءٍ يحتاج إليه مثلُه مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ، ليصلَ به إلى مقصودِه، فأخذَ بتلك الأسبابِ التي تُوصِلُه إلى مَقصودِه، حتى إذا وصل ذو القَرنَينِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ وَجَدها في مرأى العَينِ كأنَّها تَغرُبُ في بحرٍ ذي طينٍ أسوَدَ، ووجد عند مَغرِبِها أمةً مِن الأممِ. قُلْنا: يا ذا القَرنَينِ، إمَّا أن تُعَذِّبَ مَن أصرَّ منهم على الكُفرِ، وإمَّا أن تُحسِنَ إليهم، فتُعَلِّمَهم الهُدى وتُبَصِّرَهم الرَّشادَ.

قال ذو القَرنَينِ: أمَّا مَن ظلَمَ نَفسَه منهم فأصرَّ على الكُفرِ، فسوف نُعَذِّبُه في الدُّنيا، ثمَّ يَرجِعُ إلى رَبِّه فيُعَذِّبُه عذابًا فظيعًا شَديدًا، وأمَّا مَن آمنَ منهم برَبِّه وعَمِلَ صالحًا، فله الجنَّةُ ثوابًا مِنَ اللهِ، وسنُحسِنُ إليه، ونُلينُ له في القَولِ، ونُعامِلُه باليُسرِ.

ثمَّ سار ذو القَرنَينِ إلى المَشرِقِ مُتَّبِعًا الأسبابَ التي أعطاه اللهُ إيَّاها، حتى إذا وصل إلى مَطلِعِ الشَّمسِ وجَدَها تَطلُعُ على قَومٍ ليس لهم شيءٌ يَستُرُهم منَ الشَّمسِ، كذلك وقد أحاط عِلْمُنا بما عِندَ ذي القرنَينِ من شيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا فرَغَ اللهُ تعالى مِن قِصَّةِ موسى والخَضِر -عليهما السَّلامُ- التي حاصِلُها أنَّها طَوافٌ في الأرضِ لطَلَبِ العِلمِ؛ عَقَّبَها بقِصَّةِ مَن طاف الأرضَ لطَلَبِ الجِهادِ، وقدَّم الأُولَى إشارةً إلى علوِّ دَرَجةِ العِلمِ؛ لأنَّه أساسُ كُلِّ سَعادةٍ،

وقِوامُ كُلِّ أمرٍ[١].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾.

أي: ويَسألُك الكُفَّارُ[٢] -يا محمَّدُ- عن شَأنِ ذي القَرنَينِ[٣] وخَبَرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٨).

(٢) قال ابن عثيمين: (سواءٌ مِن يهود، أو من قُرَيش، أو مِن غيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٤).

وذهب ابنُ جريرٍ وابنُ عاشور إلى أنَّ السائلينَ هم كفَّارُ قُرَيشٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧).

قال ابنُ عاشور: (السائلون: قريشٌ لا محالةَ، والمسؤول عنه: خبرُ رجلٍ مِن عظماء العالَم عُرِفَ بلَقَبِ ذي القرنين، كانت أخبارُ سيرته خفيَّةً مُجمَلةً مُغلَقةً، فسألوا النبيَّ عن تحقيقِها وتفصيلِها، وأذِنَ له الله أن يبيِّنَ منها ما هو موضِعُ العبرة للناسِ في شؤون الصلاحِ والعدل، وفي عجيبِ صنعِ الله تعالى في اختلافِ أحوال الخَلقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧).

(٣) قال البقاعي: (ذو القَرنَينِ: سُمِّي لشَجاعتِه، أو لبلوغِه قَرنَي مَغرِب الشَّمسِ ومَشرِقها، أو لانقراضِ قرنينِ مِن النَّاسِ في زمانِه، أو لأنَّه كان له ضفيرتانِ مِن الشَّعرِ، أو لتاجه قرنانِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨).

قال أبو السعود: (اختُلِف في نبُوَّتِه بعد الاتِّفاقِ على إسلامِه... والصَّحيحُ أنَّه ما كان نبيًّا ولا مَلَكًا، وإنَّما كان مَلِكًا صالِحًا عادِلًا). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٠).

وقال البغوي: (الأكثرونَ على أنَّه كان مَلِكًا عادِلًا صالِحًا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٢).

وقال ابنُ القَيِّم: (الإسكندرُ المَقدونيُّ، وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القَرنَينِ الذي قَصَّ الله تعالى نبأه في القرآنِ، بل بينهما قرونٌ كثيرةٌ، وبينهما في الدِّينِ أعظَمُ تبايُنٍ؛ فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحِّدًا لله تعالى، يؤمِنُ بالله تعالى وملائكتِه، وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، وكان يغزو عُبَّادَ الأصنامِ، وبلغ مشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، وبنى السَّدَّ بين الناسِ وبين يأجوجَ ومأجوجَ. وأمَّا هذا المقدونيُّ فكان مُشرِكًا يعبُدُ الأصنامَ هو وأهلُ مملكتِه). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٦٣-٢٦٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧١).

﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن سألَك عن ذي القَرنَينِ: سأقُصُّ عليكم بعضَ أخبارِه مِمَّا يكونُ فيها ذِكرى وعِبرةٌ وعِظةٌ(١).

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّا وطَّأْنا ومهَّدْنا لذي القَرنَينِ المُلكَ في الأرضِ، فأقدَرْناه على ذلك، وقوَّيناه بكَثرةِ الجُنودِ وآلاتِ الحَربِ، وحُسنِ التدبيرِ، وبسْطِ الهَيبةِ، وغيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

قال البقاعي: (﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ كافيًا لكم في تعرُّفِ أمرِه، جامعًا لمجامِعِ ذِكرِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٢٩).

وقال الألوسي: (﴿قُلْ﴾ لهم في الجوابِ ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ الخطابُ للسائلين، والهاء لذي القرنينِ، ومِنْ: تبعيضيةٌ، والمرادُ: من أنبائِه وقَصَصِه، والجارُّ والمجرور صفةُ ﴿ذِكْرًا﴾ قُدِّمَ عليه فصار حالًا، والمراد بالتلاوةِ: الذِّكرُ، وعبَّرَ عنه بذلك؛ لكونِه حكايةً عن جهة الله عزَّ وجَلَّ، أي: سأذكُرُ لكم نبأً مذكورًا من أنبائِه. ويجوز أن يكون الضميرُ له تعالى، ومِن: ابتدائيةٌ، ولا حَذْفَ، والتلاوةُ على ظاهِرِها، أي: سأتلو عليكم من جهتِه سبحانه وتعالى في شأنِه ذِكرًا، أي: قُرآنًا). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤، ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾.

أي: وآتيناه مِن كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إليه مِثلُه مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ؛ حتَّى يصلَ به إلى مقصودِه مِن فَتحِ الأقاليمِ، وكَسرِ الأعداءِ، والتمكينِ في الأرضِ إلى غيرِ ذلك(١).

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾.

أي: فسار ذو القرنينِ في طَريقٍ آخذًا بالأسبابِ والوسائِلِ التي تُوصِلُه إلى مَقصودِه(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).
قال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يعمُّ كلَّ شيءٍ؛ لكنَّ المرادَ: مِن كل شيءٍ يحتاجُ إليه في قوةِ السلطانِ، والتمكينِ في الأرضِ، والدليلُ على هذا أنَّ «كل شيء» بحسبِ ما تُضافُ إليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).
وقال السعدي: (هذه الأسبابُ التي أعطاه اللهُ إيَّاها لم يُخبِرْنا الله ولا رسولُه بها، ولم تتناقَلْها الأخبارُ على وجهٍ يُفيدُ العِلمَ... ولكِنَّنا نعلَمُ بالجُملةِ أنَّها أسبابٌ قَويَّةٌ كثيرةٌ، داخليَّةٌ وخارجيَّةٌ، بها صار له جندٌ عظيمٌ، ذو عَدَدٍ وعُدَدٍ ونظامٍ، وبه تمكَّنَ مِن قَهرِ الأعداء، ومِن تَسهيلِ الوصولِ إلى مشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها وأنحائِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: عَينٍ ذاتِ حَمْأةٍ، وهو: الطِّينُ الأسوَدُ المُنتِنُ[١].

٢- قِراءةُ ﴿حَامِيَةٍ﴾ أي: عَينِ ماءٍ حارَّةٍ[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو، ويعقوبُ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٢١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٩)، ((مفاتيح الأغاني)) لأبي العلاء الكرماني (ص: ٢٦١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٤)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٢١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يقال: إنَّهما قراءتانِ مُستفيضتانِ في قراءةِ الأمصار، ولكُلٍّ واحدةٍ منهما وجهٌ صحيحٌ ومعنًى مفهومٌ، وكلا وجهَيه غيرُ مُفسدٍ أحدُهما صاحبَه؛ وذلك أنَّه جائزٌ أن تكون الشَّمسُ تَغرُبُ في عينٍ حارَّةٍ ذاتِ حمأةٍ وطينٍ، فيكون القارئُ ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ [واصِفَها] بصِفتِها التي هي لها -وهي الحرارة- ويكون القارئُ ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ واصِفَها بصِفتِها التي هي بها، وهي أنَّها ذاتُ حمأةٍ وطينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٧).

وقال ابن كثير: (قلتُ: ولا مُنافاةَ بين مَعنَيَيهما؛ إذ قد تكون حارَّةً لمجاورتِها وَهجَ الشَّمسِ عند غروبِها، وملاقاتِها الشُّعاعَ بلا حائل، و ﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماءٍ وطينٍ أسوَدَ، كما قال كعبُ الأحبارِ وغيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٢).

وقال البقاعي: (﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذاتِ حمأةٍ، أي: طينٍ أسوَدَ، وهي مع ذلك حارَّةٌ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣٠).

أي: سار ذو القرنَينِ إلى أن بلغَ أقصى موضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه مِن اليابِسةِ مِن الجِهةِ الغَربيَّةِ للأرضِ، فوجد الشَّمسَ تَغرُبُ -في ناظِرَيه[١]- في بحرٍ ذي طينٍ أسودَ مُنتِنٍ، فرآها وكأنَّها تَغرُبُ في ذلك البحرِ[٢].

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾.

أي: ووجد ذو القَرنَينِ عندَ تلك العَينِ على ساحِلِ البَحرِ أُمَّةً مِن الأُمَمِ[٣].

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

أي: قُلْنا: يا ذا القَرنَينِ، إمَّا أن تُعذِّبَ مَن أصَرَّ منهم على الكُفرِ[٤]، وإمَّا أن

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (معنى ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ﴾ أي: في رأيِ النَّاظِرِ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، وليس المرادُ تسقُطُ مِن الفَلَك فتَغرُبُ في تلك العين؛ فإنها لا تنزِلُ مِن السماءِ إلى الأرضِ، ولا تُفارِقُ فَلَكَها). ((مختصر الفتاوى المصرية)) (ص: ٥٧٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥).

قال الشنقيطي: (المرادُ بالعين في الآية: البحرُ المحيط، وهو ذو طينٍ أسوَدَ، والعينُ تُطلَقُ في اللغةِ على ينبوعِ الماءِ، واليَنبوعُ: الماءُ الكثير، فاسمُ العينِ يَصدُقُ على البحر لغةً، وكونُ مَن على شاطئِ المحيط الغربيِّ يرى الشَّمسَ في نَظَرِ عَينِه تَسقُطُ في البحرِ؛ أمرٌ معروف). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٦/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٤، ٣٧٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩١، ١٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

قال البيضاوي: (كانوا كُفَّارًا فخَيَّرَه اللهُ بين أن يعذِّبَهم أو يدعُوَهم إلى الإيمانِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) قيل: المرادُ بالتعذيبِ: القتلُ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي، والبيضاوي،

تُحسِنَ إليهم[(١)].

والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

وقيل: المرادُ: القتلُ والسبي. وممن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣).

وقال السعدي: (﴿قُلْنَا يَذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: إمَّا أن تعذِّبَهم بقَتلٍ أو ضربٍ أو أَسْرٍ، ونحوِه، وإمَّا أن تُحسِنَ إليهم؛ فخُيِّرَ بينَ الأمرينِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّهم كُفَّارٌ أو فُسَّاقٌ، أو فيهم شيءٌ من ذلك؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين غيرَ فُسَّاقٍ، لم يُرخَّصْ في تعذيبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥-٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

وقال ابن عاشور: (دلَّ قولُه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ على أنَّهم مُستحِقُّون للعذابِ؛ فدلَّ على أنَّ أحوالَهم كانت في فَسادٍ مِن كُفرٍ وفَسادِ عمَلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

قيل: المراد بقولِه: ﴿تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾: أن تأسرَهم فتعلمَهم الهدَى، وتبصرَهم الرشادَ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٠).

وقيل: المرادُ: تتَّخذَ فيهم حسنًا بالإرشادِ، وتعليمِ الشرائعِ. وممن قال بذلك: البيضاوي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

وقيل: المرادُ: تعفو وتصفح. وممن قال بذلك: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣).

وقيل: المرادُ: المَنُّ أو الفداء. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣).

وقال الرسعني: (﴿قُلْنَا يَذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ من قال: إنَّه نبيٌّ فالمعنى: قُلْنا له بطريقِ الوحيِ أو التكليمِ، ومن قال: عبدٌ صالحٌ، فالمعنى: قُلْنا له بطريقِ الإلهامِ، أو بطريقِ الإرسالِ إليه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٥٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٧٢).

وقال القرطبي: (يجوزُ أنْ يكونَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ خاطبَه على لسانِ نبيٍّ في وقتِه). ((تفسير القرطبي))

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾.

أي: قال ذو القرنَينِ[1]: أمَّا مَن ظلَمَ نَفسَه بالإصرارِ على الكُفرِ بعد دَعوتِه للحقِّ، فسوف نُعَذِّبُه[2].

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

أي: ثُمَّ يَرجِعُ الكافِرُ بعد تعذيبِنا له في الدُّنيا إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا فَظيعًا شَديدًا[3].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

(١١/ ٥٢).

(١) قال ذو القرنين ذلك الكلامَ لمن عندَه مِن خواصِّه وأهلِ مشورتِه. وقيل: قاله للنبيِّ الذي خاطَبه الله على لسانِه. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).
قال أبو حيان: (الظُّلمُ هو الكُفرُ هنا بلا خلافٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).
قال البقاعي: (﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ شديدًا جِدًّا لم يُعهَدْ مِثلُه؛ لكُفرِه لنعمتِه، وبَذْلِ خَيرِه في عبادةِ غيرِه، وفي ذلك إشارةٌ بالتهديدِ الشديدِ لليهود الغارِّين لقريشٍ، وإرشادٌ لقُريشٍ إلى أن يسألوهم عن قَولِه هذا؛ ليكون قائدًا لهم إلى الإقرارِ بالبَعثِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣١).
قال ابن عثيمين: (ولكنَّه بالنسبة لله تعالى ليس بنُكرٍ، بل هو حَقٌّ وعَدلٌ، لكِنَّه ينكِرُه المعَذَّبُ، ويرى أنَّه شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٨).

أي: وأمَّا مَن آمنَ بعدَ كُفرِه، وعَمِلَ بطاعةِ اللهِ مُخلِصًا له وَحدَه لا شَريكَ له؛ فله في الآخرةِ الجَنَّةُ ثوابًا على إيمانِه وعَمَلِه الصَّالحِ[1].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾.

أي: وسنُلطِفُ له القَولَ ونُلينُه في الدُّنيا، ونُعَلِّمُه ما تيسَّرَ تعليمُه مِن الخيرِ، ونُعامِلُه باليُسرِ، ونُحسِنُ إليه[2].

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾.

أي: ثمَّ سار ذو القرنَينِ في طريقٍ آخَرَ آخِذًا بالأسبابِ والوسائِلِ؛ كي يصِلَ إلى جهةِ المَشرِقِ[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾.

أي: سار ذو القَرنَينِ إلى أن بلغ أقصى مَوضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه من الجِهةِ الشَّرقيَّةِ للأرضِ، حيث تَطلُعُ الشَّمسُ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٨).
قال ابنُ عاشور: (والقولُ اليسرُ: هو الكلامُ الحسَنُ، وُصِفَ باليُسرِ المعنويِّ؛ لكونِه لا يثقُلُ سماعُه، وهو مِثْلُ قولِه تعالَى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٨] أي: جميلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٩).

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

أي: فوجد الشَّمسَ تَطلُعُ على قَومٍ ليس لهم شيءٌ يُظِلُّهم منها؛ من جَبَلٍ أو شَجَرٍ أو بِناءٍ[1]!

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

أي: كذلك[2]، وقد عَلِمْنا ما لدى ذي القرنَينِ مِن الجُندِ والأموالِ، والآلاتِ

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: ولا خلافَ بينَ أهلِ العربيَّةِ في أنَّ المَطْلِعَ والمَطْلَعَ كلاهما يُعنى بهما المكانُ الذي تَطلُعُ منه الشَّمسُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (مَطلِعُ الشَّمسِ: جِهةُ المشرِقِ مِن سُلطانِه ومَملكتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨). ويُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٥٨٢، ٤٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٥).

قال السعدي: (أي: وجدها تطلُعُ على أناسٍ ليس لهم سِترٌ مِن الشَّمسِ؛ إمَّا لعدَمِ استعدادِهم في المساكِنِ؛ وذلك لزيادة همجيَّتِهم وتوحُّشِهم، وعَدَمِ تَمدُّنهم، وإمَّا لكون الشَّمسِ دائمةً عندهم، لا تغرُبُ عنهم غروبًا يُذكَرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

وقال ابن عثيمين: (تَطلُعُ على قَومٍ ليس عندهم بناءٌ، ولا أشجارٌ ظَليلةٌ ولا دُورٌ ولا قصورٌ، وبعضُ العلماءِ بالغَ حتى قال: وليس عليهم ثيابٌ؛ لأنَّ الثيابَ فيها نوعٌ مِن السَّترِ. المهمُّ أنَّ الشَّمسَ تَحرِقُهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

وممن ذكَر أنَّهم قومٌ عراةٌ، لا لباسَ لهم: السمرقندي، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) اختَلَف المفسِّرونَ في المشَبَّهِ به، والمشارِ إليه في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فقيل: متعلقٌ بـ﴿أَتْبَعَ﴾ فيكونُ المعنى: ثم أتبَع سببًا، حتى بلَغ مطلعَ الشمسِ، كما أتبَع سببًا حتَّى بلَغ مغربَها. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٥).

وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: كما بلَغ مغربَ الشمسِ، كذلك بلَغ مطلعَها. وممن اختاره: السمرقندي، والرسعني، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧٦).

وأسبابِ المُلكِ والقُوَّة، فلم يخْفَ علينا شيءٌ مِن ذلك[1].

وقيل: المعنى: كما حكَم في القومِ الذين هم عندَ مغربِ الشمسِ، كذلك حكَم في الذين هم عندَ مطلعِ الشمسِ. وممن قال به: البغوي، وابنُ عطية، والعليمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢١٦).

وقيل: المعنى: كذلك أمرُ ذي القرنين هو كما وصفناه لكم. وممن قال بذلك في الجملةِ: الزمخشري، وأبو السعود، والبقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٢-١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اختلَفوا في المشَبَّهِ به، والمشارِ إليه، فقال الزجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ: وجَدَها تطلُعُ على قومٍ كذلك القَبيلِ الذين كانوا عند مغربِ الشَّمسِ، وأنَّ حُكْمَهم حُكمُ أولئك. وقال غيره: المعنى: كما بلَغ مغربَ الشَّمسِ، فكذلك بلغ مَطلِعَها. وقيل: أتبَعَ سببًا كما أتبَعَ سَببًا. والقولُ ما قاله أبو إسحاقَ [الزجَّاج]؛ لأنَّ التَّشبيهَ بالكافِ يجِبُ أن يرجِعَ إلى أقرَبِ المذكورِ إليه، والأقرَبُ وجودُ القَومِ لا البلوغُ والإتباعُ). ((البسيط)) (١٤/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠).

وممن اختار هذا المعنى لقولِه تعالى: ﴿أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ في الجملة: البغوي، وابنُ الجوزي، والبيضاوي، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

قال البيضاوي: (﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنودِ والآلاتِ والعُدَدِ والأسبابِ ﴿خُبْرًا﴾ عِلمًا تعَلَّقَ بظواهِرِه وخفاياه، والمرادُ: أنَّ كثرةَ ذلك بلَغت مبلغًا لا يُحيطُ به إلَّا عِلمُ اللَّطيفِ الخبيرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢).

وقيل: المعنى: وقد أحَطْنا بما عند مَطلِعِ الشَّمسِ عِلمًا، لا يخفى علينا مِمَّا هنالك من الخَلقِ وأحوالِهم وأسبابِهم، ولا مِن غَيرِهم؛ شيءٌ. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: الاعتبارُ بتخليدِ جميلِ الثَّناءِ، وجليلِ الآثارِ؛ فإنَّ مَن أنعَمَ النَّظَرَ فيما قُصَّ عنه في هذه الآياتِ الكريمةِ يتَّضِحُ له جَليًّا حُسنُ سجاياه، وسموُّ مزاياه: من الشَّجاعةِ، وعلوِّ الهِمَّةِ، والعِفَّةِ، والعدلِ، ودأبِه على توطيدِ الأمنِ، وإثابتِه المحسنينَ، وتأديبِه للظَّالمينَ، والإحسانِ إلى النَّوعِ البشري، لا سيَّما في زمانٍ كان فيه أكثَرُ عوائِدِ وأخلاقِ الأُمَمِ -المتمَدِّنةِ وغيرِ المتمَدِّنةِ- وحشيةً فاسدةً[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ الاعتبارُ برفعِ الله بعضَ النَّاسِ دَرَجاتٍ على بَعضٍ، ورِزقِه من يشاءُ بغيرِ حِسابٍ -مُلكًا ومالًا- لِما له مِن خَفِيِّ الحِكَمِ، وباهِرِ القُدرةِ، فلا إلهَ سِواه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ الإشارةُ إلى القيامِ بالأسبابِ، والجري وراءَ سُنَّةِ الله في الكَونِ مِن الجِدِّ والعَمَلِ، وأنَّ على قَدْرِ بَذلِ الجُهدِ يكونُ الفوزُ والظَّفَرُ؛ فإنَّ ما قُصَّ عن ذي القرنينِ مِن ضَرْبِه في

ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٤).

وقيل: معناه: وقد علِمْنا حينَ ملَّكناه ما عندَه مِن الصلاحيةِ بذلك الملكِ، والاستقلالِ به، والقيامِ بأمرِه. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٧).

الأرضِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ ومَطلعِها وشِمالها، وعَدَمِ فُتورِه، ووجدانِه اللذَّةَ في مواصلةِ الأسفارِ، وتجَشُّمِ الأخطارِ، وركوبِ الأوعارِ والبِحارِ؛ ثمَّ إحرازِه ذلك الفَخارَ -الذي لا يُشَقُّ له غُبارٌ- أكبَرُ عبرةٍ لأولي الأبصارِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ تنشيطُ الهِمَمِ لرَفعِ العوائِقِ، وأنَّه ما تيسَّرَت الأسبابُ فلا ينبغي أن يُعَدَّ ركوبُ البَحرِ ولا اجتيازُ القَفرِ عُذرًا في الخُمولِ والرِّضا بالدُّونِ! بل ينبغي أن يَنشَطَ ويتمَثَّلَ في مرارتِه حَلاوةَ عُقباه من الرَّاحةِ والهناءِ، كما قضى ذو القَرنينِ عُمُرَه ولم يذُقْ إلَّا حلاوةَ الظَّفَرِ ولذَّةَ الانتصارِ؛ إذ لم يكُنْ مِن الذين تُقعِدُهم المصاعِبُ عن نَيلِ ما يبتغونَ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكۡرًا * وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرًا﴾ أنَّ مَن قدَرَ على أعدائِه وتمكَّن منهم؛ فلا ينبغي له أن تُسكِرَه لذَّةُ السُّلطةِ بسَوقِهم بعَصا الإذلالِ، وتجريعِهم غُصَصَ الاستعبادِ والنَّكالِ! بل يعامِلُ المحسِنَ بإحسانِه، والمسيءَ بقَدرِ إساءتِه؛ فإنَّ ما حُكِيَ عن ذي القرنينِ مِن قَولِه هو نهايةٌ في العدلِ، وغايةٌ في الإنصافِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ قَولُه: ﴿مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ تنبيهٌ على أنَّ أحوالَه وأخبارَه كَثيرةٌ، وأنَّهم إنَّما يُهِمُّهم بعضُ أحوالِه المُفيدةِ ذِكرًا وعِظةً؛ ولذلك لم يقُلْ في قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ: نحن نقُصُّ

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٨).

عليك مِن نَبَئِهم؛ لأنَّ قِصَّتَهم مُنحَصِرةٌ فيما ذُكِرَ، وأحوالَ ذي القرنَينِ غَيرُ مُنحَصِرةٍ فيما ذُكِرَ هنا(١).

٢- والأمرُ في قولِه: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ إذْنٌ مِن اللهِ لرَسولِه بأن يَعِدَ بالجَوابِ عن سُؤالِهم؛ عَملًا بقولِه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] على أحَدِ تأويلَينِ في مَعناه(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ جعل خبَرَ ذي القَرنَينِ تِلاوةً وذِكرًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهِمَّ مِن أخبارِه ما فيه تذكيرٌ، وما يَصلُحُ لأن يكونَ تلاوةً حَسَب شأنِ القُرآنِ، فإنَّه يُتلَى لأجلِ الذِّكرِ، ولا يُساقُ مَساقَ القَصَصِ(٣)، لذا لم يتَجاوَزِ القرآنُ ذِكْرَ هذا الرَّجلِ بأكثرَ مِن لقَبه المشتهِرِ به إلى تعيينِ اسمِه وبلادِه وقومِه؛ لأنَّ ذلك مِن شُؤونِ أهلِ التَّاريخِ والقَصصِ، وليس مِن أغراضِ القرآنِ؛ فكان مِنه الاقتصارُ على ما يُفيدُ الأُمَّةَ مِن هذه القِصَّةِ عِبرةً حُكميَّةً أو خُلقيَّةً؛ فلِذلك قال الله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ افتِتاحُ هذه القِصَّةِ بـ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يدُلُّ على أنَّها مِمَّا نزلت السُّورةُ للجوابِ عنه، كما كان الابتداءُ بقِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ اقتِضابًا؛ تنبيهًا على مِثلِ ذلك(٥).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧).

أي: استعمَلَها على وَجهِها؛ فليس كلُّ مَن عندَه شَيءٌ مِن الأسبابِ يَسلُكُه، ولا كُلُّ أحدٍ يكونُ قادِرًا على السَّبَبِ، فإذا اجتمع القُدرةُ على السَّبَبِ الحقيقيِّ والعَمَلُ به، حصل المقصودُ، وإن عَدِما أو أحدُهما، لم يَحصُلْ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ أنَّه لا حرجَ أن يُخبِرَ الإنسانُ عن الشَّيءِ الذي تراه عيناه بحَسَبِ ما رآه؛ فمعلومٌ أنَّ الشَّمسَ تغرُبُ في هذه العَينِ الحَمِئةِ حَسَبَ رؤيةِ الإنسانِ؛ وإلَّا فهي أكبَرُ مِن الأرضِ، وأكبَرُ من هذه العَينِ الحَمِئةِ[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ❁ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ❁ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ فوعَدَ الظَّالِمَ بأمرَينِ: أنَّه يُعذِّبُه، وأنَّه يُرَدُّ إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا نُكرًا، والمؤمِنُ وَعَده بأمرينِ: بأنَّ له الحُسنَى، وأنَّه يُعامِلُه بما فيه اليُسرُ والسُّهولةُ، لكِنْ تأمَّلْ في حالِ المشركِ؛ بدأ بتعذيبِه ثم ثَنَّى بتعذيبِ الله، والمؤمنُ بدأ بثوابِ اللهِ أولًا، ثمَّ بالمعاملةِ باليُسْرِ ثانيًا، والفرقُ ظاهرٌ؛ لأنَّ مقصودَ المؤمنِ الوصولُ إلى الجنَّةِ، والوصولُ إلى الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّه أفضَلُ وأحَبُّ إليه مِن أن يُقالَ له قَولٌ يُسْرٌ، وأمَّا الكافرُ فعذابُ الدُّنيا سابقٌ على عذابِ الآخرةِ وأيسرُ منه؛ فبدأ به، وأيضًا فالكافرُ يخافُ مِن عذابِ الدُّنيا أكثرَ مِن عذابِ الآخرةِ؛ لأنَّه لا يؤمِنُ بالثَّاني[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذْ إنَّ المرادَ بالسُّؤالِ عن ذي القَرنينِ السُّؤالُ عن خبَرِه، فحذَف المضافَ إيجازًا؛ لِدَلالةِ المَقامِ[١].

- والتعبيرُ بصِيغةِ الاستِقْبالِ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِهم على ذلك إلى وُرودِ الجوابِ[٢].

- قولُه: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ السِّينُ للتَّأكيدِ في ﴿سَأَتْلُوا۟﴾، والدَّلالةِ على التَّحقيقِ المناسِبِ لِمَقامِ تأييدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتَصديقِه، بإنْجازِ وعْدِه، أي: لا أترُكُ التِّلاوةَ البَتَّةَ، لا الدَّلالةِ على أنَّ التِّلاوةَ ستَقَعُ فيما يُستقبَلُ كما قيل؛ لأنَّ هذه الآيةَ ما نزَلَتْ بانفِرادِها قبلَ الوحيِ بتَمامِ القصَّةِ، بل موصولةً بما بَعدَها[٣]. والسِّينُ في قولِه: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ لتحقيقِ الوَعدِ[٤].

- قولُه: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه إيجازٌ بحَذفِ المضافِ، أي: مِن خبَرِه، و(مِن) تبعيضيَّةٌ، والذِّكْرُ: التَّذكُّرُ والتَّفكُّرُ، أي: سأتْلو علَيكم ما به التَّذكُّرُ؛ فجعَل المتلُوَّ نفْسَه ذِكرًا مُبالَغةً بالوصفِ بالمصدَرِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾

- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: مكَّنَّا له أمْرَه مِن التَّصرُّفِ فيها كيف شاء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧-١٨).

فحذَف المفعولَ(١).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّوكيدِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

- قوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ تنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ يُؤذِنُ بأنَّهم أمَّةٌ غيرُ مَعروفةٍ ولا مألوفةٍ حالةُ عَقائدِهم وسيرتِهم(٣).

- قولُه: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِما أشعَرَ به تنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ مِن إثارةِ سؤالٍ عن حالِهم وعمَّا لاقاه بهم ذو القرنَين(٤).

- قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قيل: إنَّه كنايةٌ عن تمكينِه تعالى له منهم، لا أنَّه قولُ مشافهةٍ(٥).

- قولُه: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، فيه إيجازٌ بحذفِ المُضافِ، أي: أمرًا ذا حُسْنٍ؛ على حَذْفِ المضافِ، أو على طَريقةِ إطلاقِ المصدَرِ على مَوصوفِه مُبالَغةً؛ وذلك بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ، والإرشادِ إلى الشَّرائعِ(٦).

- قولُه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يَجوزُ أن يَكونَ (إمَّا) و(إمَّا) للتَّقسيمِ دونَ التَّخييرِ، أي: لِيَكُنْ شأنُك معَهم إمَّا التَّعذيبَ وإمَّا الإحسانَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٢).

فالأوَّلُ لِمَن أصَرَّ على الكُفرِ، والثَّاني لِمَن تاب عنه[١].

- قولُه: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾، أي: إمَّا أن تُكفِّرَ فتُعذِّبَ، وإمَّا أن تُؤمِّنَ فتُحسِنَ؛ فعبَّر في التَّخْييرِ بالمسبَّبِ عن السَّببِ[٢].

- و﴿حُسۡنٗا﴾ مصدرٌ، وعدَل عن (أن تُحسِنَ إليهم) إلى ﴿أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ مُبالَغةً في الإحسانِ إليهم حتَّى جُعِل كأنَّه اتَّخَذ فيهم نفْسَ الحُسْنِ، وفي هذه المبالَغةِ تَلْقينٌ لاخْتيارِ أحَدِ الأمرَينِ المخيَّرِ بينَهما[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ اجتِلابُ حرفِ الاستِقْبالِ والتَّنفيسِ (سوف) يُشيرُ إلى أنَّه سيَدْعوه إلى الإيمانِ، فإنْ أصَرَّ على الكُفرِ يُعذِّبُه؛ فأَتى بحَرفِ التَّنفيسِ؛ لِمَا يُتخَلَّلُ بين إظهارِه كُفْرَه وبين تَعذيبِه، مِن دُعائِه إلى الإيمانِ وتأبِّيه عنه؛ فهو لا يُعاجِلُهم بالقَتلِ على ظُلمِهم، بل يَدْعُوهم ويُذَكِّرُهم، فإنْ رجَعوا وإلَّا فالقَتلُ. وقد صرَّح بهذا المفهومِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، أي: آمَن بعدَ كُفرِه. ولا يَجوزُ أن يَكونَ المرادُ مَن هو مُؤمِنٌ الآنَ؛ لأنَّ التَّخييرَ بينَ تَعذيبِهم، واتِّخاذِ الإمهالِ معَهم؛ يَمنَعُ أن يَكونَ فيهم مؤمِنون حينَ التَّخْييرِ. وأتى بنُون العظَمةِ في ﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾ على عادةِ المُلوكِ في قولِهم: (نحن فعَلْنا)[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦-٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

- وما أحسَنَ مَجيءَ هذه الجُمَلِ! لَمَّا ذكَر ما يَستحِقُّه مِن ظُلمٍ بدَأ بما هو أقرَبُ لهم ومَحسوسٌ عِندَهم، وهو قولُه: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، ثمَّ أخبَر بما يَلحَقُه آخِرًا يومَ القيامةِ، وهو تعذيبُ اللهِ إيَّاه العذابَ النُّكْرَ، ولأنَّ التَّرتيبَ الواقِعَ هو كذا[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

- قولُه: ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿جَزَآءً﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ؛ قُدِّمَ على المبتدَأِ اعتِناءً به[(٢)].

- وتأنيثُ الحُسْنى باعتِبارِ الخَصْلةِ أو الفَعْلةِ. ويَجوزُ أن تَكونَ الحُسْنى هي الجَنَّةَ كما في قولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فإن كان المرادُ مِن الحُسنى الخِصالَ الحُسْنى، فمَعنى عَطْفِ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أنَّه يُجازي بالإحسانِ وبالثَّناءِ، وكِلاهُما مِن ذي القَرْنين، وإنْ كان المرادُ مِن الحُسْنى ثوابَ الآخِرةِ فذلك مِن أمرِ اللهِ تعالى، وإنَّما ذو القَرنَين مخبِرٌ به خبرًا مُستعمَلًا في فائدةِ الخبرِ، على معنى: إنَّا نُبشِّرُه بذلك، أو مُستعمَلًا في لازِمِ الفائدةِ تأدُّبًا مع اللهِ تعالى، أي: أنِّي أعلَمُ جَزاءَه عِندَك الحُسْنى. وعُطِف عليه: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾؛ لبيانِ حَظِّ الملِكِ مِن جَزائِه، وأنَّه البِشارةُ والثَّناءُ[(٣)].

- قولُه: ﴿يُسْرًا﴾ أُطلِق عليه المصدرُ؛ مُبالَغةً[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٣).

- وما أحسَنَ مَجيءَ هذه الجُمَلِ! لَمَّا ذكَر ما يَستحِقُّه مَن آمَنَ وعَمِل صالِحًا، ذكَر جَزاءَ اللهِ له في الآخِرةِ وهو الحُسْنى، أي: الجَنَّةُ؛ لأنَّ طمَعَ المؤمِنِ في الآخِرةِ ورَجاءَه هو الَّذي حمَلَه على أنْ آمَن؛ لأجْلِ جَزائِه في الآخرةِ، وهو عَظيمٌ بالنِّسبةِ للإحسانِ في الدُّنْيا، ثمَّ أتبَعَ ذلك بإحسانِه له في الدُّنيا، بقولِه: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾، ولَمَّا ذكَر ما أعَدَّ اللهُ له مِن الحُسْنى جَزاءً لم يُناسِبْ أن يَذكُرَ جَزاءَه بالفِعْلِ، بل اقتَصر على القولِ؛ أدَبًا مع اللهِ تعالى، وإن كان يَعلَمُ أنه يُحسِنُ إليه فِعلًا وقولًا[(١)].

٦- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّشبيهِ، والمشبَّهُ به شيءٌ تضَمَّنه الكلامُ السَّابقُ بلَفظِه أو مَعْناه، ويجوزُ أن يكونَ صِفةً لـ﴿قَوۡمٗا﴾، أي: قومًا كذلكَ القومِ الَّذين وجَدَهم في مَغرِبِ الشَّمسِ، أي: في كَونِهم كُفَّارًا، وفي تَخييرِه في إجراءِ أمْرِهم على العقابِ أو على الإمْهالِ. ويَجوزُ أن يكونَ المجرورُ جُزءَ جملةٍ أيضًا جُلِبَت للانتقالِ مِن كلامٍ إلى كلامٍ يَكونُ فَصْلَ خِطابٍ، كما يُقال: هذا الأمرُ كذا. وعلى الوُجوهِ كُلِّها فهو اعتراضٌ بينَ جُملةِ: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ ...﴾، إلخ، وجُملةِ: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ...﴾ [الكهف: ٩٢، ٩٣]، إلخ[(٢)]. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أمْرُ ذي القرنَيْن كذَلِك، أي: كما وصَفْناه؛ تَعظيمًا لأمرِه[(٣)]. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مَعْناه: فَعَل معَهم كفِعْلِه مع الأوَّلين أهْلِ المغرِبِ، وأخبَر

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٥-٧٤٦).

بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثمَّ أخبَر تعالى عن إحاطتِه بجَميعِ ما لَدى ذي القرنَيْن وما تَصرَّف فيه مِن أفعالِه. ويَحتمِلُ أن يكونَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ استئنافَ قولٍ، ولا يَكونَ راجِعًا على الطَّائفةِ الأُولى[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٤).

الآيات (٩٢-٩٨)

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾: أي: الجَبَلين، وأصلُ (سدد): يدُلُّ على رَدمِ شَيءٍ ومُلاءمتِه(١).

﴿خَرْجًا﴾: أي: جُعْلًا وأجرًا، وأصلُ (خرج): يدُلُّ على النَّفاذِ عن الشَّيءِ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطي(٢).

﴿رَدْمًا﴾: أي: حاجِزًا حَصينًا، وأصلُ (ردم): يدلُّ على سدِّ الثُّلمةِ (أي: الفراغِ، أو: الشقِّ)(٣).

﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾: أي: قِطَعَه الضَّخمةَ العَظيمةَ، واحِدُها: زُبْرةٌ، وأصلُ (زبر):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨-٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

يدُلُّ على الاجتِماعِ؛ لأنَّ الزُّبرةَ جملةٌ مُجتَمِعةٌ مِن الحديدِ[١].

﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾: أي: ناحِيَتي الجبَل، أو: ما بين النَّاحِيَتينِ مِن الجَبَلينِ، وأصلُ (صدف): يدُلُّ على المَيلِ[٢].

﴿أُفۡرِغۡ﴾: أي: أصُبَّ، يُقالُ: أفرغْتُ الدَّلْوَ: أي: صببْتُ ما فيه، وأصلُ (فرغ): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسَعَةِ ذَرْعٍ[٣].

﴿قِطۡرٗا﴾: أي: نُحاسًا ذائبًا، وأصلُه مِن القَطْرِ؛ وذلك أنَّه إذا أُذيبَ قَطَر كما يَقطُرُ الماءُ[٤].

﴿يَظۡهَرُوهُ﴾: أي: يَعلُوه ويتسَوَّروه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على بُروزٍ[٥].

﴿نَقۡبٗا﴾: ثَقبًا وخَرقًا، وأصلُ (نقب): يدُلُّ على فَتحٍ في شَيءٍ[٦].

﴿دَكَّآءَ﴾: أي: مَدكوكًا مُستويًا مع وجهِ الأرضِ، وأصلُ (دكك): يدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٤٨)، (١١/ ٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٩، ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

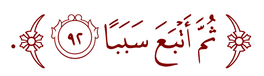
(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ثمَّ سار ذو القرنينِ آخِذًا بالطُّرُقِ والأسبابِ التي منَحْناها إيَّاه، حتى إذا وصل مَوضِعًا بين جبَلَينِ، وجَدَ مِن دونِهما قومًا لا يكادونَ يَعرِفونَ كَلامَ غَيرِهم. قالوا: يا ذا القَرنَينِ، إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفسِدونَ في الأرضِ بالقَتلِ والنَّهبِ وغيرِ ذلك، فهل نجعَلُ لك أُجرةً أو جُعْلًا على أن تجعَلَ بيننا وبينهم حاجِزًا يمنَعُهم مِن الوصولِ إلينا؟ قال ذو القَرنَينِ: ما أعطانيه رَبِّي مِن التَّمكينِ والمُلكِ والعلمِ والمالِ: خَيرٌ لي مِن مالِكم، فأعينوني بِرجالٍ أقوياءَ منكم أجعَلْ بينكم وبينهم سَدًّا مَنيعًا؛ أعطوني وناولوني قِطَعَ الحَديدِ الضَّخمةَ، فلما جاؤُوه بها وحاذَوا بها جانِبَي الجَبَلينِ، قال لهم: انفُخوا في النَّار، حتى إذا صار الحديدُ كُلُّه نارًا، قال: أعطوني نُحاسًا أَصُبَّه عليه، فما استطاعت يأجوجُ ومأجوجُ أن تصعَدَ فَوقَ السَّدِّ؛ لارتِفاعِه ومَلاستِه، وما استَطاعوا أن يَخرِقوا فيه خَرقًا مِن أسفَلِه؛ لإحكامِ بنائِه، وقُوَّتِه. قال ذو القرنَينِ: هذا الحاجِزُ الذي بَنَيتُه بينكم وبين يأجوجَ ومأجوجَ؛ رَحمةٌ مِن رَبِّي بالنَّاسِ، فإذا جاء وعدُ رَبِّي بخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ، جعلَ اللهُ هذا الحاجِزَ مُنهَدِمًا مُستويًا بالأرضِ، وكان وَعدُ رَبِّي حقًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:


﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢﴾.

أي: ثمَّ سار ذو القَرنَينِ في طريقٍ ثالثٍ آخِذًا بالأسبابِ والوسائِلِ؛ لِيَبلُغَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

الجِهةَ التي يُريدُها[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾.

أي: سار إلى أن بلَغَ مَوضِعًا بين جبَلَينِ[2].

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يُفْقِهُونَ﴾ بضَمِّ الياءِ، وكَسرِ القافِ، أي: لا يَكادونَ يُفهِمونَ أحدًا إذا نَطَقوا[3].

٢- قِراءةُ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ بفَتحِ الياءِ والقافِ، أي: لا يَكادونَ يَفهمونَ ما يُقالُ لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٠).

قال البقاعي: (﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ﴾ في إرادتِه ناحيةَ السَّدِّ مَخرج يأجوجَ ومأجوجَ ﴿سَبَبًا﴾ مِن جِهةِ الشِّمالِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣٣).

وقال ابن عاشور: (يظهَرُ أنَّ هذا السَّبَبَ اتَّجَه به إلى جِهةٍ غيرِ جِهتَي المغربِ والمَشرِقِ، فيُحتَمَل أنَّها الشِّمالُ أو الجَنوب). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٥).

(٣) قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٢٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٧٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٣٢).

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

أي: وجد ذو القرنين مِن دُونِ الجبَلَينِ[١] قومًا لا يَكادونَ يَفهمونَ ما يُقالُ لهم بغيرِ لُغتِهم[٢].

﴿قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: قال أولئك القَومُ: يا ذا القَرنَينِ، إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ[٣] يَخرُجونَ مِن بينِ

قال ابنُ جرير: (القومُ الذين أخبَرَ الله عنهم هذا الخبَرَ جائِزٌ أن يكونوا لا يَكادونَ يَفقَهونَ قَولًا لِغَيرِهم عنهم، فيكونُ صوابًا القراءةُ بذلك، وجائِزٌ أن يكونوا مع كَونِهم كذلك كانوا لا يَكادونَ أن يُفقِهوا غَيرَهم لعِلَلٍ: إما بألسِنَتِهم، وإمَّا بمَنطِقِهم، فتكونُ القراءةُ بذلك أيضًا صوابًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٨).

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (الضميرُ في ﴿دُونِهِمَا﴾ عائِدٌ على الجبَلَينِ، أي: وجَدَهم في الناحيةِ التي تلي عمارةَ النَّاسِ إلى المغرِبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١).

وقال البقاعي: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: بقُربِهما من الجانِبِ الذي هو أدنَى منهما إلى الجِهةِ التي أتَى منها ذو القَرنَينِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٥٥).

قال ابن عاشور: (وقرأ الجُمهورُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ -بفتحِ الياءِ التَّحتيَّةِ وفتحِ القافِ- أي: لا يفهمونَ قولَ غيرِهم. وقرَأ حمزةُ، والكسائيُّ -بضمِّ الياءِ وكسرِ القافِ- أي: لا يستطيعونَ إفهامَ غيرِهم قولَهم. والمعنيانِ متلازِمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢).

(٣) قال ابنُ جرير: (هم أمَّتانِ مِن وراءِ السدِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (هاتان قبيلتانِ مِن بني آدَمَ، كما صحَّ ذلك عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وبهذا نعرِفُ خطأَ من قال: إنهم ليسوا على شَكلِ الآدميِّينَ، وأنَّ بَعضَهم في غايةِ ما يكونُ مِن القِصَرِ، وبعضَهم في غايةِ ما يكونُ مِن الطولِ، وأنَّ بَعضَهم له أذنٌ يَفتَرِشُها، وأذنٌ يلتَحِفُ بها،

السَّدَّينِ، فيُفسِدونَ في أرضِنا بالقَتلِ والنَّهبِ والتَّخريبِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإفسادِ(١).

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدَمُ، فيقولُ: لبَّيك وسَعدَيك(٢)، والخيرُ في يَدَيك، فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ(٣)، قال: وما بَعثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتِسعةً وتسعينَ! فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَملٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارى وما هم بسُكارى، ولكِنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ! قالوا: يا رسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟! قال: أبشِروا؛ فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا. ثمَّ قال: والذي نَفسي بِيَدِه، إنِّي أرجو أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّة! فكَبَّرْنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ! فكَبَّرْنا، فقال: أرجو أن تكونوا نِصفَ أهلِ

وما أشبهَ ذلك، كلُّ هذا مِن خرافاتِ بني إسرائيل! ولا يجوزُ أن نصَدِّقَه، بل يقال: إنَّهم من بني آدمَ، لكِنْ قد يختلِفونَ كما يختَلِفُ النَّاسُ في البيئاتِ، فتَجِدُ أهلَ خَطِّ الاستواء بيئتُهم غيرُ بيئةِ الشَّماليِّينَ، فكُلٌّ له بيئةٌ، الشرقيُّون الآن يختَلِفونَ عن أهل وَسَطِ الكرةِ الأرضيَّة، فهذا ربما يختَلِفونَ فيه، أمَّا أن يختَلِفوا اختِلافًا فادِحًا كما يُذكَرُ، فهذا ليس بصَحيحٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣١-١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أن المعنى: إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ سيُفسِدونَ في الأرضِ، ولم يقَعْ منهم إفسادٌ في الأرضِ، وإنما ذلك سيكونُ في آخِرِ الزَّمانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠١).

(٢) لبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دوامٍ، وأقيمُ على طاعتِك إقامةً بعد إقامةٍ، من: ألبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسعديك: أي: ساعدتُ طاعتَك يا ربِّ مساعدةً بعد مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٣) بَعْثَ النَّارِ: أي: المبعوثَ إليها من أهلِها، وهو من بابِ تسميةِ المفعولِ بالمصدرِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٣٨).

الجنَّةِ! فكَبَّرْنا، فقال: ما أنتم في النَّاسِ إلَّا كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جِلدِ ثَورٍ أبيَضَ، أو كشَعرةٍ بَيضاءَ في جِلدِ ثَورٍ أسوَدَ!))[١].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿خَرَاجًا﴾ بألِفٍ، وهو الذي يُؤخَذُ على الأرضِ في كُلِّ عامٍ مِنَ الضرائِبِ، فكأنَّهم قالوا: فهل نجعَلُ لك أجرةً مَعلومةً نُؤدِّيها إليك كلَّ سَنةٍ، على أن تبنيَ بيننا وبينهم سدًّا[٢]؟

٢- قراءةُ ﴿خَرْجًا﴾ بغيرِ ألِفٍ، أي: جُعْلًا، فكأنَّهم قالوا: نجعَلُ لك جُعْلًا ندفَعُه إليك الآن مِن أموالِنا مَرَّةً واحِدةً، على أن تبنيَ بيننا وبينهم سَدًّا؟ وقيل: الخرجُ والخراجُ بمعنًى واحدٍ[٣].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

أي: فهل نجعَلُ لك -يا ذا القَرنَينِ- أُجرةً أو جُعلًا مِن أموالِنا على أن تبنيَ لنا حاجِزًا بيننا وبين يأجُوجَ ومأجوجَ، فلا يُمكِنَهم الوصولُ إلينا[٤]؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٧٧-٧٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ: الذي بَسَطَه لي ربِّي مِن المُلكِ والعِلمِ، والقُوَّةِ والقُدرةِ والأموالِ؛ خَيرٌ مِن المالِ الذي تَعرِضونَه عليَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ: فأعينُوني بِرِجالٍ أقوياءَ يُحسِنونَ العَمَلَ، وبآلاتٍ للبناءِ؛ أجعَلْ بينكم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ حاجِزًا مَنيعًا وقَويًّا(٢).

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ للقَومِ الذين سألوه بناءَ السَّدِّ: أعطوني قِطَعَ الحَديدِ الضَّخمةَ وناوِلونيها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٤).

قال الواحدي: (الردمُ: سَدُّ البابِ والثُّلمةِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٦٧).

وقال النحاس: (الرَّدمُ في اللغة أكثَرُ مِن السَّدِّ؛ لأنه شيءٌ مُتكاثِفٌ بَعضُه على بعضٍ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْ﴾.

أي: فلمَّا جاؤوه بقِطَعِ الحَديدِ الكَبيرةِ، وغطَّى بها ذو القَرنَينِ المَنفَذَ بينَ الجبَلَينِ حتَّى حاذَى بذلك البناءِ رُؤوسَهما؛ قال للعُمَّالِ: انفُخوا النَّارَ بالآلاتِ على قِطَعِ الحديدِ[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾.

أي: فنَفَخوا حتى جعل ذو القَرنَينِ الحديدَ نارًا، فقال: أعطوني نُحاسًا ذائِبًا أَصُبَّه على الحديدِ المُحْمَى[2].

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾.

قولُه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ لا ينافي ردَّ خراجِهم؛ لأنَّ المرادَ مِن الإيتاءِ المأمورِ به: الإيتاءُ بالثمنِ أو مجردِ المناولةِ والإيصالِ، لا الخَراجِ على العملِ، ولأنَّ إيتاءَ الآلةِ مِن قبيلِ الإعانةِ بالقوةِ، وعلى تسليمِ كونِ الإيتاءِ بمعنَى الإعطاءِ لا المناولةِ يقالُ: إنَّ إعطاءَ الآلةِ للعملِ لا يلزمُه تملكُها. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦١).

قال القرطبي: (أمَرهم بنَقْلِ الآلةِ، وهذا كلُّه إنَّما هو استدعاءُ العطِيَّةِ الَّتي بغيرِ معنَى الهبةِ، وإنَّما هو استدعاءٌ للمناولةِ، لأنَّه قد ارتبَط مِنْ قولِه: أنَّه لا يأخذُ منهم الخرجَ، فلم يَبْقَ إلَّا استدعاءُ المناولةِ، وأعمالُ الأبدانِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٦، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٤).

قال الواحدي: (الصَّدَفانِ: الجَبلانِ، في قولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٥٨٩).

قال القرطبي: (والقِطرُ عندَ أكثرِ المفَسِّرينَ: النُّحاسُ المذابُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢).

أي: ففَعَلوا ذلك، فاختَلَط والتصَقَ بعضُه ببعضٍ، وصار حاجِزًا صَلْدًا مَنيعًا، واستحكَمَ استحكامًا هائلًا، فلم يَقدِرْ يأجوجُ ومأجوجُ على صعودِ ذلك الرَّدمِ فيَنزِلوا منه على النَّاسِ؛ لارتفاعِه ومَلاستِه، فهو مُستَوٍ مع الجَبَلِ، والجبَلُ عالٍ لا يُرامُ[1].

﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾.

أي: ولم يَقْدِروا على خَرقِ ذلك الرَّدمِ مِن أسفَلِه خَرقًا يَنفُذُ بهم إلى الجِهةِ الأُخرى؛ وذلك لإحكامِ بنائِه، وصَلابتِه وشِدَّتِه[2].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيَحفِرونَ السَّدَّ كُلَّ يومٍ[3]، حتى إذا كادُوا يَرَونَ شُعاعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٧)، ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

(٣) قال ابن كثير: (في رَفعِه نَكارةٌ؛ لأنَّ ظاهِرَ الآية يقتضي أنَّهم لم يتمَكَّنوا من ارتقائِه ولا من نَقْبِه؛ لإحكامِ بنائِه وصلابتِه وشِدَّتِه... ولعَلَّ أبا هريرة تلقَّاه من كعبٍ؛ فإنَّه كان كثيرًا ما كان يجالِسُه ويحَدِّثُه، فحَدَّث به أبو هريرةَ، فتوهَّم بعضُ الرواةِ عنه أنَّه مرفوعٌ فرفَعَه. والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٨).

وقال أيضًا: (إن لم يكُنْ رفْعُ هذا الحديث محفوظًا، وإنما هو مأخوذٌ عن كعبِ الأحبارِ-كما قاله بعضُهم- فقد استرحنا من المؤونة، وإن كان محفوظًا فيكونُ محمولًا على أنَّ صنيعَهم هذا يكونُ في آخِرِ الزَّمانِ عند اقترابِ خُروجِهم، كما هو المرويُّ عن كعبِ الأحبار، أو يكونُ المراد بقوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ [الكهف: ٩٧] أي: نافِذًا منه، فلا ينفي أن يلحَسوه ولا ينفذوه. والله أعلم). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٥٥٩).

الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجِعوا فستَحفِرونَه غَدًا، فيَعودونَ إليه كأشَدِّ ما كان، حتى إذا بلَغَت مُدَّتُهم[1] وأراد اللهُ أن يبعَثَهم على النَّاسِ، حَفَروا، حتى إذا كادوا يَرَونَ شُعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجِعوا فستَحفِرونَه غدًا إن شاء اللهُ، ويَستَثني، فيعودونَ إليه وهو كهيئَتِه حين ترَكوه، فيَحفِرونَه ويَخرُجونَ على النَّاسِ، فيُنَشِّفونَ المياهَ، ويتحَصَّنُ النَّاسُ منهم في حُصونِهم، فيَرمُونَ بسِهامِهم إلى السَّماءِ، فترجِعُ وعليها كهيئةِ الدَّمِ! فيقولون: قَهَرْنا أهلَ الأرضِ، وعَلَونا أهلَ السَّماءِ، فيَبعَثُ الله عليهم نَغَفًا[2] في أقفائِهم فيَقتُلُهم بها، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: والذي نَفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، إنَّ دوابَّ الأرضِ لَتَسمَنُ وتَشكَرُ شَكَرًا[3] مِن لُحومِهم ودمائِهم))[4].

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾.

وقال الألباني: (الآيةُ لا تدُلُّ من قريبٍ ولا من بعيدٍ أنَّهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا، فالآيةُ تتحَدَّث عن الماضي، والحديثُ عن المستقبَلِ الآتي، فلا تنافيَ ولا نكارةَ، بل الحديثُ يتمشى تمامًا مع القرآنِ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣١٤).

(١) بلَغَت مُدَّتُهم: أي: أدركوا المدَّةَ التي قُدِّرَت لهم. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ٤٧٤).

(٢) نغفًا: النَّغفُ: دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبلِ والغنمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٣) وتَشكَرُ شَكَرًا: أَيْ: تسمَنُ وتمتلِئُ شحْمًا. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠)، وأحمد (١٠٦٣٢) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريب)، وأخرجه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٦٨٢٩)، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ١٩٤): (إسناده جيِّد قويٌّ، في رفعِه نَكارةٌ)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٣/ ١١٦): (رجاله رجالُ الصَّحيحِ إلَّا أنَّ قتادةَ مدَلِّس)، وذكَر أنَّه جاء في روايةٍ أخرى التَّصريحُ بالتحديثِ، وأنَّ له طريقًا آخرَ موقوفًا على أبي هريرةَ. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٠٨٠).

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

أي: قال ذو القَرنَينِ: هذا الرَّدمُ الذي مكَّنَني اللهُ مِن جَعْلِه حاجزًا بينَ يأجوجَ ومأجوجَ وبينَ الإفسادِ في الأرضِ؛ رَحمةٌ مِن رَبِّي بالنَّاسِ(١).

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾.

أي: فإذا جاء وعدُ رَبِّي الذي وقَّتَه لخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ مِن وَراءِ هذا الرَّدْمِ، جعَلَ اللهُ هذا الرَّدمَ مُنهَدِمًا مُستَويًا بالأرضِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٦).

قال الشنقيطي: (... فقولُكم: لو كانوا موجودينَ وراءَ السَّدِّ إلى الآن، لاطَّلعَ عليهم النَّاسُ- غيرُ صحيحٍ؛ لإمكانِ أن يكونوا موجودينَ، واللهُ يُخفي مكانَهم على عامَّةِ النَّاسِ، حتى يأتيَ الوقتُ المحَدَّد لإخراجِهم على النَّاسِ؛ وممَّا يؤيدُ إمكانَ هذا ما ذكره الله تعالى في سورة «المائدة» مِن أنَّه جعل بني إسرائيلَ يتيهونَ في الأرض أربعينَ سنةً، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] الآية، وهم في فراسِخَ قليلةٍ مِن الأرض، يمشونَ ليلَهم ونهارَهم، ولم يَطَّلِع عليهم الناسُ، حتى انتهى أمَدُ التِّيهِ؛ لأنَّهم لو اجتمعوا بالنَّاسِ لبَيَّنوا لهم الطريقَ، وعلى كلِّ حالٍ فربُّك فعَّالٌ لِما يريد، وأخبارُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الثابتةُ عنه صادِقةٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤٥).

وقال أيضًا: (اعلمْ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ، وآيةَ الأنبياءِ قد دَلَّتا في الجملةِ على أنَّ السَّدَّ الَّذي بَناه ذُو القرنينِ دونَ يأجوجَ ومأجوجَ إنَّما يجعلُه اللَّهُ دكًّا عندَ مجيءِ الوقتِ الموعودِ بذلك فيه، وقد دَلَّتا على أنَّه بقربِ يوم القيامةِ؛ لأنَّه قالَ هنا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الآيةَ [الكهف: ٩٨، ٩٩]...). ثمَّ ذكَر ما يدلُّ على ذلك مِن السنةِ الصحيحةِ، وأنَّ في بعضِ هذه الأحاديثِ: (تصريحَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: بأنَّ اللَّهَ يوحي إلى عيسى ابنِ مريمَ خروجَ يأجوجَ ومأجوجَ بعدَ قتلِه الدَّجَّالَ. فمَنْ يَدَّعي أنَّهم رُوسيَّةٌ، وأنَّ السَّدَّ قد انْدَكَّ منذُ زمانٍ، فهو مخالفٌ لِمَا أخبَرَ به النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مخالفةً صريحةً لا وجهَ

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ * وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [الأنبياء: ٩٦- ٩٧].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ الله عنها، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخَل عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيلٌ للعَرَب مِن شَرٍّ قد اقترَب؛ فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه -وحَلَّق بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رسولَ الله، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ[١]))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فُتِح اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه[٣] -وعقد بِيَدِه تِسعينَ[٤]))[٥].

وعن النوَّاسِ بنِ سِمعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((ذكَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ، فخَفَّض فيه ورَفَّع[٦]...))، وفيه: ((ثُمَّ يأتي عيسَى ابنَ مريمَ قومٌ قد عَصَمهم اللهُ منه، فيمسحُ عن وجوهِهم، ويحدِّثُهم بدرجاتِهم

لها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤١- ٣٤٤).

(١) الخَبَثُ: أي: الفُسوقُ والفُجورُ. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ٣٦٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦)، واللفظ له ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) قال الألباني: (وفي الحديثِ إشارةٌ قويَّةٌ إلى أنَّ السَّدَّ سيُفتَحُ مِن يأجوجَ ومأجوجَ يومَ يأذَنُ الله لهم بذلك؛ كما في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٨]، وقد جاء التَّصريحُ بالفتحِ المذكورِ في حديثٍ صَحيحٍ [وهو حديثُ أبي هريرةَ السَّابقُ قَريبًا]...، وفيه تفصيلُ الفَتحِ المشارِ إليه، وأنَّهم يَحفِرونَه، ويخرُجون على النَّاسِ). ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٧/ ٣٧).

(٤) عَقدُ التِّسعينَ مِن مُواضعاتِ الحِسابِ، وهو أن تجعَلَ رأسَ الأُصبَعِ السبَّابة في أصلِ الإبهامِ، وتضُمَّها حتى لا يَبينَ بينهما إلا خلَلٌ يسيرٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٦).

(٥) رواه البخاري (٣٣٤٧) ومسلم (٢٨٨١)، واللفظ له.

(٦) خَفَّض: أي: حَقَّره. رَفَّعَ: أي: عَظَّمَه وفخَّمَه. وقيل: خَفَّض مِن صوتِه بعدَ طُولِ الكلامِ والتَّعَبِ لِيَستريحَ، ثمَّ رفَعَ لِيَبلُغَ صَوتُه كُلَّ أحدٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٣).

في الجنَّةِ، فبينما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى: إنِّي قد أخرجتُ عِبادًا لي لا يدانِ[١] لأحَدٍ بقِتالِهم، فحرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ[٢]، ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ[٣]، فيمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَرِيَّةَ[٤] فيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ[٥] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خيرًا مِن مائةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ في رقابِهم، فيُصبِحونَ فَرسَى[٦] كمَوتِ نَفسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعَ شِبرٍ إلاَّ ملأه زَهَمُهم[٧] ونَتْنُهم، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى اللهِ، فيُرسِلُ اللهُ طيرًا كأعناقِ البُختِ[٨]، فتَحمِلُهم فتَطرَحُهم حيثُ شاء الله، ثم يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٩]،

---

(١) لا يدانِ: أي: لا قُدرةَ ولا طاقةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٣).

(٢) فحرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ: أي: ضُمَّهم إليه، واجعَلْه لهم حِرزًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٦٦).

(٣) يَنسِلونَ: أي: يَمشونَ مُسرِعينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٨).

(٤) بُحَيرة طَبَرِيَّة: هي نحوُ عشرةِ أميالٍ في ستةِ أميالٍ، وهي كالبركةِ تحيطُ بها الجبالُ، وطبريةُ بليدةٌ مطلَّةٌ على البحيرةِ، وهي مِن أعمالِ الأردن. يُنظر: ((مراصد الاطلاع)) للقطيعي (١/ ١٦٨)، و (٢/ ٨٧٨).

(٥) يُحصَرُ: أي: يُحبَسُ في جَبلِ الطُّورِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٣).

(٦) فرسى: أي: قتلى. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٧) زَهَمُهم: أي: رائحتُهم الكريهةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٨) البُخت: نوع من الإبلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٤).

(٩) مَدَرٍ ولا وبَرٍ: أي: المدن، والقُرى والبوادي، وهو من وَبَرِ الإبلِ: أي: شَعرِها؛ لأنَّهم كانوا يتَّخِذون منه ومِن نحوه خيامَهم غالبًا. والمَدَرُ جمعُ مَدرةٍ، وهي اللَّبِنةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦).

فيَغسِلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَفةِ(١)، ثمَّ يقالُ للأرضِ: أنبتي ثَمرتَكِ، ورُدِّي بركَتَكِ، فيَومئذٍ تأكُلُ العِصابةُ(٢) مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلون بقِحْفِها(٣)، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ(٤)، حتى إنَّ اللِّقْحةَ(٥) من الإبِلِ لتكفي الفِئامَ(٦) مِن النَّاسِ، واللِّقْحةَ من البَقَرِ لتكفي القبيلةَ مِن النَّاسِ، واللِّقْحةَ من الغَنَمِ لتكفي الفَخْذَ(٧) مِن النَّاسِ! فبينما هم كذلك إذ بعثَ اللهُ ريحًا طيِّبةً، فتأخُذُهم تحت آباطِهم، فتَقبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلِمٍ، ويبقى شِرارُ النَّاسِ يتهارَجونَ(٨) فيها تهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ))(٩).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ، ولَيُعتمَرَنَّ بعدَ خُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ))(١٠).

﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾.

أي: وكان وَعدُ اللهِ عِبادَه بخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ في آخرِ الزَّمانِ وغيرِ ذلك

---

(١) كالزَّلَفةِ: أي: كالمرآةِ في صفائِها ونظافتِها، وقيل: كمصانعِ الماءِ، أي: إنَّ الماءَ يستنقعُ فيها حتى تصيرَ كالمصنعِ الذي يجتمعُ فيه الماءُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٢) العصابةُ: أي: الجَماعةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٣) بقِحْفِها: أي بقِشرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٤) الرِّسْلِ: أي: اللَّبَنِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٥) اللِّقْحةَ: أي: النَّاقةَ الحَلوبةَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٦) الفِئامَ: أي: الجماعةَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٧) الفَخْذَ: بسكون الخاء المعجمة لا غير: جماعةٌ مِن الأقاربِ، وهم دون البطنِ، والبطنُ دونَ القبيلةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٨) يتهارجون: أي: يَختَلِطون ويتسافَدونَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٦).

(٩) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(١٠) رواه البخاري (١٥٩٣).

مِن وُعودِه، كائنًا لا محالةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ أنَّ على المَلِكِ التعفُّفَ عن أموالِ رعيَّتِه، والزُّهدَ في أخذِ أُجرةٍ في مُقابلةِ عَمَلٍ يأتيه -ما أغناه اللهُ عنه- ففي ذلك حِفظُ كرامتِه، وزيادةُ الشَّغَفِ بمحبَّتِه، كما تأبَّى ذو القرنينِ؛ تفضُّلًا وتكرُّمًا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ التحَدُّثُ بنعمةِ الله تعالى إذا اقتَضاه المقامُ، كقَولِ ذي القرنينِ هذا في مقامِ تعَفُّفِه عن أموالِهم، والشَّفَقةِ عليهم؛ وكقَولِ سُلَيمانَ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾[٣] [النمل: ٣٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ مُشاطَرةُ المَلِكِ العُمَّالَ في الأعمالِ، ومُشارفتُهم بنفسِه إذا اقتضى الحالُ؛ تنشيطًا لِهمَّتِهم، وتجرئةً لهم، وترويحًا لقُلوبِهم، وقد كان ذو القرنينِ يقاسِمُ الرِّجالَ الأتعابَ، ويديرُ العَمَلَ بنَفسِه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٩).

قِطۡرٗا ۞ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ لَمَّا فعَلَ ذو القَرنَينِ هذا الفِعلَ الجَميلَ والأثَرَ الجليلَ، أضاف النِّعمةَ إلى مُولِيها، فقال: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾، وهذه حالُ الخُلَفاءِ الصَّالحينَ: إذا منَّ اللهُ عليهم بالنِّعَمِ الجليلةِ، ازداد شُكرُهم وإقرارُهم، واعترافُهم بنِعمةِ الله، ولم يُسنِدوا ما يَعمَلونَه إلى أنفُسِهم، ولكِنَّهم يُسنِدونَه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإلى فَضلِه[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۞ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ تعريفُ الغيرِ ثمرةَ العَمَلِ المهِمِّ؛ ليَعرِفوا قَدْرَه، فيُظهِروا شُكرَه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ الإعلامُ بالدَّورِ الأُخرويِّ، وانقضاءِ هذا الطَّورِ الأوَّليِّ؛ لتبقى النفوسُ طامحةً إلى ذلك العالَمِ الباقي، والنَّعيمِ السَّرمديِّ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ فيه سؤالٌ: كيف فَهِمَ ذو القرنَينِ منهم هذا الكلامَ بعد أن وصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾؟

الجواب من وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ (كاد) فيه قولان: الأوَّلُ: أنَّ إثباتَه نفيٌّ، ونفيَه إثباتٌ؛ فقَولُه: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ لا يدُلُّ على أنَّهم لا يَفهَمون شيئًا، بل يدُلُّ على أنهم قد يفهمونَ على مشقَّةٍ وصُعوبةٍ. والقول الثاني: أنَّ (كاد) معناه المقاربةُ، وعلى هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦)، تفسير ((سورة الكهف)) لابن عثيمين (ص: ١٣٥-١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القَولِ فقَولُه: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ أي: لا يعلَمونَ، وليس لهم قُربٌ مِن أن يفقَهوا. وعلى هذا القَولِ فلا بدَّ مِن إضمارٍ، وهو أن يقال: لا يكادونَ يفهَمونَه إلَّا بعد تقريبٍ ومشقَّةٍ مِن إشارةٍ ونَحوِها[1].

الوجه الثاني: أنَّه تكلَّم عنهم مُترجِمٌ[2]؛ فذو القرنين أعطاه الله تعالى مُلكًا عظيمًا، وعنده من المترجِمينَ ما يَعرِفُ به ما يريدُ[3].

الوجه الثالث: أنَّ الله قد أعطى ذا القرنينِ مِن الأسبابِ العِلميَّةِ ما فَقِهَ به ألسنةَ أولئك القَومِ، وفَقَّهَهم، وراجَعَهم وراجَعوه[4].

الوجه الرابع: أنَّه قد يكون الله عزَّ وجَلَّ قد ألهمه لغةَ النَّاسِ الذين استولى عليهم كلِّهم[5].

٢- قولُهم: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ افْتَتحوا الكلامَ بالنِّداءِ، ونادَوْه نِداءَ المستغيثينَ المضطرِّينَ، ونداؤُهم إيَّاه بلَقبِ ذي القرنَينِ يدُلُّ على أنَّه مشهورٌ بمعنَى ذلك اللَّقبِ بينَ الأُممِ المتاخِمةِ لبلادِه[6].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ فيه جوازُ الخَراجِ والأجرِ على الأعمالِ[7].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢).

لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ فيه أنَّ على المَلِك القِيامَ بمصالحِ الخَلقِ، وسَدَّ الفُرَج، وإصلاحَ الثُّغورِ، ولو بأن يأخُذَ مِن أموالِهم إذا احتاجَ[1]، وأنَّ عليه أن يَبذُلَ وُسعَه في الرَّاحةِ والأمنِ؛ دِفاعًا عن الوطنِ العزيزِ، وصيانةً للحريَّةِ والتمَدُّنِ، مِن مخالبِ التوحُّشِ والخَرابِ؛ قيامًا بفريضةِ دَفعِ المُعتَدين، وإمضاءِ العَدلِ بينَ العالَمينَ، كما لبَّى ذو القرنينِ دَعوةَ الشاكينَ في بناءِ السَّدِّ[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على اتِّخاذِ السُّجونِ، وحَبسِ أهلِ الفَسادِ فيها، ومَنعِهم من التصَرُّفِ لِما يُريدونَه، ولا يُترَكونَ وما هم عليه[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ هذا تأييدٌ مِن اللهِ تعالى لذي القرنينِ في هذه المحاورةِ؛ فإنَّ القَومَ لو جمعوا له خَرْجًا لم يُعِنْه أحدٌ، ولوكَلُوه إلى البُنيانِ. ومعونتُه بأنفُسِهم أجمَلُ به، وأسرَعُ في انقضاءِ هذا العمَلِ[4].

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ المَلِكَ فُرِضَ عليه أن يقومَ بحمايةِ الخَلقِ في حِفظِ بَيضتِهم، وسَدِّ فُرجتِهم، وإصلاحِ ثُغورِهم، من أموالِهم التي تَفيءُ عليهم، وحُقوقِهم التي تجمَعُها خِزانتُهم تحت يَدِه ونَظَرِه، حتى لو أكلَتْها الحقوقُ وأنفَذَتْها المُؤَن، لكان عليهم جَبرُ ذلك من أموالِهم، وعليه حُسنُ النَّظَرِ لهم،

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٠).

وذلك بثلاثةِ شُروطٍ: الأول: ألَّا يَستأثِرَ عليهم بشيءٍ. الثاني: أن يبدأ بأهلِ الحاجةِ فيُعينَهم. الثالث: أن يُسَوِّيَ في العطاءِ بينهم على قَدرِ مَنازِلِهم. فإذا فَنِيت بعد هذا، وبَقِيَت صفرًا، فأطلَعَت الحوادِثُ أمرًا، بذلوا أنفُسَهم قبل أموالِهم، فإنْ لم يُغنِ ذلك فأموالُهم تؤخَذُ منهم على تَقدير، وتَصريفٍ بتدبير؛ فهذا ذو القرنينِ لَمَّا عَرَضوا عليه المالَ في أن يكُفَّ عنهم ما يَحذَرونَه مِن عاديةِ يأجوجَ ومأجوجَ، قال: لستُ أحتاجُ إليه، وإنَّما أحتاجُ إليكم﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، أي: اخدُموا بأنفُسِكم معي؛ فإنَّ الأموالَ عندي والرِّجالَ عندكم، ورأى أنَّ الأموالَ لا تُغني عنهم؛ فإنَّه إن أخَذَها أجرةً نَقَص ذلك ممَّا يحتاجُ إليه، فيعودُ بالأجرِ عليهم، فكان التطَوُّعُ بخِدمة الأبدانِ أولى. وضابِطُ الأمورِ: لا يحِلُّ مالُ أحدٍ إلَّا لضَرورةٍ تَعرِضُ، فيؤخَذُ ذلك المالُ جَهرًا لا سِرًّا، ويُنفَقُ بالعَدلِ لا بالاستيثارِ، وبرأيِ الجَماعةِ لا بالاستبدادِ بالأمرِ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا * فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ تدعيمُ الأسوارِ والحُصونِ في الثُّغورِ، وتقويتُها بذَوبِ الرَّصاصِ، وبوَضعِ صَفائِحِ النُّحاسِ خِلالَ الصُّخورِ الصُّمِّ؛ صِدقًا في العَمَلِ، ونُصحًا فيه، ليُنتَفَعَ به على تطاوُلِ الأجيالِ؛ فإنَّ البناءَ غيرَ الرَّصينِ لا ثمرةَ فيه[(٢)].

٩- إنْ قيلَ: ما الجَمعُ بينَ قَولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾، وبين الحَديثِ الذي رواه البخاريُّ ومُسلِمٌ: ((فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَدَ بيَدِه تِسعينَ))[(٣)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

فالجوابُ: أمَّا على قَولِ مَن ذهب إلى أنَّ هذا الحديثَ إشارةٌ إلى فَتحِ أبوابِ الشَّرِّ والفِتَن، وأنَّ هذا استعارةٌ مَحضةٌ وضَربُ مَثَلٍ، فلا إشكالَ. وأمَّا على قَولِ مَن جعل ذلك إخبارًا عن أمرٍ مَحسوسٍ -كما هو الظاهِرُ المتبادِرُ- فلا إشكالَ أيضًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي: في ذلك الزَّمانِ؛ لأنَّ هذه صيغةُ خبرٍ ماضٍ، فلا ينفي وقوعَه فيما يُستقبَلُ بإذنِ اللهِ لهم في ذلك قَدَرًا، وتسليطَهم عليه بالتدريجِ قليلًا قليلًا، حتى يتِمَّ الأجَلُ وينقضيَ الأمَدُ المقدورُ، فيَخرُجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٩٦].

١٠- قولُه: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ فيه إيذانٌ بأنَّه ليس مِن قَبيلِ الآثارِ الحاصِلةِ بمُباشَرةِ الخلقِ عادَةً، بل هو إحسانٌ إلهيٌّ محضٌ، وإن ظهَر بمُباشَرتي[2].

١١- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ فيه بيانٌ لعِظَمِ قُدرتِه عزَّ وجلَّ بعدَ بيانِ سَعةِ رَحمتِه[3].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ فيه خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ قُرْبَ السَّاعةِ[4].

١٣- مِن المناسباتِ الصُّوريَّةِ بين قِصَّةِ ذي القرنين وموسى مع الخَضِرِ: أنَّ في قِصَّةِ كلٍّ منهما ثلاثةَ أشياءَ آخِرُها بناءُ جِدارٍ لا سَقْفَ له، وإنَّما هو لأجلِ حِفظِ ما يُهتَمُّ به خَوفَ المُفسِدِ[5].

(١) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٦-٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٢٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيه إطلاقُ السَّدِّ على الجبلِ؛ لأنَّه سَدٌّ في الجُملة، أو لكونِه مُلاصِقًا للسدِّ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

- ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ[٢]، والفاءُ لِتَفريعِ العَرضِ على إفسادِهم في الأرضِ[٣]، وهو استِدْعاءٌ منهم قَبولَ ما يَبذُلونه مِمَّا يُعينُه على ما طلَبوا على جِهَةِ حُسنِ الأدَبِ؛ إذْ سألوه ذلك[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾

- قولُه: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ الأمرِ بالإعانةِ على خيريَّةِ ما مَكَّنه اللهُ تعالى فيه مِن مالِهم، أو على عدَمِ قَبولِ خَرْجِهم[٥].

- قولُه: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ فيه تقديمُ إضافةِ الظَّرفِ إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ على إضافتِه إلى ضَميرِ يَأْجوجَ ومأجوجَ: ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بمَصالِحِهم كما راعَوْه في قولِهم: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٥).

جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ لَعلَّ تَخصيصَ الأمرِ بالإيتاءِ بها دونَ سائرِ الآلاتِ مِن الصُّخورِ والحطَبِ ونَحوِهما؛ لأنَّ الحاجَةَ إليها أمَسُّ؛ إذْ هي الرُّكنُ في السَّدِّ، ووُجودُها أعَزُّ[1].

- قولُه: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ﴾، و: ﴿سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، و: ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ و: ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، فيه إسنادُ ذلك إلى ذي القرنَين مع أنَّه فِعلُ العُمَّال؛ للتَّنبيهِ على أنَّه العمدةُ في ذلك، وهم بمَنزِلةِ الآلةِ[2].

- قولُه: ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ تَشبيهٌ بليغٌ، أي: كالنَّارِ في الحرارةِ وشِدَّةِ الاحْمِرارِ؛ حُذِفَت أداةُ التَّشبيهِ ووَجهُ الشَّبهِ، فأصبَح بَليغًا[3].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث إنَّ تقديرَ الكلامِ: فآتَوْه زُبَرَ الحديدِ فنَضَدَها وبَناها، حتَّى إذا جعَل ما بينَ الصَّدَفَين مُساوِيًا لعُلوِّ الصَّدَفين[4].

- وحذَف مُتعلَّقَ ﴿ٱنفُخُواْ﴾؛ لِظُهورِه مِن كَونِ العمَلِ في صُنعِ الحديدِ. والتَّقديرُ: انفُخوا في الكِيرانِ[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٦/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٧).
والكِيران: جمْعُ كُور، ومعناه هنا: مِجْمَرةُ الحَدَّادِ المَبْنِيَّةُ مِن الطِّينِ الَّتِي تُوقَد فِيهَا النارُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨١٠)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٤٧٢).

- قولُه: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ المفعولِ به للفِعْلِ ﴿ءَاتُونِيٓ﴾، وتقديرُه: آتوني قِطْرًا أُفرِغْ عليه قِطْرًا؛ فحُذِفَ الأوَّلُ؛ لِدَلالةِ الثَّاني عليه[1].

٥- قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾

- فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاء قولُه: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ هنا بتَخْفِيفِ (اسْتَطَاعُوا) من غيرِ تاءٍ، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ بالتاء؛ ووجه ذلك: أنَّ مِن خَصائصِ مُخالَفةِ مُقْتضى الظَّاهرِ هنا إيثارَ فِعْلٍ ذي زِيادةٍ في المبْنَى بمَوْقِعٍ فيه زِيادةُ المعنى؛ لأنَّ استِطاعةَ نَقْبِ السَّدِّ أقْوى مِن استِطاعةِ تَسلُّقِه، فهذا مِن مَواضِعِ دَلالةِ زِيادةِ المبنى على زيادةٍ في المعنى[2]؛ فجِيءَ أوَّلًا بالفِعْلِ مُخفَّفًا عِندَ إرادةِ نَفْيِ قُدرتِهم على الظُّهورِ على السَّدِّ، والصُّعودِ فوقَه، ثمَّ جِيءَ بأصلِ الفِعلِ مُستَوْفَى الحُروفِ عندَ نفْيِ قُدرتِهم على نَقْبِه وخَرْقِه، ولا شكَّ أنَّ الظُّهورَ أيسَرُ مِن النَّقْبِ، والنَّقْبُ أشَدُّ عليهِم وأثقَلُ، فجِيءَ بالفِعلِ مُخفَّفًا معَ الأخَفِّ، وجِيءَ به تامًّا مستوفًى مع الأثقَلِ، فتَناسَب، ولو قُدِّر بالعَكسِ لَما تَناسَب. وأيضًا فإنَّ الثَّانيَ في مَحلِّ التَّأكيدِ لِنَفيِ قُدرتِهم على الاسْتيلاءِ على السَّدِّ وتَمكُّنِهم منه؛ فناسَب ذلك الإطالةَ، واللهُ سبحانه أعلمُ بما أراد[3]. وقيل: لأنَّ الثَّانيةَ تعدَّت إلى اسمٍ، وهو قولُه عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٢٣-٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).
وذكر ابنُ رجبٍ عن الوزيرِ ابنِ هبيرةَ أنَّه قال: («التاءُ» من حروف الشِّدَّةِ، تقولُ في الشَّيءِ القَريبِ

﴿نَقۡبٗا﴾ فخَفَّ مُتعلَّقُها، فاحتمَلَتْ بأن يَتِمَّ لَفظُها، وأمَّا الأُولى فإنَّها تعلَّق مَكانُ مفعولِها بـ (أنْ) والفِعْلِ بعدَها، وهي أربعةُ أشياءَ: أنْ، والفِعلُ، والفاعِلُ، والمفعولُ الَّذي هو الهاءُ، فثَقُلَ لفظُ ﴿ٱسۡتَطَٰعُوٓاْ﴾، وكان يَجوزُ تَحقيقُه حيث لا يُقارِنُه ما يَزيدُه ثِقلًا، فلمَّا اجتمَع الثقلانِ، واحتَمَل الأوَّلُ التَّخفيفَ، ألزِمَ في الأوَّلِ دونَ الثَّاني الَّذي خفَّ مُتعلَّقُه[١].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ قيل: في الكلامِ حَذْفٌ، وتَقديرُه: فلَمَّا أكمَل بِناءَ السَّدِّ واستَوى واستَحْكَم قال: هذا رحمةٌ مِن ربِّي[٢].

- جملةُ ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه لما آذَن الكلامُ بانْتِهاءِ حكايةِ وصْفِ الرَّدْمِ كان ذلك مُثيرًا سُؤالَ مَن يَسأَلُ: ماذا صدَر مِن ذي القَرْنَين حين أتَمَّ هذا العمَلَ العظيمَ؟ فيُجابُ بجُملةِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾، وجُعِلَت الرَّحمةُ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ ألْهمَه لذلك ويَسَّر له ما هو صعبٌ[٣]، وفي التَّعرُّضِ لِوَصفِ الرُّبوبيَّةِ تَربيةُ مَعْنى الرَّحمةِ[٤].

- قولُه: ﴿دَكَّآءَ﴾ الدَّكَّاءُ: بمَعْنى المفعولِ؛ للمُبالَغةِ، أي: جعَله مَدْكوكًا، أي:

الأمرِ: ما اسْطَعتُه، وفي الشَّديدِ: ما استطَعْتُه، فالمعنى: ما أطاقوا ظهورَه لِضَعفِهم، وما قَدَروا على نَقْبِه لقوَّتِه وشِدَّتِه). ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٤١، ١٤٣).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٨٣-٨٨٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٣-٣٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٦).

مُسوًّى بالأرضِ بعدَ ارتِفاعٍ[١].

- قولُه: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ تذييلٌ للعِلْمِ بأنَّه لا بُدَّ له مِن أجَلٍ يَنْتهي إليه، وكان تأجيلُ اللهِ الأشياءَ حقًّا ثابِتًا لا يتَخلَّفُ؛ فهذه الجملةُ بعُمومِها وما فيها مِن حِكمةٍ كانت تَذْييلًا بَديعًا[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٠).

الآيات (٩٩-١٠٢)

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمُوجُ﴾: أي: يَضطَرِبُ ويختَلِطُ، وأصلُ (موج): يدلُّ على اضْطِرابٍ فِي شَيءٍ[(١)].

﴿الصُّورِ﴾: أي: القرنِ ينفخُ فيه إسرافيلُ. وقيل: الصورُ جمعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيا[(٢)].

﴿نُزُلًا﴾: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازلِ مِن الزَّادِ، وما يُقدَّمُ للضيفِ، أو: النُّزُلُ: المنزلُ وموضعُ النُّزولِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: وترَكْنا يأجوجَ ومأجوجَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٢٧١، ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥).



-يومَ يأتيهم وَعْدُ الله بِدَكِّ الردمِ- يَخرُجونَ مُزدَحِمينَ مُختَلِطينَ بالنَّاسِ، وينتَشِرونَ بينهم مفسدينَ. ونُفِخَ في الصُّورِ للبَعثِ، فجَمَعْنا الخَلقَ جَميعًا للحِسابِ والجزاءِ، وأبرَزْنا جهنَّمَ للكافرينَ ليَرَوها عِيانًا؛ الذين كانت أعيُنُهم في الدُّنيا في غِطاءٍ عن النَّظَرِ في آياتِ القُرآنِ وتدَبُّرِها، وكانوا لا يُطيقونَ سَماعَ كَلامي، أفظَنَّ الذين كَفَروا أن يتَّخِذوا عبادي أولياءَ مِن دوني؟ إنَّا أعتَدْنا نارَ جهنَّمَ للكافرينَ مَنزِلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى الجوابُ عَمَّا سأل عنه الكافِرونَ على أحسَنِ وَجهٍ، في أبلَغِ سِياقٍ وأبدَعِ تناسُبٍ؛ وأدرجَ اللهُ تعالى في خلالِه ما أدرَجَ مِن التَّذكيرِ والوَعظِ، والأمرِ والنَّهيِ، والوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والتَّبكيتِ للكاتمينَ لِما عِندَهم من العِلمِ، النَّاكبينَ عمَّا استبان لهم مِن الطَّريقِ والمَنهجِ الواضِحِ، وخَتَمه بما هو عَلَمٌ عَظيمٌ للسَّاعةِ- ذكَرَ ما يكونُ إذ ذاك، وما يكونُ بَعدَه إلى حُصولِ كُلٍّ مِن الفَريقَينِ في دارِه، ومحَلِّ استِقرارِه[(١)].

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

أي: وتَركْنا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ يأتي وعدُ اللهِ بدَكِّ الرَّدمِ، يَخرُجون مُزدَحِمينَ مُختَلِطينَ بالنَّاسِ، وينتَشِرونَ بينهم للإفسادِ في الأرضِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٣-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١، ٣٤٢).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

أي: ونُفِخَ في البُوقِ؛ لتَعودَ الأرواحُ إلى أجسادِها، فإذا هم قيامٌ لرَبِّ العالَمينَ(١).

واختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ كثير، والبقاعي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المراد: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ يأجوجَ ومأجوجَ يومَ الانتهاءِ مِن بناءِ الرَّدمِ مُضطربينَ مُختَلِطينَ؛ لكَثرتِهم لا يستطيعونَ الخروجَ مِن وراء الرَّدمِ، وجَعَلْنا فَسادَهم قاصِرًا على أنفُسِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٠).

وقيل: الضَّميرُ في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ يعودُ على الخَلقِ، وأنَّ المعنى: وترَكْنا الخَلقَ يومَ القيامةِ يدخُلُ بَعضُهم في بعضٍ، فيختَلِطُ جِنُّهم بإنسِهم. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن جرير، واستحسنه القرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في ﴿وَتَرَكْنَا﴾ لله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ به يومَ القيامةِ؛ لأنَّه قد تقدَّم ضَميرُه، فالضَّميرُ في قَولِه: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ -على ذلك- لجَميعِ الناس، ويحتَمِلُ أن يريدَ بقَولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ كمالِ السَّدِّ، فالضميرُ في قَولِه: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ ليأجوجَ ومأجوجَ... وقولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الآية: المعنيُّ به يومُ القيامةِ، فلا احتمالَ لغيره، فمن تأوَّلَ الآيَةَ كُلَّها في يوم القيامة اتَّسقَ تأويلُه، ومن تأوَّلَ الآيَةَ إلى قَولِه: ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ في أمرِ يأجوجَ ومأجوجَ، تأوَّلَ القَولَ «وتركْناهم يموجون» يموجون دأبًا على مَرِّ الدهرِ، وتناسُلِ القرونِ بينهم، وقيامِهم، ثمَّ نُفِخَ في الصورِ فيجتَمِعونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧).

قال ابنُ عطية: (الصُّورُ في قَولِ الجُمهور وظاهِرِ الأحاديثِ الصِّحاحِ: هو القَرنُ الذي يُنفَخُ فيه للقيامة. وقالت فرقةٌ: الصُّورُ: جمعُ صُورةٍ، فكأنَّه أراد صُوَر البَشَر والحيوانِ نُفِخَ فيها الروحُ. والأوَّلُ أبيَنُ وأكثَرُ في الشَّريعةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٤).

وقال القرطبي: (الأمَمُ مُجمِعةٌ على أن الذي يَنفُخُ في الصورِ إسرافيلُ عليه السلام). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠).

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه))[1].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كيف أنعَمُ، وقد الْتقمَ[2] صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَى جبهتَه، وأصْغَى سمعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمرَ أن يَنفُخَ فيَنفُخَ؟! قال المُسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا -وربَّما قال سفيانُ-: على اللهِ توكَّلْنا))[3].

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

وقال الشوكاني: (قيل: هي النَّفخةُ الثانية؛ بدليلِ قَولِه بعدُ: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ فإنَّ الفاءَ تُشعِرُ بذلك، ولم يذكُر النفخةَ الأولى؛ لأنَّ المقصود هنا ذِكرُ أحوال القيامة). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٢).

وقال الألوسي: (الظَّاهِرُ أنَّ المرادَ النفخةُ الثانيةُ؛ لأنَّه المناسِبُ لِما بعدُ، ولعَلَّ عدمَ التعَرُّضِ لذكر النفخةِ الأولى؛ لأنَّها داهيةٌ عامَّةٌ ليس فيها حالةٌ مختصَّةٌ بالكفَّارِ. وقيل: لئلَّا يقعَ الفصلُ بين ما يقعُ في النشأةِ الأولى من الأحوالِ والأهوالِ، وبين ما يقعُ منها في النشأةِ الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٦٥).

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٢)، وأحمد (٦٥٠٧) باختلاف يسير، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٦) واللفظ لهما.

حسَّنه الترمذي، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذكَر ابنُ كثيرٍ في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

(٢) التقم: أي: وضع طَرفَ الصُّورِ في فَمِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٢٤٣).

أي: فجَمَعْنا جميعَ الخَلقِ إلى مَوقِفِ القيامةِ؛ لحِسابِهم ومُجازاتِهم على أعمالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)﴾.

أي: وأبرَزْنا جهنَّمَ يومَ القيامةِ، وأظهَرْناها للكافرينَ؛ حتى يُشاهِدوها عِيانًا قبلَ دُخولِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٤- ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٩).
قال ابنُ عُثَيمينَ: (هذا الجَمعُ يَشمَلُ: الإنسَ والجِنَّ والملائكةَ، والوحوشَ وجميعَ الدوابِّ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٩-١٤٠).

أي: أظهَرْنا جهنَّمَ للكافرينَ الذين كانت أعيُنُهم مُغطَّاةً عن النَّظَرِ في آياتِ القُرآنِ وتدَبُّرِها، وتَعامَوا عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾.

أي: وكان الكافِرونَ لا يُطيقونَ سَماعَ كَلامِ اللهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٠).

قال ابن القيم: (هذا يتضَمَّنُ مَعنيينِ؛ أحَدُهما: أنَّ أعيُنَهم في غطاءٍ عَمَّا تضمَّنه الذِّكرُ مِن آياتِ اللهِ وأدلَّةِ تَوحيدِه وعجائِبِ قُدرتِه، والثاني: أنَّ أعيُنَ قُلوبِهم في غِطاءٍ عن فَهمِ القُرآنِ وتدَبُّره، والاهتداءِ به، وهذا الغِطاءُ للقَلبِ أوَّلًا، ثمَّ يسري منه إلى العينِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧).

قال ابن تيمية: (على تفسيرِ السَّلَف والجمهورِ: المرادُ بعدم الاستطاعةِ: مَشقَّةُ ذلك عليهم وصعوبتُه على نفوسِهم؛ فنفوسُهم لا تستطيعُ إرادتَه، وإن كانوا قادرينَ على فِعلِه لو أرادوه! وهذه حالُ من صَدَّه هواه ورأيُه الفاسِدُ عن استماعِ كتُبِ الله المنَزَّلة واتباعِها). ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ٣١٩).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، في هذه الآيةِ الكريمةِ للعُلماءِ أوجهٌ، بعضُها يشهَدُ له القرآنُ:

الأوَّلُ: وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ الطبري في «تفسيره»، ونقله عن ابنِ عباسٍ وقتادةَ: أنَّ معنى ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾: أنَّهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحَقَّ سَماعَ مُنتَفِعٍ، ولا أن يُبصِروه إبصارَ مُهتدٍ؛ لاشتغالِهم بالكُفرِ الذي كانوا عليه مقيمينَ عن استعمالِ جوارحِهم في طاعةِ الله تعالى، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصارٌ...

الثاني: وهو أظهَرُها عندي: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكورَ في الآيةِ إنَّما هو للختمِ الذي ختَمَ

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن الله تعالى مِن حالِ الكافرينَ أنَّهم أعرَضوا عن الذِّكرِ، وعن استِماعِ ما جاء به الرَّسولُ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، والمراد: أفظَنُّوا أنَّهم ينتَفِعون بما عَبَدوه مع إعراضِهم عن تدبُّرِ الآياتِ، وتمَرُّدِهم عن قَبولِ أمرِه، وأمرِ رَسولِه[١]؟

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: أفظَنَّ الذين كَفَروا باللهِ أن يتَّخِذوا عباديَ الذينَ عَبَدوهم مِن دوني -كالمسيحِ عيسى ابنِ مريمَ، والملائكةِ والأنبياءِ، وغيرِهم من الصَّالحينَ- أولياءَ لهم[٢]؟

الله على قلوبِهم وأسماعِهم، والغِشاوةِ التي جَعلَ على أبصارِهم، وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم ومشيئتِهم، كما دلَّت عليه آياتٌ كثيرة). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٧٥- ١٧٦).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ هل المرادُ: لا يريدون؟ كقَولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، أي: هل يريدُ؟ أو المعنى أنَّهم لا يستطيعون ﴿سَمۡعًا﴾ أي: سَمْعَ الإجابةِ، وليس سَمْعَ الإدراك؟ الجوابُ: يحتَمِلُ المعنيين جميعًا، وكلاهما حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

قال الشِّنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: تقديرُ المحذوفِ هو: أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتَّخِذوا عبادي مِن دوني أولياء، ولا أعاقِبُهم العقابَ الشَّديدَ؟ كلَّا! بل سأعاقِبُهم على ذلك العقابَ الشَّديدَ؛ بدليل قولِه تعالى بعده: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾.

وقال بعضُ العلماءِ: تقديرُه: أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتَّخِذوا عبادي من دوني أولياءَ وأنَّ ذلك ينفَعُهم؟ كلَّا! لا ينفَعُهم بل يضُرُّهم، ويدُلُّ لهذا قولُه تعالى عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:

((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤٨).

وممَّن اختار المعنى الأول: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥).

وممَّن اختار المعنى الثاني: الزجَّاج، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

وقال ابنُ جريرٍ: (أفظنَّ الَّذينَ كفروا باللَّهِ مِنْ عبدَةِ الملائكةِ والمسيحِ، أَنْ يتَّخِذوا عِبادي الَّذين عَبَدوهم مِن دونِ اللَّهِ أولياءَ؟ يقولُ: كلَّا بلْ هم لهم أعداءُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢١).

وقال ابن عاشور: (و﴿مِن دُونِيٓ﴾ متعَلِّقٌ بـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ إما بجعلِ ﴿دُونِيٓ﴾ اسمًا بمعنى حَول، أي: مِن حَولِ عذابي، وتأويل ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ بمعنى: أنصارًا، أي حائلين دون عذابي ومانِعِيهم منه، وإما بجَعلِ ﴿دُونِيٓ﴾ بمعنى غيري، أي: أحَسِبوا أنهم يَستغنون بوَلايتِهم؟). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٤).

قال ابن عثيمين: (﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: أربابًا، يدعونَهم، ويستغيثونَ بهم، وينسونَ ولايةَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

٥ - ٦].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾.

أي: إنَّا هيَّأْنا جهنَّم مَنزِلًا للكافرينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ مِن الحِكَمِ في إخبارِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك: أنْ يُصْلِحَ الإنسانُ ما بينه وبينَ اللهِ؛ وأنْ يَخافَ مِن هذا اليومِ، وأنْ يَستعِدَّ له، وأنْ يُصَوِّرَ نفسَه وكأنَّه تحتَ قدَمَيه، كما قال الصِّديقُ رَضِيَ الله عنه:

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١).

ومِمن اختار أنَّ النزلَ بمعنى المنزِلِ: مقاتل بن سليمان، وابنُ جريرٍ، والزجاج، والواحدي، وابنُ كثير. يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: النُّزلُ: ما يُعَدُّ للضيفِ. وممن اختار ذلك المعنى: الرسعني، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (١/ ٤٠١)، (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٤، ٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

قال الشنقيطي: (والمعنَى: أَنَّ الَّذي يُهَيَّأُ لهم مِنَ الإكرامِ عندَ قُدومِهم إلى رَبِّهم هو جهنَّمُ المعَدَّةُ لهم، كقولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقولِه: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف: ٢٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (ومعنى النُّزُل: ما يقَدِّمُه صاحِبُ البيتِ للضَّيفِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ بمعنى المَنزِل، وكلاهما صحيحٌ؛ فهم نازِلونَ فيها، وهم يُعطَونَها كأنَّها ضيافةٌ، وبِئْسَت الضيافةُ!!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤١).

وقال الثعالبي: (والآية تحتملُ الوجهَينِ). ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٥٤٤).

(كلُّ امــرِئٍ مُصَبَّــحٌ فــي أهلِه　　　والموتُ أدنى مِن شِــراكِ نَعْلِه)[1]

فتصَوَّرْ هذا، وتصوَّرْ أنَّه ليس بينك وبينه إلَّا أنْ تَخرجَ هذه الرُّوحُ مِن الجسَدِ، وحينئذٍ ينتهي كلُّ شيءٍ[2]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تَرْكُه سُبحانَه للشَّيءِ صِفةٌ مِن صفاتِهِ الفِعليَّةِ، الواقعةِ بمشيئتِه، التَّابعةِ لحكمتِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥]، والنصوصُ في ثبوتِ التَّرْكِ وغيرِه مِن أفعالِه المتعَلِّقةِ بمشيئتِه كثيرةٌ معلومةٌ، وهي دالَّةٌ على كمالِ قُدرتِه وسُلطانِه. وقيامُ هذه الأفعالِ به سُبحانَه لا يُماثِلُ قيامَها بالمَخلوقينَ، وإنْ شارَكَه في أصلِ المعنى، كما هو معلومٌ عند أهلِ السُّنَّةِ[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ليكونَ ذلك أبلَغَ في تعجيلِ الهَمِّ والحُزنِ لهم[4].

٣- النَّارُ تُعرَضُ على الكافرين ويُعرَضونَ عليها؛ لأنها تُقرَّبُ إليهم ويُقرَّبونَ إليها، كما قال تعالى في عَرضِها عليهم هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، وقال في عَرضِهم عليها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[5] [الأحقاف: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٧).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ كلامٌ مَسوقٌ مِن جَنابِه تعالى مَعطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾، ومُحقِّقٌ لِمَضمونِه[١]؛ فهو عطفٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها ابتداءً مِن قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، فهذه الجملةُ لِذكْرِ صُنعِ اللهِ تعالى في هذه القِصَّةِ الثَّالثةِ مِن قَصصِ ذي القَرْنينِ؛ إذْ أَلْهمَه دفْعَ فَسادِ يأجوجَ ومأْجوجَ، بمَنزِلةِ جُملةِ: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ في القصَّةِ الأُولى، وجملةُ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾؛ فجاء أسلوبُ حِكايَةِ هذه القَصصِ الثَّلاثِ على نسَقٍ واحِدٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ هذا تخلُّصٌ مِن أغراضِ الاعْتِبارِ بما في القِصَّةِ مِن إقامةِ المصالِحِ في الدُّنيا على أيدي مَن اختارَه اللهُ لإقامتِها مِن خاصَّةِ أوليائِه، إلى غرَضِ التَّذكيرِ بالموعظةِ بأحوالِ الآخرةِ، وهو تَخلُّصٌ يُؤذِنُ بتشبيهِ حالِ تَموُّجِهم بحالِ تَموُّجِ النَّاسِ في المحشرِ؛ تذكيرًا للسَّامِعين بأمْرِ الحشرِ، وتقريبًا بحُصولِه في خَيالِ المشرِكين؛ فإنَّ القادرَ على جمعِ أمَّةٍ كامِلةٍ وراءَ هذا السَّدِّ، بفعلِ مَن يَسَّره لذلك مِن خَلْقِه، هو الأقدرُ على جمعِ الأُممِ في الحشرِ بقُدرتِه؛ لأنَّ مُتعلَّقاتِ القُدرةِ في عالَمِ الآخرةِ أعجبُ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾

- ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ قيل: اللَّامُ بمَعْنى (على). وتَخصيصُه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤١).

بالكافِرين بِشارةٌ للمُؤمِنين[١]، وتخصيصُ العَرْضِ بِهِم مع أنَّها بمَرْأًى مِن أهلِ الجَمْعِ قاطِبةً؛ لأنَّ ذلك لأجْلِهم خاصَّةً[٢].

- قولُه: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ﴾ عَرْضُ جَهنَّمَ مُستعمَلٌ في إبرازِها حين يُشْرِفون عليها وقد سِيقوا إليها، فيَعلَمون أنَّها المهيَّأةُ لهم؛ فشُبِّه ذلك بالعَرْضِ تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّ العَرْضَ هو إظهارُ ما فيه رَغبةٌ وشهوةٌ[٣].

- قولُه: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾، وقولُه: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ فيهما تأكيدُ الفِعلَين (جمَع - عرَض) بمَصْدرَيهما (جَمْعًا - عرْضًا)؛ لِتحقُّقِ أنَّه جمعٌ حقيقيٌّ وعرضٌ حقيقيٌّ، ليْسا مِن المَجازِ[٤].

- وفي تنكيرِ الجَمْعِ والعَرْضِ تهويلٌ[٥].

- واستُعمِلَ الماضي مَوضِعَ المضارِعِ؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ جيءَ بالموصولِ؛ لِذَمِّهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ مَضْمونَ الصِّلَةِ هو سببُ عَرْضِ جَهنَّمَ لهم، أي: الَّذين عُرِفوا بذلك في الدُّنْيا[٧].

- وحَرْفُ (في) للظَّرفيَّةِ المَجازيَّةِ، وهي تَمكُّنُ الغِطاءِ مِن أعيُنِهم؛ بحيث

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٢).

كأنَّها مَحْويَّةٌ للغِطاءِ(١).

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ نَفْيُ استِطاعَتِهم السَّمعَ: أنَّهم لشِدَّةِ كُفرِهم لا تُطاوِعُهم نُفوسُهم للاستِماعِ، فنَفيُ الاستِطاعةِ مُستعمَلٌ في نَفْيِ الرَّغبةِ وفي الإعراضِ، كقَولِه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥](٢)، وهو مُبالَغةٌ في انتفاءِ السَّمعِ؛ إذ نُفِيتِ الاستطاعةُ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أعْقَب وَصْفَ حِرْمانِهم الانْتِفاعَ بدَلائلِ المشاهَداتِ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وإعراضِهم عن سَماعِ الآياتِ بتَفْريعِ الإنكارِ -لاتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللهِ يَزعُمونها نافِعةً لهم تَنصُرُهم- تَفْريعَ الإنكارِ على صِلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾؛ لأنَّ حُسْبانَهم ذلك نشَأ عن كَوْنِ أعيُنِهم في غِطاءٍ، وكَونِهم لا يَستَطيعون سَمعًا(٤).

- قولُه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ استِفْهامٌ فيه مَعْنى الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ للإنكارِ عليهم فيما يَحسَبونه يَقْتضي أنَّ ما ظَنُّوه باطِلٌ(٥)، والإنكارُ مُتسلِّطٌ على مَعمولِ المفعولِ الثَّاني وهو ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ المعمولُ لـ﴿يَتَّخِذُوا۟﴾ بقَرينةِ ما دلَّ عليه فِعلُ (حَسِبَ) مِن أنَّ هُنالِك مَحسوبًا باطِلًا، وهو كونُهم أولياءَ باعْتِبارِ ما تَقْتَضيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣).

حقيقةُ الوِلايةِ مِن الحمايةِ والنَّصرِ[١].

- قولُه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيه إظهارُ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ أن يُقالَ: (أفحَسِبوا)، بإعادةِ الضَّميرِ إلى الكافِرينَ في الآيةِ قبْلَها؛ لِقَصدِ استِقْلالِ الجُمْلةِ بدَلالتِها، وزيادةً في إظهارِ التَّوبيخِ لها[٢].

- قولُه: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ صِيغَ فِعلُ الاتِّخاذِ بصِيغَةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِه منهم، وأنَّهم غيرُ مُقْلِعينَ عنه[٣].

- قولُه: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: أن يَتَّخِذوا عِبادي مِن دوني أوْلياءَ، فيُجْدي ذلك ويَنتفِعون بذلك الاتِّخاذِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ مُقرِّرٌ لإنكارِ انْتِفاعِهم بأوليائِهم؛ فأُكِّد بأنَّ جَهنَّمَ أُعِدَّتْ لهم نُزلًا؛ فلا مَحيصَ لهم عَنْها؛ ولذلك أكَّد بحَرْفِ (إنَّ)[٥]. وفيه: تَهكُّمٌ وتَنبيهٌ على أنَّ لهم وَراءَها مِن العَذابِ ما تُستَحقَرُ دونَه[٦]. وهذا على القولِ بأنَّ معنى النُّزلِ ما يعدُّ للضيفِ.

- وجَعَل المسنَدَ إليه في ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ ضَميرَ الجلالةِ (نا)؛ لإدخالِ الرَّوعِ في ضَمائرِ المشرِكين[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٣-٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٥).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ عَدَل عن الإضمارِ -فلم يَقُلْ: أعتَدْنا لهم-؛ ذَمًّا لهم، وإشعارًا بأنَّ ذلك الإعدادَ بسبَبِ كُفرِهم المتضمِّنِ لِحُسبانِهم الباطلِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨).

الآيات (١٠٢-١٠٦)

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَحَبِطَتْ﴾: أي: بَطَلتْ وذَهَبتْ، من الحَبَطِ: وهو فَسادٌ يَلحَقُ الماشيةَ في بُطونِها لأكلِ الكَلأِ حتى تَنتَفِخَ أجوافُها، وأصلُ (حبط): يدُلُّ على بُطلانٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾

في توجيهِه أوجُهٌ، أحدُها: أنْ يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، و﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملةً اسميَّةً برأسِها. الثاني: أن يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً أولَ، و﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأً ثانيًا، و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبرَه، وهو وخَبرُه خبرَ الأوَّلِ. والعائدُ محذوفٌ، أي: جزاؤُهم به. الثالثُ: أن يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً، و﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ بدلًا منه، و ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبرَه. الرَّابعُ: أن يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً، و﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ خبرَه، و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدَلًا منه، أو خبَرَ مبتدأٍ محذوفٍ. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٥٥)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٦/ ٢٦٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يبينَ للناسِ مَن هم الأخسرونَ أعمالًا، فيقول: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل نُخبِرُكم بأخسَرِ النَّاسِ أعمالًا؟ إنَّهم الذين بطَل عمَلُهم في الحياةِ الدُّنيا مِن المُشرِكين والضالِّين عن سَواءِ السَّبيلِ، وهم يظُنُّونَ أنَّهم مُحسِنونَ في أعمالِهم ولا يَعلَمونَ أنَّها باطِلةٌ، أولئك هم الذين كَفَروا بآياتِ رَبِّهم وكذَّبوا بها، وأنكَروا البعثَ، فبَطَلت أعمالُهم بسَبَبِ كُفرِهم، فلا نُثَقِّلُ موازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ، ذلك جزاؤُهم نارُ جهنَّمَ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ واتِّخاذِهم آياتِه ورُسُلَه استهزاءً وسُخريةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تبيَّنَ بما لا مِريةَ فيه أنَّ الكافرينَ خَسِروا خَسارةً لا رِبحَ معها، وخاب ما كانوا يُؤمِّلونَ؛ أمَرَ تعالى نبيَّه أن ينبِّهَهم على ذلك، فقال[1]:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ[2]: هل نُخبِرُكم بأخسَرِ النَّاسِ أعمالًا وأضيَعِها، فلا ينتَفِعون

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٧).

(٢) قيل: المرادُ: قل لهؤلاء الذين يَبغُونَ عَنَتَك، ويجادِلونك بالباطِلِ، ويُحاوِرونَك بالمسائِلِ مِن أهلِ الكتابَينِ: اليهودِ، والنصارى. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٣).

وقيل: المرادُ: قُل للنَّاسِ. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿قُلْ﴾ أي: يا محمدُ للأمةِ كلِّها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٤٢).

بها[(١)]؟

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: هم الذين بَطَلت أعمالُهم التي عَمِلوها في الدُّنيا واضمحلَّتْ؛ لفَسادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

عن مُصعَبِ بنِ سعدِ بنِ أبي وقَّاص قال: (سألتُ أبي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾: هم الحَروريَّة؟ قال: لا، هم اليهودُ والنَّصارى؛ أمَّا اليهودُ فكَذَّبوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَّا النصارى فكَفَروا بالجنَّة وقالوا: لا طعامَ فيها ولا شرابَ! والحروريَّةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، وكان سَعدٌ يُسَمِّيهم الفاسقينَ). رواه البخاري (٤٧٢٨).

قال ابنُ جرير: (الصوابُ مِن القَولِ في ذلك عندنا أن يُقالَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ عنى بقَولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣] كلَّ عاملٍ عَمَلًا يَحسَبُه فيه مصيبًا، وأنَّه لله بفِعلِه ذلك مُطيعٌ مُرضٍ، وهو بفِعلِه ذلك لله مُسخِطٌ، وعن طريقِ أهل الإيمان به جائِرٌ، كالرَّهابنة والشَّمامسة وأمثالِهم مِن أهلِ الاجتهادِ في ضلالتِهم، وهم مع ذلك مِن فِعلِهم واجتهادِهم باللهِ كَفرةٌ مِن أهلِ أيِّ دينٍ كانوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٧).

وقال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ مكيَّةٌ قبل خِطابِ اليَهودِ والنَّصارى، وقبل وجودِ الخوارجِ بالكُلِّيَّة، وإنَّما هي عامَّةٌ في كلِّ مَن عبد اللهَ على غيرِ طريقةٍ مُرضيةٍ، يحسَبُ أنَّه مصيبٌ فيها، وأنَّ عَمَله مَقبولٌ، وهو مُخطئٌ، وعَمَلُه مردودٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢).

وقال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ الآيةَ نازلةٌ في الكُفَّارِ الذين يعتَقِدونَ أنَّ كُفرَهم صوابٌ وحَقٌّ، وأنَّ فيه رضا ربِّهم؛ فقَولُ من قال: إنَّهم الكُفَّارُ، وقَولُ مَن قال: إنهم الرُّهبانُ، وقَولُ مَن قال: إنَّهم أهلُ الكتاب الكافرونَ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- كُلُّ ذلك تشمَلُه هذه الآيةُ... وما رُوي عن عليٍّ رَضِيَ الله عنه مِن أنَّهم أهلُ حَروراءَ معناه أنهم يكونُ فيهم من معنى الآيةِ بقَدرِ ما فَعَلوا؛ لأنَّهم يرتَكِبونَ أمورًا شَنيعةً مِن الضَّلالِ، ويعتقدون أنَّها هي معنى الكتابِ والسُّنَّة؛ فقد ضَلَّ سَعيُهم وهم يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا، وإن كانوا في ذلك أقَلَّ مِن الكُفَّار المجاهرينَ؛ لأنَّ العبرةَ بعُمومِ الألفاظِ لا بخُصوصِ الأسبابِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٠).

اعتقادِهم، ومخالفتِهم شَريعةَ ربِّهم[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ * تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ [الغاشية: ٢-٤].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا، فهو رَدٌّ))[٢].

﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾.

أي: والحالُ أنَّهم يظُنُّونَ أنَّهم يُحسِنونَ في أعمالِهم، وسيَنتَفِعونَ بآثارِها، ولا يَدرونَ أنَّها باطِلةٌ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

أي: أولئك هم الذين كَفَروا بحُجَجِ رَبِّهم وأدِلَّتِه[٤] وكذَّبوا بالبَعثِ بعد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

(٤) قال السعدي: (جَحَدوا الآياتِ القُرآنيَّةَ والآياتِ العِيانيَّة، الدَّالَّة على وجوبِ الإيمانِ به،

الموتِ، فأبطلَ اللهُ أعمالَ الخيرِ التي عَمِلوها، فلا يُثابونَ عليها في الآخرةِ؛ لعَدَمِ بِنائِها على أساسٍ مِن الإيمانِ[(١)].

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.

أي: فلا نُثقِّلُ مَوازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ[(٢)].

وملائكتِه، ورُسُلِه وكُتُبِه واليومِ الآخِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابن جرير، ومكي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختار أيضًا نحوَ هذا المعنى، وأنَّه لا حسنةَ لهم تُوزنُ؛ لأن أعمالهم قد حَبِطَتْ: الثعالبي، والقرطبي، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٥).

قال السعدي: (﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ لأنَّ الوزنَ فائدتُه مقابلةُ الحسناتِ بالسيئاتِ، والنظرُ في الراجحِ منها والمرجوحِ، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدمِ شرطِها، وهو الإيمانُ، كما قال تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، لكن تعدُّ أعمالُهم وتُحصَى، ويُقرَّرون بها، ويُخزون بها على رؤوسِ الأشهادِ، ثم يعذَّبون عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨).

ويُنظر الخلافُ في مسألةِ وزنِ أعمالِ الكفارِ في: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٧١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)، ((لوائح الأنوار السنية)) للسفاريني (٢/ ٢٠٣).

وقيل: المراد: أنَّهم لا يُعتَدُّ بهم، ولا يكونُ لهم عند الله قَدرٌ ومَنزِلةٌ. وممَّن اختار هذا المعنى: الواحدي، والبغوي، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٦٦- ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٦).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّه لَيأتي الرجُلُ العَظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عند الله جَناحَ بَعوضةٍ، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾))[1].

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾.

أي: إنما جازينا أولئك الكافرين بجهنم بسَبَبِ كُفرِهم[2].

قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، فيه للعلماءِ أوجهٌ: أحدُها: أنَّ المعنى أنَّهم ليسَ لهم حسناتٌ تُوزَنُ في الكِفَّةِ الأُخرى في مقابلةِ سيِّئاتِهم، بل لم يكُنْ إلَّا السَّيِّئاتُ، ومَنْ كانَ كذلك فهو في النَّارِ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، [المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٤]، وقالَ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآيَةَ [الأعراف: ٨ - ٩]، وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨ - ١١]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: معنَى ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾: أنَّهم لا قدرَ لهم عندَ اللَّهِ لحقارَتِهم، وهو أنَّهم بسببِ كفرِهم، وذلك كقولِه عنهم: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرينَ أذِلَّاءَ حقيرينَ، وقولِه: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، وقولِه: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على هوانِهم وصغارِهم وحقارتِهم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٥).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٣).

وقال ابنُ عاشور: (الإشارةُ إما إلى ما تقَدَّم من وعيدِهم... وإمَّا إلى مقدَّرٍ في الذِّهنِ دَلَّ عليه السياقُ، يبَيِّنُه ما بعده، على نحوِ استعمالِ ضميرِ الشأنِ مع تقديرِ مبتدأٍ محذوفٍ. والتقديرُ: الأمرُ والشأنُ ذلك جزاؤُهم جهنَّمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٨).

وقال البقاعي: (﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمرُ العَظيمُ الذي بيَّنَّاه من وعيدِهم ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ لكِنْ لَمَّا كان حاكمًا بضلالِهم وغباوتِهم، بيَّن الجزاءَ بقولِه: ﴿جَهَنَّمُ﴾، وصرَّح بالسببيَّةِ بقولِه: ﴿بِمَا كَفَرُوا

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

أي: وبسَبَبِ استِهزائِهم، واستِخفافِهم بالحُجَجِ والدَّلائِلِ ورُسُلِ اللهِ، وسُخريتِهم منهم(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ لَمَّا كانت أعمالُ الكافرينَ مُختَلِفةً؛ فمنهم من يعبُدُ الملائِكةَ، ومنهم مَن يَعبُدُ النُّجومَ، ومنهم من يَعبُدُ بعضَ الأنبياءِ، ومنهم مَن يعبُدُ الأوثانَ، ومنهم من يكفُرُ بغير ذلك- جمع المميِّزَ فقال: ﴿أَعْمَٰلًا﴾(٢)؛ لأنَّ أعْمالَهم في الضَّلالِ مُختلِفةٌ، ولَيْسوا مُشترِكين في عمَلٍ واحِدٍ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مِن النَّاسِ مَن يعمَلُ العَمَلَ وهو يَظُنُّ أنَّه مُحسِنٌ، وقد حَبِطَ سَعيُه، والذي يُوجِبُ إحباطَ السَّعيِ إمَّا فَسادُ الاعتقادِ أو المُراءاة(٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ...﴾ هذا مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على خطأِ قَولِ مَن زعَمَ أنَّه لا يَكفُرُ باللهِ أحَدٌ إلَّا مِن حيثُ يَقصِدُ إلى الكُفرِ بعد العِلمِ بوحدانيَّتِه؛ وذلك أنَّ الله -تعالى ذِكْرُه- أخبر عن هؤلاء الذين

﴾). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٥).

وَصَف صِفَتَهم في هذه الآيةِ: أنَّ سَعْيَهم الذي سَعَوا في الدنيا ذهب ضلالًا، وقد كانوا يَحسَبونَ أنَّهم مُحسِنونَ في صُنعِهم ذلك، وأخبَرَ عنهم أنَّهم هم الذين كفَروا بآياتِ رَبِّهم، ولو كان القَولُ كما قال الذين زعموا أنَّه لا يَكفُرُ بالله أحَدٌ إلَّا مِن حيث يعلَمُ، لوجب أن يكونَ هؤلاء القَومُ في عمَلِهم الذي أخبر اللهُ عنهم أنَّهم كانوا يَحسَبون فيه أنَّهم يُحسِنون صُنعَه، كانوا مُثابين مأجورين عليها، ولكِنَّ القَولَ بخلافِ ما قالوا، فأخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنَّهم بالله كَفَرةٌ، وأنَّ أعمالهم حابِطةٌ[(١)].

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ يُوزَنُ مع عمَلِه[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٥/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٨).

قال حافظ حكمي: (والذي استُظهِرَ من النصوصِ -والله أعلم- أنَّ العاملَ وعمَلَه وصَحيفةَ عَمَلِه: كُلُّ ذلك يُوزَنُ؛ لأنَّ الأحاديثَ التي في بيانِ القُرآنِ قد وردت بكُلٍّ من ذلك، ولا منافاةَ بينها). ((معارج القبول)) (٢/ ٨٤٨-٨٤٩). ويُنظر أيضًا: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٦١٠- ٦١٣).

ومِن أهلِ السنة مَن ذهَب إلى أنَّ الذي يُوزنُ هو العملُ؛ لأنَّ أكثرَ النصوصِ تدلُّ على ذلك، وأجاب عن هذه الآيةِ بأنَّه لا دلالةَ فيها على وزنِ العاملِ، وأنَّ المرادَ: أنَّهم لا قيمةَ لهم ولا اعتبارَ، أو: أنَّ بعضَ الناسِ يُخصُّ فيُوزنُ هو نفسُه، أو صحيفةُ عملِه، والله أعلم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٧٣)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٣).

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ اعتراضٌ باستئنافٍ ابتدائيٍّ أَثاره مَضمونُ جُملةِ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾، وافْتِتاحُ الجُمْلةِ بالأمرِ بالقَوْلِ ﴿قُلْ﴾؛ للاهْتِمامِ بالمقولِ بإصغاءِ السَّامِعين؛ لأنَّ مِثلَ هذا الافْتِتاحِ يُشعِرُ بأنَّه في غرَضٍ مهمٍّ، وكذلك افْتِتاحُه باستِفْهامِهم عن إنبائِهم استفهامًا مُستعمَلًا في العَرْضِ؛ لأنَّه بمَعْنى: أتُحِبُّون أن نُنبِّئَكم بالأخسَرين أعمالًا؟ وهو عرضُ تَهكُّمٍ؛ لأنَّه مُنبِّئُهم بذلك دونَ توقُّفٍ على رِضاهم[1]، هذا على أن المقولَ لهم: هم المشرِكون، قاله لهم؛ تَوبيخًا لهم، وتَنْبيهًا على ما غَفَلوا عنه مِن خَيبةِ سَعيِهم[2].

- وفي قولِه: ﴿نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الْتِفاتٌ؛ حيث عدَل فيه عن طريقةِ الخِطابِ بأن يُقالَ لهم: هل نُنبِّئُكم بأنَّكم الأخْسَرون أعمالًا؟ إلى طريقةِ الغَيْبةِ؛ بحيث يَستشرِفون إلى مَعرِفةِ هؤلاء الأخْسَرينَ فما يَروعُهم إلَّا أن يَعلَموا أنَّ المخبَرَ عَنهم هم أنفُسُهم[3]، هذا على أنَّ المقولَ لهم هم المشركون. ونونُ المتكلِّمِ المشارِكِ في قولِه: ﴿نُنَبِّئُكُم﴾ يَجوزُ أن تكونَ نونَ العظَمةِ راجِعةً إلى ذاتِ اللهِ، على طَريقةِ الالْتِفاتِ في الحِكايةِ. ومُقْتضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: هل يُنبِّئُكم اللهُ، أي: سيُنبِّئُكم. ويَجوزُ أن تكونَ للمُتكلِّمِ المشارِكِ، راجِعةً إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وإلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُنبِّئُهم بما يُوحَى إليه مِن ربِّه. ويجوزُ أن تكونَ راجِعةً للرَّسولِ وللمسلمينَ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٥-٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٦).

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾

- في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾: إطنابٌ؛ لزيادةِ التَّشويقِ إلى مَعرفةِ هؤلاءِ الأخْسَرين؛ حيث أجْرى عليهِم مِن الأوصافِ ما يَزيدُ السَّامِعَ حِرْصًا على مَعرِفةِ الموصوفينَ بتلك الأوصافِ والأحوالِ[1].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه تشبيه سَعْيِهم غيرِ المثمِرِ بالسَّيرِ في طريقٍ غيرِ مُوصِّلةٍ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مِن جَنابِه تعالى، مَسوقٌ لِتكميلِ تَعريفِ الأخسَرين، وتَبْيينِ سببِ خُسْرانِهم وضَلالِ سَعْيِهم وتَعْيينِهم؛ بحيث يَنطبِقُ التَّعريفُ على المخاطَبين، غيرَ داخِلٍ تحتَ الأمرِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه: التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لزيادةِ تَقْبيحِ حالِهم في الكُفْرِ المذكورِ[4].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ جيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ؛ لِئلَّا يَلتبِسوا بغَيرِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم أحْرِياءُ بما بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِن حُكْمٍ؛ بِسبَبِ ما أُجْرِيَ عليهم مِن الأوصافِ[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٧).

- وقولُه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (أولَئِك الَّذين كفَروا بآياتِنا)[1].

- قولُه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ نَفيُ إقامةِ الوَزْنِ مُستعمَلٌ في عدَمِ الاعْتِدادِ بالشَّيءِ، وفي حَقارتِه؛ لأنَّ النَّاسَ يَزِنونَ الأشياءَ المتنافَسَ في مَقاديرِها، والشَّيءَ التَّافِهَ لا يُوزَنُ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-. وجعَلَ عدَمَ إقامةِ الوزنِ مُفرَّعًا على حَبْطِ أعمالِهم؛ لأنَّهم بحَبْطِ أعمالِهم صاروا مُحقَّرين لا شيءَ لهم مِن الصَّالحاتِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ بَيانٌ لِمَآلِ كُفرِهم، وسائرِ مَعاصيهم، إثْرَ بيانِ مآلِ أعْمالِهم المحبَطةِ[3].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ...﴾ قولُه: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بدَلٌ مِن ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ لأنَّ إعدادَ جهَنَّمَ هو عَينُ جهنَّم، وإعادةُ لفظِ (جَهَنَّمَ) أكْسَبه قوَّةَ التَّأكيدِ، والباءُ للسَّببيَّةِ، و(ما) مَصْدريَّةٌ، أي: بسبَبِ كُفرِهم[4].

- قولُه: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ تَصريحٌ بأنَّ ما ذُكِر: جَزاءٌ لكُفرِهم المتضمِّنِ لِسائرِ القبائحِ الَّتي أنبَأَ عنها قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا الوجهُ على القولِ بأنَّ النُّونَ في قولِه: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ نونُ العظَمةِ. وأما على القولِ بأنَّها للمُتكلِّمِ المشارِكِ راجعةٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، وإلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُنبِّئُهم بما يُوحَى إليه مِن ربِّه، أو على أنَّها راجعةٌ للرَّسولِ وللمُسلِمين؛ فيَكونَ على مُقْتَضى الظَّاهِرِ، وليس فيه هذا الوجهُ البَلاغيُّ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٨-٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (الرُّسُلُ) يَجوزُ أن يُرادَ به حَقيقةُ الجَمْعِ؛ فيَكونَ إخْبارًا عن حالِ كُفَّارِ قُريشٍ ومَن سبَقَهم مِن الأُمَمِ المكذِّبين، ويَجوزُ أن يُرادَ به الرَّسولُ الَّذي أُرسِلَ إلى النَّاسِ كُلِّهم، وأطلَق عليه اسْمَ الجَمْعِ تَعظيمًا؛ كما في قولِه: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾[1] [إبراهيم: ٤٤].

- والهُزُؤُ -بضَمَّتَينِ- مَصْدرٌ بمَعْنى المفعولِ، وهو أشَدُّ مُبالَغةً مِن الوَصفِ باسْمِ المفعولِ، أي: كانوا كَثيري الهزُؤِ بهم[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٤٨).

الآيات (١٠٧-١١٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾: أي: أعلَى الجنَّةِ، وأوسطِها، أو: مُعْظم الجنَّةِ. وقيل: هو البستانُ المخصوصُ بالحسنِ وذلك بلسانِ الرُّومِ. وأصلُ الفردوسِ: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصنافِ الثَّمرِ[(١)].

﴿حِوَلٗا﴾: أي: تَحَوُّلًا، وأصلُ (حول): يَدلُّ على تَغيُّرِ الشَّيءِ، وانفصالِه عن غَيرِه[(٢)].

﴿لَنَفِدَ﴾: أي: فَنِيَ، والنَّفادُ: الفَناءُ، وأصلُ (نفد): يدُلُّ على انْقِطاعِ شيءٍ وفَنائِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

﴿مَدَدًا﴾: أي: زيادةً، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا الوعدَ الحسنَ للمؤمنينَ: إنَّ الذين آمَنوا، وعَمِلوا الصَّالحاتِ؛ لهم جنَّاتُ الفِردَوسِ مَنزِلًا، خالدينَ فيها أبدًا، لا يُريدونَ عنها تحوُّلًا. قُلْ -يا محمَّدُ-: لو كان ماءُ البَحرِ حِبرًا للأقلامِ التي يُكتَبُ بها كَلامُ اللهِ، لنَفِدَ ماءُ البَحرِ قبلَ أن تنفدَ كَلِماتُ اللهِ، ولو جِئْنا بمِثلِ البَحرِ بِحارًا أُخرى مَدَدًا له. قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: إنَّما أنا بشَرٌ مِثلُكم يُوحَى إليَّ مِن ربِّي أنَّ مَعبودَكم إلهٌ واحِدٌ، فمَن كان يرجو رؤيةَ اللهِ في الآخرةِ وثوابَه، ويخشى عِقابَه؛ فلْيعمَلْ عَملًا صالِحًا لرَبِّه مُوافِقًا لشَرعِه، ولا يُشرِكْ في العبادةِ معه أحدًا غيرَه، ولا يراءِ في عبادتِه أحدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما فرغَ مِن ذِكرِ الكفرةِ والأخسرينَ أعمالًا الضالِّينَ- عقَّب بذِكرِ حالةِ المؤمنينَ؛ ليظهرَ التباينُ[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوعيدَ؛ أتبَعَه بالوعدِ، ولَمَّا ذكر في الكُفَّارِ أنَّ جهنَّمَ نُزُلُهم؛ أتبَعَه بذِكرِ ما يُرغِّبُ في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فقال[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾.

أي: إنَّ الذينَ آمنوا باللهِ وبما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ الخالِصةَ لله، الموافِقةَ لشريعتِه؛ كانت لهم بساتينُ الفِردوسِ منازِلَ يَسكُنونَها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٣).

ممن اختار أنَّ النزلَ بمعنى المنزلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٠).

وممن اختار أنَّ النزلَ بمعنى ما يُهيَّأُ للضيفِ: الرسعني، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥٤).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ هل المرادُ بالكينونةِ هنا الكينونةُ الماضيةُ، أو المرادُ تَحقيقُ كَونِها نُزُلًا لهم، كقَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟ نقول: الأمرانِ واقعانِ، فكانت في عِلمِ اللهِ نُزُلًا لهم، وكانت نزلًا لهم على وجهِ التحقيقِ؛ لأنَّ «كان» قد يُسلَبُ منها معنى الزمانِ، ويكونُ المرادُ بها التحقيقَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٨).

وقال ابنُ القيم: (الفِردوسُ: اسمٌ يقالُ على جميعِ الجنَّةِ، ويُقال: على أفضَلِها وأعلاها، كأنَّه أحقُّ بهذا الاسمِ مِن غيرِه مِن الجنَّات، وأصلُ الفِردوسِ: البُستانُ... وقال الضحَّاكُ: هي الجنَّةُ الملتفَّةُ بالأشجارِ، وهو اختيارُ المبَرِّد. وقال: الفردوسُ فيما سَمِعتُ مِن كلامِ العَرَبِ: الشَّجرُ الملتَفُّ، والأغلَبُ عليه العِنَبُ، وجمعُه الفراديسُ... قال الزجَّاج: وحقيقتُه أنَّه البستانُ الذي يجمَعُ كُلَّ ما يكونُ في البساتينِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٩، ١٠٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣١٥).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أن المرادَ بجنَّاتِ الفردوسِ: أعلى الجنَّة، وأوسَطُها، وأفضَلُها، وأنَّ هذا الثوابَ لِمن كَمَّلَ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ، وهم الأنبياءُ والمقَرَّبون. ويحتَمِلُ أن يُرادَ بها جميعُ منازِلِ الجِنانِ، فيشمَلُ هذا الثَّوابُ جميعَ طَبقاتِ أهلِ الإيمانِ مِن المقَرَّبين والأبرارِ والمقتَصِدين، كلٌّ بحَسَبِ حالِه، وهذا أولى المعنيَينِ؛ لعُمومِه، ولذِكرِ الجنَّةِ بلَفظِ الجَمعِ

عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ في الجنَّةِ مائةَ دَرَجةٍ، أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ، ما بين الدَّرَجتَينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ فاسْألوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾.

أي: لابثينَ في جنَّاتِ الفِردَوسِ أبدًا، لا يَطلُبونَ عنها تَحوُّلًا إلى غيرِها، ولا يَختارونَ سِواها[2].

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر الله تعالى في هذه السورةِ أنواعَ الدلائلِ والبيناتِ، وشرَح أقاصيصَ الأولينَ؛ نبَّه على كمالِ حالِ القرآنِ[3].

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

المضافِ إلى الفِردَوس، ولأنَّ الفِردَوسَ يطلَقُ على البستانِ المحتوي على الكَرْمِ، أو الأشجارِ الملتَفَّةِ، وهذا صادِقٌ على جميعِ الجنَّةِ؛ فجنَّةُ الفردوسِ نُزُلٌ وضيافةٌ لأهلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٠).

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٥).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (قالت قُرَيشٌ لليهودِ: أعطُونا شَيئًا نسألُ عنه هذا الرَّجلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنَزَلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أُوتينا عِلمًا كثيرًا؛ أُوتينا التَّوراةَ، ومَن أُوتيَ التَّوراةَ فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا! قال: فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾)[1].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: لو كان البَحرُ مِدادًا للأقلامِ التي تُكتَبُ بها كَلِماتُ رَبِّي[2]، لفَرَغ ماءُ البحرِ قبل أن يُفرَغَ مِن كِتابةِ كَلِماتِ رَبِّي؛ لعدَمِ تناهي مَعلوماتِه

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٠)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣١٤)، وأحمد (٢٣٠٩) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه)، وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٩٩)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٧٩)، وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٤)، وصحَّح إسنادَه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (١/ ٢١٢)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٢٥٣): (رجالُه رجالُ مسلمٍ)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٨٦)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٠).

(٢) قال الرسعني: (المِداد: ما تُمَدُّ به الدواةُ مِن الحِبرِ، وأصلُه: الزيادةُ، ومجيءُ الشيءِ بعدَ الشيءِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٨٠).

وقال ابنُ عثيمين: (والمرادُ بالكلماتِ هنا: الكلماتُ الكونيةُ والشرعيةُ). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (١/ ٢٥٣).

وقال أيضًا: (أمَّا الشَّرعيَّةُ فهو ما أوحاه إلى رسُلِه، وأمَّا الكونيَّةُ فهي ما قضى به قَدَرُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٥٠).

سُبحانَه وبِحَمدِه[١].

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

أي: ولو زِدْنا البحرَ بمِثلِ ما فيه من الماءِ مَرَّةً بعدَ أُخرى، لنَفِدَ ماءُ البحرِ وما زِيدَ فيه مِن بحارٍ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ كَمالَ كَلامِ اللهِ، أمَرَ مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَسلُكَ طريقةَ التواضُعِ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لا امتيازَ بيني وبينكم في شَيءٍ مِن الصِّفاتِ إلَّا أنَّ اللهَ تعالى أوحى إليَّ أنَّه: لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحدُ الأحدُ الصَّمدُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٤).

وقال الرسعني: (وإنَّما لم تنفَدْ كَلِماتُ الله؛ لأنَّ كلامَه صِفةٌ مِن صفاتِه، فلا يتطرَّقُ إليها نفادٌ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٣).

وأيضًا لَمَّا كان الكافرون ربَّما قالوا: ما لك لا تحَدِّثُنا من هذه الكلماتِ بكُلِّ ما نسألُك عنه حيثما سألناك؟! وكانوا قد استنكروا كونَ النبيِّ بشَرًا، وجوَّزوا كونَ الإلهِ حَجَرًا! وغيَّوا إيمانَهم به بأمورٍ سألوه في الإتيانِ بها، وكان قد ثبَت بإجابتِهم عن المسائِلِ على هذا الوجهِ أنَّه رسولٌ- أمَرَه سبحانَه أن يجيبَهم عن ذلك كُلِّه بما يَرُدُّ عليهم غلَطَهم، ويفضَحُ شُبَهَهم؛ إرشادًا لهم إلى أهَمِّ ما يَعنيهم مِنَ الحَرْفِ الذي النِّزاعُ كُلُّه دائرٌ عليه، وهو التَّوحيدُ[١].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ بِرِسالتِك[٢]: إنَّما أنا بشَرٌ مِثلُكم مِن بني آدَمَ، لا عِلمَ لي بالغَيبِ إلَّا ما عَلَّمَني ربِّي، وقد أوحى إليَّ بأنْ أُبلِّغَكم أنَّ مَعبودَكم الذي يستَحِقُّ العبادةَ واحدٌ لا شريكَ له[٣].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

أي: فمَن كان يرجو رُؤيةَ اللهِ في الآخرةِ، وثوابَه، ويخشَى عِقابَه؛ فلْيَعمَلْ في الدُّنيا عَمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٥٣).

(٢) ممَّن جعل الخِطابَ للمُشرِكينَ: ابن جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥).

وقال السعدي: (أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ للكُفَّارِ وغَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٦٢) و (٢٨/ ١٧٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

أي: لا يعبُدْ معَ اللهِ غيرَه[١] ولا يُراءِ في عبادةِ اللهِ أحدًا مِن الخَلقِ، بل يَجعَل عبادتَه خالِصةً لله وَحدَه لا شَريكَ له[٢].

قال الشنقيطي: (قولُه في هذه الآيةِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يشملُ كونَه يأمُلُ ثوابَه، ورؤيةَ وجهِه الكريمِ يومَ القيامةِ، وكونَه يخشَى عِقابَه، أي: فمَنْ كان راجيًا مِنْ رَبِّه يومَ يلقاهُ الثَّوابَ الجزيلَ والسَّلامةَ مِنَ الشَّرِّ ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٦).

(١) قال ابن جُزي: (﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ الشِّركَ بالله، وهو عبادةُ غَيرِه، فيكونَ راجعًا إلى قولِه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، أو يريدَ الرِّياءَ؛ لأنَّه الشِّركُ الأصغَرُ، واللَّفظُ يحتَمِلُ الوَجهينِ، ولا يَبعُدُ أن يُحمَلَ على العُمومِ في المعنيَينِ. والله أعلم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٦).

وقال الشوكاني: (قال الماوَرْديُّ: قال جميعُ أهلِ التأويلِ في تفسيرِ هذه الآية: إنَّ المعنى: لا يُرائي بعَمَلِه أحدًا. وأقولُ: إنَّ دخولَ الشِّرك الجليِّ الذي كان يفعَلُه المُشرِكونَ تحت هذه الآيةِ هو المقَدَّمُ على دخولِ الشِّركِ الخفيِّ الذي هو الرِّياءُ، ولا مانِعَ مِن دُخولِ هذا الخفيِّ تحتها، إنَّما المانِعُ مِن كونِه هو المرادَ بهذه الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٥٥).

وقال الشنقيطي: (وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ: أي: لا يُراءِ النَّاسَ في عمَلِه؛ لأنَّ العمَلَ بعبادةِ الله لأجلِ رياءِ النَّاسِ مِن نَوعِ الشِّركِ، كما هو معروفٌ عند العُلَماءِ أنَّ الرياءَ مِن أنواعِ الشِّركِ... والتحقيقُ أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أعَمُّ مِن الرياءِ وغَيرِه، أي: لا يعبُدْ رَبَّه رياءً وسُمعةً، ولا يَصرِفْ شَيئًا مِن حقوقِ خالِقِه لأحدٍ مِن خَلقِه؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، [النساء: ١١٦] في الموضِعَينِ، ويقولُ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

وممَّن اختار أنَّ المراد بالشِّركِ هنا الرِّياءُ: ابن جرير، والواحدي، والزمخشري، وابن تيمية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٤)،

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري، تَرَكتُه وشِرْكَه))(١).

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضى يومَ القيامةِ عليه رجُلٌ استُشهِد، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فيك حتى استُشهِدتُ، قال: كَذَبتَ، ولكِنَّك قاتَلْتَ؛ لِأن يُقالَ: جريءٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقيَ في النَّارِ! ورجلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمَه، وقرأ القُرآنَ، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعَلَّمتُه، وقرأتُ فيك القُرآنَ، قال: كَذبْتَ، ولكنَّك تعَلَّمتَ العِلمَ؛ لِيُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القُرآنَ؛ لِيُقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِب على وجهِه، حتى أُلقيَ في النَّارِ! ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كُلِّه، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِن سَبيلٍ تحِبُّ أن يُنفَقَ فيها إلَّا أنفَقتُ فيها لك، قال: كذبْتَ، ولكِنَّك فعَلْتَ؛ ليقالُ: هو جَوادٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على

((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩). ويُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢).

وعزا الماوردي هذا القولَ إلى جميعِ أهلِ التأويلِ -كما في ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٠)-، وعزاه النيسابوري في ((تفسيره)) (٤/ ٤٦٤) إلى المفسِّرينَ.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سفيانُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١١٥).

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

وجهه، ثم أُلقيَ في النَّارِ!))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] أي: لا يُراءِ بعَمَلِه، بل يعمَلُه خالِصًا لوجهِ اللهِ تعالى؛ فالذي يجمَعُ بين الإخلاصِ والمُتابعةِ، هو الذي ينالُ ما يرجو ويَطلُبُ، وأمَّا مَن عدا ذلك، فإنَّه خاسِرٌ في دُنياه وأُخراه، وقد فاته القُربُ مِن مَولاه، ونَيلُ رِضاه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أنَّه لا بدَّ مِن مُلاقاةِ الله عزَّ وجلَّ، والنصوصُ في هذا كثيرةٌ، كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فيُؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَستَعِدَّ لمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعرِفَ كيف يُلاقي اللهَ؛ هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضيَّةٍ عندَ الله عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففتِّشْ نفسَك واعرِفْ ما أنت عليه[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ مَن عَلِمَ أنَّ إلهَهُ ومَعبودَه فردٌ؛ فليُفرِدْه بالعُبوديَّةِ[٤].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ في تأمُّلِ قَولِه تعالى: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ يتبيَّنُ أنَّه جلَّ وعلا حَقيقٌ بألَّا يُشرَكَ

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٩).

به؛ لأنَّه الربُّ الخالِقُ المالكُ المُدَبِّرُ لجميعِ المخلوقاتِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ دفعًا لِما قد يُتوَهَّمُ مِن أنَّ الأمرَ كما في الدُّنيا مِن أنَّ كُلَّ أحدٍ في أيِّ نعيمٍ كان: يشتهي ما هو أعلى منه؛ لأنَّ طولَ الإقامةِ قد يُورِثُ السَّآمةَ، بل هم في غايةِ الرِّضا بها؛ لِما فيها من أنواعِ الملاذِّ التي لا حَصرَ لها ولا انقِضاءَ، لا يشتهي أحدٌ منهم غيرَ ما عنده سواءٌ كان في الفردوسِ أو فيما دونَه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ فرَّقَ سُبحانَه بين المِدَادِ الذي يُكتَبُ به كلماتُه وبين كلماتِه؛ فالبحرُ وغيرُه مِن المِدَادِ الذي يُكْتَبُ به الكلماتُ مخلوقٌ؛ وكلماتُ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ[(٣)].

٣- كونُ الرَّبِّ لم يَزَلْ مُتكلِّمًا إذا شاء -كما هو قولُ أهلِ الحديثِ- مبنيٌّ على مُقَدِّمتَينِ: على أنَّه تقومُ به الأمورُ الاختياريَّةُ، وأنَّ كلامَه لا نهايةَ له؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٤)] [لقمان: ٢٧].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الكهف)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٩).

﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ هذا مِن بابِ تقريبِ المعنى إلى الأذهانِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ مخلوقةٌ، وجميعُ المخلوقاتِ مُنقَضيةٌ مُنتَهيةٌ، وأمَّا كلامُ اللهِ فإنَّه من جملةِ صفاتِه، وصفاتُه غيرُ مخلوقةٍ، ولا لها حَدٌّ ولا مُنتهى، فأيُّ سَعةٍ وعَظَمةٍ تصوَّرَتْها القُلوبُ، فالله فوقَ ذلك، وهكذا سائِرُ صِفاتِ الله تعالى؛ كعِلْمِه، وحِكْمتِه، وقُدرتِه، ورَحمتِه[1].

٥- قَوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فيه دَليلٌ على رؤيةِ اللهِ، وقد أجمع أهلُ اللِّسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِبَ إلى الحيِّ السَّليمِ مِن العَمَى والمانِعِ، اقتضَى المعاينةَ والرُّؤيةَ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا بدَّ في العملِ أنْ يكونَ مَشروعًا مأمورًا به -وهو العملُ الصَّالحُ- ولا بدَّ أنْ يُقصَدَ به وجهُ اللهِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾

هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ [الكهف: ١٠٢]، على عادةِ القرآنِ في ذِكْرِ البِشارةِ بعدَ الإنذارِ[4]، وهو بيانٌ -بطَريقِ الوعدِ- لِمآلِ الَّذين اتَّصَفوا بأضدادِ ما اتَّصَف به الكفَرةُ إثْرَ بَيانِ مآلِهم بطريقِ الوعيدِ، أي: آمَنوا بآياتِ ربِّهم ولِقائِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ للاهتمامِ بها؛ لأنَّها جاءَت في مُقابلةِ جملةِ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ [الكهف: ١٠٢]، وهي مُؤكَّدةٌ؛ كي لا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ جزاءَ المؤمِنين غيرُ مُهتمٍّ بتأكيدِه مع ما في التَّأكيدَيْنِ مِن تَقْويَةِ الإنذارِ وتقْويةِ البِشارةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جَعْلُ المسنَدِ إليه الموصولَ بصِلَةِ الإيمانِ وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ للاهْتِمامِ بشأنِ أعمالِهم؛ فلِذلك خُولِف نَظْمُ الجملةِ الَّتي تُقابِلُها، فلم يَقُلْ: (جَزاؤُهم الجَنَّةُ)[٢].

- قولُه: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ في الإتيانِ بقولِه: ﴿كَانَتۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ استِحْقاقَهم الجَنَّاتِ أمرٌ مُستقِرٌّ مِن قَبلُ مهيَّأٌ لهم. وجيءَ بلامِ الاستِحْقاقِ؛ تكريمًا لهم بأنَّهم نالوا الجَنَّةَ باستِحْقاقِ إيمانِهم وعمَلِهم[٣].

- قولُه: ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ جمعَ الجنَّاتِ؛ إيماءً إلى سَعَةِ نَعيمِهم، وأنَّها جِنانٌ كثيرةٌ. وإضافةُ الجَنَّاتِ إلى الفِرْدَوسِ بَيانيَّةٌ، أي: جَنَّاتٌ هي مِن صِنْفِ الفِرْدَوسِ، وهو البستانُ الجامعُ لكلِّ ما يكونُ في البساتينِ، أو تكونُ إِضَافَةُ (جَنَّات) إلى (الفردوسِ) إضافةً حقيقيَّةً، أي: جنَّاتُ هذا المكانِ، على اعتبار أن الفردوسَ هو أعلَى الجنَّةِ أو وسطُها[٤].

- قولُه: ﴿نُزُلًا﴾ المعنى: كانَت لهم ثِمارُ جَنَّاتِ الفِرْدَوسِ نُزلًا، أو جُعِلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٤٩-٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٠).

نفْسُ الجَنَّاتِ نُزلًا؛ مُبالَغةً في الإكرامِ، وفيه إيذانٌ بأنَّها عِندما أعَدَّ اللهُ لهم على ما جَرى على لِسانِ النُّبوَّةِ مِن قولِه: (أعدَدتُ لعِبادي الصَّالِحين ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَر)[١]، بمَنْزِلة النُّزلِ بالنِّسبةِ إلى الضِّيافةِ[٢]، وذلك على أحدِ القولينِ في معنَى النزلِ.

٢- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾

- قولُه: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾، أي: لا مَزيدَ عليها حتَّى تُنازِعَهم أنفُسُهم إلى ما هو أجْمَعُ لأغراضِهم وأمانيِّهم. وهذه غايةُ الوصفِ؛ لأنَّ الإنسانَ في الدُّنيا في أيِّ نعيمٍ كان فهو طامِحُ الطَّرْفِ إلى أرفَعَ مِنه. ويَجوزُ أن يُرادَ نَفْيُ التَّحوُّلِ وتأكيدُ الخُلودِ[٣]. وهو تعريضٌ بالكَفَرةِ في أنَّهم يَصطَرِخون في النَّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، وذلك عكسُ ما كان في الدُّنيا من ركونِ الكُفَّارِ إليها، ومحبَّتِهم في طولِ البَقاءِ فيها، وعزوفِ المؤمنين عنها، وشَوقِهم إلى ربِّهم بمفارقتِها[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ، وهو انْتِقالٌ إلى التَّنويهِ بعِلْمِ اللهِ تعالى مُفِيضِ العِلمِ على رَسولِه صلَّى اللهُ علَيه وآلِه وسلَّم؛ لأنَّ المشرِكين لَمَّا سألوه عن أشياءَ يَظُنُّونَها مُفحِمةً للرَّسولِ وأنْ لا قِبَلَ له بعِلْمِها علَّمه اللهُ إيَّاها، وأخبَر عنها أصْدَقَ خبَرٍ، وبيَّنها بأقْصَى ما تَقبَلُه أفهامُهم، وبما يَقصُرُ عنه عِلمُ الَّذين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٥٠).

أغْرَوُا المشْرِكين بالسُّؤالِ عنها، وكان آخِرُها خبَرَ ذي القرنَيْنِ؛ أتبَع ذلك بما يُعلَمُ منه سَعةُ عِلْمِ اللهِ تعالى، وسَعةُ ما يَجْري على وَفْقِ عِلمِه مِن الوحيِ إذا أرادَ إبلاغَ بعضِ ما في علمِه إلى أحدٍ مِن رسلِه. وفي هذا رَدُّ عَجُزِ السُّورةِ على صَدْرِها(١)؛ فإنَّه لَمَّا ابتُدِئتْ هذه السُّورةُ بالتنويهِ بشَأنِ القُرآنِ، حيث قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢] ثُمَّ أُفيض فيها من أفانينِ الإرشادِ والإنذارِ والوعدِ والوعيدِ، وذُكِرَ فيها مِن أحسنِ القَصصِ ما فيه عِبرةٌ ومَوعظةٌ، وما هو خَفيٌّ من أحوالِ الأممِ؛ حوَّلَ الكلامَ إلى الإيذانِ بأنَّ كلَّ ذلك قَليلٌ مِن عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالى، الذي يَنفَدُ البَحرُ قَبلَ أنْ تَنفَدَ كَلِماتُه سُبحانَه(٢).

- قولُه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّكَلِمَـٰتِ﴾ لامُ العِلَّةِ،

(١) رَدُّ العَجُز على الصَّدر -ويُعرَف أيضًا بالتصديرِ- وهو كلُّ كلامٍ منثورٍ أو منظومٍ يُلاقي آخرُه أوَّلَه بوجهٍ مِن الوجوه، أو: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّل الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّل: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلُ كَلمةٍ منه، كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثالث: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه، كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٠٩)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥١).

أي: لأجْلِ كَلِماتِ ربِّي، والكَلامُ يُؤْذِنُ بمُضافٍ محذوفٍ، تَقديرُه: لِكِتابةِ كَلِماتِ ربِّي؛ إذِ المِدادُ يُرادُ للكِتابةِ وليس البَحرُ ممَّا يُكتَبُ به، ولكنَّ الكلامَ بُنِي على المفروضِ بواسطةِ ﴿لَّوۡ﴾[1].

- قولُه: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ في إضافةِ الكَلِماتِ إلى اسْمِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الموضعَينِ مِن تفخيمِ المضافِ، وتشريفِ المضافِ إليه ما لا يخفَى[2].

- وإظهارُ البحرِ والكلماتِ في مَوضِعِ الإضْمارِ لِزيادةِ التَّقريرِ[3].

- وقال: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ ولم يَقُلْ: (مِدادًا)؛ إذْ ليس المقصودُ تشبيهَه بالحِبْرِ؛ لِحُصولِ ذلك بالتَّشبيهِ الَّذي قبْلَه، وإنَّما قصَد هنا أنَّ مِثلَه يُمِدُّه[4]. وانْتصَب مَددًا على التَّمييزِ المفسِّرِ؛ للإبهامِ الَّذي في لَفْظِ ﴿بِمِثۡلِهِۦ﴾[5].

- جوابُ (لو) في قولِه: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ محذوفٌ؛ لِدَلالةِ المَعْنى عليه، تَقديرُه: لَنَفِد[6].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ استئنافٌ ثانٍ، انْتقَل به مِن التَّنويهِ بسَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُعجِزُه أن يُوحِيَ إلى رَسولِه بعِلْمِ كلِّ ما يُسأَلُ عن الإخبارِ به(١).

- والحَصْرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ لِقَصرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وهو إضافيٌّ للقَلْبِ(٢)، أي: ما أنا إلَّا بشَرٌ لا أتجاوزُ البشَريَّةَ إلى العلمِ بالمغيباتِ(٣).

- قولُه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أَدْمَج في هذا أهَمَّ ما يُوحَى إليه وما بُعِث لأجْلِه، وهو تَوحيدُ اللهِ، والسَّعيُ لِما فيه السَّلامةُ عندَ لِقاءِ اللهِ تعالى. وهذا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: ٢]، إلى قولِه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾(٤) [الكهف: ٥].

- قولُه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فيه إدخالُ الماضي ﴿كَانَ﴾ على المستقبَلِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ -إذْ إنَّ الرَّجاءَ توقُّعُ وُصولِ الخيرِ في المستقبَلِ-؛ للدَّلالةِ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٤-٥٥).

(٢) قصرُ القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٤-٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٥).

اللَّائقَ بحالِ المؤمِنِ الاستِمْرارُ والاستدامةُ على رَجاءِ اللِّقاءِ[(١)].

- وتَفْريعُ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هو مِن جُملةِ الموحَى به إليه، أي: يُوحَى إلَيَّ بوَحْدانيَّةِ الإلهِ، وبإثباتِ البَعْثِ وبالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فجاء النَّظْمُ بطَريقةٍ بَديعةٍ في إفادةِ الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ إذْ جُعِل التَّوحيدُ أصلًا لها، وفُرِّع عليه الأصْلانِ الآخَران، وأُكِّد الإخبارُ بالوَحْدانيَّةِ بالنَّهيِ عن الإشراكِ بعِبادةِ اللهِ تعالى بقولِه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وحصَل مع ذلك رَدُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، وهو أسلوبٌ بديعٌ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فيه وَضْعُ المُظهَرِ ﴿رَبِّهِۦ﴾ موضعَ المُضمَرِ في الموضِعَينِ، معَ التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لِزيادةِ التَّقْريرِ، وللإشْعارِ بعِلِّيَّةِ العُنوانِ للأمْرِ والنَّهيِ، ووُجوبِ الامْتِثالِ فِعلًا وتركًا[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وفي سورةِ الأنبياءِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]؛ فلم يقَعْ في هذه الثَّانيةِ لفظُ ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ﴾، ووَرَد في الأُولى؛ ووجه ذلك: أنَّه لَمَّا تقَدَّم في أوَّلِ سورةِ الأنبياءِ إثباتُ كَونِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ مِن البشَرِ، فيما حَكاه تعالى مِن قولِ الكُفَّارِ بَعضِهم لبعضٍ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ثمَّ قال تعالى رادًّا لقولِهم، مُثبِتًا كونَ الرُّسلِ مِن البشَرِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥١).

﴾ [الأنبياء: ٧]، ثمَّ تَتابَع في السُّورةِ ذِكْرُ الرُّسلِ مِن البشَرِ في عِدَّةِ مَواضِعَ إفصاحًا وإشارةً، آخِرُها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والخِطابُ لِنَبيِّنا عليه السَّلامُ، قال تعالى بعدَ ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فلم يُحتَجْ هنا أن يُذكَرَ كونُه عليه السَّلامُ مِن البشَرِ؛ إذ قد تَوالَى ذِكرُ ذلك جُملةً وتَفصيلًا. أمَّا سورةُ الكهفِ فلم يتَقدَّمْ فيها مِثلُ هذا؛ فكان مَظِنَّةَ الإعلامِ بكَونِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِن البشَرِ إرغامًا لأعدائِه، ولِمَا في ذلك مِن تَلطُّفِه تعالى بالخَلقِ ورَحمتِه إيَّاهم؛ فكَونُ الرُّسلِ مِن البشَرِ مِن أعظَمِ إنعامِه سُبحانه على الخَلقِ، وخُصَّتْ آيةُ الكَهفِ بذِكْرِ بَشريَّتِه عليه السَّلامُ لِما بُيِّن؛ فورَد كلُّ ذلك على ما يُناسِبُ، ولم يَكُنْ عَكْسُ الوارِدِ لِيُناسِبَ[1].



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الخامسَ عشرَ

ويليه المجلدُ السادسَ عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ مريمَ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٤).



الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠